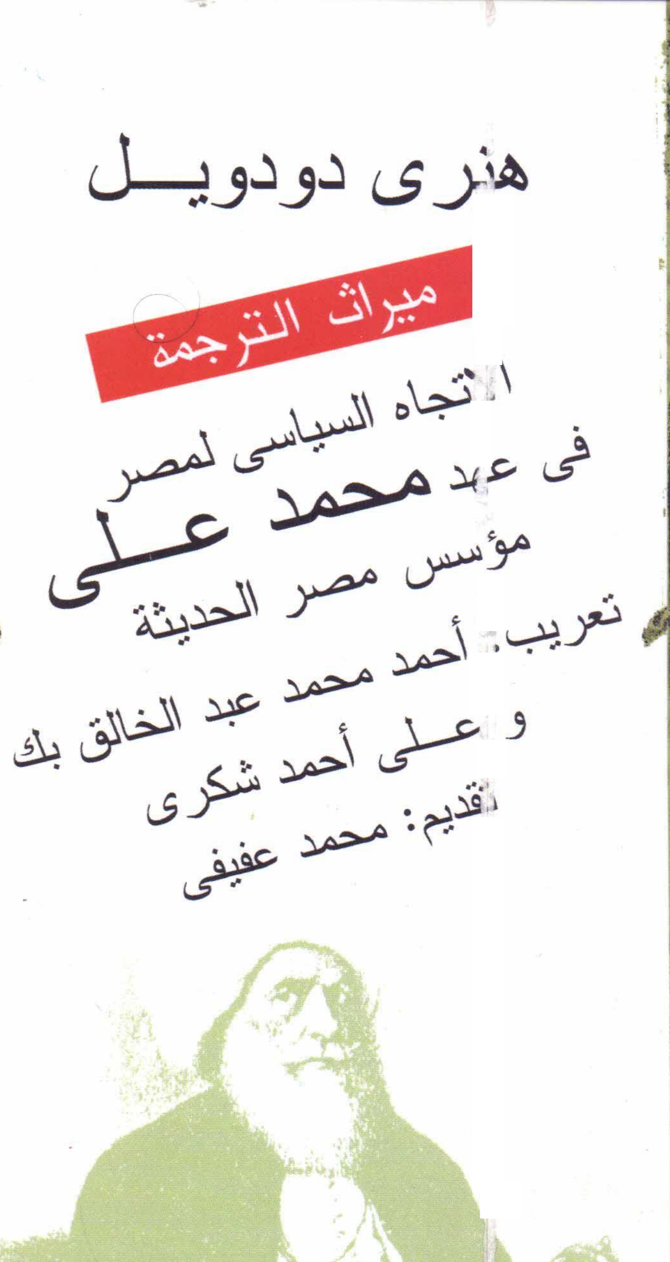
هنرى دودويل

ميراث الترجمة

الاتجاه السياسى لمصر فى عهد محمد على مؤسس مصر الحديثة

تعريب: أحمد محمد عبد الخالق بك
وعلى أحمد شكرى

تقديم: محمد عفيفى



1110

المركز القومى للترجمة

المشروع القومى للترجمة





هنرى دودويل

الاتجاه السياسى الصاعد لمصر فى عهد محمد على مؤسس مصر الحديثة

كانت ترجمة هذا الكتاب تهدف إلى تأكيد مكانة الملك الشاب الجديد " فاروق الأول" الذى دخل فى البدايات فى صدام مع الاحتلال البريطانى فى مصر، وحتى مع حزب الوفد، حزب الأغلبية، لتأكيد سلطة القصر الملكى فى مصر، وأيضًا لدعم مكانة مصر والملك فاروق فى العالم العربى والإسلامى، وأحلام فاروق لاسيما مع نشأة جامعة الدول العربية. ولهذا ستشهد مصر احتفالات كبرى منذ عام ١٩٤٨م بمناسبة المئوية الأولى لوفاة محمد على " مؤسس مصر الحديثة" وإبراهيم باشا " البطل الفاتح".

نحن إذن أمام كتاب مهم عن محمد على وتجربته فى تحديث مصر، كتاب لم يسقط - كما يظن البعض - فى شراك الدعاية التاريخية للأسرة العلوية، ولكنه احتفظ بأكبر قدر من المنهجية والنقد والتحليل بمعايير عصره، على الرغم من الدعم الذى تلقاه من الملك فؤاد. كما يحسب للترجمة أنها احتفظت بالنص الأصلى دون تدخل لحذف أى انتقاد يتعلق بمحمد على الجد الأعلى للملك الفاروق، وهذا يوضح مساحة الرأى والرأى الآخر الذى كانت تتمتع به مصر " الليبرالية" آنذاك.

التصميم الأساسى للغلاف : أسامة العبد
اللوحة والتنفيذ : عمرو الكفراوى

الاتجاه السياسي

لمصر في عهد محمد علي

المركز القومي للترجمة
المشروع القومى للترجمة
إشراف : جابر عصفور

سلسلة ميراث الترجمة
محرر السلسلة : طلعت الشايب
- العدد : ١١١٠
- الاتجاه السياسى لمصر فى عهد محمد على (مؤسس مصر الحديثة)
- هنرى دودويل
- أحمد محمد عبد الخالق بك
- على أحمد شكرى
- محمد عفيفى
- ٢٠٠٧

هذه ترجمة كتاب :

الاتجاه السياسى لمصر فى عهد محمد على مؤسس مصر الحديثة

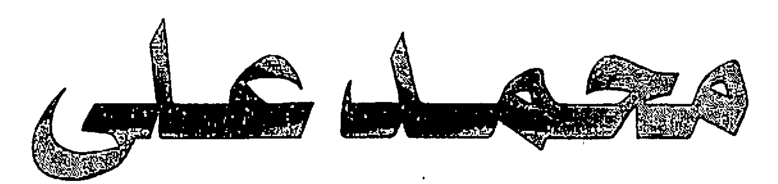
تأليف : هنرى دودويل

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة .
El-Gabalaya St., Opera House, El-Gezira, Cairo
e.mail:egyptcouncil@yahoo.com

المركز القومى للترجمة

المشروع القومى للترجمة

الاتجاه السياسى لمصر فى عهد



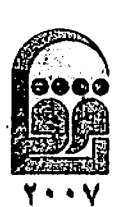
مؤسس مصر الحديثة

تأليف : هنرى دودويل

تعريب : أحمد محمد عبد الخالق بك

على أحمد شكرى

تقديم : محمد عفيفى



٢٠٠٧

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

دودويل ، هنرى
الاتجاه السياسى لمصر فى عهد محمد على مؤسس مصر الحديثة / تأليف : هنرى دودويل ؛ تعريب : أحمد محمد عبد الخالق ، على أحمد شكرى - المركز القومى للترجمة (المشروع القومى للترجمة) ، ٢٠٠٧
٣٢٤ ص ؛ ٢٤ سم
١ - مصر - تاريخ - العصر الحديث - عصر محمد على (١٨٠٥ - ١٨٤٩) ٩٦٢,٠٣١

رقم الإيداع ٢٠٠٧/٧٨٥٥
الترقيم الدولى I.S.B.N. 977 - 437 - 277 - 8
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تقــديم

سعدت للغاية لإعادة نشر ترجمة هذا الكتاب ضمن سلسلة ميراث الترجمة، وهناك العديد من الأسباب وراء ذلك؛ فمنذ ترجمة هذا الكتاب المهم فى أربعينيات القرن الماضى لم تتم إعادة نشره مرة أخرى، رغم حاجة البحث التاريخى له. فمن أول صفحة فى الكتاب تدرك أنك أمام نص فى غاية الثراء والأهمية، يحفز القارئ على التفاعل معه بالإيجاب أو النقد.

فإذا بدأنا بمقدمة المترجمين، يستلفت انتباه القارئ العبارة التالية:

"إذا قلنا مصر الحديثة فقد قلنا الأسرة العلوية المجيدة، وفى طرفها الأول محمد على الكبير، وفى طرفها الثانى جلالة الملك فاروق الأول حرسه الله".

هكذا تبدأ قصة تاريخ هذا الكتاب، وكتب أخرى مشابهة، كتبت فى هذه الفترة للبحث عن مشروعية تاريخية للأسرة العلوية "أسرة محمد على"؛ حيث رعى الملك فؤاد عملية كتابة تاريخ مصر، أو بالأحرى مصر الحديثة، أو محمد على كمؤسس لمصر الحديثة، وإن كان البعض يرى أن إضفاء لقب "مؤسس مصر الحديثة" على محمد على سابق على عصر الملك فؤاد؛ إذ استخدمه محمد على باشا نفسه، وترديد بعض الأوروبيين لهذه المقولة إلى أن ترسخت فى مصر فى الفترة من عام ١٩٠٢ إلى عام ١٩٠٥، وهى الفترة التى شهدت الاحتفال بالمئوية الأولى لتولى محمد على حكم مصر، إلا أن هذا اللقب ازداد رسوخًا والتصاقًا به على عهد الملك فؤاد؛ حيث صدرت العديد من الكتابات بلغات شتى، ومنها العربية، عن تاريخ محمد على وخلفائه، ساهمت فى إعطاء المشروعية التاريخية ليس فقط للأسرة العلوية، ولكن أيضًا لـ "المملكة المصرية" الوليدة التى تأسست فى عام ١٩٢٢ بعد سقوط الدولة العثمانية فى أعقاب الحرب العالمية الأولى.

ولكن هذه الكتابات فى الحقيقة لم تكن مجرد دعاية أو سند تاريخى للأسرة العلوية، ولكن أيضًا محاولات لتأكيد تاريخ "الاستقلال المصرى" لا سيما مع روح القومية المصرية التى ترعرعت بعد ثورة ١٩١٩، فكان البحث عن "مصر المستقلة" من خلال التاريخ الفرعونى، ومصر "الإسلامية" وتاريخ الدول المستقلة فيها، والتأكيد على حقبة عصر سلاطين المماليك "الفترة الزاهية"؛ حيث كانت مصر قاعدة لدولة مستقلة تمتد خارج حدودها، ثم القفز على مصر "المحتلة" "العثمانية" إلى "مصر الحديثة" المستقلة على يد محمد على؛ لذلك شارك فى هذه النوعية من الكتابات خيرة مؤرخى مصر أمثال: شفيق غربال وأحمد عزت عبد الكريم ومصطفى زيادة وعبد الرحمن الرافعى وغيرهم.

ويعترف المترجمان بهذا الاتجاه: "تحمد لأسرة محمد على ما قدمته من خدمات صادقات حولت مصر من ولاية تركية متواضعة الأهمية إلى مملكة مستقلة ذات سيادة يحسب حسابها ويُنزل على رأيها".

ويجرنا الرأى السابق إلى نقد الفكرة التقليدية فى الفصل التام بين القرن التاسع عشر وما قبله، أو بين محمد على، الذى هو فى الأصل والى عثمانى، والعصر العثمانى السابق عليه؛ إذ تميل معظم الدراسات الحديثة إلى فكرة "الاستمرارية" فى تاريخ مصر، ولعل أهم مَنْ تعرَّض لذلك أخيرًا الباحث الأمريكى "كينيث كونو" فى دراسته عن "فلاحو الباشا" الأرض والمجتمع والاقتصاد فى الوجه البحرى من ١٧٤٠ - ١٨٥٨، والتى قام المشروع القومى للترجمة مشكورًا بترجمتها، يقول:

"كتبت ضد فكرة الانقطاع هذه فى محاولة لإظهار أنه لا يوجد أخدود تاريخى كامل فى ١٧٩٨ ولا فى ١٨٠٥، وأكدت أنه كانت هناك استمرارات من نواحٍ عديدة بين ما قبل العصر الحديث أو العصر العثمانى من ناحية، والقرن التاسع عشر أو العصر الحديث من ناحية أخرى، ونتيجة عملى جزئيًا وليس عملى فقط، بدأت فكرة الانقطاع، وهى التى تقول إن مصر الحديثة بدأت مع نابليون أو محمد على تفقد شعبيتها بين المؤرخين المتخصصين".

ومع الاعتراف بوجاهة الرأى السابق، فإن ذلك يجب ألا يُعتبر تجاوزًا للدور العام لمحمد على فى حكم مصر؛ إذ كانت تجربة محمد على فى الإصلاح محط اهتمام ودراسة إستانبول نفسها، بل واسترعت تجربة محمد على فى التحديث والتعامل مع الغرب اهتمام اليابان وهى تخطو خطواتها الأولى فى الانفتاح على الغرب فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر.

وإذا كان تأليف الكتاب بالإنجليزية من ضمن أهدافه إضفاء مشروعية تاريخية للمملكة المصرية الوليدة أمام العالم الغربى، فإن ترجمة الكتاب إلى العربية هدفت إلى دعم مكانة مصر الإقليمية و "العربية" المتصاعدة فى الأربعينيات:

"ولما كانت مصر الفاروق قد أخذت تتبوأ مكانة ممتازة ليس بين الشعوب العربية الشقيقة فحسب، بل وبين الدول الأوروبية، نظرًا لموقعها الجغرافى ومركزها الثقافى... فقد رأينا واجبًا علينا أن نخرج للقراء هذا الكتاب النفيس عن الجد الأعلى للفاروق".

هكذا كانت ترجمة الكتاب تهدف إلى تأكيد مكانة الملك الشاب الجديد "فاروق الأول" الذى دخل فى البدايات فى صدام مع الاحتلال البريطانى فى مصر، وحتى مع حزب الوفد، حزب الأغلبية، لتأكيد سلطة القصر الملكى فى مصر. وأيضًا لدعم مكانة مصر والملك فاروق فى العالم العربى والإسلامى، وأحلام فاروق لا سيما مع نشأة جامعة الدول العربية. ولهذا ستشهد مصر احتفالات كبرى منذ عام ١٩٤٨ بمناسبة المئوية الأولى لوفاة محمد على "مؤسس مصر الحديثة" وإبراهيم باشا "البطل الفاتح".

وإذا تركنا المقدمة القصيرة، لكنها الثرية أيضًا، وتطرقنا إلى الكتاب والمؤلف فمن الوهلة الأولى لابد أن نشهد له بالكثير من الموضوعية والمنهجية، آخذين فى الاعتبار تاريخ صدور الكتاب فى عام ١٩٣١م.

إذ يرفض المؤلف بداية المنهج السائد فى عصره فى تناول "السيرة" برفع الشخصية التاريخية إلى مصاف "الأبطال" من خلال المنهج الفرنسى، أو الموقف المضاد من خلال المنهج الإنجليزى بوصم الشخصية التاريخية بـ "الأوغاد"، وعلى ذلك فهو يبحث عن الطريق الثالث والموضوعية التاريخية فى تناول السيرة.

ويحسب له التأكيد على أهمية الوثائق كمصدر أساسى لكتابة السيرة التاريخية، وعدم الركون إلى الانطباعات العامة و "الحكايات" و "الأساطير" عن الشخصية. ولذلك يؤكد منذ البداية حرصه على الاطلاع على أكبر قدر ممكن من الوثائق الأجنبية عن عصر "محمد على"، ويشير إلى الفرصة التى أتاحها له الملك فؤاد بالاطلاع على بعض الوثائق المصرية عن هذا العصر، لكن سيظل هذا الجانب أهم أوجه القصور فى معظم الدراسات الأجنبية حول محمد على التى لم تستفد من الوثائق المصرية، حتى تم تنظيم الأرشيف المصرى وظهور العديد من الدراسات الأجنبية الجديدة وعلى رأسها دراسات عفاف لطفى السيد، وكينث كونو، وغيرها.

والمؤلف هو ابن عصره فى نظرته إلى العصر العثمانى؛ فهو يكتب بعد سنوات قليلة من سقوط الدولة العثمانية، بل وسقوط الإمبراطوريات التقليدية الأخرى مثل الإمبراطورية الروسية وإمبراطورية النمسا والمجر، ومن هنا إعطاء مشروعية تاريخية للدول الوليدة على أنقاض هذا التاريخ البائد.

وعلى الرغم من الدعم الكامل الذى حظى به المؤلف من جانب الأسرة العلوية، فإنه فى الحقيقة يحتفظ كثيراً بموضوعيته فى تناول سيرة محمد على، لا سيما النقاط الشائكة والغامضة فى تاريخه وأهمها النشأة والتكوين، والمبالغات والأساطير فى هذا الشأن للرفع من قدر محمد على:

"هنا نرى أنفسنا تحت رحمة القصاصين ومروجى الحكايات الذين أولعوا بالمبالغة فيما يروونه من الروايات، وبما يضيفونه على الموضوع من الحواشى التى يتخيلونها تخيلاً لإظهار آثار العبقرية التى لمحوها حتى فى تلك السن المبكرة لمحمد على ومقارنة عظمته فيما بعد بما كان يظهر عليه فى البداية من سيما التواضع".

ويقدم المؤلف مقارنة مهمة ومثيرة بين الجماهير المصرية فى ثورتها فى عام ١٨٠٥، والجماهير الفرنسية فى أثناء الثورة الفرنسية عام ١٧٨٩، وأيضًا توصيف واقعى لرغبة محمد على فى القفز إلى الحكم:

"فى الواقع كان هناك تشابه كبير بين الثورتين، فإن الشعب فى كلتا الحالتين كان منهمكًا فى استبدال حاكم بآخر. وعلى الرغم من ذلك كان يوجد فارق جوهرى بين الحالتين، فالشعب الذى كان يتدفق وراء غوغاء باريس ورعاعها كان يهدف إلى إيجاد معاهدة جديدة، بينما لم يكن للرجل - محمد على - الواقف خلف فتنة القاهرة من غاية سوى تعزيز نفوذه الشخصى بالوصول إلى كرسى الحكم".

وفى إطار عقد المقارنات المهمة، يقارن المؤلف بين نظامى الحكم فى مصر أيام محمد على والهند تحت حكم الإنجليز؛ حيث يرى:

"كان النظام فى كلا البلدين نظامًا أوتوقراطيًا مستندًا إلى الحكم الفردى المطلق المحدود فقط بما يتحلى به الحاكم الفرد من المبادئ الأدبية".

وحتى عند تناوله لإبراهيم باشا، فهو يشيد به كقائد عسكرى، لكنه ينتقده كحاكم:

"وفى الحق لم يرزق إبراهيم ما كان لأبيه من هيبة حكم الناس وإسلاس قادهم".

ولكن رغم أوجه النقد الذى يوجهه دودويل لنظام حكم محمد على، فإن ذلك لا يمنعه من امتداح التجربة بشكل عام:

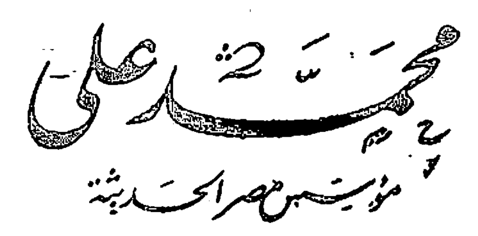
"وبالرغم من ذلك كله فإن من الواضح أنه هو الذى أنشأ مصر الحديثة، وجعلها على اتصال جديد نافع بالغرب".

هكذا نجد أمامنا كتابًا مهمًا عن محمد على وتجربته فى تحديث مصر، كتابًا لم يسقط -كما يظن البعض- فى شراك الدعاية التاريخية للأسرة العلوية، ولكنه احتفظ بأكبر قدر من المنهجية والنقد والتحليل بمعايير عصره، رغم الدعم الذى تلقاه من الملك فؤاد. كما يحسب للترجمة أنها احتفظت بالنص الأصلى دون تدخل لحذف أى انتقاد يتعلق بمحمد على الجد الأعلى للملك الفاروق، وهذا يوضح مساحة الرأى والرأى الآخر الذى كانت تتمتع به مصر "الليبرالية" آنذاك.

محمد عفيفى

الاتجاه السياسي لمصر في عهد





محمد علي
مؤسس مصر الحديثة

تأليف

هنري دودويل
أستاذ التاريخ بجامعة لندن

تعريب

أحمد محمد عبد الخالق بك و علي أحمد شكري
الخبير الاقتصادي لمصر في السودان — مدير المعهد الدولي للترجمة



كلمة الترجمة

إذا قلنا مصر الحديثة فقد قلنا الأسرة العلوية المجيدة وفى طرفها الأول محمد على الكبير ، وفى طرفها الثانى جلالة الملك فاروق الأول حرسه الله . وليس يسع المؤرخ إلا أن يعجب حقاً بما يبذله جلالة الجالس على عرش مصر من همة مقطوعة النظير لإتمام المهمة التى اضطلع بها أبوه العظيم ساكن الجنان الملك فؤاد الأول وهى كشف مايحيط بتاريخ مصر من غموض ولبس ليظهر جليا واضحا للعالم أجمع فيتسنى للأجيال المصرية المقبلة أن تشرب من هذا المعين الصافى ، وتحمد لأسرة محمد على ما قدمته من خدمات صادقات حولت مصر من ولاية تركية متواضعة الأهمية إلى مملكة مستقلة ذات سيادة يحسب حسابها ، وينزل على رأيها . ويضيق المقام إذا أراد الباحث أن يأتى على كل ماعمله الملك الراحل فى سبيل نشر تاريخ مصر وإليك بعض ما أمر جلالته بوضعه من الكتب الفذة :

١ ـ فلقد أوصى الكاتب الفرنسى الكبير المسيو هانوتو بوضع كتاب عن تاريخ الأمة المصرية يقع فى سبعة مجلدات ضخمة .

٢ ـ عهد الى المسيو دريو بوضع تاريخ مصر والدول الأوربيــــة العظمى (١٨٣٩ – ١٨٤١) ويقع فى خمسة مجلدات .

٣ ـ مختصر تاريخ مصر (من عهد ماقبل التاريخ الى العصر الحاضر) وهو من وضع فريق من المؤلفين الممتازين ويقع فى ثلاثة مجلدات .

٤ ـ تاريخ الغزوات الحربية لمحمد على وإبراهيم وهو بقلم الجنرال فيجان القائد الفرنسى المشهور .

٥ ـ تاريخ الغزوات البحرية لمحمد على وإبراهيم تأليف الأميرال دوران فيل .

٦ ـ تاريخ ساكن الجنان إسماعيل بقلم المسيو جورج دوران وهو فى ٥ مجلدات .

٧ ـ كتاب الفن المصرى فى خلال العصور المختلفة وقد ظهر أخيرا فى مجلد واحد .

٨ ـ مؤلف مصور عن مصر من وضع الأستاذين بواسونامس وترامبلييه .
٩ ـ وأخيرا هذا الكتاب الحاضر الذى نترجمه للقراء عن تاريخ محمد على الكبير بقلم الأستاذ هنرى دودويل مدرس التاريخ بجامعة لندن .

ولهذا الكتاب أهمية خاصة فان مؤلفه لم يدخر وسعا فى الاطلاع على كثير من المستندات الرسمية ذات القيمة التاريخية فى انجلترا وفرنسا وإيطاليا كما استطاع فوق ذلك الاطلاع على بعض التقارير المحفوظة فى وزارة الخارجية البريطانية وهى التى أرسلها القناصل الانجليز فى مصر إلى دولتهم .

يضاف الى هذا أن الأستاذ دودويل كان قد هبط الى مصر حيث أسعده الحظ بالتشرف بمقابلة جلالة الملك فؤاد فتفضل جلالته بأن أذن له بالاطلاع على بعض الخطابات والأوامر التى كان محمد على قد أصدرها الى كبار موظفيه .

° ° °

ويسير جلالة الفاروق على غرار أبيه العظيم فجلالته لا يلقى اهتمامه إلى التاريخ فحسب بل أصبح بحق راعى الحركة العلمية والثقافية فى وادى النيل . بل لا يكاد أى مشروع يرمى الى تقدم مصر يخلو من تعضيد الفاروق ومناصرته وليس إنشاء جامعة فاروق الأول فى الاسكندرية فى أثناء حرب عالمية واتجاه النية الى إنشاء جامعة أخرى فى أسيوط بالشىء الهين . والآن وقد انتهت الحرب فى القارة الأوربية ، فلسوف يشهد العالم العجب العاجب من آثار نشاط الفاروق حرسه الله فى السير بوادى النيل فى معارج الفلاح فى كافة نواحى التقدم والعمران .

ولما كانت مصر الفاروق قد أخذت تتبوأ مكانة ممتازة ليس بين الشعوب العربية الشقيقة فحسب بل وبين الدول الأوربية نظرا لموقعها الجغرافى ومركزها الثقافى ـ وهاهو صوتها يدوى فى المؤتمرات الدولية ـ فقد رأينا واجبا علينا أن نخرج للقراء هذا الكتاب النفيس عن الجد الأعلى للفاروق مستعينين بالله تعالى فمنه الهداية والتوفيق ؟

المترجمان

مقدمة

ليس ما سنعرضه أمام القارىء فى كتابنا هذا سوى محاولة لاجتناب ما جرى عليه الكتاب الفرنسيون من التقاليد من جعل الشخص الذى يترجمون له (بطلا) وما ألفه الكتاب الانجليز من جعل من يكتبون عنه (وغدا جبانا) . بل جعلت همى أن أتحقق مما قام به محمد على وذلك بتقصى ما يوجد من المادة الأساسية الأصلية وهى مهمة أصبحت فى السنوات الأخيرة من وجوه عديدة أسهل بكثير مما كانت فى الماضى .

فلقد نشرت الجمعية الجغرافية فى مصر تحت رعاية جلالة الملك فؤاد الشىء الكثير من المعلومات الجليلة ، وما نشرته باللغة الفرنسية والانجليزية والايطالية يعتبر على جانب عظيم من الأهمية وله قيمته الكبيرة .

ولم أقتصر على دراسة هذه الوثائق بل قد اطلعت بالتفصيل على ما كتبه ممثلونا من التقارير المحفوظة ضمن أضابير وزارة الخارجية البريطانية ووزارة الهند . هذا إلى أننى قد تمكنت بفضل معونة الأستاذ قطاوى من الإفادة من تقارير القناصل العموميين الروس وهى التقارير التى لم تنشر إلى يومنا هذا وبخاصة تقارير الكونت ميديم معتمد روسيا ، وقد كتبها فى أحرج الأوقات التى مرت بمحمد على .

كذلك استطعت أخيرا بفضل إذن جلالة الملك فؤاد أن أدرس طائفة قيمة من الخطابات والأوامر التى أصدرها محمد على لكبار موظفيه .

وليس يسعنى فى هذا المقام إلا أن أنوه بما أسداه إلىّ من المعونة المشكورة كل من المسيو رينيه ويوسف جلاد بك (باشا) فانهما لم يضنا علىّ بمساعدتهما القيمة كلما احتجت إليهما أثناء قيامى بمهمتى فى القاهرة .

على إننى أشعر بأننى مدين للمسيو جورج دوين والأستاذ ل . م . بلنسون فلأولهما بسبب الانتفاع العظيم بالمجلدات القيمة التى كتبها المجموعة التى نشرتها الجمعية الجغرافية الملكية فى مصر ، ولثانيهما لتفضله بقراءة مسودات الكتاب الحالى وتقديم ما عن له من الملاحظات النافعة ؟

هنرى دودويل

الفصل الأول

محمد على وارتفاع شأنه

لايزال معشر أبناء الجيل الحالى يميلون الى الاستخفاف بقوة أجدادنا فى القرن الثامن عشر وازدراء ما كان فى أساليبهم من الخبرة والابتكار. فآدابهم الرسمية وأزياؤهم المبرقشة وأراجيزهم الحماسية وروایاتهم الرقيقة الخيالية وتواريخهم الشخصية - كل هذا يشعر بنهاية الدنيا القديمة أكثر مما يشعر ببداية دنيا جديدة. وعلى الرغم من هذا يتعذر علينا المبالغة فى مقدار ما نحن مدينون لهم به من الدين الحديث. فهؤلاء الأجداد لم يقتصروا على أن خلفوا لنا آراء معينة عن حب الإنسانية. ونظريات واضحة عن النهضة والرقى بل تركوا لنا كذلك طريقة استخدام البخار فى الصناعات، كما خلفوا لنا انقلابا فى فنون الحرب وهما النقطتان العظيمتان اللتان دارت حول محورهما آراؤنا وتاريخنا الحديث. وفى الواقع أن أجدادنا قد أحدثوا انقلابا كليا فى موارد القوة كانت نتيجته انهيار صرح الامبراطوريات الكبرى وفشل ريحها. لأن القوة لم تعد قاصرة على سلالة أولئك القبائل الرحل الذين اندفعوا شرقا وغربا وجنوبا، وأخذوا يندفعون من برارى روسيا الوسطى تجر فى أذيالها مظاهر الخراب والقسوة. بل صارت الآن ملكا للشعوب التى تستطيع بما لديها من جنود المشاة المنظمة أحسن تنظيم أن تصمد بلا خوف ولا وجل فى وجه أى قوة من الجنود الراكبة. بل أصبح فى وسعها بفضل مالديها من مدافع الحصار الضخمة أن تشق طريقا لنفسها وسط الأسوار مهما بلغت مناعتها وقوتها. كما أنها بفضل مدافع الميدان تقدر على تشتيت ماقد يستطيع الجنود الأسيوية

الراكبة أن تحشده من التجمعات . وبالجملة لم ينته القرن الثامن عشر حتى كانت الولايات الهندية قد ذاقت الأمرين من فعل السلاح الجديد وأخذت تطأطىء رأسها أمام شدة فتكه . هذا بينما كان الأتراك فى الشرق الأدنى قد عجزوا عن مقاومته ـ وهم الذين كانوا قد تمكنوا قبل ذلك بكثير من اختراق جبال الكربات وكادوا أن يستولوا على فينا نفسها وبدأوا ينسحبون أمامه . ومن ثم شرعت جنودهم تنجلى باستمرار عن المقاطعة تلو الأخرى وينتزع منهم الأقليم بعد الأقليم . بل ان قبضتهم على الاستانة أخذت تضعف رويدا رويدا وكان بديهيا أن تنشأ عن ازدياد الشعور بالضعف العسكرى جملة عواقب أدبية لها أثرها السيء . ذلك لأنه كلما تلاشت الثقة بالنفس ازدادت الثقة المتبادلة انهيارا وضعفاً فقد تزعزعت ثقة الصارى عسكر ـ أو القائد العام ـ بمعاونيه من الضباط الذين كانوا بدورهم يرتابون فيه . ثم ان الاستانة أخذت تضمحل بشكل ملموس وهى التى كانت يوما ما حصن الإسلام الحصين وركنه الركين والتى أقيمت عليها المساجد فى الماضى ذكرى لذلك الدين . لا بل انه حتى المسيحيين المحتقرين الذين لبثوا القرون الطويلة وهم قانعون بحرث الأرض وأداء الجزية عن « يدوهم » وهم صاغرون — كما كان يفعل الرعايا الهندوس فى دلهى — قد بدأوا يرفعون رءوسهم ويتهامسون بالاستقلال . وأصبح شأن باشوات السلطان كشأن أمراء الهند إبان سطوة امبراطراة المغول لا ينفذون من الأوامر إلا ما يكفل لهم الربح ويعود عليهم بالمنفعة . ولم تكن « بشالك » بغداد ودمشق والقاهرة سوى ولايات تابعة فى الإسم فقط .

علاقة مصر بتركيا

ذاقت ولاية مصر الكثير من مساوىء الحكم التركى فى خلال العصور الطويلة ولم تكن علاقاتها بالامبراطورية يوما ما وثيقة حتى منذ الفتح العثمانى فى عهد السلطان سليم . بل لقد تركت غنيمة باردة يستبد بها من فروا من مذبحة المماليك وأقاموا أنصع البراهين على نذالتهم وجبنهم بهجرهم لمولاهم . نعم كان يشرف على أعمالهم أحد الباشوات الذى تعينه حكومة الاستانة وهذا الباشا الوالى نفسه كان عرضة للاستبدال من آن لآخر لأنه لم يكن حاكما إلا بالإسم فقط . لأن البيكوات وهم رؤساء المماليك وزعماؤهم قصروا مطامحهم على تحقيق اللبانات الشخصية الخاصة بينما كان أتباعهم ـ وهم خليط من رقيق الجراكسة والكرج ـ يدربون على تأليف قوة من الجنود الراكبة غير النظامية . وفى الواقع كانت هذه القوة أشجع وأسمى قوة راكبة غير نظامية فى كافة أنحاء العالم وكانت نفوس البيكوات تتطلع لاقتفاء الأشياء التى تهم ذواتهم مثال ذلك أن الخراج الذى ينتزعونه من البلاد كان يذهب فى ابتياع الثياب الزردية الفاخرة وملء الاسطبلات بأفخر الجياد العربية وتزيين القصور بأثمن السجاد الشرقى وجلب أجمل بنات الرقيق إلى الحريم ووضعهن تحت حراسة الخصيان العبيد .

وقد غاضت موارد مصر وتلاشت بسرعة فى عصر هؤلاء المحاربين السخفاء فالترع التى لم يكن للزراعة حياة بدونها أصبحت مسدودة بسبب الاهمال . وبينما كان العمران يتلاشى فى المدن كانت الصحراء تطغى على الجهات التى كانت يوما ما آهلة بالسكان . ثم ان الاسكندرية تدهورت الى مدينة صغيرة لا يزيد عدد سكانها على ٥٠٠٠ نسمة بعد أن كانت ميناء عظيمة زاهية بتجارتها ومصنوعاتها . وكثيرا ما شن البدو الرحل الغارة على الجهات المسكونة . ولم

يكن يخطر لأية قافلة من القوافل أن تقطع الطريق من السويس أو القصير الى القاهرة فى أمان إلا إذا كانت مصحوبة بقوة كبيرة من الحرس العسكرى وبالجملة فان مصر فى عهد المماليك كان مثلها كمثل السند فى عهد الأمراء المغول سواء بسواء .

وقد أدى ظهور الأتراك العثمانيين إلى العدول عن طريق التجارة القديمة بين بغداد والخليج الفارسى أو بين الاسكندرية والبحر الاحمر وهى التى كانت خلال العصور الطويلة وسيلة لنقل الجزء الأكبر من التجارة بين الشرق والغرب . ولكن حوادث الهند فى أواسط القرن الثامن عشر اقتضت ايجاد وسائل للمواصلات مع أوربا تكون أكثر سرعة من طريق رأس الرجاء الصالح .

فشروعات « دبليه » و « أعمال » كليف » ومعارك » وارن هاستنجز » مضافا إليها مسألة المسائل وهى هل تحكم الهند بحيث يكون الإشراف على تجارتها بواسطة لندن أو باريس ، كل هذه الشئون تطلبت اتخاذ قرارات عاجلة وإرسال الامدادات على جناح السرعة ومن ثم أصبحت لشئون مصر وسوريا والعراق أهمية عظيمة فى نظر الدولتين الأوربيتين المتنافستين .

وكان من عادة شركة الهند الشرقية الانجليزية من عهد بعيد إذا أرادت إرسال بريد مستعجل الى الشرق أن ترسل رسلها برا عن طريق حلب فبغداد على أن يستقلوا السفن عند رأس الخليج الفارسى ولكن هذا الطريق لم يكن مأمونا بحال ما بسبب ازدياد القلاقل فى (بشلك) بغداد من ناحية وبسبب غارات القبائل البدوية المتوالية من ناحية أخرى . على أن الطرود التى كانت ترسلها الشركة لم تكن تحتوى على ما يمكن أن يسيل لعاب البدو أو يحرك شهواتهم ولكنهم حتى وإن اعتقدوا أن الرسول لا يحمل فى جعبته قسطا كبيرا من المال فانه كثيرا ما كان يعن لهم أن يقتلوا بقتل ذلك (الكافر) .

ومع أن كثيرا من الطرود وصلت سالمة إلا أن حاملها كان عرضة للقتل أو على الأقل لأن يرغمه البدو على اتلاف أوراقه (١). على أنه كانت هناك طريق أخرى عدا هذه الطريق بواسطة مصر ثم البحر الاحمر . وكان فى اتباع هذه الطريق فائدة لا يستهان بها ، وهى تقصير مدة السفر فى المنطقة التى تقطنها القبائل الرحل من القاهرة الى السويس . وليس من ريب فى أن السفر بهذه الطريق كان يكفل انتظام الطريق وسلامته بشرط الاتفاق قبل ذلك مع البكوات المماليك فى مصر . فلما هبط الرحالة «جيمس بروس» إلى وادى النيل فى سنة ١٧٦٨ وجد على بك حاكم مصر الفعلى رافعاً راية العصيان علانية ضد الأتراك وشديد الميل لمصادقة (الكفار) ليأمن بمساعدتهم له شر الاعتداء التركى . وقد كان من الذكاء بحيث أقول بأنه سيتمكن بتشجيعه التجارة من زيادة إيراداته. وسرعان ماوجدت اقتراحات بروس المؤيدة من التجار الطليان المقيمين فى الاسكندرية ظهيرا فى الاقتراحات المقدمة مباشرة من القباطنة الانجليز الذين رأوا تدهور التجارة فى البحر الاحمر فتصوروا أنهم قد يجدون لبضائعهم الواردة من البنغال سوقا رائجة فى القاهرة .

وكان لعلى بك من الاهتمام بالموضوع أنه بعث بخطاب الى ولاة الأمور الانجليز فى البنغال مقترحا عليهم أن يفتحوا طريقاً للتجارة مع السويس رأساً وتحدى أوامر السلطان بأن لا يسمح لأية سفينة مسيحية بالاقتراب من الموانى الواقعة فى شمال جدة (٢). وعندما أصبح (وارن هاستنجز) حاكما لقلعة وليام فى سنة ١٧٧٢ أدرك فورا بثاقب رأيه ماعسى أن تفيده البنغال من قبول الاقتراحات المذكورة . وقد أرسلنا فعلا بإرشاده عدة قوافل تجارية وهكذا

---

(١) راجع مثلا مخاطرات الكابتن جيمس بارنون (استشارات مدارس العامة ١٠ أغسطس سنة ١٨٥٨)

(٢) راجع كتاب شارلس رو (فى البحث عن مخرج) ص ٢٩ وما بعدها

إلى أن عقدت اتفاقية مؤقتة تعهد بها خلفاء على بك بأن يضمنوا سلامة البضائع عند إرسالها من السويس الى القاهرة (١) على أن هـذه الترتيبات لم ترتح لهـا شركة الهند الشرقية ولا السلطان الذى كان قد استرد بعض سلطته القلقة على مصر . فأما الباب العالى فقد خشى على موارد الحجاز من أن تتـأثر فيما لو تحولت التجارة الهندية من جدة الى السويس . وأما الشركة فقد كان تخوفها من أن يؤدى نشاط الحركة التجارية عن طريق مصر الى الاضرار بما لديها من امتياز تصدير البضائع المهربة من الهند الى أوربا عن طريق البحر المتوسط

وكانت نتيجة ذلك كله أن الشركة أصدرت فى سنة ١٧٧٧ أمرها بمنع ارسال السفن المشحونة بالبضائع إلى إحدى الموانى الواقعة فى شمالى جدة ولـكنها حصلت فى الوقت نفسه من الباب العالى على وعد شفوى بأن يسمح لبريدها وطر. دها باجتياز الأراضى المصرية مجانا .

ولم تـكن لهذا التدبير نتيجة أصلا إذ ولم يكن لا بوسع الشركة ولا الباب العالى تنفيذ هذه الأوامر حرفيا . فان حق إرسال الطرود أسيء استعماله وكان وسيلة لنقل البضائع المغشوشة مما ترتب عليه إلقاء القبض فى سنة ١٧٧٩ ثم فى سنة ١٧٨٠ على حاملى الطرود الانجليزية وأودعوا السجن (٢).

وأظهر الفرنسيين فى الوقت نفسه أشد الاهتمام بما يمـكن أن يؤدى إليه طريق مصر من الاحتمالات . فلقد كانت الطريق المذكورة تبشر فى نظرهم

---

(١) المخطوط رقم ٢٩٢١ بالمتحف البريطانى وتوجد صورة من المعاهدة بين السجلات الخاصة بالمصانع فى وزارة الهند والبحر الاحمر المجلد الخامس

(٢) راجع كتاب شارلس رو ص ١٢٤ و ١٤٨ وكان جيمس وولى أحد من كان لهم ضلع فى الموضوع قومندان الطوبجية فى جيش نواب اركوت .

بفوائد طائلة لأنها من الوسائل المؤدية إلى تقليل شأن السيادة البحرية البريطانية تلك السيادة التي كان لها أسوأ تأثير في سير حرب السنوات السبع.

فلو تحول الشطر الأكبر من التجارة الهندية الى طريق البحر المتوسط فلن يقتصر الأمر على إفادة التجار الفرنسيين فوائد جسيمة بل ان واجبات الأسطول الفرنسي تقل كثيرا عما عليه . ومما شجع على التعلل بهذه الأماني ما كان يلوح على الامبراطورية العثمانية من علامات الاضمحلال والفناء . فان شاءت الأقدار أن تتلاشى تلك الامبراطورية فان جيرانها كروسيا والنمسا لا محالة تجنيان فوائد جسيمة في الحال . ولكن هذه الفوائد - كما لاحظ الفرنسيون في سنة ١٨٧٣ قد تصبح ولا قيمة لها باحتلال الفرنسيين لمصر على أنه كان يوجد رأي آخر له قيمته من حيث أنه يمكن تطبيقه عملياً فورا ألا وهو عقد محالفة مع البيكوات ، وهو ماحدث فعلا .

ففي أوائل سنة ١٧٨٥ توصل أحد المندوبين الفرنسيين الى توقيع عدة اتفاقات مع البيكوات ومع العميل الأساسي ومع أحد زعماء البدو على نقل البضائع الفرنسية في أمان في مقابل شروط مرضية . فكان مثل هذه الاتفاقات كمثل المعاهدة المؤقتة التي وصفها (وارن هاستنجز) بمعنى أنها أقامت الدليل ناصعا على قلق الموقف المصري . فلم يكتف الباب العالي برفض ابرام المعاهدة الفرنسية بل عمل على تدعيم سلطته المزعومة على مصر .

وكانت النتيجة المباشرة أن الخطر الذي كان يهدد مركز الانجليز في الهند تلاشى مؤقتا . ولكن كان لا يزال هناك احتمال بأن الفرنسيين قد يخطر لهم يوما من الأيام أن يوطدوا أقدامهم في مصر إما بالقوة أو بطريق المفاوضات ومن ثم أخذنا نحتذي حذو الفرنسيين : فان جورج بلدوين الذي لعب دوراً مهماً في مشروعاتنا الأولى عين قنصلا عاما وصدرت التعليمات بأن يعقد مع

البيكوات معاهدة كالتى عقدت بينهم وبين الفرنسيين ولكن عودة النفوذ التركى بعد اضمحلاله جعل عقد هذه المعاهدة أشق مما كان ينتظر . وانقضى عام وتلاه عام آخر ولاحظت وزارة الخارجية أن بلدوين كان يتقاضى سنويا مرتبا قدره ١٤٠٠ جنيه دون أن يصنع شيئا .

ومن ثم قرر غرنفيل سنة ١٧٩٣ الغاء هذا المنصب أو أن تقوم الشركة الهندية بدفع مرتبه إذا كانت ترى ضرورة وجود بلدوين فى مصر . وما كاد غرنفيل يقرر هذا حتى جاءت الأنباء سراعا بأن بلدوين قد نجح بعد طول الجهد فى توقيع المعاهدة المطلوبة .

ولكن رجال الوزارة وقتئذ ما عدا (دنداس) أخذ اهتمامهم يتحول كلية عن مصر بسبب الخطر المباشر الذى نشأ عن وقوع الثورة الفرنسية . ولكن سرعان مادفع الفرنسيون أنفسهم الى الاهتمام بشئون مصر ذلك أن عوامل عديدة أجمعت فى شتاء ١٧٩٧ و١٧٩٨ على تجهيز حملة عسكرية وإرسالها إلى الشرق .

وقد نمى الى غرنفيل فى فصل الربيع أن دور الكتب التابعة للحكومة قد فحصت فحصا دقيقا لاستيعاب ما فيها من الكتب الخاصة بالرحلات إلى مصر وإيران والهند وأن الحكومة الفرنسية قررت الانتفاع بخدمات علمائها ممن لهم دراية بتاريخ العرب والترك والفرس وأن الحملة جملت غايتها احتلال مصر وشق الطريق عبر برزخ السويس .

نعم لم يكن أحد يعرف وقتذاك إلى أى حد يمكن أن ينظر الانسان الى هذا المشروع نظرة جدية ولكن (دنداس) عده « مشروعا فائقا خيرا » هذا بينما أن حاكم كلكتا العام رأى من قبيل الاحتياط لإحباط هذا المشروع سلفا أن يجهز على السلطان (تيتو) أو يكبح جماحه قبيل أن يوفق بونابرت بفضل مضاء عزيمته وجسارته إلى إيجاد وسيلة لإمداد السلطان بفرقة من

الجنود الفرنسية . أما فى انجلترا فقد استقر الرأى على حشد أكبر عدد ممكن من السفن لتشتيت الحملة التى تجمعت فى ميناء طولون كائنا ما كانت الغاية التى ترمى الى تحقيقها . وبهذه المناسبة كتب (جون ننجتون) وكان صادقا فيما كتبه « أن انجلترا لم يسبق لها اتخاذ قرار حكيم كهذا مقرونا بمثل هذا الحماس العام »

وفى ١٩ مايو غادر نابليون ثغر طولون على رأس قوة تبلغ ٣٨٠٠٠ جندى وفى ١٢ يونيه سلمت له مالطه سلاحها ولم يحن آخر الشهر المذكور حتى ألقى نابليون مراسيه فى الأراضى المصرية بالقرب من الاسكندرية . فاحتل المدينة من فوره وبدأ زحفه إلى الجنوب . وفى ١٨ يوليه أنزل بالمماليك هزيمة ماحقة فى معركة الأهرام بالقرب من القاهرة . ثم دخل الى العاصمة فى ٢٤ يوليه . وبعد ثمانية أيام التقى الأميرال نلسن بالعمارة الفرنسية فأجهز عليها فى خليج أبى قير بعد أن قضى الأسابيع الطويلة يجد فى اقتفاء آثارها .

ومن ثم بدأت تظهر للعيان آثار السيادة البحرية . ذلك أن نابليون بعد أن انقطعت عنه المؤن والامدادات بل والأنباء التى يمكن أن يكيف حركاته على ضوئها قد تمكن ، بفضل عبقريته فى التنظيم ، من انشاء حكومة وأن يسترضى الزعماء الدينيين فى القاهرة ويقمع الفتن ويضع البلاغات الطنانة . نعم كان عليه أن يفعل ذلك كله ، ولكنه كان فى أعين الفرنسيين كمن يحرث أرضا مجدبة فى حاجة الى الماء . ولقد حاول شق مخرج لنفسه عن طريق سوريا ولكن سفن أعدائه كانت قد نقلت إلى عكا المؤن والامدادات بزعامة قائد محنك تمكن من القضاء على ما بذله الفرنسيون من الجهود الفريدة لاحتلال ذلك المكان .

ولئن طنطن نابليون أمام سكان القاهرة بأنه دك أسوار عكا وترك المدينة قاعاً صفصفا فان ذلك لم يغير شيئا من الواقع وهو أن الهزيمة حلت به ودارت الدوائر على مشروعاته الضخمة .

وأخيرا اضطر إلى الاذعان أمام منطق الحوادث فتخلى عن جيشه فى مصر وانقلب راجعا إلى فرنسا فى يوم ٢٢ اغسطس سنة ١٧٩٩ تاركا مكانه فى القيادة « كليبر » الذى كان على حق فى التبرم بمنصبه هذا والارتياب فيه. فانه ما كاد يسمع باقتراب الجيش التركى حتى شرع فى مفاوضة السير سيدنى سمث الذى كان يقوم بالدفاع عن عكا. وفى ٢٤ يناير سنة ١٨٠٠ عقد اتفاق العريش الذى نص على جلاء الجنود الفرنسية عن الأراضى المصرية والعودة إلى بلادها فى السفن التى يجمعها ولاة الأمور الأتراك لهذا الغرض.

ولكن بينما كان هؤلاء مشتغلين بجمع السفن المطلوبة بما عرف عنهم من حب التراخى انتهزت الوزارة الانجليزية الفرصة بناء على معلومات خاصة وصلتها عن قوة الحملة الفرنسية فى مصر لتعلن أنها غير مرتبطة باتفاق الفرنسيين سالف الذكر.

وقد أدت هذه الغلطة الى إرسال حملة انجليزية لاخراج الفرنسيين من مصر. وفى نهاية العام المذكور كان السير « رالف ابا ركرومبى » يسير فى اتجاه مصر على رأس قوة عددها ١٥٠٠٠ جندى لطرد الفرنسيين من وادى النيل بينما جهزت حملة هندية لمناوأتها من ناحية البحر الأحمر.

وفى ٨ مارس سنة ١٨٠١ القى السير رالف مراسيه فى خليج أبى قير وكان القائد كليبر قد لقى حتفه قبل ذلك وانتقلت القيادة إلى « مينو » وهو قائد غير محنك اعتنق الاسلام واقترن بزوجة مسلمة ثم دارت رحى المعركة خارج الاسكندرية فاسفرت عن قتل السير رالف وعن التجاء قسم كبير من الحامية الفرنسية إلى الاحتماء داخل أسوار الاسكندرية بينما عهد إلى بقية الحملة وعددها ١٢٠٠٠ بالدفاع عن قلعة القاهرة.

ولم يكن فى هذا المسلك البعيد عن الجرأة العسكرية ما يبشر بوقوع مقاومة عنيفة . إذ سرعان ما بدأت القاهرة تلقى سلاحها ثم تلتها الاسكندرية ومن ثم وصل الاحتلال الفرنسى فى مصر إلى تلك الخاتمة المحزنة . على أن هذا الاحتلال لم يكن بغير نتائج . فلقد زعزع حكم المماليك كما أنه ازال الغشاوة التى كانت مخيمة على أعين الانجليز ونبهتهم إلى أهمية مصر من الوجهة العسكرية بصفتها دولة واقعة فى منتصف الطريق بين الشرق والغرب . ثم أنه كشف للملأ عن عجز تركيا . وأخيرا جاء الى مصر بطريق الصدفة باحد المجازفين الألبانيين الا وهو محمد على .

كانت ولادة محمد على فى سنة ١٧٦٩ فى دار صغيرة باحد الشوارع المهجورة القديمة فى قوله . وهى ثغر صغير يحيط به سور ، ولا يعرف عن أرومة محمد على الا النزر اليسير . وهناك خلاف فى الرأى على ذلك . فمن قال بأنه منحدر من سلالة تركية . بينما يوجد من يقول بأنه من سلالة فارسية . ويستند القول الأول الى قوة بنية محمد على ومتانة اخلاقه . بينما يستند القول الثانى إلى ذكائه المرن وسعة حيلته .

وكان أبوه ابراهيم أغا قومندان فصيلة محلية من الجنود غير النظامية فى خدمة الوالى وقد لحق بربه تاركا ابنه الصغير فى حضانة ذلك الوالى . ويخيل الينا أن تربية هذا الصغير كانت على أسس عملية صارمة . ذلك أن الطعام كان يقدم اليه فى الأوقات المناسبة كما كان يقسر على لبس ما يختار له من الملابس واداء الصلاة فى أوقاتها .

ثم درب على ركوب الخيل وحمل السلاح . وأغلب الظن أنه عندما بلغ سن الشباب خرج فى صحبة الدوريات المكلفة بمطاردة العصابات أو بتحصيل الخراج .

ومن ثم تعلم القواعد الأولية للحرب وفن مباغتة العدو وأساليب القيادة . وهناك ما يدل على خروجه على رأس بعض هذه الدوريات حيث أبلى أحسن بلاء .

وهنا نرى أنفسنا تحت رحمة القصصيين ومروجي الحكايات الذين أولعوا بالمبالغة فيما يروونه من الروايات وبما يضيفونه على الموضوع من الحواشى التى يتخيلونها تخيلا لاظهار آثار العبقرية التى لمحوها حتى فى تلك السن المبكرة لمحمد على ومقارنة عظمته فيما بعد بما كان يظهر عليه فى البداية من سيما التواضع .

ولما بلغ الفتى سن الثامنة عشرة زوجه الوالى من إحدى قريباته فاستولدها خمسة من الأولاد الذكور وهم الذين رزقهم محمد على فى حياته . ثم مالت نفسه لمزاولة تجارة التبغ إذ ليس بخاف أن أجود أنواع التبغ التركى يزرع فى الاقليم المتاخم لقوله ، ولكن ليس فى وسعنا أن نقول على أى مقياس كان محمد على يعمل فى تلك التجارة . وقد خيل الى بعض المؤرخين أنه كانت لمحمد على تجارة واسعة تستند الى أموال قرينته الثرية بينما يقول آخرون أنه استعان على الخروج من ورطته بقرض تافة لا يزيد على روبيتين . ومهما يكن من أمر فان مانعلمه بصفة قاطعة هو أنه كان يذكر حياته الماضية بالحنان المصحوب بالأسف . وقد ذهب فى أخريات أيامه لزيارة مسقط رأسه وأوقف وقفا خصص ريعه لنفقات احدى مدارس قوله التى لا تزال موجودة الى يومنا هذا (١)

فعندما اضطر الباب العالى ـ تحت ضغط انجلترا ـ لحشد الجنود وارسالها

---

(١) خطاب الى حاكم قوله فى ٩ شوال سنة ١٢٤٦ ﻫ (وجدت صورته بين سجلات قصر عابدين) .

الى مصر جريا وراء الأمل الكاذب وهو طرد الفرنسيين منها طلب الى والى قوله أو كما يسمونه بالتركية شوربجى قوله أن يجهز فصيلة من الجنود قوامها ٣٠٠ محارب . فصدع الوالى بالأمر وجمع الفصيلة المطلوبة تحت قيادة ابنه على أغا وأرسل محمد على كمساعد له .

ولكن السفر فى البحر الى أبى قير كان متعبا بسبب العواصف الجوية حتى اذا ألقت القوة التركية مراسيها فى الأراضى المصرية قاست الأمرين من الحرمان والفاقة قبل أن يقذف بها الفرنسيون الى البحر . وفيما ينقلونه من الروايات عن حادث الهجوم الفرنسى هذا استطراد بان محمد على نفسه كاد أن يلقى حتفه غرقا وهو يحاول ركوب السفينة لولا مبادرة احدى البوارج الانجليزية الواقعة على مقربة من الميناء الى انقاذه .

ومهما يكن نصيب هذه الرواية من الصحة فان على أغا قائد الفصيلة استولى عليه الجزع بسبب ما رآه من دوران البحر والجوع والعطش فسارع بالعودة الى بلاده وترك قيادة الفصيلة لمحمد على . وليس من يشك فى أن إقدامه من ناحية وسعة حيلته من ناحية أخرى استلفتا انظار القادة الأتراك بينما اكسبته حصافة رأيه وحسن رعايته للجنود ثقة رجاله

فلم يحل عام ١٨٠١ حتى كان محمد على أحد الضابطين الكبيرين المتولين قيادة الفصيلة الألبانية باعتبارها الجزء الرئيسى من القوة التركية المعسكرة فى مصر وقد تعاونت هذه القوة مع الحملة الانجليزية الى حد الاقتراب من الجهات غير المحصنة فى مصر واحتلال الأماكن الخالية من الحاميات الفرنسية .

على أن هتشنسن وهو الذى خلف ابار كرومبى فى قيادة الحملة الانجليزية سرعان ما تزعزعت ثقته فى مقدرة تلك القوة التركية وأخذ يحس بعجزها

عن الاحتفاظ بمركزها فى مصر (١) .

ومما عزز هذا الرأى فى نفسه أن الباب العالى طلب ابقاء قوة انجليزية فى وادى النيل بعد طرد الفرنسيين منه منعا لكل محاولة من ناحيتهم لاحتلال مصر مرة أخرى (٢) ولقد اقترح السفير الروسى احتلال النقط الحربية المهمة بالاسكندرية والسويس إلى نهاية الحرب على الأقل وكان هذا هو أيضا رأى الحاكم العام فى الهند البريطانية .

وقد انبرى بعض الكتاب لوضع كراسات بهذه المعنى (٣) وقد حبذ دنداس هذه الفكرة لانه كان على الدوام مقتنعا باهمية مصر من الوجهة الحربية . وصادفت الفكرة قبولا لدى الوزارة التى أبدت رغبة شديدة فى الوصول إلى تسوية العلاقات بين السلطان والبكوات للحيلولة دون تكرار سوء الإدارة كالتى ساعدت الاحتلال الفرنسى وعاونته . وتحقيقا لهذه الغاية اقترح تحديد حقوق المماليك وواجباتهم وتنظيم طريقة لجباية الخراج (٤) وتعيين مبلغ محدد للاحتفاظ بقوة عسكرية تحت اشراف ضباط بريطانيين .

ولم يكن (ايلجن) سفيرنا بالاستانة لسوء حظنا بالرجل الذى يستطيع اقناع الأتراك بان مصلحتهم تقضى بالموافقة على ترتيب أمين برغم أنه كان مكروها فى نظرهم . فبدلا من أن يقترحوا شروطا راحوا يقيمون الدليل ناصعا على ما اشتهروا به من نقض العهود . ذلك أن قبطان باشا ـ كما كانوا يسمون الاميرال التركى ـ أغرى بعض المماليك بالحضور على ظهر ذهبيتين ومن ثم

---

(١) راجع كتاب شارلس رو (انجلترا والحملة الفرنسية فى مصر) المجلد الثانى ص ٢٦ وكتاب سياسة المماليك ص ٥ لمؤلفه دوان وفونيه جونز .

(٢) راجع كتاب شارلس رو المذكور المجلد الثانى ص ٢٦٨

(٣) رسائل وسلى المجلد الثانى ص٢٦٨

(٤) هناك ملخص واف لهذه المسألة فى كتاب الاستاذ غوربال ((بداية المسألة المصرية ص ١٦٦) والوثيقة موجودة فى كتاب دوين وفوتيه جونز صحيفة ٢٠

أمر باطلاق النار عليهم واعتقل من نجا منهم من القتل وكادت هذه الحادثة أن تؤدى إلى نشوب القتال بين القوات التركية والقوات الانجليزية . ولم يطلق الأتراك سراح من وقع بيدهم من الأسرى الاتحت تأثير التهديد ومن ثم انسحب البيكوات الى أعالى الصعيد بعيداً عن متناول يد الاتراك وبينما كانت هذه المشاحنات والمنازعات قائمة على قدم وساق تم توقيع معاهدة (أميان) التى قضت باعادة مصر إلى حظيرة السلطان بتركيا . فاصبح لفرنسا الحق بمقتضى هذه المعاهدة بأن تطالب بجلاء القوات الانجليزية عنها فى الحال .

وبعد عدة محادثات ضعيفة لتسوية مسألة البيكوات قنع القائد البريطانى بأصدار أوامر بالعفو عن البيكوات واعطائهم مديرية أسوان . ومن ثم شرعت الجنود الانجليزية بعدئذ تستقل السفن مصحوبة بأحد زعماء المماليك وهو ألفى بك الذى ذهب لزيارة لندن وقد عين الميجر (ميسيت) ممثلا لانجلترا فى مصر للاشراف على سير العلاقات بين الاتراك والمماليك ولبذل كل ما فى وسعه لمنع دخول الفرنسيين اليها . وهكذا انتهى الاحتلال البريطانى لمصر فى مارس سنة ١٨٠٣ .

وبديهى أن تعيين ميسيت ممثلا لانجلترا كان يراد به احباط دسائس القناصل الذين عينتهم فرنسا بعد توقيع معاهدة اميان . ثم شرعت الدول المتاخمة لشواطىء البحر الأبيض المتوسط ترسل معتمديها إلى مصر . وحذت حذوها فيما بعد السويد وبروسيا وروسيا .

وقد كان هؤلاء المعتمدون منقسمين إلى فريقين صريحين . ففريق منهم كان يشغل معظم وقته بمراقبة الشؤون التجارية بينما كان الفريق الثانى يعنى بالمسائل السياسية . وبديهى أن هذا التقسيم كان بنسبة أهمية الدول التى كانوا يمثلونها . على أنه لم يكن فى بداية القرن التاسع عشر من الشؤون السياسية ما يستحق الاهتمام .

ولهذا كان القناصل العموميون من أمثال صوالت وبورفيني يقضون الوقت في جمع التحف القديمة مثل مايقضونه في تمثيل مصالحهم الوطنيـــة . ولكن أصبحت لأعمالهم السياسة منذ سنة ١٨٣٠ فصاعدا أهمية جديدة . وصاروا في الواقع — وإن لم يكونوا في الشكل — معتمدين سياسيين حقيقيين لدى بلاط الباشا مهمتهم توجيه أعماله إلى مايطابق سياستهم الوطنية . وقد أصبح بعضهم أصدقاء حميمين لمحمد علي . لا بل أن نفوذ الكولونيل كامبل الشخصي كان له أثر كبير في تكييف ادارة حكومة محمد علي إن لم نقل في تكييف سياسته الخارجية .

وقد ترتب على رحيل الانجليز أن خلا المسرح لسلسلة من الدسائس ولنصب أشراك المؤامرات بشكل مقطوع النظير . فقد كان الأمر البادي للعيان أن هناك حزبين يتطاحنين في سبيل الاستيلاء على مصر وهما الأتراك والمماليك . ولكن كانت الأمور في الواقع أعقد من ذلك بكثير فقد كان الأتراك أنفسهم منقسمين الى فريقين فريق كان يأتمر بأوامر خسرو باشا المعين من قبل السلطان ليحكم مصر ، والفريق الثاني وهم الألبانيون كانوا لا يأتمرون إلا بأوامر زعيمهما طاهر باشا ومحمد علي . كذلك كان المماليك شطرين أحدهما يناصر البرديسي والثاني يؤازر الألفي . وكان كل من هذه الأقسام الأربعة أشد ميلا لسحق الأقسام الأخرى بدلا من تكاتف الجميع لدفع الخطر المشترك ولهذا كانت احتمالات الإئتلاف كثيرة . لأن الانسان كان وقتئذ يمكنه أن يتكهن التكهن المعقول الممكن وهو أن قسما من هذه الأقسام الأربعة ما كان ليستطيع البقاء طويلا بمفرده .

وكان خسرو باشا أول من اختفى من على المسرح السياسي . فعندما عين فيما بعد صدراً أعظم للامبراطورية وصفه الساسة الغربيون بأنه « رجل متوحش وأمي ولكنه ذكي ومقدام » .

ولكن تبين فى عام ١٨٠٣ أن أخلاق خسرو لم تسم إلى هذا المستوى الراقى . وإنما وصف وقتئذ بأنه جاهل فى الحرب والسياسة أو الادارة تمام الجهل ولا يعرف من هذه الفنون سوى حز الرقاب (١) . وبالطبع كان مركزه بمصر فى منتهى الحرج . ذلك لأن الأتراك كانوا أبغض فى أعين الشعب من الفرنسيين . لأن جهلهم باللغة العربية وهى لغة المصريين المقدسة مضافا إليه أنهم عند التكلم بها وصلفهم ودعواهم بأن لهم الحق فى حكم البلاد . كل هذه الصفات ساعدت على استلاب كل معونة محلية منهم . وكثيرا ما دعا عليهم مؤرخ ذلك العهد « الجبرتى » بأن يمحقهم الله جميعا .

وكان على رأس الفصيلة الألبانية طاهر باشا الذى كان ماأصابه فى بلاده من النجاح وما اشتهر به من الوحشية فى قيادة إحدى عصابات قطاع الطريق سببا فى مكافأته بالالتحاق بجيش السلطان . ولقد أبدى طاهر فى مصر الشىء الكثير من الشجاعة وسعة الحيلة ولكنه لم يكافأ المكافأة التى وعد بها (٢) . ثم أن أنصاره كانوا فى شدة التذمر بسبب عدم دفع مرتباتهم وكانت النتيجة أنهم أثاروا فتنة فى القاهرة فى شهر مايو سنة ١٨٠٣ وهى حادث مألوف كان يقع يوميا فى الجيش العثمانى . ولما عرض طاهر باشا وساطته على خسرو رفضها هذا . فلم يكن من طاهر إلا أن ذهب فى اليوم التالى على رأس الفصيلة الألبانية فهاجم القلعة واحتلها . وإذ ذاك فر خسرو إلى دمياط وارتقى طاهر منصة الحكم . ولما لم تكن الجنود العثمانية قد شدت أزر طاهر فى هذه الحركة فانه أهاب بالمماليك أن يتقدموا لتأييده . ولم يترتب على مصرعه أى تغيير فى الموقف المباشر لأن محمد على سرعان ما حل محله . وإذ ذاك اشترك الألبانيون

---

(١) راجع تاريخ الجبرتى

(٢) ملاحظات من اليونان (فى وزارة الخارجية البريطانية) بقلم ليك

والمماليك فى إنزال الهزيمة بعينو بالقرب من دمياط وقادوه أسيراً إلى القلعة فى القاهرة وكان هذا أول ائتلاف بين الألبانيين والمماليك ضد الأتراك .

وما كادت هذه الأنباء تصل إلى الاستانة حتى صدر الأمر إلى حاكم آخر يدعى على باشا بالذهاب فوراً على رأس قوة من ١٥٠٠ جندى ليحل محل الحاكم المخلوع خسرو فوصل إلى الاسكندرية واحتلها . ولكن سرعان ما أوقع نفسه فى نزاع مع قناصل الدول الأوربية المقيمين فى تلك المدينة . فلقد أعلن أن الامتيازات لا حرمة لها مادام هو الحاكم بأمره . ولم يكن مطاعا بين جنوده وقد كانوا يتسلون باطلاق النار على الشعار المعلق فوق القنصلية السويدية ثم أنه حاول أن يتدخل فى حكم أصدرته المحكمة المحلية فى صالح الفرنسيين لسبب مجهول . وفى أوائل سنة ١٨٠٤ بدأ يزحف جنوبا فى اتجاه القاهرة متوقعا أن يهب الألبانيون تحت قيادة محمد على إلى مناصرته ولكن الألبانيين لم يحركوا ساكنا وأخيراً وقع الباشا فى أسر البرديسى فأمر باعدامه (١) .

وإذ ذاك عين باشا ثالث ـ وهو خورشيد ـ مكانه ، وكانت العلاقات بين الألبانيين والمماليك قد أخذت تفتر لأن الأولين كانوا شديدى التمسك بتسلم مرتباتهم كاملة بينما لم يكن أمام المماليك إلا أن يلجأوا إلى القروض الاجبارية وغير ذلك من الوسائل العنيفة .

ولشد ما كان حزنهم أنهم رأوا أنفسهم مضطرين أن ينهبوا الأهالى لمصلحة الغير. ثم أنهم أظهروا ميلا لمساعدة خورشيد بصفته (باشا) مصر وذلك نظراً لدماثة خلقه واعتـــدال آرائه . ومن ثم أصبح المجال واسعا خاليا لعقد ائتلاف جديد . وقد تم فعلا كما كان مقدرا بالضبط فلقد عاد ألفى بك من

---

(١) كتاب (دوين) مصر من سنة ١٨٠٢ الى سنة ١٨٠٤

انجلترا فى فبراير سنة ١٨٠٤ وسرعان ماهب حزب البرديسي يساعده الالبانيون بتشجيع من محمد علي — على الارجح — لمهاجمة حزب الالفي ونهب منازلهم فى القاهرة، ولشد ما كان اغتباط محمد على بهذا الانقسام بين صفوف البيكوات (١) وراح من فوره ينشد حليفا اخر فى شخص الباشا الجديد، وكان لايزال فى الاسكندرية . وقد أبلغ محمد على المعتمد الفرنسي في القاهرة بان الالبانيين بمجرد استطاعتهم الحصول من المماليك على مرتباتهم المتأخرة عن الاشهر الثمانية السالفة فلسوف يعقبه انفجار يعيد الالبانيين إلى حظيرة رضا السلطان . ثم استرسل فقال « ماذا عسانا أن ننتظر من أناس كالمماليك؟ أنهم أعداؤنا الطبيعيون وهم لايتحرجون عن الغدر باخوانهم الاتراك (٢)

وقدحدث الانفجار فى الوقت الملائم كما توقعوا . في يوم ١٠ مارس أغار الالبانيون فى القاهرة على دور زعماء البيكوات فسلمت القلعة. واذذاك أعلن محمد علي الفرمانات بتعيين خورشيد باشا واليا على مصر (٣) وكان طبيعيا أن يتقدم الباشا للاتصال بحليفه. ثم دارت رحى القتال عدة أشهر حول القلعة بين البيكوات من ناحية وبين الباشا ومحمد على من الناحية الاخرى . ولكن بدلا من اتجاه الالبانيين والمماليك فى العام السالف لطرد خسرو باشا فان هيبة الاتراك قد تلاشت الان حتي أن خورشيد أصبح لا يعتمد الا على محمد علي وكان نفوذه اخذا فى الازدياد . وقد صار الباشا — كما حدثنا لسبس بحق — عبارة عن أداة يسخرها الالبانيون كما يشاءون فى قضاء مأربهم (٤) وفى خريف هذه السنة تجلت هذه الحقيقة بشكل لاخفاء فيه فلقد بدأ الالبانيون يضيقون ذرعا بمصر وأخذ كثيرون منهم يحنون إلى أوطانهم ويجأرون بطلب العودة بصحبة

---

(١) كتاب دوين مصر من سنة ١٨٠٢ — ١٨٠٤ ص ١٧٣
(٢) » » » » » » ٢٤٢
(٣) » » » » » » ١٧٣
(٤) » » » » » » ١٨٠

ما جمعوه من الغنائم والاسلاب . ولكن خورشيد أحس بأن لا سبيل إلى احتفاظه بمركزه بغير مساعدة محمد على المنطوية على الحزم وسعة الحيلة ولذا الح عليه في البقاء . ونحسب اننا لا نعدو الواقع اذا قلنا انه لم يجد صعوبة فى اقناعه بذلك (١)

وكان البؤس وقت ذاك قد ضرب اطنابه في كافة انحاء القاهرة ولكن لم يكن ثمة مناص من ترضية جنود محمد على وحملهم على البقاء . وهنا لم ير خورشيد حيلة الا أن يرضيهم بتجديد طرق الابتزاز التي كانت شائعة فى أيام المماليك . مثال ذلك أن أعيان الاقباط جيء بهم إلى القلعة وطلب اليهم تقديم ٢٠٠٠ كيس « نحو ١٠٠٠٠ جنيه » ولكن المماليك المعسكرين حول القاهرة قطعوا عنها الحبوب فتفشت المجاعة فى المدينة ومن ثم اخذ المسلمون الصالحون يتحسرون على أيام حكم الفرنسيين الكفار (٢)

وظل معتمدو الدول ينظرون إلى هاتيك الحوادث دون أن يستطيعوا التكهن بما سوف تؤدي اليه من العواقب . ولقد راجت بعد مرور جيلين من وقوعها أشاعة ربما كان باعثها الرغبة فى استدرار السخاء الخديوى بأن ليسبس المعتمد الفرنسى ادرك عبقرية محمد على من بداية الامر وانه ساهم فى ارتفاعه بما كان يبذله له من النصائح . ولكن توجد إلى جانب هذه الرواية الخيالية أقوال ليسبس نفسه لتليران عن محمد على . فقد قال « لست أظن أن محمد على له من العبقرية ما يجعله يفكر فى المشروعات الكبرى . ولو سلمنا جدلا أنه فكر فيها فليس لديه من الوسائل ما يمكنه من تنفيذ ما يفكر فيه » . من أجل هذا فان ليسبس لم يكن يشجع هذا الزعيم ذا العبقرية المحدودة أو يميل اليه . كلا بل كان ميله إلى البيكوات المماليك الذين كان يظن أن عودتهم إلى كراسى الحكم سوف يتبعها ازدياد النفوذ الفرنسى (٣) .

وكان المعتمد البريطانى الماجور ميسيت معذورا في وقوعه ضحية لهذه

---

(١) كتاب مصر من سنة ١٨٠٢ الى ١٨٠٤ ص ٢٤٢
(٢) » » » » » ١٧٣
(٣) » » » » » ٢٤٨

الامانى الخداعة . على أن حوادث سنة ١٩٠٥ كان لها الفضل كل الفضـل فى جـلاء الموقف . فان أهالى القاهرة بعد أن دفعهم المماليك إلى أحضان الجوع والفاقة وبعد أن التهمهم الباشوات أخذوا ينفرون واشرأبت أعناقهم إلى الزعيم الالبانى يرجون منه انقاذهم من ويلاتهم . ولعلك تجد البـاعث على هذا القلق فى أعمال التحريض الماهرة أكثر مما تجده في الاعتراف بالجميل الناشىء عن الوجدان النفسى. فان محمد على ـ كما حدثنا المؤرخ العربى المعاصر ـ قد توثقت عرى الصداقة بينه و بين أحد العلماء كما أنه كان يختلف خفية إلى داره ليعملقه ويؤكد له أنه لو كان أمر مصر بيـده لادار دفة الحكم بالعدل ولاتبع ما يشير به عليه الزعماء الدينيون من الاراء والنصائح .

ومن ثم بدأ محمد على باعداد انصار له فى المدينة نفسها وهى التي حاول خورشيد باشا عبثا ان يسيطر على مصائرها باحتجاز عالمين من علماء الدين كضمانة فى يده .

ولم يكن بينهما العالم صديق محمدعلى . ثم شرع فى الوقت نفسه يأتى بالامدادات من سوريا ليستغنى بها عن معونة الالبانيين . فكان فى حضور هذه الامدادات إلى مصر فصل الخطاب . ذلك لانه تبين أن قائدهم هو شقيق أحد الذين اشتركوا فى أغتيال حياة طاهر باشا . وقد برهنت هذه الامدادات على أن نظامها دون نظام الالبانيين او المماليك بمراحل . وهنا راجت سوق الاشاعات المقلقة فى الخارج عن مسلك هذه الامدادات ورويت روايات تقشعر منها الابدان عن كيفية وصولها إلى القرى وطردها السكان من منازلهم واعتدائها على عفاف نسائهم ثم قتلهن بعد ذلك واختطافها الاطفال . على أن هذه الاقاصيص ـ اذا حكمنا بما راج من مثيلاتها فى الجهات الاخرى ـ لم ينقص منها شيء اثناء ترديدها . ثم ان ما تضمنته من المبالغات لم يضعف من تأثيرها الادبى . ومن ثم استولى الذعر على أهالى القـاهرة من اقصاها إلى

أقصاها. وأغلق الازهر ابوابه، وخلت الاسواق من السابلة، وأصبح المرء لايجرؤ على مغادرة داره الا وهو يشعر بانه يحمل حياته على كفه.

وكان محمد علي عند وصول هذه الامدادات التي قضت مضاجع الاهلين بسلوكها الوحشي متغيبا عن القاهرة في غزو المماليك ومشتغلا بتشتيتهم. فلم يلبث ان عجل بالعودة. ولم ينقض اسبوع حتي دخل العاصمة على رأس ٤٠٠٠ جندى زاعما ان الباعث له على دخول المدينة هو للحصول على مرتبات رجاله. وهي حجة سرعان ماصادفت نقطة حساسة في انفس الامدادات بصفتها مكونة من جنود اتراك. وفى يوم التاسع من شهر مايو كان الامر قد التبس على خورشيد فلم يدرك مغزى مجيء محمد علي. فانتهز فرصة عودته لاعلان الفرمان الشاهانى القاضي باعطائه متصرفية جدة. ولقد كانت هذه الاشارة اللبقة المقترنة برغبة التملق الموجهة للزعيم الالبانى بان وجوده فى مصر بات غير مرغوب فيه، كافية لان يبت محمد علي فى الموقف بسرعة. فبينما كان خورشيد يتأهب للعودة إلى داره فى القلعة اذا بالجنود الالبانيين يحيطون به ويستجوبونه لدفع مرتباتهم موجهين اليه تهمة الاستغناء عن جباية الايرادات العامة. ثم أخذوا يهددونه بالقتل العاجل أن لم يدفع هذه المرتبات. وهنا تقدم أحد الضباط الالبانيين ليدرأ عنه عنف الجنود. وبينما كان خورشيد يعمل على التخلص من ذلك الموقف الحرج كان الشعب بارشاد العلماء ينادى بمحمد على واليا على القاهرة (١).

وأخيرا تمكن خورشيد من الفرار إلي القلعة ومنها حاول تصويب مدافعه على المدينة لاخضاعها. ولكن طوبجية الاتراك فشلوا فى تحقيق هذه الغاية. ولم تؤد محاولتهم إلا إلى أهاجة الاهالى لا أزعاجهم.

ثم تقدم العلماء معتمدين على تأييد الالبانيين بسلسلة مطالب. ولقد

---

(١) كتاب دوين باشا «القاهرة محمد علي».

كانت الحكمة فى نظر القوم تقضي وقتئذ – كما تقضى الآن – بانه فى المساومات السياسية – كما فى المساومات التجارية سواء بسواء – ينبغى أن تبدأ بطلب ما تعتقد أنه المستحيل . وجريا على هذه الحكمة طلب العلماء بان تعسكر الجنود من ذلك الوقت فصاعدا على ضفة النهر الغربية أى فى جهة الجيزة ، والا يسمح لاى جندي مسلح بدخول العاصمة ، والا يكلف الاهالي بتقديم الاعانات . (١) .

فلما رفضت هذه المطالب عادوا إلى المناداة بمحمد علي واليا على القاهرة بطريقة رسمية ، وشرعوا فى محاصرة القلعة . وبلغ حماس الاهالى إلى درجة الغليان مما جعل يذكر رجال الجالية الفرنسية – وكانوا يرقبون تطور الاحوال عن كثب – بشدة اندفاع سكان باريس المتحمسين للثورة الفرنسية (٢) .

وفي الواقع كان هناك تشابه كبير بين الثورتين . فان الشعب فى كلتا الحالتين كان منهمكا فى استبدال حاكم بآخر . على أنه برغم ذلك كان يوجد فارق جوهرى بين الحالتين . فالشعب الذى كان يتدفق وراء غوغاء باريس ورعاعها كان يهدف إلي ايجاد معاهدة جديدة ، بينما لم يكن للرجل الواقف خلف فتنة القاهرة من غاية سوي تعزيز نفوذه الشخصى بالوصول إلى كرسى الحكم . واذا كان الفرنسيون كذلك قد هاجموا البستيل واستولوا عليه ، فان سكان القاهرة على الرغم من أنهم كانوا يقتلون أنصار خورشيد اينما عثروا عليهم فى الطريق ، وعلى الرغم من أن كلا من هؤلاء السكان حتي الاطفال راح يبتاع السلاح (٣) فانهم لم يستطيعوا الاستيلاء على القلعة . نعم لقد تظاهر محمد على بمساعدة الاهالى ، فقد أمر بسحب المدافع إلي قمة جبل المقطم حيث يشرف على القلعة

(١) كتاب دوين باشا (القاهرة محمد على) ص ٢٧
(٢) » » » » » ٣٥
(٣) » » » » » ٣٥

ووضع جماعة من الرماة الماهرين في مأذنة جامع السلطان حسن ، ولكن الزعيم الالبانى لم يكن يرى فى الحالة ما يقتضى استعجال الامور والوصول بها إلى نتيجة حاسمة . ولعله كان يعتقد أن ذلك يكلفه الكثير من الضحايا فى وقت لم يكن يعتمد فيه الاعتماد كله على رجاله .

وفوق ذلك فانه كان يفضل أن يصير باشا القاهرة برضاء الاستانة لا أن يعلن عصيانه على السلطان وقدذهب المعتمد الفرنسى دوروفيشى وهو أبعد نظرا من سلفه ليسبس (١) . إلى الباب الموضوع فى تقرير بعث به حوالى ذلك الوقت إلي حكومته فى باريس . فقد كتب يقول :

« أن تصرفات هذا الزعيم الالبانى صاحب المشروعات الكبيرة تحملنى على الظن بأنه يؤمل أن يصبح باشا القاهرة بلا قتال ما وبدون أغضاب السلطان . فكل تصرف من تصرفاته يكشف عن عقلية ما كيفالية . حتى لقد بدأت حقا أعتقد أن له عقلا أرجح مما لدى الكثيرين من الاتراك . ويخيل إلى أنه يرمى إلي اعتلاء كرسى الحكم باسترضاء العلماء والشعب وهكذا يرغم الباب العالى علي التنازل له عن طواعية عن كرسى الحكم الذى يكون قد تم له الاستيلاء عليه » .

ولقدجاءت النتيجة طبق ماتوقعه هذا المعتمد الحاذق . ذلك أن رسولا من قبل السلطان وصل إلى الاسكندرية فى شهر يونية يحمل أمرا باعطاء ولاية مصر لخورشيد أو لمحمد على ، أي لأصلح الرجلين وأعزهما نفرا . وبعد لأى ما اعترف الرسول بان محمد على هو الأقوى فخلع عليه الولاية . .

وفي يوم ٧ أغسطس غادر خورشيد القلعة وأخذ طريقه إلي بولاق لركوب السفينة التي أقلته إلى الاسكندرية .

---

(١) المستر ميسيت ٣ سبتمبر سنة ١٨٠٤ (وزارة الحربية ا — ٣٤٧)

ولقد كان ما أظهره محمد على من المهارة السياسية أثناء هذه الحوادث مما يعتبر ، والحق يقال ، خارقا للمألوف . فانه أولا ساعد المماليك على قهر خسرو باشا . ثم أنه رجح بعد ذلك كفة أحد حزبي المماليك ضد الحزب الاخر . وبعد هذا وذاك شد أزر خورشيد باشا ضد المماليك . وأخيرا وضع نفسه على رأس أهالي القاهرة في ثورتهم علي خورشيد . وأيضا علي الاتراك والمماليك بالتوالى . ولكنه كان فى كل هذه الحركات واقفا عن كثب لايسمح لنفسه بالتورط فى تأييد أحد من هذه الاحزاب المتطاحنة . ثم أنه تمكن فى نهاية الامر من نيل رضاء السلطان بتوليته ولاية مصر . ولقد شاء بعض الباحثين أن يرى فى سعي محمد على للحصول علي موافقة السلطان رغبة منه فى صبغ قوته بصبغة قانونية . ولكن محمد علي كان سياسيا عمليا قوى الشكيمة لا يعنى الا بلباب الأمور دون قشورها . ولذا لم يكن يحفل كثيرا بقيمة الحق المعنوى . على أن اعتراف السلطان لم يضاعف نفوذ محمد على داخل مصر نفسها . لأنه لم يكن يتوقع لا وصول أمدادات من الجنود من الاستانة لتاييده ، ولا أن يواصل الباب العالى تاييده ولو أدبيا . بل أن الديوان المغامر الذى نخر سوس الرشوة عظامه لن يتردد فى أن يقلب له ظهر المجن متي ظهر على المسرح مرشح يمكن أن يعقد عليه الامال . هذا إلى أن المماليك كانوا لا يزالون يحتلون الوجه القبلى باسره وجزءا غير قليل من الوجه البحرى . ولكن الاعتراف الشاهانى بولايته قد اراح باله مؤقتا على كل حال ، وجعله يطمئن إلي عدم التدخل من ناحية تركيا ولو إلي أجل مسمى . وهكذا صار فى وسعه ـ ولو لبضعة أشهر ـ أن يتفرغ للمماليك وحدهم دون أن يكون مضطرا للموازنة بين الاتراك والمماليك إلا اذا تدخلت في شؤون مصر إحدى الدول الاوربية العظمى صدفة .

ومهما كان من أمره فقد كان الشك يحيط بمركزه . لان جيشه لم يكن يمكن الاحتفاظ به كمجموعة متحدة الاعن طريق دفع المرتبات بانتظام او اطلاق

يده في اعمال السلب والنهب . ولذلك كان لامفر له من الالتجاء في نهاية الامر الى سلوك خطة الابتزاز وهي التي قضت على اسلافه . وفي الوقت نفسه ماذا عسى كان يكون مسلك الدول الاجنبية حياله ؟ نعم أن دور فيشي قد يسلم بمقدرة الباشا ويعترف بمواهبه الماكيفالية ، ولكنه لم يكن يرغب وقتئذ في استمرار ادارته . ثم أن زميله المعتمد الانجليزي ميسيت لم يكن ميالا لاستمرار حكم محمد علي . وفي الواقع أن كلا منهما كان قليل الثقة بحسن نية الباشا (١) . كما كان يرتاب في قدرته على الاحتفاظ بمركزه (٢) ومن ثم شرع المعتمدان المذكوران يشجع كل منهما حزبا معينا من أحزاب المماليك. على أن أجماع المعتمد الانجليزي والفرنسي على مخاصمة محمد علي قد دفعه بالعكس إلى التقدم حثيثا إلى الامام وحفزه إلى العمل للحيلولة دون أتفاق كلمة المماليك ضده . وعلى الرغم من ذلك لم يكن دور فيشي مخدوعا بقوة البيكوات من الناحية العسكرية . وحسبك دليلا على هذا قوله :

« أن زعماء البيكوات ــ حتي ولو اتحدت كلمتهم جميعا ــ ليس لديهم من الرجال ما يزيد عن ٨٠٠ من المماليك ، بينما الباقون هم شراذمة من اليونانيين والعثمانيين والاعراب الذين لم ينضموا إلى قضية البيكوات إلا طمعا في أشباع شهواتهم في النهب والسلب . وقد مضى الوقت الذى كان المماليك يخرجون فيه للقتال وراء زعمائهم كالضواري غير هيابين ولا وجلين يستقبلون الموت بنفوس هادئة . ثم أنهم أصبحوا هيئة ينقصها النظام والمران . وبعد أن كان بلاط البيكوات يعتبر بمثابة مدرسة للنظام العسكرى والتحلي بفضائل الاخلاق أصبح مهدا للرذيلة ولمخالفة النظام . وليس من ريب في أن معيشة المماليك في الزمن الاخير معيشة القبائل الرحل التي تقوم على السلب

---

(١) ميسيت اول يناير سنة ١٨٠٦.

(٢) كتاب دوين باشا « القاهرة محمد علي » ص ٩٩.

والنهب قد دفعهم إلى هذا الدرك الاخلاقي السحيق (١) ثم ختم المعتمد المذكور أقواله عن مصر بألا أمل لها فى أن تذوق طعم النظام أو الحكم الصالح إلا اذا عاد الاحتلال الفرنسى (٢)

أما موقف الانجليز فكان علي النقيض من هذا من عدة نواح . فان ماحصلنا عليه من التجارب أبان حملة سنة ١٨٠١ قد دفعنا إلى أن نعتقد أعتقادا جازما وبحق بأن الاتراك لن يستطيعوا أن يستعيدوا مراكزهم فى مصر أو على الاقل لن يتمكنوا من الاحتفاظ به . فلقد وصفهم الجنرال هتشنسن بانهم قوم ضعاف لاثقة لهم بأصدقائهم وقد جعلوا اعتمادهم علي أعدائهم . وتنقصهم الموهبة لوضع أية خطة معينة ، ويعوزهم النشاط لتنفيذ تلك الخطط فيما لو وضعوها (٣) وكان كل أنسان يعتقد فى الوقت نفسه بان الفرنسيين مازالوا يحلمون بالعودة إلى فتح مصر . لهذا فان نلسون بصفته القائد الاعلى فى حوض البحر المتوسط قد صدرت اليه التعليمات بمجرد استئناف الحرب مع فرنسا بان يراقب أية حملة فرنسية يقصد أرسالها إلى الشرق بمجرد استئناف الحرب مع فرنسا . وهذا السبب نفسه هو الذى جعلنا نبسط سيطرتنا على جزيرة مالطة ، وبديهي أنه لو صمم الفرنسيون على استئناف هجومهم على مصر وعجز الاتراك عن صدهم فان المماليك وحدهم يصبحون وقتئذ نواة الحكومة المحلية الفعالة ، ومن ثم بذلت مساع عديدة وطرح علي الباب العالى مختلف المشروعات ليعهد إلى المماليك بادارة البلاد ، فلما تبين أن الباب العالى مصمم على عدم التورط فى مشروعات من هذا القبيل بدأت انجلترا تقترح أحتلال الاسكندرية علي الاقل ، ولما كان الباب العالى غير ميال إلى اتباع هذا الرأى أيضا فان الوزارة البريطانية أصبحت من الآن فصاعدا تعتقد أن أعمال الفرنسيين قد تدفعها إلي احتلال الاسكندرية سواء ارضى

---

(١) كتاب دوين باشا (القاهرة محمد على) ص ٨٢ ٨٢٤
(٢) » » » » » ص ١٢٩
(٣) » » حملة سنة ١٨٠٧ ص ٦

الباب العالي أولم يرض (١) وقد نفذت انجلترا ذلك المشروع عندما رأت السلطان بمناسبة ما أحرزه نابليون من الانتصارات الباهرة في أوربا فى سنتي ١٨٠٥ و ١٨٠٦ ، وقضائه على الحلف الذي تألف ، فقد اعترف به أمبراطورا . واستقبل السفير الفرنسي فى الاستانه بحفاوة خارجة عن الحدود المألوفة مما جعل الناس يؤولون هذه الظاهرة بانها تطور يعتبر بمثابة فتح أبواب مصر أمام الفرنسيين يدخلونها أينما يشاؤون . ومن ثم قررت انجلترا احتلال الاسكندرية . فبعد أيام قلائل ذهب جزء من الجيش البريطاني المعسكر فى صقلية قاصدا إلى الاسكندرية فأحتل المدينة في ليلة ٢٠ ـ ٢١ مارس سنة ١٨٠٧ ثم بادر المعتمد البريطانى ميسيت إلى دعوه حزب الالفى بك إلى شد أزرنا هذا بينما شرع القنصل الفرنسى بعد فراره إلى القاهرة يعد معدات الدفاع على عجل لصد غارة المغيرين ..

ومما ساعد على احتلال الاسكندرية بهذه السهولة أنها لم تكن وقتئذ حتى ولا تحت سيطرة محمد على الاسمية . وفى خلال سنة ١٨٠٥ أستصدر سكان المدينة بالحاح من ميسيت فرمانا بجعل الاسكندرية تحت سلطة ضابط من ضباط البحر مستقل تمام الاستقلال عن باشا القاهرة . ومع أن الباشا قد حاول أن يرشى هذا القومندان البحري ويحمله على قبول حامية البانية فى المدينة فأن ميسيت تمكن من اقناع القومندان بان يرفض الاقتراح المذكور (١) .

وفي يوم ٢٩ مارس خرجت فصيلة انجليزية قوامها ١٤٠٠ جندي متجهة إلى مدينة رشيد بقصد احتلالها ، وكانت ترمى إلى غاية مزدوجة الاولى تسهيل دخول المؤن الي الاسكندرية حتي اذا اصابت نجاحا باهرا حققت الغاية الثانية وهي دفع المماليك إلي المبادرة لمساعدتنا ولكن المشروع قام على

(١) ميسيت نول يناير سنة ١٨٠٦ (وزارة الخارجية ٢٤ ـ ٢) .

اساس خطة فاسدة نفذت بطريقة فاسدة أيضا . فاولا كان ينبغي على فريزر بصفته قومندان الحملة أن يتقدم بنفسه على رأس القسم الاكبر من جيشه (١) وثانيا كانت قيادة الفصيلة التي ذهبت لاحتلال رشيد فاسدة فان قائدها فوشوب استخدم جنوده جميعا في الهجوم دون أن يترك لنفسه احتياطيا فلما خر صريعا في بداية الهجوم خلفه اكبر الضباط مقاما ولكن هذا أيضا سرعان ما أصيب بجروح وان تكن حالت دون اشتراكه مع جنوده في مواصلة القتال الا انها لم تكن من الخطورة بحيث تحمله على التخلي لغيره عن القيادة فكانت نتيجة ذلك كله ان الحامية الالبانية عندما ارغمت على التخلي عن مواقعها لم تكن ثمة مخافر امامية لتحول دون عودتها . كذلك لم يهتم أحد بلم شعث الجنود في صعيد واحد بعد ان كانوا قد تفرقوا واختل نظامهم اثناء الهجوم . وما كان اشبه ما وقع بما سبق ان حدث في باتنا سنة ١٧٩٣ فان العدو لما لم ير من يطارده أو يتعقبه نجح في لم شعثه . ثم لما تأكد من عدم اتخاذ احتياطات مضادة اعاد الكرة على المدينة ودخلها ثانية . ولما تبين له ان الجنود بلا حراسة انقض انقضاض الصاعقة . حتى اذا اختلط الحابل بالنابل ووصلت الي القائد الجريح الانباء المزعجة تترى اصدر أوامره بالانسحاب العام على أن هذا الخطأ سرعان ما تحول الي كارثة كبري . فالمألوف في الشرق هو أن تقلب الحظ مهما كان تافها سرعان ما يؤدي الي تبدل موقف الاهالي. فان القاهرة ما كادت تسمع باحتلال الاسكندرية حتى استولى الذعر على سكانها ولم يخطر للجنود الالمانيين المعسكرين فيها الا أن يفروا الي سوريا وقد ابتاعوا أثناء فرارهم من مصر الخيل والبغال والحمير بضعفي ثمنها لنقل امتعتهم . بل انهم لم يترددوا في شراء (السيكوين) وهي قطعة نقود مدقوقة في مدينة البندقية باربعة عشر قرشا مع ان ثمنها المعتاد هو عشرة

---

(١) مذكرات السير جون مور اليومية الجزء الثاني ص ١٦٧

قروش . وابدي الفلاحون استعدادهم للثورة ومنع المؤونة عن بعض فصائل جنود محمد علي التي لم تكن من القوة بحيث تستطيع الدفاع عن نفسها في حين انهم قتلوا بعضا منها فى كثير من الجهات . (١)

حدث هذا كله كما قلنا عندما وصلت الانباء باحتلال الاسكندرية . ولكن ما أصاب الجنود الانجليزية من الفشل فى رشيد غير الموقف كلية . فقد استرد الالبانيون شجاعتهم . ثم أن المماليك بدلا من أن يبادروا الي الانضمام لجانب الانجليز ترددوا أولا ثم قرروا فى النهاية أن يتفقوا مع محمد علي فى مقابل شروط معينة . وترتب علي هذا أن الاهالي عادوا الي خضوعهم السابق وأصبح يتعذر علي الانجليز أن يحصلوا علي معلومات ما عن حركات العدو (٢) .

وقد تمكن محمد علي بفضل هذه التطورات من أن يحشد جنده ويرسلهم الي الشمال لصد الانجليز الذين كانوا قد قاموا بمحاولة اخرى للاستيلاء علي رشيد . ولقد كان تقدمهم فى هذه المرة بشيء من الحذر . بمعنى انهم اطلقوا وابلا من القنابل على المدينة وارجأوا مهاجمتها فعلا الي ان تصل امدادات المماليك التي وعدهم بها ميسيت . وبدلا من ظهور الحلفاء المزعومين ظهرت فى مكانهم قوات محمد علي ... وسرعان ما وجد المحاصرون أنفسهم علي غير انتظار بين نارين . ثم استمر القتال ومالت كفة النصر الي هذا الفريق ثم لي ذلك وبعد أن سقط من رجالنا ٤٠٠ جندي وأسر مثلهم صدر الامر مرة أخرى بالانسحاب الي الاسكندرية «٣»

علي أن محمد علي أخذ فى القاهرة بأسباب سياسة الاعتدال التي سبق له اتباعها مع خورشيد من قبل . ولو أن شخصا تركيا غدا محمد علي أحرر

---

(١) كتاب دوين (حملة سنة ١٨٠٧) ص ١٧٩ — ١٨٠)

(٢) ميسيت لاسحاق مورير ٢ مايو سنة ١٨٠٧ (وزارة الهند — مصر والبحر لاحمر

(٣) كتاب دوين ص ٧٣ — ٨٢

ما أحرز من النجاح لداخله الغرور وراح يقتل أسراه ولاصدرأمره باجراء عمليـة الختان لهم بخصيهم ولقـذف الباقين على قيد الحيـاة الى اليم دون أن يحسب حساب العواقب . ولـكن الباشا نزل على حـكم العادة فسمح بأن تحمل جماجم القتلى ويطاف بها فى الاسواق . ولم يشأ أن يتناسى بأنه لامفر من عقد الصلح عاجلا أو آجلا ، وأن الاساطيل الانجليزية لن تسمح لسفن العدو بالدخول الي ميناء الاسكندرية أو مبارحتها . والي جانب هذا كله فان بريطانيا لم تكن تسيطر علي البحر المتوسط من الامام وكفي بل وعلي المياه الهندية من الخلف . ولهذا كله قرر محمد علي أن يعامل الاسرى معاملة حسنة بل أنه أرسل احدهم في شهر مايو الي الاسكندرية مصحوبا بمترجم يوثق به للبحث في الشروط التي ينسحب الانجليز بمقتضاها . وقد عرض فى مقابل انسحاب الحملة الانجليزية أن يطلق سراح من وقع فى يده من الأسرى وأن يصمد لاية قوة أوروبية ترمي الي احتـلال مصر أو اخـتراق الاراضي المصرية فى طريقها الي الهند(١) ولـكن هـذه الاقتراحات قوبلت وقتذاك بالرفض غير أن وزارة بورتلند التي تبوأت كرسي الحـكم فى ربيع سنة ١٨٠٧ نظرت الي الموقف العسكرى نظرة حكيمة قائمة علي حقيقة الواقع أكثر مما نظرت اليه الوزارة السالفة وزارة غرانفيل . ومن ثم تقرر الجـلاء عن الاسكندرية التي كان فى الاستطاعة احتلالها من جديد اذا اقتضى الامر ذلك وكان من نتائج هذا القرار أن اتفاقا عقد فى ١٤ سبتمبر يقضي بالتخلي عن الاسكندرية للباشا فى مقابل إطلاق سراح الاسرى الانجليز واعـلان العفو العام عن كل من كان له ضلع فى مساعدة القوات الانجليزية .

وهكذا مرت الازمة بسلام . وليس من شك فى أن الحملة البريطانية لو حسنت قيادتها لاجهزت علي سطوة محمد علي الآخذة فى الازدياد . ولأدت

---

(١) كتاب دوين حملة سنة ١٨٠٧ ص ١١٣ .

الي اعادة مصر إما الي حكم المماليك أو الباب العالي . ولكنها قامت علي فكرة خاطئة أسيء تنفيذها . وما أشبه ما حدث بالحملة العقيمة التي وجهناها في بداية الحرب العالمية الماضية الي أعلى الفرات فمن الخطأ الغريب اننا أغفلنا في جملة رشيد أن نرسل أحدا من الضباط الذين عملوا تحت قيادة آبر كرومبي أو هتشنسن إبان احتلالنا الاول للاسكندرية كما أنه كان من المتعذر جدا سلخ قوات كبيرة من الجيش المرابط في صقلية لتحقيق الغاية المقصودة من إرسال تلك القوة الي مصر . وبالجملة فان الفشل كان من كافة الوجوه ذريعا من حيث مداه ، ومن حيث الثمن الذي تقاضاه منا ولكنه على ما يظن لم يكن فشلا تاما كما كان يلوح بادئ ذي بدء . ذلك لان ذكاء محمد علي قد خلص من هذا الحادث بنتائج تتجلي فيها الحكمة . فلقد أدرك أن الجيش الفرنسي لا يمكن أن يحسب حسابه مباشرة كالاسطول البريطاني . ومن ثم بدأ يفكر في ان بريطانيا العظمي ربما تكون حليفا له قيمته في تحقيق مشروعاته التي كان قد بدأ فعلا في تنفيذها .

ومن ثم بدأت الحالة في مصر تنجلي تدريجيا . فقد صار الزعيم الالباني ممثل الاستانة . واصبح التدخل الفرنسي مستحيلا . هذا الي أن التدخل البريطاني قد حبط فلم يبق إذن سوي المماليك الذين ينبغي الاجهاز عليهم قبل ان يعتبر محمد علي نفسه سيد مصر الاوحد . علي انه كان مع ذلك تحت خطر متزايد بأن الغالب شأنه كشأن كثيرين من الموفقين المطالبين بالاستيلاء علي تركة بواسطة القانون — قد يجد نفسه في النهاية انه لم يرث إلا تركة مثقلة بالديون .

فلقد كانت البلاد سائرة بخطوات واسعة نحو الخراب . فان مديريات الوجه القبلي كانت تئن تحت وطأة المماليك الحديدية . هذا بينما كان الوجه البحري عاجزا كل العجز عن سد حاجات الجنود من جهة وحاجات الأهالي من الجهة الاخرى . بل لقد اضطر الفلاح في كثير من الاحيان — في سبيل

اداء مطالب الحكومة وما لحق به من وسائل الاكراه الظالمة التي كان يتبعها مندوبو الحكومة ان يتخلى حتى عن آلاته الزراعية . وقد اصبحت القرى الواقعة فى الأراضي المتاخمة لساحل البحر مهجورة . ثم ان شواطيء النيل التي كانت فى يوم ما جنة زاهرة قد حكم عليها بالخراب غير الطبيعي (١)

وقد كان الاحتفاظ بالجيش — كما كان شانه فى الماضي وكما قدر له ان يبقى طويلا — علة العلل فى حدوث القلاقل العظيمة (٢) . ففى سنة ١٨٠٩ كان لدى الباشا نحو عشرة آلاف جندى ، ولكنهم كانوا — كما تقضي التقاليد التركية — يتناولون مرتبات ٣٠٠٠٠ (٣) ولقد زادت مرتباتهم هذه وما اليها من مصروفات الحكومة بمراحل عن إيرادات أراضي الوجه البحري حتى فى سنة ١٨٠٦ وعما تقاضته الجمارك من الرسم على تجارة متلاشية .

ولم يكن من سبيل الي سد العجز إلا بتجديد الضرائب التي فرضها المماليك وخورشيد باشا فى الماضي وفى الضرائب التي اصبحت اثقل وابغض الي النفس مما كانت فى اى زمن مضي . ذلك لان كل انسان اصبح مجردا حتي من امتعته المنقولة ، ثم ان الاجانب انفسهم ارغموا علي تقديم الاموال كما ارغم القناصل علي إبداء موافقتهم علي ذلك العمل (٤) وقد حدثنا المؤرخ العربي ان الجنود وحدهم هم الذين كانت لديهم دون سائر السكان نقود يستطيعون إقراضها (٥)

وكان شأن الالبانيين فى مصر كشأن الجنود العربية المأجورة التي

---

(١) ميسيت اول يناير سنة ١٨٠٦ (وزارة الخارجية ٢٤–٢)
(٢) كتاب دوين (حملة سنة ١٨٠٧) ص ١٣٨
(٣) كتاب ريو «محمد على ونابليون» ص ٣٤
(٤) كتاب دوين (حملة سنة ١٨٠٧) ص ١٩١
(٥) الجبرتي ص ١٨٢

جاءت الي باروداً أو الي حيدر اباد ، وكان موضع الحيرة فى الموقف هو إما الالتجاء الي السلب والنهب فيؤدي ذلك الي استفزاز الاهالي وأما إغضاء الالبانيين عن اغتصاب الجنود وإثارتهم .

ولقد بذل محمد علي بلا ريب آخر ما فى وسعه للخروج من هذه الورطة فلقد اجتذب الي جانبه مثلا رجال الدين وبعض اعيان القاهرة بمنحهم بعض القرى التي كانت للبكوات والمماليك من قبل وكان يرمى بذلك الي الفصل بين اهالي العاصمة وحكامهم السابقين فيما لو تناسوا مظالمهم الماضية (١) على ان المتاعب قد نشأت برغم ذلك من آن لآخر مما ادي الي القاء القبض علي مختلف الزعماء او علي اشخاص كان يؤمل ان يكونوا زعماء (٢) وكان مسلك جنوده اشد خطراً من كل هذا .

فبينما كان عائداً الي القلعة فى أحد أيام شهر اكتوبر سنة ١٨٠٧ أطلق النار عليه نفر من الجنود من منزل مجاور فجرحوا جواده وأصابوا بعض رفقائه (٣)

وبعد أيام قلائل احتشد لفيف من الجنود الالبانيين والعثمانيين أمام داره فى المدينة وصوبوا النار فعلا الي النوافذ . وسرعان ما تحرجت الحالة في المدينة فلم يجد مندوحة من مغادرتها للعودة الي القلعة (٤)

وأصبح باديا للعيان أن زيادة الايرادات عن النفقات نفسها مهما كانت الطريقة التي تتم بها هذه المعجزة — هي أول شرط أساسي فى سبيل تحسن موقف محمد علي . وكانت التجارة إحدى الموارد الماليه التي فكر فيها علي

(١) كتاب دوين ص ١٢٦
(٢) الكتاب نفسه ص ١٣٧
(٣) كتاب دوين ص ٢٠٧
(٤) » » ٢٠٩–٢١٠

ان هذه الفكرة لم تكن جديدة . ولقد أساء الكتاب الذين أشاروا إلى مركز شركة الهند الشرقية فهم الحقيقة عند ما زعموا أنها محتقرة فى أعين الشرقيين لا لسبب إلا لأنها تتاجر ولكن التاجر العادى إذا شعر باحتقار فليس مرجعه اشتغاله بالتجارة بل لأنه بلا حماية . لا بل كنت ترى فى كافة أنحاء الشرق من الآستانة إلى الصين و بانجوك عدداً من عظماء النبلاء وحكام الأقاليم وأبناء ملوك حاكمين وأمهاتهم بل الأمبراطرة أنفسهم كل هؤلاء كان لهم اهتمام مباشر بالتجارة . ولهذا فقد كانت طبيعية ومفهومة ولا محل للتشكك فيها تلك الخطوة التى خطاها محمد على . وهو الذى احترف قديماً تجارة التبغ قبل أن تحدثه نفسه بالانغماس فى هذه الجريمة العظمى التى يسمونها فى الشرف بالسياسة (١)

ولقد خدمه الحظ فى هذه المسألة فان الانجليز كانوا الأمة الوحيدة التى يستطيع محمد على أن يتاجر معها . لأن الراية الفرنسية فى السنوات الأخيرة من حروب نابليون كانت قد اختفت فعلا من بحار الشرق . ولقد قيل بمناسبة وصول إحدى البواخر الفرنسية إلى الثغر الاسكندرى سنة ١٨٠٨ انها الأولى من نوعها منذ خمسة أعوام ونصف عام (٢) وقد دخلت هناك سفينة فى سنة ١٨١١ فكانت الأولى من عام ونصف عام (٣) ولم يكن يمكن تأمين السفن الفرنسية فى مارسيليا إلا بعد دفع ٥٠ ٪ من القيمة المؤمن عليها فوراً . ثم ان الاسكندرية لم تكن يصلها من الصحف إلا صحيفة (مالطة غازيت) وكانت تنصح - كما قال دورفتشى - بمختلف أنواع القذف ضد الحكومة الفرنسية (٤) ولكن الانجليز كانوا فى الوقت نفسه عملاء متهافتين على القمح المصرى . إذ ليس

---

(١) كتاب دريو (امبراطورية محمد على) ١٨١٤ — ١٨٢٣ ص ٢٠٥

(٢) » » » ص ٩

(٣) » » » ص ١٣٧

(٤) » » » ص ٢٦

يخفى أن تموين أساطيلهم التى تمخر عباب البحر المتوسط من مالطة إلى جبل طارق لمراقبة ما يجرى فيه وتموين قواتهم الآخذة فى الازدياد وهى القوات التى كانت تقوم بالأعمال الحربية فى أسبانيا ، جعل الانجليز يتهافتون على شراء مقادير كبيرة من القمح . ولقد كانت سنوات الحرب المذكورة سنوات شح فى محصول القمح فى العالم عدا فى مصر . فقد كان الأمر بالعكس لأن ارتفاع مستوى النيل أدى الى وفرة المحصول (١) ولقد انتهز الباشا هذه الفرصة التى ساقتها العناية الالهية اليه . وسرعان ما أصبح تصدير القمح بمثابة امتياز ويقال أنه أفاء عليه ربحاً بلغ ٥٠٠ فى كل مائة

ولقد بذل دورفيثى القنصل الفرنسى فى القاهرة منتهى ما فى وسعه للحيلولة دون ازدياد هذه الصلات وتوثيقها . ولم يخرج ما حصل عليه من الترضية فى هذا الصدد عن مجرد التوكيد بان الباشا انما يعمل لمصلحته الشخصية فحسب ، وعن اشارة من طرف خفى بأن الانجليز يحتمل أن يستخدم ضدهم ما قدموه للباشا من أموال وذخائر (٢) . ولم تقتصر حركة التجارة على بيع الحبوب ومشتراها . هذا فى حين أن ثمنها دفع بعضه كسبائك ذهبية والبعض الآخر بشكل ذخائر والبعض بشكل سلع انجليزية . فمثلا رأينا الساعات الانجليزية راجت سوقها رواجا لا يوازيه رواج الساعات الواردة من جنيف (التى كان يقال كذبا أنها مصنوعة فى بريطانيا) . وهى الساعات التى اعتاد أن يبيعها الفرنسيون فى مصر . ثم أن البفتة كانت تستورد من الخارج وتستعمل بدلا من البفتة المصنوعة محليا (٣)

ولعل أبغض شىء من وجهة النظر الفرنسية أن هذه العلاقات التجارية

---

(١) كتاب غربال (بداية المسألة المصرية) ص ٢٨١

(٢) كتاب دريو (امبراطورية محمد على) ص ١١٧

(٣) « « ص ١٨٩

قد نشأت عنها صداقة سياسية . فان دسائس دورفيشي ونصائحه فى خلال الحملة الانجليزية فى سنة ١٨٠٧ قد كللت بالنجاح فى مبدأ الأمر . مثال ذلك أنه طلب — وقد أجيب إلى طلبه — بأن يعين حارس قضائى على البضائع الانجليزية الواردة تحت الراية (الفرنسية) (١) وأعلن حربا شعواء موفقة على أحد الرهبان لاجترائه على نشر نبأ معروف فى الاسكندرية بطرد نابليون من الكنيسة (٢) ولكن حدث فى سنة ١٨١١ أن إحدى السفن الفرنسية المسلحة المكلفة باقتناص السفن التجارية قد حاولت بيع البضائع التى اغتنمتها كما أن سفينة أخرى قد أعادت الكرة فى سنة ١٨١٢ وحاولت بيع سفينة انجليزية استولت عليها . ولكن مندوبى انجلترا أبدوا فى الحالتين معارضه شديدة موفقة فقد أدى اعتراضهما إلى بقاء المسألة معلقة ريثما وصلتهم فرمانات من السلطان. وكانت علاقات الصداقة قد توثقت بينه وبين انجلترا بحظر بيع الغنائم أى البضائع التى تقع غنيمة بأيدى أحد فريقى النزاع فى الموانى التركية . ولكن هذا كما لاحظ دورفيشي فى كثير من الغيظ . لم يمنع توريد بضائع الغنيمة التى حكمت بمصادرتها المحكمة الانجليزية فى لندن وتضييق مجال الانتقام أمام الفرنسيين . وقد قال بهذه المناسبة غالبا ماذا عسى أن تكون قيمة الغنائم إذا لم نستطيع أن نبيعها فى جهة من الجهات (٣) ويلوح أن التجارة وقد دخلت فى موضوع النزاع قد رجحت كفة الميزان كثيرا لمصلحة انجلترا وبخاصة لأنها عجلت فى ملء خزائن الباشا بعد أن كانت خاوية على عروشها .

وفى الوقت نفسه وللوصول إلى الغاية عينها شرع محمد على فى اصلاح أداة الايرادات فلقد سار الفساد السياسى فى عهد الامبراطورية التركية وعهد المغول

---

(١) كتاب دربو (امبراطورية محمد على) ص ١٨ و ٢٠ و ٢٧

(٢) » » ص ٦٣

(٣) » » ص ١١٧

فى هذه الطريق عينها . بمعنى أن الايرادات العامة كانت تبذر يمينا وشمالا لسد مطامع شخصية . ثم أن طريقة فرض الضرائب وطريقة جبايتها كانت قد وضعت بشكل يحير عقول الباحثين . وقد سن الأقباط الذين احتكروا لأنفسهم (مهمة المحاسبجية) طريقة حسابية تشبه فى تعقدها ما كان يفعله جماعة البراهمة فى دفتر بونا . ثم جاء سك العملة بمثابة فرصة نادرة لسلب الفلاح والحكومة على السواء وأصبح الفدان تختلف مساحته باختلاف الأقاليم وباختلاف الجهات فى الاقليم الواحد . ثم أن عادة تأخير مرتبات الموظفين شهوراً عديدة أعطى لهؤلاء الحق - وهو ما يرجح أنهم كانوا يفعلونه على كل حال - ان يفرضوا ضرائب اضافية سرعان ما ضمت عند اكتشافها الى سلسلة الضرائب العامة وحلت محلها ضرائب جديدة أخرى .

ولقد عقد محمد على النية على أن يشق لنفسه طريقا وسط هذه المساوىء المتجمعة . فقرر فى سنة ١٨٠٨ اجراء تحقيق فى مسألة ملكية الأطيان . ولكن أسلاف محمد على من المصلحين الشرقيين سبق أن حاولوا أن يفعلوا هذا فكان تصيبهم على هذا الاصلاح أن سلقهم الناس بالسنة حداد .

ولقد أراد الباشا أن يطبق فى مصر ما فعله الامبراطور (أكبر) فى الهند . ولم يكن ثمة محيص عن هذا بل كان ضرورياً . فالضغط الذى استعمله ضد الموظفين المكلفين بجمع الضرائب لم يكن من شأنه أن يحملهم على التخلى عن أجورهم الاضافية ، كلا بل أدى بالعكس إلى تشديد وطأتهم على الفلاح الذى بعد أن ضاق ذرعا بما يستعمله من وسائل السلب كل من الملتزمين والموظفين والبدو والمماليك والالبانيين جعل يفر من الأرض ويهجر الحقول دون أن يحرثها .

وكانت نتيجة ذلك أن أمر محمد على بأن تفحص كافة الهبات التى يزعم الملتزمون لأنفسهم الحق فى وضع أيديهم على الأرض بمقتضاها . فقضى بإلغاء

جميع ما كان يختل الاجراءات كما أنه نزع بعد ذلك ملكية الأراضى التى تأخر سداد الضرائب عنها عدة سنوات وعوض أصحابها عن ضياع أراضيهم بمعاشات معينة . ثم خطا محمد على بعد ذلك بست سنوات خطوة أخرى فالغى الحصانة التى كانت تتمتع بها الأوقاف إلى ذلك الحين . وأمر بمسح الأراضى من جديد حيث تبين له أن الأطيان التى كانت تدفع عنها أموال أميرية كانت فى كثير من الأحيان تدفع هذه الأموال عن نصف المساحة المنزرعة فعلا . وقد سهل محمد على بهذه الطريقة مسألة توزيع الأراضى .

وأخيرا قضى محمد على فى سنة ١٨١٤ بتجريد باقى الملتزمين من أطيانهم . نعم كانت هذه التصرفات قاسية وبغيضة فى نظر الأشخاص الذين كان محمد على يدين لهم بفضل ما كان ينعم به من التأييد الشعبى . ولكن لم يكن ثمة مناص من أمثال هذه الاجراءات . ولقد بين دورفيشى فى سنة ١٨٠٨ أن ما يقرب من ثلثى الاراضى التى كانت مزروعة فعلا فى سنة ١٧٩٨ كانت بورا . على أن الباشا (مطبقا ما كان يروجه موظفو شركة الهند الشرقية من المبادىء) لم يسمح بأن تبقى الاراضى التى أصبحت فى حيازته بلا زراعة . بل أمر الفلاحين بالبدء فى حرثها مع فرض أصرم الجزاء على من يتهاون فى أداء أعماله (١) على أن هذا التدخل فى حقوق الملكية الذى لم يغتفره الأحرار الانجليز لمحمد على لم يمر مصحوبا بذلك الاستهجان العام المألوف . كلا بل أن الأمر لم يخرج عن بضعة اجتماعات بسيطة لا أهمية لها عقدت فى الجامع الأزهر ولم تكن لها من نتيجة سوى انتزاع بضعة وعود بتحسين الحالة وهى وعود لم يدر بخلد أحد أنها ستحترم (٢)

وقد أدت هذه التصرفات المالية إلى توطيد الخزانة الأميرية فى القاهرة .

---

(١) كتاب دريو (امبراطورية محمد على (١٨١٤ — ١٨٢٣) ص ١٣١ و ٢٤١ والجبرتى ص ٢٤٣ و ٣٥٤ .

(٢) كتاب الثورة المصرية لباتون الجزء الثانى ص ٢٧ وكتاب دريو ص ٢٤٢

ومن ثم قل الخطر الناشىء عن جيش الباشا بنسبة الحرص على دفع مرتبات الجنود بانتظام . وفى نفس الوقت اخذت المسألة الخاصة بالمماليك تقترب تدريجيا من الحل الحاسم . فلقد رأينا بيكواتهم فى سنة ١٨٠٧ بسبب ما نصبه لهم محمد على ودورفيشى من الدسائس وبسبب الاختلاف فيما بين بعضهم والبعض وبسبب فشل الانجليز فى الاستيلاء على رشيد من الناحية الثالثة ـ أخذوا ـ يهملون استغلال آخر فرصة أتاحها القدر لهم لاستعادة نفوذهم فى القاهرة وفى الوجه البحرى . ولكنهم كانوا لا يزالون يعتبرون هيئه خطرة يحسب حسابها . وكانوا لا يزالون يحتلون الصعيد تارة فيهددون بذلك القاهرة تهديداً فعليا أو ينسحبون الى الجنوب نزولا على تقلبات القدر وتبعا للسيطرة العسكرية. وقد يحدث احيانا أن تجرى المفاوضات فجأة فتسفر عن اتفاقات مؤقتة ليس فى نية أحد الفريقين التقيد بها ولا أن تظل محترمة الا بقدر ما استغرق اجراء المفاوضات من زمن (١) وكان أشياع الفى بك مازالون يعللون أنفسهم بالآمال بأن تصل اليهم حملة انجليزية قوية جديدة فتجهز كلية على عدوهم ثم تعود فى سفنها الى انجلترا . هذا بينما كان الاكثر حماسة يرى أن فى الاستطاعة الحصول من الانجليز على بعض الاموال ليتمكنوا من شراء جنود محمد على . ثم يتولون هم (أشياع الفى بك) القضاء عليه نهائيا (٢) . أما الباشا فكان قد صمم من جانبه على إذلال المماليك جميعا . ولذا وجه اهتمامه إلى حملهم على العودة إلى القاهرة ليعيشوا فيها تحت حمايته . ثم انقضت بعد رحيل الانجليز عدة شهور بين مفاضات وقتال من ناحية أخرى .

وأخيراً قبل البيكوات فى نهاية سنة ١٨٠٩ المجىء للسكن فى الجيزة (٣)

---

(١) كتاب دريو (امبراطورية محمد على (١٨١٤ — ١٨٢٣) ص ٣٣

(٢) » » » ص ٤٣

(٣) » » » ص ٥٤

على أنهم رغم قبولهم هذا لم يصلوا إلى الجيزة قبل مرور ستة أشهر أخرى . ولما وصلوها فإلا إذا بهم كانوا أشد استعدادا للحرب منهم للسلم . ولقد ظلت جموعهم زمنا طويلا تواجه قوات الباشا مع أن فريقا من زعمائهم . قد انحاز إلى محمد على إلا أن الأغلبية قررت استئناف القتال . ثم دارت عدة معارك تمكن الباشا فيها من التغلب على خصومه بفضل مدفعيته . وأخيراً قرر أغلب من بقى منهم على قيد الحياة أن يعلن فى أوائل سنة ١٨١٦ خضوعه (١) بعد أن انهار سلطانهم وفشلت رغبتهم .

وقضت الاعتبارات السياسية المرعية منذ عهد بعيد بالاجهاز عليهم أجمعين ولذا عقد محمد على النية على أن يبيد كافة هؤلاء الطغاة بعـــد أن أوقعهم سوء حظهم فى يديه . ولتحقيق هذه الغاية كان من المستحسن جمع أكبر عدد منهم فى مكان أمين لا سبيل الى فرارهم منه . وإذ كان قد تقرر اقامة مهرجان عظيم فى أول مارس للانعام على ابن الباشا بكسوة تشريفة بمناسبة تعيينه (باشا جدة) وقائدا للجنود المزمع ارسالها لقمع حركة الوهابيين فى الحجاز فقد رأى محمد على أن يدعو جميع كبراء المماليك للاشتراك فى المهرجان المذكور وسألهم أن يأتوا بكل من شاءوا من الموالى والاتباع .

فانطلت عليهم الحيلة تماما وقصدوا إلى القلعة فى حشد كبير للاشتراك فى الموكب الذى تقرر خروجه من هناك قاصدا إلى المعسكر عن طريق بوابة الفتوح . وتنحدر من المنصة الصخرية التى تقوم عليها المبانى الرئيسية فى القلعة طريق ملتوية تتجه إلى العزب (وتؤدى الى ميدان الرميلة) وهذا يسهل الاشراف على كل نقطة فيه لانزال الهلاك بكل من تحدثه نفسه من الأعداء باقتحام الباب . وقد بدأت الجنود الملتحقة بالموكب تنحدر فى هذه الطريق وكان فى

---

(١) كتاب دريو (امبراطورية محمد على سنة ١٩١٤ — ١٨٢٣) ص ٦٩ و ٧٠ و ٨٣ و ٩٢

طليعتها الجنود العثمانيون ، ثم الجنود الألبانيون ثم المماليك ثم جنود المشاة والسوارى . وما كادت طليعة الجنود تعبر الباب حتى أمر الزعيم الالبانى بإغلاقه وكانت هذه اشارة لجنوده باطلاق نارهم على المماليك وهم ينحدرون فى الطريق المذكورة التى سرعان ما تعطلت فيها حركة المرور بسبب ما تراكم فيهامن جثث القتلى من آدميين وخيول . أما من نجا فقد انهال عليه الرصاص وهو يحاول الفرار أو قبض عليه وجيء به إلى الباشا حيث أمر باطاحة رأسه . ويقال أنه لم ينج الا شخص واحد من المماليك فى هذه المذبحة التى لم تكن فصل الخطاب بحال ما . ذلك لأن الأوامر قد صدرت إلى الجنود بان يهبطوا إلى المدينة فيقتلوا كل من عثروا عليه من المماليك .

وقد صدع الجنود بالأمر وراحوا يشنون الغارة على قصور المماليك وينهبون ما فيها بعد أن اجهزوا على ساكنيها . وكان أحد الأوربيين قد ذهب إلى دار قريبة من القلعة لمشاهدة الموكب المزعوم . ولكنه ما كاد يعود أدراجه إلى منزله حتى رأى جمعا من الأسرى المساكين وهم يساقون إلى ساحة الاعدام لا بل لقد شهد بجانبه واحداً منهم يخر قتيلا بضربة سيف شطرته نصفين . وقد رأى نساء أحد البيكوات يسوقهن الجنود الألبانيون كأنهن قطيع من الغنم . وكان اينما ذهب وقع نظره على الجنود وهى محملة بمختلف أنواع السلب وأغلة فى الانتقام (١)

ولقد تمكن الباشا بعد ذلك بعام من تمثيل مأساة كهذه . فقد كان لا يزال يوجد بعض المماليك فى مختلف مديريات الصعيد. فبعد أن لبث يطاردهم ويضيق عليهم الخناق مدة أشهر بالقوة التى أرسلها اليهم وعلى رأسهم ابراهيم ابنه ، سلم اليه ٨٠٠ من المماليك ومعهم نحو ٢٠٠ من مواليهم فأرسلوا جميعا إلى

---

(١) كتاب لين بولول (حياة ستراتفورد كاننج) الجزء الاول ص ٢٠٧ ــ ١٠٩

إلى النطع من فورهم (١) وبهذه الوسائل الشبيهة بوسائل كرومويل أصبح الباشا سيد مصر المطاع لاينازعه أحد سيادة البلاد .

وليس فيما عاق به دروفيتى على هذه الحوادث الشاذة مايزيد الموضوع إيضاحا فبينما كانت برك الدماء لم تجف بعد فى القلعة ، وبينما كانت المدينة ما تزال يلوح عليها أثر انتهاب قصور المماليك ولم يكن ماحدث فى نظره سوى (إعدام قطيع) جرد الانجليز من أصدقائهم الباقين (٢) ولكن القنصل الفرنسى لم يتنبه الى الجانب الأدبى للمأساة إلا بعد أن اجترأ ميسيت على ضم تهانئه الى جانب تهانى الفرنسيين وإلا بعد أن تبين أن مركز الانجليز بدلا من أن يسوء قد أخذ يتحسن باطراد . ومن ثم أخذ القنصل الفرنسى المذكور يصف ما اتخذ أخيراً من الاجراءات ضد المماليك بأنها اجراءات شريرة ولا مسوغ لها .

وقد أراد البعض التخفيف من شأن هذه المذابح بأمرين : الأول أن البكوات تآمروا فيما بينهم على خلع محمد على . والثانى أن ديوان الاستانة هو الذى حرضه على ارتكاب تلك الفعلة . وقد يكون كلا السببين صحيحا ولكن السبب الحقيقى يختلف بلا جدال عن ذلك . فلقد كانت سلطة الباشا ماتزال مزعزعة . ثم أنه كان قد طلب اليه مرات عديدة أن يذهب على رأس حملة لتوطيد الحالة فى بلاد العرب . فلم يكن يعقل طبعا أن يضعضع قوته ويترك للمماليك الفرصة للتغلب عليه .

وليس من شك فى أن الباعث الذى دفع تيمورلنك الى التخلص من أسراه بقتلهم أمام أبواب دلهى هو نفسه الذى دفع محمد على الى قتل المماليك . ثم أنه لايوجد مايدعو الى الظن فى أنه يتردد فى تنفيذ نيته بمجرد اقتناعه بأن مركزه محفوف بالخطر . على أنه والحق يقال لم يكن من أولئك المتعطشين للولوغ فى الدماء كما أنه لم يكن ممن يعمد الى القتل حباً فى القتل . ولكنه من الجانب

---

(١) خطاب الى ميسيت بتاريخ ٦ يناير سنة ١٨١٣ وزارة الخارجية ٢٤—٤

(٢) كتاب ديرون (امبراطورية محمد على) (١٨١٤—١٨٣٣) ص ١١٣

الآخر لم يكن مدفوعا بعاطفة الرقة حيال الحياة الانسانية التى بدأت تعم بلاد العرب فى ابان القرن الغابر . بل كان يرى أسباباً عديدة تسوغ القتل تمام التسويغ . ولم يكن اعتقاده هذا بالشيء الغريب فان كل من غشى ديوانه من الأصدقاء أو الرفقاء أو الضباط أو الرؤساء كان لا بد أن يرمى محمد على بقصر النظر لو أنه رأى غير ذلك الرأى . وفى العام التالى تمكن جلال الدين حاكم حلب من اطاحة رؤوس زعماء الانكشارية جملة واحدة (١)

فكل ما فعله محمد على هو أنه كان موفقاً التوفيق كله فيما عجز قبطان باشا عن فعله من سنوات .

وليس ثمة ما يمكن إضافته بعد ذلك إذا نظرنا الى المسألة من ناحية الأخلاق التركية . وبديهى أن وجهة نظر محمد على وآراءه كانت كلها تركية تماما ولم يكن يعقل أن تكون عدا ذلك . فان مولده ونشأته وتجاريبه فى الحياة كل هذه العوامل أدت الى اخراج رجل قوى الشكيمة لا يدركه الوهن دون غاية من الغايات . وليس وجه الغرابة فى أن محمد على قد أسس ملكه كما يؤسسه التركى بل فى قدرته - على عكس أى تركى آخر فى زمنه - على التطور وامتصاص الآراء الجديدة وتحويرها لتكون ملائمة لمختلف الظروف والملابسات الحديثة . وقد كشفت له عيناه الثاقبتان عن مواطن الضعف الأساسية فى بناء الحكم الشرقى الحاضر . وكانت توجد الى جانب سعيه المتواصل لوضع أسس سياسية حكيمة لتوطيد مركزه وتأمين مركز ذريته فى المستقبل قوة كامنة غريبة وشعور بالقوى التى تبنى بها الدولة أو تكون سببا فى انهيارها وخرابها ومقدرة على مواصلة الكفاح للتحسين وعين يقظى تنظر الى مساوىء الاداة الادارية . وهى صفات لم تجتمع لحاكم شرقى من أيام أكبر عاهل المغول . وفى الواقع فان حكمه يعتبر بمثابة نقطة تحول لا فى تاريخ مصر وحدها بل فى تاريخ الشرق الأدنى بأسره ، فلقد كان فى طليعة معاصريه فى تطبيق الأفكار السياسية الغربية على شؤون الشرق .

---

(١) كتاب باركر (سوريا ومصر) الجزء الاول ص ١٣٨ - ١٤٠ .

الفصل الثانى

عماد الامبراطورية

بلاد العرب والسودان

بعد أن دانت لمحمد على الأمور وأصبح حاكم مصر الفعلى والاسمى مرت فترة من الزمن تبلغ العشرين ربيعا فدفعت به الظروف الى أن يظهر بوجه عام بمظهر الخادم المخلص والعبد النشيط المطيع لأوامر مولاه صاحب الجلالة سلطان الروم والخليفة ظل الله فى الأرض .. على أن طاعته هذه لم تكن حقيقية كما أن غيرته كانت مصطنعة . وأغلب الظن أنه منذ أول يوم خطرت له فكرة أن الاستيلاء على حكومة مصر ليس بالأمر الذى لا يمكن تحقيقه عمليا ، فانه شرع يغذى الأمل فى أن يحكم وادى النيل يوما ما لا كنائب عن سيد آخر بل كحاكم مستقل . نعم كان طاهر باشا زميله فى حمل السلاح يحلم بالحكم المستقل ولكن مواظبة محمد على قد حققت هذا الحكم فأخرجه من حيز التفكير الى حيز العمل . ولقد عرض الزعيم الألمانى على الإنجليز فى سنة ١٨١٢ (١) كما عرض على الفرنسيين فى سنة ١٨١٠ (٢) عقد محالفة فيما لو اعترف به هؤلاء أو أولئك حاكما للقاهرة لا بل لقد عرض فعلا على ديوان الاستانة سنة ١٨١٠ ان يكون شأنه كشأن حكام ولايات البربر فى شمال أفريقيا (٣)

---

(١) ميسيت فى ٢٠ يونيه سنة ١٨١٢ (وزارة الخارجية ٢٤—٤)
(٢) كتاب دريو (امبراطورية محمد على) فى ١٨١٤ - ١٨٢٣ ص ٩٣
(٣) تاريخ الامبراطورية المصرية لصبرى ص ٣٧

ولكن الانجليز والفرنسيين رفضوا الاقتراح المذكور مراعاة للحالة السائدة فى أوربا وقتئذ من ناحية واحتراما لما بينهم وبين السلطان من المحالفات من الناحية الأخرى . ويلوح أن محمد على لم يقدر تماما ماتقاضاه السلطان ثمنا للانعام الذى طلبه زعيم الألبانيين . على أن هذا الفشل من آن لآخر لم يفت فى عضده ولم يحوله عن رأيه . بل أدى فقط الى حمل محمد على على إخفاء نياته وكتمانها . ولقد كان من شأن اخفاقه فى عقد التحالف مع احدى الدولتين الأوربيتين سالفتى الذكر انه امتنع عن مناصبة الباب العالى العداء . ومع أنه قلما أطاع ماصدر اليه من الأوامر إلا إذا كان من الممكن تحويله الى تعزيز نفوذه وتوطيد مركزه فان تصريحاته العلنية كانت دائما ، والحق يقال ، تصريحات التابع الموالى المخلص . وبالجملة فقد كان ثمت خلال هذه الفترة خلاف حاد بين ما يجاهر به محمد على علنا وبين الغاية الحقيقية التى كان يرمى إليها سراً .

ولقد كانت الحالة الداخلية فى الامبراطورية العثمانية كثيرة الشبه وقتئذ بحالة امبراطورية المغول فى أوائل القرن الثانى عشر . فقد نخر السوس عظامها سواء بسواء . فديوان الاستانة كقصر المغول من قبله كان قد أصبح ولا شاغل له إلا شؤون الوزراء الخصوصية والمصالح الفردية لكل منهم . ثم أن باشوات الأقاليم التركية كنواب حكام المغول لم تكن تربطهم بالحكومة المركزية إلا روابط واهية

وقد كانت بغداد والقاهرة عاصمتين منفصلتين كما كانت حيدرأباد ولكناو من قبل . ولكن كان ثمت فارق فيما يحيط بالامبراطوريتين المتداعيتين من العوامل السياسية . فان جيران المغول من قبائل ماراتا أو الأفغان كانوا بعيدين بعضهم عن بعض . ثم أن تصرفاتهم السياسية كانت مسيرة الى أبعد حد بقانون الطبيعة بحيث أن كلا الفريقين لم يحجم عن الاستيلاء على دلهى إلا

خوفا من أن يخرج الفريق الآخر بنصيب الأسد من الغنيمة . أما أملاك السلطان فقد كانت – على العكس من ذلك – متاخمة لسلسلة من الدول الأوربية مرتبطة فيما بينها بعدة روابط كل منها متيقظة تمام التيقظ لتوسع الأخرى وإنتشار نفوذها . فكانت النتيجة أن امبراطورية المغول بينما تركت وشأنها الى أن تحللت بفعل العوامل الطبيعية وضربت فيها الفوضى أطنابها ، فان الأملاك العثمانية ظلت متماسكة بفعل المؤثرات الخارجية أمداً طويلا حتى بعد أن زال تماسكها الداخلى . من أجل هذا كان تصرف محمدعلى بصفته دعامة الامبراطورية مدفوعا بهذا الاعتبار .

ولم يكن ثمت مايدعو محمد على الى الاعتراف بالجميل . لأن الباب العالى إذا كان قد ظهر ثبات فى موقفه فقد كان فقط فى عدائه لوالى مصر . فلقد بدأ باتهامه بالتآمر مع بيكوات المماليك لتحقيق لباناته الشخصية وإنزال الأضرار بالدولة ، فلما أرسل رؤوسهم لتعلق على الأعمدة عند مدخل البوابة الكبرى لقصر الاستانة وجه اليه الباب العالى أشد اللوم لاقدامه على قتل أخلص أنصار السلطان (١) بل أن الباب العالى كثيراً ماطالبه أثناء كفاحه مع المماليك من أجل عرش مصر أن يتأهب لقمع حركة الوهابيين فى بلاد العرب ولكن كان محمد على يعتذر فى كل مرة لغاية سنة ١٨١١ بما قد يترتب من الخطر بسبب ترك أولئك الزعماء المصريين البؤساء خلفه فى مصر ، ويشير إلى ما يصلهم من التشجيع والمساعدة من باشا سوريا المجاور لهم ويبالغ فى مصاعب الحصول على السفن اللازمة للملاحة ولنقل مهمات الحملة فى البحر الاحمر (٢) فاذا كان محمد على قد قرر فى النهاية أن يصدع بأمر الاستانة وأن يطيع ما يشير به

---

(١) الى النقيب افندى بتاريخ ٥و٩ رجب سنة ١٢٢٦ (محفوظات قصر عابدين)

(٢) الى النقيب افندى ٥ ذى الحجة سنة ١٢٢٥ وأول محرم سنة ١٢٢٦ (من محفوظات قصر عابدين

السلطان فلم يكن ذلك باعثه مجرد العواطف الجوفاء كالطاعة أو الولاء . فلقد رأى ألا حرج عليه من القيام بالحملة المذكورة ضد بلاد العرب بعد أن دانت له الأمور واطمأن باله من ناحية المماليك . ثم أنه رأى من ناحية أخرى أن الحملة قد تشغل أولئك الجنود الألبانيين المشاغبين الذين أطلقوا عليه النار وهو لا يزال منهمكا فى مكافحة المماليك ، وقبل أن تتم له الغلبة عليهم . لذلك أحس أن وجود الجنود الألبانيين فى مصر أثناء تغيب بقية الجيش فى بلاد العرب قد يغريهم ويدفعهم الى أعمال الشغب بعد أن خلا لهم الجو ، ولم يبق أمامهم من يضرب على أيديهم . وأخيرا رأى فى اخراج الوهابيين من الأراضى المقدسة ما قد يرفع من شأنه ويعلى من مكانته فى كافة أنحاء العالم الاسلامى .

وكان أول ظهور المذهب الوهابى فى بلاد العرب حوالى منتصف القرن الثامن عشر . فان زعيم الجماعة محمد بن عبدالوهاب بعد أن أتم دراسته فى دمشق وبغداد ولى وجهه شطر مكة وألقى عصا التسيار فيها . وهناك جعل ينعم البصر عن كثب فى كيفية معيشة الحاج وعاداتهم . ولم يكن من شأن كل هذا إلا أن يقوى فى نفسه الاعتقاد بأن الاسلام قد أغارت عليه البدع وأفسدته التقاليد الجديدة ولا محيص له من العودة الى ما كان عليه فى عهد السلف الصالح من الطهارة والبساطة . ومن ثم شرع يشن الغارة على زخارف الحياة فى عصره ويذكر الناس فى عبارات بليغة مؤثرة بأعمال الهدى كما نص عليها القرآن الكريم ، ويبين لهم متى يمكن تسويغ الانحراف عن المرمى المقصود من المعانى القرآنية . وقد طفق يبشر بهذه المبادىء الطهرية فى قريته من أعمال نجد . ولما لم يكن كبير الشأن فى قريته التى كان فيها مسقط رأسه ونظرا الى أنه كان الى ذلك الحين بمثابة نبى غير مسلح فقد هاجر كما هاجر من قبله النبي محمد صلى الله عليه وسلم الى حيث يستظل بحماية أمير الدارعية محمد بن السعود .

وسرعان ما اعتنق الأمير المبادىء التى كان يبشر بها محمد بن عبد الوهاب وهكذا وجدنا فى قلب نجد حكومة دينية متوحشة جعلت ديدنها شن الغارة واعلان الحرب على جيرانها المسلمين الذين انحرفوا عن الدين بما ابتكروه من البدع . وقد سارعت الحكومة المذكورة الى التنديد بالخلافة التركية وبادرت الى تحدى من يجاورها من باشوات الامبراطورية العثمانية . وكان طبيعياً أن لايجد المذهب الوهابى كبير مقاومة فى حالة الضعف والوهن التى كانت فيها الامبراطورية المذكورة وقتذاك . وقد ساوى الوهابيون فى كرههم بين الشيعة والسنيين بانتهاك حرمة الأماكن التى يقدسها الفريق الأول فى كربلاء والفريق الثانى فى مكة والمدينة ، ولم يتورعوا عن أن يقتلوا مئات المتعبدين والناسكين فى داخل حرم الأماكن المذكورة .

وقد أحدث احتلال الوهابيين الحجاز رجة وأى رجة فى أنحاء العالم الاسلامى . وكيف لا وقد ترتب عليه تعطيل حركة الحج السنوى الى الأماكن المقدسة تعطيلا تاما . ففى سنة ١٨٠٥ وكذلك فى سنة ١٨٠٦ اضطر الحج السورى ان يعود أدراجه الى الشام دون أن يتمكن من الوصول الى الحرمين مما أدى الى معاقبة باشا دمشق واستبداله بآخر . وفى الحق لقد كان هذا العقاب فى محله . فان أموال (الميرى) عن أراضى مديريتى دمشق وطرابلس الشام قد خصصت (بحسب الأساليب التركية فى الشئون المالية) للقيام بما يستلزمه ارسال الحج الشامى الى الحجاز وحمايته من النفقات . وكأنما رأى باشا دمشق أن الوهابيين كانوا للحجاز بمثابة نعمة جادت بها السماء عليه لأن تعطيل الحج يمكنه بناء على ذلك من تحويل الأموال المذكورة الى جيبه الخاص . ومن هنا لم يلاحظ على باشا دمشق هذا أنه قام بأى مجهود يذكر لاقلاق خواطر الوهابيين واقصائهم عن مكة والمدينة (١)

---

(١) كتاب بوركنهاردت بلاد النوبة ص ٣٣

وكان السلطان قد ظل السنوات العديدة قبل ذلك وهو يصدر من الأوامر التي لا يؤبه لها الى كل من والى دمشق و بغداد لطرد المغيرين من الأراضى المقدسة . ذلك لأن حماية تلك الأراضى يعتبر فى نظر التقاليد الاسلامية من أسمى علامات الشرف . فلم يكن غريبا والحالة هكذا أن يعتبر طرد الأتراك منها عاراً وأى عار . لهذا ولى الباب العالى وجهه شطر باشا القاهرة الناشىء وقد خيل الى السلطان أن يكون فى الوقت نفسه قد قام بمناورة عظيمة لو أنه تمكن من حمل باشا القاهرة على انهاك قواه وتبديد موارده باستخدام جنوده فى القضاء على الوهابيين . لأنه بذلك لا يستعيد الحجاز فقط بل ويستعيد أيضا مصر الى قبضة يده . وهكذا رأينا الباشا والسلطان يتحدان فى النهاية (وإن كان هذا الاتحاد لبواعث مختلفة) تحدوهما رغبة واحدة فى اعادة فتح بلاد العرب التى تعتبر مهد الاسلام .

ومن ثم بدأ ابنه طوسون زحفه الحقيقى فى أواخر سنة ١٨١١ وهو الزحف الذى بدأ مرة قبل ذلك بالوليمة التى شهدت مأساة المماليك فى القلعة وطاحت فيها رؤوسهم . على أن المأساة وقعت فى هذه المرة لا قبل الشروع فى الزحف بل بعده . لأن الحملة نزلت فى السفن فى السويس وألقت مراسيها فى ينبع . ولكنها حوصرت فى أوائل سنة ١٨١١ فى مضيق واقع على الطريق المؤدى الى المدينة ودارت رحى القتال مدة ثلاثة أيام كانت نتيجتها عودة المغيرين القهقرى الى ينبع بعد أن فقدوا كافة بطاريات الطوبجية (١) أما الانسحاب فقد بدأه كبير ضباط طوسن الى أن وصل الى ينبع فى أمان . ولكن سرعان ما أطيحت رأسه بناء على أوامر محمد على لشد عزيمة بقية الجنود . وقد انتهز الباشا فرصة هذا الانسحاب للتخلص من بعض المشاغبين من زعماء الألبانيين ممن كانت لهم نزعات ثورية وميول للشغب تسبب قلقاً له . وكان طبيعيا بعد مالحقهم من

(١) ميسيت ٦ فبراير سنة ١٨١٢ (وزارة الخارجية ٢٤ – ٤)

عار الهزيمة وبعد أن ضاقوا ذرعا بمصاعب ومشاق القتال فى بلاد العرب القحلاء حيث لاتزيد فيها الغنيمة عن بضعة إبل مع ما يتعرض له الانسان من خطر القتال ، نقول كان بديهياً بعدذلك كله ألا يطيل أولئك الزعماء الألبانيون اعتراضهم عند ما اقترح عليهم الباشا أن يغادروا مصر وأن يبحثوا عن خدمة فى الجيش العثمانى فى جهات أخرى تكفل لهم المكسب وتدر عليهم الأرزاق .

وقد انقضى فصل الحر عام ١٨١٢ فى اتخاذ هـــذه الاجراءات والقيام بتجهيز الاستعدادات لحملة ثانية . وقد تضمنت هذه الاستعدادات اغواء بعض القبائل العربية فى الحجاز بوسائل عرفناها فى العصور الحديثة لتسهيل الزحف على المدينة . وقد كللت هذه الاجراءات بالنجاح . وكانت نتيجتها طرد الوهابيين من المدينة فى شهر نوفمبر ، ومن مكة ثم جدة فى أوائل العام التـالى . ومن ثم بسط محمد على ظله على الحجاز وأصبح سلطان الاستانة ينادى باسمه من جديد من فوق المنبر فى الأراضى المقدسة (١) .

ثم ذهب محمد على بعد شهور قليلة بنفسه الى مكة « لتوطيد دعائم النظام » فى ممتلكاته الجديدة (٢) ولـكن تبـين أنه كان يرمى من وراء هـذه الزيارة الى تعيين (شريف) جـديد فى مكة لأن الشريف القـديم لم يكتف على ما يظن بالعطف على الوهابيين وتقديم المساعدة لهم بل كانت فى حيازته أيضا أموال طائلة . وقد تم خلع الشريف بمنتهى السهولة وأرسل هو أولاده الثـلاثة الى القاهرة (٣) . على أن هذا التصرف قد أقلق عدداً من القبائل العربية ومن ثم شرع الوهابيون يحشدون قواتهم من جديد فى الصحراء . وإذ ذاك أرسلت التعليمات الى القاهرة فى طلب عدد جديد من الجنود لصد هذا الخطر . فأمر

---

(١) ميسيت فى نوفمبر سنة ١٨١٢ (وزارة الخارجية ٢٤ - ٤)

(٢) « فى ١٣ اكتوبر سنة ١٨١٣ (وزارة الخارجية ٢٤ - ٤)

(٣) « فى ١٢ يناير سنة ١٨٠٤ (وزارة الخارجية ٢٤ - ٥)

الباشا بارسال ١٠٠٠٠ جندى فى أسرع وقت ممكن . ولما لم يكن فى مصر وقتئذ سوى ١٢٠٠٠ جندى فقد كان لامناص من الالتجاء الى التجنيد العنيف لسد هذا الطلب . ولهذا أخذ المراكشيون من بلاد البربر والرقيق السودانى واليونانيون بل والأزمن يلتحقون بالجيش ويرسلون أفواجا أفواجا الى جبهة القتال (١) هذه الحملة التى بدأت فى سنة ١٨١٤ افتتحت بكارثة كما افتتحت حملة طوسن من قبل .

فان إحدى فصائل الجيش قد هاجمها العرب على غرة منها وهى على مسيرة يومين من الطائف . وما كاد الفريقان يلتحمان حتى فر من الميدان عشرة من الضباط الكبار الاثنى عشر وقد أخذوا معهم معظم رجالهم .

وهنا اعتلى محمد على ظهر بعيره وانطلق كالسهم لمقابله الفارين الذين لم ينفع الوعد ولا الوعيد فى لم شملهم . فكانت نتيجة ذلك أن سبعة قومندانات حرموا من رتبهم وأعيدوا الى القاهرة . والمظنون أن الثلاثة الباقين قد أعدموا (٢) وقد أصيب المصريون بهزيمة أخرى عند ما شرعوا فى مهاجمة (طربا) بقيادة طوسن .

ويظهر أن الفصيلة المذكورة قد ضللها الدليل ولهذا داهم الوهابيون خيامها ليلا واستولوا على كافة أمتعتها ومدفعيتها . وكانت نتيجة هذه الكارثة تفشى اليأس بين الجنود المصريين . ولقد ذكر أحد أذكياء السائحين — ويشير ميسيت بهذا الوصف الى الرحالة بوركنهاردت الشهير الذى كان وقتئذ فى جدة أى فى شهر أغسطس — ذكر أن الجنود قد خارت عزائمهم بصفة عامة واستولى عليهم القنوط والتذمر بسبب غلاء المعيشة حتى بلغت الأثمان هنا ضعفها فى مصر وخاصة أنه ليس ثمة أمل فى المكسب ولا مجال للسلب والنهب

---

(١) ميسيت ١٩ ابريل سنة ١٨١٤ (وزارة الخارجية ٢٤ — ٥)

(٢) « ٩ ابريل سنة ١٨١٤ (وزارة الخارجية (٢٤ — ٥)

فليس فى بلاد العرب فلاحون يمكن انتهابهم ولا قرى عامرة صالحة للاستلاب فأعداؤهم ليسوا إلا مجرد رجال بدو فى أطمار بالية وكل مايطمع الجند المصرى أن يقتمه بعد الجهود الشاقة هو بعير عراه الهزال من شدة الجوع (١)

ثم دار الزمن دورته وبدأ الحظ من جديد يبتسم للجنود المصرية وجلية الخبر أن ابن السعود فارق هذا العالم فى شهر ابريل ولم يتمكن أولاده الثلاثة من الاتفاق فيما بينهم (٢) وفى الوقت نفسه وصلت الامدادات للجيش المصرى وأمكن استرضاء زعماء العشائر وأشياع مشايخ القبائل . ونزل الباشا بنفسه بعد الاحتفال بالعيد فى مكة الى حومة الوغى بقيادة الجيش . ويقال أن الوهابيين كانوا قد حشدوا قوة تقدر بأربعين ألف مقاتل فى جبهة (بصيلة) على مسافة ١٢ ميلا فى غرب (طربا) . فداهمهم محمد على وبعد معركة دموية حامية — وهذا وصف محمد على نفسه تفرق الوهابيون أيدى سبا وواصل الفرسان المصريون تعقب آثارهم مدة ساعة ونصف ساعة . وقد استولوا على الخيم الوهابى بما فى ذلك . . . ٥ رأس من الإبل وكثير من الأجهزة والأمتعة (٣)

وقد كان هذا الانتصار الباهر خليقاً بأن يؤدى الى قمع الحركة الوهابية بصفة نهائية ولكن هذا الأمل لم يتحقق لعدة أسباب . فان الباشا كان بعيداً عن القاهرة أكثر من عام . ثم ان الباب العالى حاول مرة على الأقل أن يخلعه من باشوية مصر (٤) وفوق هذا فان عودة بونابرت من (ألبا) قد فتح الباب لحدوث اضطرابات جديدة فى القارة الأوربية مما يمكن أن يفيد محمد على

---

(١) حاشية بتاريخ ٧ أغسطس فى تقارير ميسيت بتاريخ ٧ ديسمبر سنة ١٨١٤ (وزارة الخارجية ٢٤ — ٥)

(٢) ميسيت ٩ يونيه سنة ١٨١٤ (وزارة الخارجية ٢٤ — ٥)

(٣) من أقوال محمد على فى خطاب أرسله الى ميسيت فى صفر ١٢١٠ (وزارة الخارجية ٢٤ — ٦)

(٤) مؤامرة لطيف باشا ميسيت ١٣ نوفمبر سنة ١٨١٣ (وزارة الخارجية ٢٤ — ٤)

منها سياسياً (١) . فلهذه الأسباب وغيرها قرر محمد على أن يعهد لابنه طوسن بأن يواصل القتال الى النهاية . وقد أظهر هذا عجزه كما أظهره فى المرة السالفة. فلقد بدأ الزحف الذى كان ينبغى أن يؤدى به الى قاعدة الوهابيين فى «داراعية» ولكنه وجد أن المؤونة قد نفذت وحسب أن الوهابيين لو كانوا تحت قيادة زعيمهم المتوفى وقتئذ لأنزلوا بالمغيرين المصريين هزيمة حاسمة . ولكن عبدالله أميرهم الجديد كان قد استولى عليه اليأس وفقد كثيراً من توازنه بعد انتصار المصريين فى بصيلة فأحجم عن الهجوم كما أحجم طوسن عن مواصلة الزحف وكانت النتيجة أن الفريقين اتفقا على عقد صلح تنازل بمقتضاه الوهابيون عن كافة حقوقهم على القبائل الضاربة فى الجهات التى استولى عليها محمدعلى . ولما كان هذا الصلح قد ترك فى أيدى الوهابيين بعض المناطق الواقعة فى شمالى المدينة وشرقيها وفيما بينها وبين مكة (٢) فقد كان يعتبر بمثابة هدنة مؤقتة تحترم الى أن يأنس أحد الفريقين من نفسه القوة الكافية على استئناف القتال .

وفى أوائل شهر يناير سنة ١٨١٦ أى بينما كانت القارة الأوربية المتعبة تتمتع بفترة طويلة من السلام لم تعتدها من قبل وصلت الأنباء — أو على الأصح أذيع فى القاهرة — أن بعض القبائل العربية قد عكرت صفو السلام وأشعلت نار الثورة بتحريض الوهابيين . وكانت المنية قد أنشبت أظفارها فى طوسن بعد عودته من حروب الصحراء . ومن ثم عهد الباشا بقيادة الحملة الجديدة الى ابراهيم وهو الابن الثانى لباشا مصر وقد كان يسمى « أسد الشجعان الذى كانت آراؤه سديدة موفقة فى كل حين » (٣) وشاءت الأقدار

---

(١) كتاب توركنهاردوت (بلاد العرب) المجلد الاول ص ١٤٩

(٢) ميسيت ١٣ يناير سنة ١٨١٦ (وزارة الخارجيه ٢٤—٦)

(٣) » ١٦ » » » » ٦٤—٢٤)

أن يلعب هـــذا القائد الجديد دوراً مهما فيما يقع فى السنوات المقبلة من الحوادث الخطيرة .

كانت ولادة ابراهيم فى قولة سنة ١٧٨٩ وكانت سنه لا تتجاوز السادسة والعشرين ربيعا عند ما اختير لقيادة هـذه الحملة . كان قصير القامة قوى البنية وعلى جانب عظيم من النشاط وكان فى وسعه أن يقاوم متاعب اللذات ومتاعب الحرب على السواء . كان أزرق العينين عالى الجبين ذا لحية شقراء . وكان كثير النشاط عقلا وجسما . وكان أشبه بوالده محمد على من حيث الشجاعة المقرونة باصالة الرأى . ولكن كانت تنقصه حلاوة حديث أبيه وجاذبيـــة أخلاقه وصدق فراسته سواء فى الناس أو فى المواقف (١) وكان صارما يبعث الرهبة فى النفوس بعكس أبيـــه الذى يبعث الاعجاب ويسحر الناس بحلو حديثه . وأحسب أن ابراهيم ما كان ليستطيع أن يشق لنفسه طريق المجد كما فعل أبوه محمد على ، ولكنه كان جندياً يشار اليـــه بالبنان على كل حال . فقد أصبح الساعد الأيمن لأبيه ينظر اليه بعين الهيبة المقرونة بالطاعة البنوية وينفذ أوامره بمنتهى الاخلاص والدقة . ثم أنه ورث عن أبيه أيضا حب النظر فى المسائل بنفسه بدلا من وضع ثقته فيما يقدم له من التقارير (٢)

وكان أول ما وجه اليـه اهتمامه ليس ادراك فوز حربى معين وأنه كان يرى أن الوقت المناسب لم يحن له بعد — بل اكتساب بعض زعماء القبـائل الى الجانب المصرى بعد أن أخذوا يضيقون ذرعا بالحكم الوهابى . وبهـذه المناسبة كتب « هنرى صولت » وهو الذى خلف ميسيت فى منصبه فى أوائل

(١) كثيرا ماروى الناس أن ابراهيم لم يكن ابن محمد على بل كان ابن قرينتـه من بعل سابق ولكن هذه الرواية غير صحيحة (كامبل بتاريخ ٣٠ يوليه سـنة ١٨٣٩) وزارة الخارجية ٣٧٥ — ٧٨)

(٢) لاين بول استراتفورد كاننج الجزء الاول صحيفة ٤٦٩ تقرير كامبل عن سوريا وزارة الخارجية ٢٨٣ — ٧٨)

سنة ١٨١٧ يقول « ان ما أبداه ابراهيم من المواهب فى استمالة مختلف القبائل البدوية ليدل على أن النجاح سيكون حليفه فى النهاية (١) » ولم يعد هذا العميد الحقيقة عند ماعزا نجاح ابراهيم الى عزيمته التى لاتفل أو على الأصح قسوته حيال معارضيه والى اشرافه على خزانة الأموال وإلى ماكان له من حسن السمعة وشدة المحافظة على وعوده — وهى خلال ثلاث لا مناص منها لبسط نفوذ الانسان بين القبائل العربية (٢) ثم ان اشرافه على مرؤوسيه كان فى الوقت نفسه يخالف كل المخالفة تساهل طوسن حيالهم. وقد ضرب لنا صولت مثلا على صحة هذا الأمر فقال « ان المدعو حسن أغا المشرف على شؤون حدود الحجاز وقع فى كمين فبدلا من أن يكون أول الفارين إذا بالأغا يطلق النار على جواده فيرديه أمام خط القتال وبذا شارك الأغا مصير رجاله (٣) ولعمرى إذا كان فى استطاعة ابراهيم أن يثير فى نفوس رجاله مثل هذا الشعور الشريف بالواجب لجدير به أن ينجح » .

أما عبد الله بن سعود فقد خيل اليه أنه فى مأمن من طوارىء الحدثان لوجوده فى معقله الصحراوى فى الدارعية على أن ابراهيم سرعان مازحف بعد أن أتم خططه وأكمل استعداده. وقد واصل زحفه لا كفاتح ولكن كصديق وحام ولم يكن هناك أى توازن فى دفع مايطلبه الجيش من قرب المياه أو التمر أو الخشب.

ثم أن ماسنّه من النظام القاسى حال دون مااعتاده الجنود من أعمال السلب وارتكاب المحظورات. وكان جديراً بأن يكسب بهذا التصرف شيئا من التأييد الذى كان من نصيب الجيش الانجليزى أثناء زحفه فى الهند. ولكن

---

(١) صولت ٢٨ ابريل سنة ١٨١٧ (وزارة الخارجية ٨٩ — ٧٨)

(٢) « ٦ يونيه سنة ١٨١٨ « « ٩١ — ٧٨

(٣) « ٦ يونيه سنة ١٨١٨ « « ٩١ — ٧٨

برغم هذا كله فان الحملة قد أبهظ عاتقها ما كان يحيط بها من المصاعب الناشئة عن طول طرق المواصلات وارتكازها على القاعدة البحرية فى جدة. وفى الحق أن مالا يقل عن ٨٠٠٠٠ بعير قد استخدمت فى صيانة طرق المواصلات (١) ولم يكن لدى ابراهيم عند ما وصل الى الدارعية سوى ٦٠٠٠ جندى فقط. وقد لبث أمام المدينة ثلاثة أشهر كاملة دون أن يستطيع شيئا. ومما زاد الطين بلة أن مخزن الذخيرة انفجر بفعل النار. ونحسب أن قائداً غير ابراهيم كان يهون عليه فى ظروف حرجة كهذه أن يقود جنوده الى أعمال النهب وسفك الدماء على طول خط التقهقر ولكن ابراهيم احتفظ بمكانته وصمد لهجمات العدو الى أن وصلته الامدادات والذخيرة من جديد. ومن ثم أخذ يضيق الحصار وأخيرا تمكن من الاستيلاء على القلعة فى سبتمبر سنة ١٨١٨ وقبض على زعيمين من مشايخ الوهابيين فحلق لحيتيهما المرسلتين وطمر أسنانهما وجعلهما أضحوكة أمام الناس (٢) وفى الوقت نفسه قضى بابعاد عدد من أفراد الأسرة الى القاهرة (٣) وأرسل عبد الله بن سعود الى الاستانة لمفاوضة السلطان فى الصلح إن استطاع الى ذلك سبيلا.

وهكذا تلاشى الخطر الوهابى مؤقتا ونجح ساعد ابراهيم القوى وعزيمة محمد على المنظمة فيما أخفق فيه من قبل باشا بغداد أو باشا سوريا. وذلك على الرغم من قربهما النسبي من قاعدة الوهابيين « الدارعية » وبالرغم من تغافل ابراهيم عن تنفيذ المشروعات السابقة لمحاولة اقناع دعاة المذهب الجديد بالوسائل السلمية بأنهم قد حادوا عن طريق الصواب.

وقد أهدى أهالى الصوفية فى فارس الى محمد على سيفاً مقوسا نفيسا رصعت

---

(١) صولت ٦ يونيه سنة ١٨١٨ (وزارة الخارجية ٩١-٧٨)

(٢) حوادث بتاريخ ٨ اكتوبر سنة ١٨١٨ (وزارة الخارجية ــ ٩١ــ ٧٨)

(٣) كتاب دوين مصر بين سنة ١٨٠٢ وسنة ١٨٠٤ ص ٤٦

قبضته فضلا عن غمده بالأحجار الكريمة النادرة (١) .

بل أن الباب العالى لم يتمالك نفسه من شدة الفرح بمثل هذا النجاح الخارج عن المألوف فأمر بقطع رأس شيخ الوهابيين وكبيرهم وعين ابراهيم واليا على الحجاز والحبشة (٢) .

هذا بينما القنصل الانجليزى قد اهتز طرباً للقضاء على من أسماهم عصبة من اللصوص برهنوا على أنهم أشد تعصباً وأقل تسامحا وأكثر عداء لتقدم المدنية من نفس اتباع العقيدة الاسلامية الذين كان الوهابيون يطمحون فى أن يحلوا مكانهم (٣) .

ويظهر أن الامبراطورية العثمانيـــة كانت مرتاحة كامبراطورية المغول وامبراطورية المرانا والفرس والصينيين أشد الارتياح الى عدم تعيين حدود أراضيها بصفة قاطعة مما فتح الطريق أمام الاستانة لاستنكار أو تجاهل ما قد يقوم به الجيران من الحكام من أعمال الاعتداء والاستفادة من أعمال ولاتها فى الأقاليم أو التنصل منها حسب ما يتراءى لها . فلقد كانت توجد دائما فيما وراء الأقاليم الواقعة تحت ادارة السلطان الفعلية والاسمية مناطق مبتهجة كان الأتراك قد هبطوها مرة كفاتحين .

وكان وجودهم فيها داعيا لادخال الرعب مؤقتا فى قلوب زعماء هذه الجهات وحملهم على اعلان خضوعهم وطاعتهم لهؤلاء الفاتحين أو لتقـــديم ولائهم للسلطان بصفته الخليفة طبقا للتقاليد الاسلامية القائلة بوجوب الاعتراف به والنزول على أوامره ونواهيه . فهذه المطالب التى لم تكن لتحتمل البحث لو

---

(١) كتاب دريو امبراطورية محمد على ص ١٧٦

(٢) تحتوى محفوظات عابدين على صورة من الفرمان بتعيين ابراهيم باشا واليا للحجاز والحبشة بتاريخ ٤ ربيع الاول سنة ١٢٣٧ .

(٣) تقرير صولت

عرضت أمام قضاة أوربيين قد تناولت البقاع الممتدة على طول حوض البحر الاحمر وما وراءها الى عدن ثم عبر البحر المذكور الى بعض الموانى الصغيرة كمصوع وسواكن على الشاطىء الأفريقى . وهذا هو السر فى أن لقب ابراهيم باشا تضمن أيضا الاشراف الاسمى على الحبشة وهو الاشراف الذى لم يكن يزيد فى الواقع على مجرد الحق فى تعيين حكام فى الموانى لتحصيل المكوس على منتجات السودان كالصمغ والعاج والرقيق . وهى المنتجات التى كانت تسير بها القوافل لبيعها لتجار جوجاراتى الذين يؤمون موانى البحر الاحمر[1]

على ان محمد على لم يقتنع مطلقا بهذه السلطة المحدودة لأنه كان يطمع فى الاشراف على التجارة نفسها . فلقد كان راسخا فى اعتقاده أن أراضى السودان والحبشة غنية بما فيها من معدن الذهب كما أنه كان يعرف أن الجنوب هو المورد العظيم لأولئك الأرقاء السود الأقوياء ولهم قيمة كبرى فى مصر . فهذه البواعث الثلاثة كلها كانت قوية . ومن المتعذر أن يقول الانسان هنا هل كان محمد على مدفوعا برغبته فى العثور على مناجم الذهب ليتمكن من اكتساب صداقة ديوان الاستانة بأسره أم كان مدفوعا بأمل الحصول على الرقيق لتدريبهم على الشئون العسكرية تمهيداً لتكوين جيوش منهم تمكنه من الاستغناء عن مشاغب الألبانيين والأتراك بحيث يستطيع يوما ما تحدى السلطان وكل ما يحشده من جنود وجحافل ؟

ومن ثم أعد محمد على العدة للقيام بحملة كبيرة الى جهات الجنوب متظاهرا بأن الغرض منها رد اهانة قيل أنها موجهة من سلطان سنار ثم لفتح الطريق أمام القوافل التجارية للوصول الى القاهرة عن طريق النيل ولم ينتصف العام حتى كان قد احتشد نحو ٥٠٠٠ جندى فى وادى حلفا وهى المنطقة التى لم يكن

---

١ ملاحظات فالنشيا فى خطاب بعث الى كاننج فى ١٣ سبتمبر سنة ١٨٠٨ — بوزارة الخارجية ١ — ١٠

نفوذ الباشا يتجاوزها كثيراً . ثم عهد بقيـادة الحملة الى اسماعيل ثالث أولاد محمد على . وقد عين فى هـذا المنصب للتمرس فى شئون الحكم والحرب (١) وسرعان ماتمـكن اسماعيـل من فتح اقليم سـنار والقسم الشرقى من السودان واخضاع زعماء هذه المناطق بعد قليل من المقاومة . ولم يكن ثمت ما يقتضى المباهاة فى فتح هـذه الجهات أولا لقلة دراية السودانيين باستعمال الأسلحة النارية وثانيا لانقسام الأهالى بعضهم على بعض برياسة زعيمين كانا يتطاحنان على الزعامة وقد قتـل أحدهما الآخر ثم فر الى الحبشة . ومن ثم بادر الملك الاسمى الى التسليم . ثم واصل الجيش المصرى زحفه جنوبا الى أن وصل الى نقطة واقعة بين خطى العرض ١٠ و١١ فى الشمال (٢) على أن الزحف هنا لم يكن مصحوبا بالتوفيق الذى شوهد فى بدء الحملة . فقـد كانت الغابات والأحراش من أكبر العوائق فى سبيل الفاتحين مع أن الدفاع عنها كان سهلا وتفشت الدوسـنطاريا وأمراض هـذه المناطق بين الجنود المصرية . وقلت المؤونة وهكذا رأى اسماعيل نفسه مضطراً الى الانسحاب الى سنار .

وكانت تقدمت فى الوقت نفسه قوة من الجند بقيادة صهر الباشا الدفتردار بك قاصدة الى كردفان والشطر الغربى من السودان . وبعد مقاومة أشد مما شوهد فى سنار سقطت الأبيض وأعمل الجنود السلب والنهب فيها . وهكذا تم فتح السودان . ولكن ادارته تركت لأيدى غير متمرسة . ولقد كان فى نية محمد على أن يعهد الى ابراهيم بادارة ذلك القطر وتنظيمه ولـكنه أصيب بالدوسنطاريا على أثر وصوله واضطر الى العودة لمصر من فوره .

أما مناجم الذهب التى كانت مطمح أنظار محمد على فلم يعثر عليها الجيش المصرى . ثم أن عدد من وصل الى اسوان من السودانيين القادرين على

---

(١) صولت ٣ يونيه سنة ١٨٢٠ — وزارة الخارجية ٧٨ ـ ٩٦
(٢) كتاب هيبرن السودان المصرى ص ١٦

حمل السلاح لم يتجاوز الخمسمائة فى شهر مارس سنة ١٨٢٢ (١) بدلا من الجيش العظيم الذى كان يحلم به محمد على . ثم ان اسماعيل نفسه لم يظهر كفاءة فى ادارة السودان . وهذا ما حدا بمحمد على أن ينصح ابنه مرارا عديدة باستعمال وسائل اللطف واللين وأن يحكم بين الرعية بالعدل والعمل على مصالحة الناس (٢)

ولكنه كان على الرغم من هذه النصائح يلح فى مطالبة ابنه بارسال فصائل جديدة من الرقيق وهو مالم يكن يمكن تحقيقه إلا بمواصلة الغارات على الاهالى الذين كانوا قد تملكهم الرعب والهلع .

وبديهى أن من المستحيل استمالة شعب ومحاولة استعباده فى الوقت نفسه . وكان اسماعيل على مايظهر يرى ان الأمر الثانى هو أولى بالعناية . ففى أواخر سنة ١٨٢٢ ركب اسماعيل نهر النيل ورسا فى مقابل شندى وطلب الى الزعيم السودانى هناك أن يقدم له خلال ثلاثة أيام ١٥٠٠٠ ريال و ٦٠٠٠ رقيق . فأخبره الزعيم أن ذلك خارج عن مقدرته . فلطمه اسماعيل بالكرباج على وجهه صائحا « أتهيننى أيها العبد » . وهنا تدخل زعيم آخر ووعد بتنفيذ الأمر وانسحب الزعيمان . وقد كانت الغاية من الانسحاب ليست النزول على أوامر اسماعيل بل لجمع أنصارهما وأتباعهما . ولما اجتمعوا أحاطوا بقوات اسماعيل وسدوا الطريق فى وجهها لهجوم فجائى قاموا به فى الليل على غير انتظار . أما اسماعيل ومن معه من الجند فى الضفة الأخرى فقد استيقظوا ووجدوا أن الدار التى كانوا فيها قد شبت فيها النار ثم انقض عليهم الأعداء فمزقوهم إرباً إرباً (٣)

ولكن الزعيم السودانى المسكين كان قد نسى شأن الدفتردار بك فى كردفان فما

---

(١) حركات فى ٣٠ مايو سنة ١٨٢٢ (وزارة الخارجية ٧٨ — ١١٢)

(٢) خطاب محمد على لابنه اسماعيل فى ٩ ربيع الثانى سنة ١٢١٦

(٣) صولت فى ١٤ ديسمبر سنة ١٨٤٢

كاد يسمع بمصرع اسماعيل حتى عاد الى سنار على جناح السرعة وهناك انتقم من الأهالى أشد انتقام . ويقال أنه أطاح رؤوس مالا يقل عن ٣٠٠٠٠ شخص وحدثت على أثر ذلك اضطرابات وقلاقل . وقام شخص يدعى المهدوية وانضم اليه أنصار كثيرون . وقد نما الى القناصل الأوربيين ان ذلك المهدى وقع فى الأمر وأطيحت رأسه . ولكن تبين بعد شهر أنه لا يزال على قيد الحياة ومن ثم أرسلت الامدادات من اسوان لقمع حركته(١) وهكذا قمعت القلاقل ولم يحل عام ١٨٢٦ حتى كانت السكينة مخيمة على ربوع السودان وأصبح محمد على قادراً على أن يتخذ ما يلزم من الاجراءات لاصلاح شأن ذلك الاقليم وتنمية موارده . فقرر ارسال ثمانية من كبار أعيان الوجه البحرى بصحبة ١١٠ أشخاص لتعليم السودانيين طريقة الزراعة فى مصر (٢) .

ويلوح أن هذا التصرف وحده لم يأت بنتيجة ما . وأغلب الظن أن الجوع هو الباعث الوحيد الذى دفع شعباً متأخرا وساذجا كالشعب السودانى الى الاقبال على الصناعة . هذا فضلا عن أنه لم يتعلم شيئا البتة من معلميه المصريين الذين لم يكن يظن فيهم التحمس لهذا الواجب الالزامى .

ولعل أهم ماطرأ من التغيير فى خلال السنوات العشر التالية هو أن الخرطوم تحولت من قرية صغيرة الى مصاف المدن وبها ٥٠٠ منزل مبنية بالطوب الأحمر . هذا عدا الثكنات والمخازن وغيرها من الحدائق التى يزرع فيها التين والعنب . وكان هذا من عمل خورشيد باشا الذى حكم الاقليم سنوات عديدة واتخذ الخرطوم عاصمة له .

وليس من ريب فى أن ازدهار مدينة الخرطوم ونموها كان النتيجة التى

---

(١) وصلت فى ٢٨ ابريل سنة ١٨١٤ — وزارة الهند — مصر والبحر الاحمر ٧ — وكذلك خطاب أرسل الى قائد كردفان فى ١٧ شوال سنة ١٢٣٩ — محفوظات عابدين

(٢) خطاب لمديرى الوجه البحرى فى ١١ رجب سنة ١٢٤٥ — محفوظات عابدين

تنشأ وخاصة فى الشرق عن وجود قاعدة الحكومة فى جهة معينة

على أن محمد على لم يكن كثير الارتياح لركود حركة الانتاج فى ذلك الاقليم فلقد قضى فى التفتيش فى ربوعه ستة أشهر كاملة فيما بين سنتى ١٨٢٧ و ١٨٢٩ ولعل غايته من ذلك التفتيش كانت لتحقيق الحلم الذى ظل يداعب محمد على نفسه ألا وهو العثور على الذهب ولكنه كان يرمى فوق ذلك الى غاية مهمة وهى تنمية الزراعة فى تلك الجهات وتوسيع مداها .

وفى الوصف المذكور عن رحلته هذه دلائل ناصعة على تفاهة النتائج التى تحققت وعما كان يجول فى خاطر الباشا من الأفكار عن طريقة تنمية السودان وعلى الرغم من — أو بالأحرى بسبب — ما كان ينتظر من كثرة المحصول — وقد قدره وقتئذ بنحو ٦٠ ضعفا — فان الزراعة كانت ماتزال مهملة والأراضى لم تخل من قشرتها القابلة للزراعة إلا بواسطة قطع الأخشاب الكبيرة — ومن ثم تقرر اجراء تجربة أخرى ألا وهى تنمية زراعة قصب السكر والقطن والنيلة واختير لهذه الغاية عدد من الشبان العرب من خريجى مدرسة المهندسخانة وأعطى لكل منهم ١٠٠ فدان معفاة من الضرائب لمدة خمس سنوات ووكل الى كل منهم عدد من الشبان السودانيين لتعليمهم الوسائل الراقية المستخدمة فى الزراعة المصرية .

ثم ألح الباشا فى الوقت نفسه على الزعماء السودانيين أن يسعوا وراء تحسين الزراعة ويعملوا على تنشيطها وكثيرا ما كان يقول لهم لو احتذيتم حذو غيركم من الناس فليس من ريب فى أنكم سوف ترتقون من مستوى العجماوات إلى مصاف الأوربيين . ولسوف تبلغون من الثروة وتعلمون كيف تنعمون بمسرات الحياة مما يحول جهلكم دون تصوره . ولكن هذا ما كان ليتم بدون الأيدى العاملة وإلا لما تحقق شىء من هذه الأحلام . ويقال أن سامعيه قد خلبت ألبابهم تلك الصورة الزاهية التى رسمها لهم محمد على عن المستقبل

حتى أنهم توسلوا اليه أن يأخذهم الى مصر ليتعلموا الوسائل الفنية . ولكنه نصح إليهم بأن الأفضل أن يرسلوا أبناءهم (١) .

ولما كان هذا كله قد تم فى نهاية الفترة الايجابية فى ابان حكم محمد على فلا مندوحة عن الاستنتاج بأن فتحه للسودان قد وطد سيادة مصر فى ذلك الاقليم ومكن الباشا من الحصول على عدد معين من العبيد ولكنه لم يؤثر مطلقا فيما كان عليه السكان من الثقافة الفطرية كما انه - وهذا ما كانت له أهمية كبرى فى نظر محمد على — لم يؤثر أى تأثير فى انتاج الاقليم من الوجهة المادية . كما أن القضاء على الوهابيين لم تكن له أية نتيجة أكثر من اعادة فتح مكة والمدينة للحاج .

ومن ناحية أخرى فقد كان لاتساع نفوذ محمد على شرقا وجنوبا نتائج على جانب عظيم من الأهمية . فبينما كان الساسة الفرنسيون واقفين وقفة المتفرج كانت للساسة الانجليز مصلحة مباشرة فى الموضوع ويمكن أن يعزى منشأ ارتيابهم فى سياسة محمد على الى الفترة الواقعة بين سنتى ١٨١١ و ١٨٢٢ فقد كانت لأعماله العسكرية فى بلاد العرب والسودان آثار مباشرة فى ثلاث مناطق كانت لهم فيها فعلا مصالح حيوية ألا وهى البحر الاحمر والخليج الفارسى والحبشة

وكان معظم الأعمال التجارية فى تلك المناطق تتناوله أيدى تجار معظمهم من أصل جوجاراتى جلبون متاجرهم من صورات وغيرها من موانى غرب الهند . ولم يكن فى استطاعة امبراطورية المغول — حتى فى إبان شوكتها — أن تقدم للسفن الهندية التجارية الحماية اللازمة . بل اضطر الامبراطور أكبر أن يحصل على جوازات من البرتغاليين . هذا فى حين أن من جاء بعده من الامبراطرة حصلوا من الهولنديين أو الانجليز على خفر لحراسة السفن أثناء السفر . وفى أواسط القرن الثامن عشر أى قبل أن تحصل شركة الهند الشرقية

(١) كامبل رقم ٢٨ فى ٨ مايو سنة ١٨٣٩ (وزارة الخارجية ٣٢٣ — ٨٧)

على ديوان بنغال فانها قد حصلت على لقب « أميرال الامبراطورية » وما يلحق بذلك اللقب من أبواب الايرادات والأراضى . وقد ظلت شركة بمباى البحرية بعد ذلك سبعين عاما كاملة وهى تقوم بحراسة السفن التجارية الهندية بانتظام بين الهند والبصرة أو بينها وبين جدة وترفع فوق سارية سفنها راية الشركة وراية الامبراطورية المغولية فوق جانبها (١) وقد ترتب على تضعضع قوة الفرس والعثمانيين آن أصبحت حراسة السفن أمراً لا مناص منه . فلقد تفشت القرصنة واتسع مداها بسرعة شديدة ثم ان ما كان يقابل به من يقبض عليهم من القرصان من الرحمة والشفقة الغريبة عند اطلاقهم ، يضاف اليه سماح ولاة الأمور لبعض التجار بنقل الأخشاب لاصلاح السفن التى كانت تهاجمهم — إن ذلك كله لم يكن من شأنه أن يؤدى الى وضع حد لأعمالهم المرعبة أو لزجرهم عن غيهم (٢) . ومما ساعد على تفشى ذلك الشر من الوجهة الأدبية والسياسية والعملية نشوب الثورة الوهابية لأن الوهابيين أنفسهم أنشأوا أسطولا للقرصنة فى كوم فودة الى جنوب جدة فلا عجب أن يلتجىء إليهم قرصان الخليج الفارسى عند سنوح الفرص الملائمة (٣)

وفى سنة ١٨٠٨ وقعت احدى السفن الانجليزية فى أيدى القرصان الذين قتلوا الملاحين عن بكرة أبيهم وفى نفس السنة استولى القرصان على السفينة المسلحة التابعة للشركة واسمها « سيلف » (٤) فأرسلت حملة لتأديب القرصان فأبادت كثيراً من السفن التابعة لهم فى الخليج الفارسى . وفى سنة ١٨١٩ لم تتمكن الحملة القوية المجهزة فى بمباى من الاستيلاء على أكبر معاقل القرصان فى رأس الخيمة فقط بمساعدة امام مسقط بل أرغمت كافة القبائل العربية

(١) كتاب (لو) عن الاسطول الهندى الجزء الاول ص ١٥١
(٢) « « « « « « « ص ١٥١
(٣) بوركهارت وبيسيت ٩ مارس سنة ١٨١٥ (وزارة الخارجية ٦ — ٢٤)
(٤) كتاب (لو) عن الاسطول الهندى الجزء الاول ص ٣٢٠

المشتغلة بشئون الملاحة فى الخليج أن تعقد معاهدة مع الشركة وهى لا تقضى فقط بالدول عن أعمال القرصنة بل وترك تجارة الرقيق أيضا (١) . ولقد عللت الشركة نفسها بالأمل فى أن تحصل على مساعدة ابراهيم باشا لتحقيق هذه الغاية بعد الاستيلاء على الدارعية ولكن محمد على لم يكن مهتما وقتئذ بالتطلع إلى شيء من هذا فى مثل ذلك المكان السحيق ولذا لم تصادف اقتراحات الشركة قبولا (٢) .

أما فى البحر الاحمر فان الأمور كانت تسير سيرها الطبيعى الهادىء فان فتح مصر بواسطة نابليون قد وجه الاهتمام إليها . فمسحت البلاد فى سنة ١٧٩٥ على جناح السرعة وأصر لورد فالنشيا فيما بين سنتى ١٨٠٤ و١٨٠٥ على العودة بواسطة هذا الطريق عند ختام رحلته الهندية . وكان يرمى إلى أن يضرب عصفورين بحجر واحد . فكانت غايته الأولى البحث عن خير وسيلة لسد البحر الاحمر فى وجه أى اعتداء يحتمل أن يجىء من العرب . والثانية تنمية التجارة الهندية . ولتحقيق هاتين الغايتين عمد إلى زيارة كافة الموانىء الرئيسية الواقعة فى طريقه ابتداء من عدن فما بعدها . وقد عنى بتدوين كافة ما يهمه من المعلومات عن سير الحالة التجارية وكان من رأيه احتلال عدن . ولتحقيق الغايتين سالفتى الذكر عقد محالفة مع الوهابيين ومع الحبشة (٣) ولكن ظلت مقترحاته مجرد حبر على ورق إلا فيما يتعلق بهنرى صولت الذى كان قد رافقه فى رحلته الشرقية وعين فيما بعد قنصلا عاما فى القاهرة فانه قد ذهب فى سنة ١٨٠١ الى بلاد الحبشة فى بعثة خاصة على أمل توسيع نطاق التجارة فيما بين تلك البلاد

---

(١) كتاب « لو » عن الاسطول الهندى الجزء الاول ص ٣٤٢

(٢) تعليمات مادلير فى ١٣ ابريل سنة ١٨١٩ (مذكرات سادلير اليومية ص ١٣٨)

(٣) ملاحظات فالنشيا فى خطاب ملحق فى ١٣ سبتمبر سنة ١٨١٨ (وزارة الخارجية ١-١)

وبمباى (١) . وكانت شركة الهند الشرقية ينوب عنها مندوب يقيم فى (مخا) ومعه مساعده بلزونى الذى لعب فيما بعد دوراً له نصيب من الأهمية فى بداية تاريخ الحفريات فى مصر . وقد ظل يتنقل بين عدن وغيرها من الجهات حسبما تقضى الظروف .

وكانت الغاية التى جعلها محمد على نصب عينيه وقتذاك كما بينا من قبل أن يعيد التوازن فى المالية المصرية بواسطة التجارة فلم يكتف بإمداد المتعهدين الانجليز فى البحر المتوسط بالحبوب بل عرض على حكومة الشركة فى الهند اقتراحات لتنمية التجارة فى البلاد الشرقية ونظراً لأن الاقتراحات المذكورة قوبلت بشىء من الاهتمام فقد انتدب بلزونى للسفر الى القاهرة حيث تمكن من عقد اتفاقية مؤقتة وتوقيعها فى ٢٨ مايو سنة ١٨١٠ . وقد نصت الاتفاقية المذكورة على أن تكون الامتيازات التركية قاعدة المعاملات التجارية مع الهند . وأن يتعهد الباشا بألا يعتدى بأى حال من الأحوال على الأملاك والرعايا الانجليز فى حالة نشوب حرب بين انجلترا وتركيا بل أن يمدهم على العكس بالحماية اللازمة وأن يتعهد بإعادة الفارين من السفن البريطانية حتى لو اعتنقوا الاسلام (وهو شرط كانت تركيا ترفضه باستمرار إلى الآن كما يؤخذ من كتاب ابوت تحت ظل الحكم التركى ص ٢٩) وأن يمر المسافرون الذين يصحبون أمتعتهم الشخصية بدون دفع مكوس جمركية وأن تصحب القوافل التجارية من السويس وإليها قوة من الحرس فى مقابل ثلاثة دولارات اسبانية عن حمولة البعير الواحد وأن تكون الضريبة الجمركية ٣ ٪

على أن هذه الاتفاقية لم يقدر لها أن تبرم . وأغلب الظن أن الباعث هو التخوف من الاضرار بالعلاقات البريطانية مع الأستانة. وقد رفضت الحكومة

(١) صدرت فى ٤ مارس سنة ١٨١١ (وزارة الخارجية ١–١)

البريطانية فى الوقت نفسه أن تسمح لطرادة الباشا (أفريقيا) بالذهاب إلى البحر الاحمر عن طريق الرجاء الصالح (١) وقد بقى الباشا فى شبه حيرة وتردد لايدرى ماذا يصنع ليحيط المحالفة التى كان يطمح إليها بما يجعلها جذابة ليحمل الانجليز على توقيعها . ولقد رأيناه كثيرا مايحظر على السفن القادمة من بمباى — نزولا منه على إرادة السلطان مع شىء من السخرية — بألا تواصل سفرها إلى مابعد جدة شمالا (٢) على أنه صمم فى نهاية الأمر أن ينزل بنفسه إلى غمار التجارة الهندية وعين فوزيس وشركاه مندوبين عنه فى بمباى التى أرسل إليها كمية هائلة من البضائع الأوربية عدا مليون دولار سبائك ذهب (٣) ثم أنه ألح على القنصل الانجليزى فى الوقت نفسه ـ وذلك نظرا الى نشاط القرصان الوهابيين ـ بضرورة إرسال قوة بحرية الى هناك لرد إهانة القرصان وإلا أصبح من غير المأمون أن يطلب الى أولاده النقل من الحجاز واليمن .

وهنا حبذ صولت هذا الاقتراح وعضده إذ كتب يقول :

« إن من المستحسن أن يكون لسموه التفرق بحيث يحول دون تسلط هؤلاء القرصان الوهابيين على البحار . أما فيما يختص بمصر فان سمو الباشا قد أصبح تاجرا بكل معانى الكلمة بحيث أنه أصبح فى قبضة أيدينا وتحت رحمتنا وقد أصبح إيراد الدولة متوقفا على التجارة . . بحيث لايستطيع بدونها معونة حكومته عدة أشهر . ثم أن اميرال البحر الابيض فى حالة قطع للعلاقات بوسعه أن يحمل محمد على على ما أعتقد على الخضوع لشروطنا فى كل وقت بدون طلب قوة اضافية عدا التى يشرف عليها فى الأوقات المعتادة — وهذا بإلقاء مراسى أسطوله فى أبى قير وضرب الحصار على الشاطىء — وهو

---

(١) ميسيت ١٦ فبراير سنة ١٨١٣ (وزارة الخارجية ٢٤ — ٤)

(٢) « ٦ يونيه و٧ سبتمبر سنة ١٨١٥ (وزارة الخارجية (٦ — ٢٤)

(٣) لم تؤدى التجارة الى النتيجة المرجوة ولذا عدل عنها — تقرير صولت بتاريخ ٢٨ إبريل سنة ١٨١٧ (الخارجية ٦ — ٢٤)

ما يمكن أن نفعله فى البحر الاحمر . فان سفينتين من سفن البضائع تقفان بين جدة والسويس كافيتان لقطع مواصلات محمد على عن طريق البحر وحمله على قبول شروطنا فى أقرب وقت » (١) .

وقد كان من نتيجة هذه الاقتراحات أن سحبت الاعتراضات التى أقيمت فى سبيل السماح بسفر طرادة الباشا الى البحر الاحمر عن طريق رأس الرجاء الصالح (٢) .

فعلاقات الانجليز مع الباشا بعد أن دانت له الأمور فى مصر كانت للآن علاقة وداد وصداقة ، ولا ريب . ثم أنها لم تشبها شائبة — كما رأينا — من جراء زحفه على الوهابيين ، وإن كان بعض الأفراد الانجليز قد استحسنوا تعضيد الأخيرين ومد يد المعونة إليهم (٣) ولئن كان ميسيت قد ساءه فوز محمد على فى بلاد العرب فما ذلك إلا لشدة خوفه من أن هذا النجاح قد يغرى الباشا بالتورط فيما سوف يؤدى الى هلاكه « لأنى أعتقد أنه إذا لقى حتفه فى هذه اللحظة المبكرة فان هذه البلاد (مصر) سوف تعود من جديد الى حالة الثورة التى انتشلها منها » (٤) ولقد صدرت الأوامر إلى الكابتن سادلير بارسال تهانئه إلى ابراهيم بمناسبة ما أحرزه فى الدارعية من النجاح . واقترح عليه القيام بعمل مشترك فى الخليج الفارسى . كذلك عند ما أبدى صولت تخوفه من أن تكون الحملة الموجهة للسودان مقصوداً بها فتح الحبشة ، ولفت نظر الباشا إلى أن مثل هذا العمل لن يقابل فى انجلترا بالرضاء والارتياح ، بادر محمد على إلى التصريح جهرة أن البلاد ـ وإن كانت تعج بمناجم الذهب والمعادن

---

(١) صولت ١٥ يونيه سنة ١٨١٦ (وزارة الخارجية ٦ ـ ٢٤)
(٢) تعليمات لصولت فى ٣٠ مايو سنة ١٨١٧ (وزارة الخارجية ٨٩ ـ ٧٨)
(٣) مذكرات دنداس فى ٣ يناير سنة ١٨٠٩ (وزارة الخارجية ١١ ـ ١)
(٤) ميسيت فى ٩ مارس سنة ١٨١٥ (وزارة الخارجية ٢٤ ـ ٦)

الثمينة والدرر النادرة وبالرغم من أن الاستيلاء عليها لا يمكن أن يحوم الشك فيه ـ فانه يفضل أن يعدل عن فتحها على أن يشوه علاقاته مع الانجليز . وبهذه المناسبة كتب صولت فقال « ماعرفت الباشا يقطع لنا عهدا فى أمر من الأمور إلا إذا كان ينوى المحافظة عليه » (١) .

على أن ديوان الاستانة كان يرى فى تلك العلاقات خطراً وأى خطر فقد كان السائد فى الأفهام هناك أن ذلك الباشا القوى البأس سوف يعقد مع انجلترا التحالف الذى يرمى إليه وبذلك يخلع عن عاتقه النير التركى بتاتاً . ومن هنا كان اهتمام الديوان بانتهاز كل فرصة سانحة لإثارة القلاقل والمتاعب. مثال ذلك أنه حاول توريط محمد على فى تأييد قرصان الخليج الفارسى على أن المتاعب الشديدة إنما نشأت عن تصرفات حاكم مخا . ففى سنة١٨١٧ حجز أحد الأعراب فى المصنع الانجليزى مدة وجيزة من الزمن ثم أطلق سراحه إجابة لرغبة الحاكم . ولكن الشرذمة التى تؤلف حرس المصنع اعتقل رجالها مع قومندان احدى السفن التجارية التى وجدت هناك بالصدفة وكذا المقيم البريطانى وضربوا ضرباً مبرحا وعوملوا معاملة سيئة بينما انتهب المصنع وسلب مافيه . وبعد إضاعة وقت طويل فى البحث وتحرى الحقائق تقرر إرسال قوة عسكرية للحصول على الترضية المطلوبة .

ولم يكن اعتماد مخا على الامبراطورية العثمانية وارتباطها بها إلا صورياً فحسب . فقد كانت أكبر موانى إمام صنعاء الذى لم يكن لسلطان تركيا عليه لا نفوذ ولا سيادة . ولكن محمد على تمكن فى خلال سنة١٨١٨ من أن يسلم إليه بعض الأراضى المتاخمة للميناء الشمالية (الحديدة) فى مقابل تعهده بتقديم كمية معينة من البن للسلطان سنويا ـ ومن ثم أصبحت بمثابة جزية مفروضة

---

(١) صولت فى ٢٠ نوفمبر سنة ١٨٢٠ ـ وزارة الخارجية ٩٦ ـ ٧٨

على بلاد صارت منذ ذلك الحين تعتبر مظللة بالحماية التركية (١) .

وليس يخفى أن الدول الأوربية ما كانت لتقبل مثل هذه النظريات ولا أن تسلم بحقوق لم تكن مشفوعة بنفوذ حقيقى . ومن ثم راحت شركة الهند الشرقية تطالب إمام صنعاء بتقديم التعويض اللازم . فعمد إلى سياسة المراوغة المألوفة . ومن ثم صوبت المدافع قنابلها على مخا وهددت قلاعها (٢) .

وسلم الإمام بحكم القوة ما كان ينبغى أن يسلمه من قبل من المطالب التى لا تستند إلى قوة السلاح . فعقدت معاهدة نص فيها على أن تكون للمقيم قوة من الحرس كما لزميله فى بغداد أو البصرة ، وأن يسمح له بالظهور أمام الملأ وهو على ظهر جواده ، وأن تخصص مقبرة لدفن الموتى المسيحيين فيها ، وأن يعترف أن تجار صهورات هم تحت الحماية البريطانية ، وأن تخفض المكوس الجمركية التى يدفعها التجار الانجليز إلى المستوى الذى يدفعه التجار الفرنسيون (٣) .

وهكذا سقط هذا الحصن الاسلامى الذى كان المسيحيون فيه إلى ذلك الحين عرضة لكافة أنواع الاهانات التى تذهب بلا حساب أو عقاب ، وكان محكوما عليهم بالسير على الأقدام مع حظر مرورهم أمام بوابة معينة وجعلهم يشهدون جثث مواطنيهم تنهشها الكلاب وابن آوى وحيث أرغم التجار الهنود على أداء مبالغ جسيمة من الأموال بتعريضهم للاختناق بدخان كبريت العمود (٤) .

---

(١) صولت فى ١٩ نوفمبر سنة ١٨٢٠ (وزارة الهند مصر والبحر الأحمر ٧)

(٢) بروس الى صولت فى ٢ يناير سنة ١٨٢١ (وزارة الهند مصر والبحر الاحمر ٧)

(٣) أمضيت المعاهدة فى ١٥ يناير سنة ١٨٢١

(٤) صولت كسترانجفود فى ١٦ أغسطس سنة ١٨٢٢ (وزارة الهند مصر والبحر الاحمر ٧) .

وكان بديهيا أن يؤدى مثل هذا التغيير الممقوت إلى سيل من الاشاعات مثال ذلك أن للشركة كانت قد أنزلت إلى البرسلكا بحرياً لاستعمال طراداتها ومن ثم انتشرت الاشاعة من أن حلقة من هـذا السلك قد نقشت عليها اسم طلاسم سحرية وأن السلك سوف يستعمل فى سحب المدينة بأسرها إلى البحر أو لانتزاع الجبال تمهيداً لفتح طريق إلى صنعاء نفسها (١) أما فى الاستانة التى كانت قد وصلها صدى هذه الاشاعات فقد وجه نقد شديد إلى السفير البريطانى بينما صدر الأمر بتوبيخ محمد على وتقريعه على مثـــل ذلك الاهمال وكلف باحتلال كافة موانى البحر الاحمر لغاية عدن باسم السلطان .

وقد تلا هزيمة الوهابيين وفتح السودان تنظيم قوات محمد على العسكرية تنظيما باهرا يلفت الأنظار فان الجنود التى تسنم على أكتافها المجد لم تـكن سوى جماعة من الغوغاء المسلحين لا يحفلون بالنظام ولا سبيل إلى كبح جماحهم إلا بدفع مرتباتهم بانتظام وباستعمال العقاب الصارم . وقد كانوا عقبة كأداء فى سبيل احتفاظ الباشا بمركزه بقـدر ما كانوا لازمين له للوصول الى ذلك المركز . مثال ذلك أن ميسيت أرسل فى تقرير له سنة ١٨١٦ يقول أن شطرا كبيرا من الجيش قد أرسل إلى السواحل . وأنه عند ما استفسر من محمد على عن السر فى هذا الترتيب أخبره أنه « بعد أن أيقن بعجزه عن كبح جماح أعمال العنف التى ارتـكبها الجنود فى خلال الأشهر القليلة الماضية رأى أن يلجأ إلى حيلة لطيفة بأن يكلفهم بالخروج من المدينة على أمل أن يسلس قيادهم ويصبح فى الاستطاعة إخضاعهم وجعلهم مطيعين للنظام بعد أن يصيروا شراذم صغيرة متفرقه (٢) .

فلهذه الأسباب استقر رأى محمد على على إنشاء نظام جديد أى إنشاء جيش

---

(١) هنشون لبونسبانى فى ٢٥ يناير سنة ١٩٢٣ (وزارة الهند مصر والبحر الاحمر ٧)
(٢) ميسيت فى ٨ مارس ١٨١٦ (وزارة الخارجيه ٦ — ٢٤)

جديد يكون نظامه وتدريبه والاشراف عليه أوربيا . وبديهى أن احتفاظه بمركزه يترتب نسبيا الى نجاحه فى ذلك المشروع الذى كان . ولا ريب يعتبر من أشق المشروعات وأصعبها . فان السلطان سليما قد خلع ثم قتل حديثا لاجترائه على أن يقحم آداب الكفار إلى الاسلام بمحاولته إدماج جنود الانكشارية فى فيلق جديد . ولم يكن الباشا ممن يتهيبون المضى فى مشروعه لمجرد خطورته وصعوبته ، لأنه لم يكن يؤمن بأن الاصلاح العسكرى يقابل بالنفور من سواد الشعب ، بل من الزعماء وحدهم لأنه لم يكن ينتظر منهم أن يصبروا على كشف أكاذيبهم التى ظلت مدة طويلة متسلطة على الخزانة العامة[1] وسرعان ما نهض الدليل على عدالة هـذه النظرية عند أول محاولة لادخال الطريقة الأوربية فى التمرين العسكرى .

وقد حدث هذا عند عودته من الحجاز . فلقد بدأ يطبق هـذا الرأى فى جماعات الجنود الذين تحت اشراف أقاربه . ولـكن سرعان ما رأى علامات السخف والتذمر عند ما أراد توسيع هذه الطريقة وتطبيقها على الجنود الذين يقل سلطانه عليهم عنه فى جماعات الجنود سالفة الذكر . وإذ ذاك أصدر الباشا إعلانا بأن كل جندى لا يميل إلى إطاعة الأوامر يمكن أن يأخذ ما يكون متأخرا له من المرتب وأن يرحل عن البلاد . على أن أحدا لم يحاول أن يفيد من هـذا العرض إلى أن حدث بعد ظهر احد الأيام ان اجترأ لفيف من الجنود فى ميدان الأزبكية بالقاهرة امام قصر الباشا وبداوا ينهبون الدكاكين فجأة وهم يصيحون « لا إله إلا الله » . وفى اليوم التالى انتشرت الفتنة فى كافة الأنحاء واصبحت الدكاكين والمخازن عرضة للنهب والسلب ، واعتدى على الحى الفرنسى عدة مرات واصبح الأوربيون لا يجرأون على

---

(١) لون كنهاردت « بلاد العرب » الجزء الاول ص١٤٦ .

الخروج من دورهم إلا بالزى التركى (١) ومن ثم تقرر العدول مؤقتاً عن المشروعات الجديدة .

على أن المقاومة بدلا من أن تضعف عزيمة محمد على أو تصرفه عن الغاية التى وضعها نصب عينيه جعلته يفكر فيما عسى أن يتبعه من شتى الوسائل لتنفيذ ما استقر عليه رأيه من الاصلاحات . وقد بينا فيماسبق أن بين بواعث ارسال الحملة السودانية كانت رغبته فى الحصول على العدد اللازم من الرقيق الذين يمكن تدريبهم على شؤون الحرب على النمط الذى يهواه وهذا هو السر فى اصدار الأوامر الى اسماعيل لجمع العبيد السودانيين وإرسالهم الى اسوان على جناح السرعة . ولما لم يكن ينتظر بحال ما أن يكون أولئك السودانيون مادة صالحة لايجاد الضباط منهم فقد أرسل إلى اسوان للتمرس فى شؤون الحرب نحو ٣٠٠ من رقيق المماليك وكانوا ملكا خاصاً لمحمد على .

وقد عهد إلى الكولونيل سيف الفرنسى بالاشراف على هذه المدرسة العسكرية الجديدة . وكان الكولونيل المذكور قد تخرج من تحت السلاح ثم شق لنفسه طريق المجد حتى استحق صليب الليجيون دونير (جوقة الشرف) ثم اعتزل الخدمة برتبة كابتن بعد أن أبلى خير بلاء فى موقعة « ووترلو » . وفى سنة ١٨١٩ هبط سيف إلى مصر وقد ملكت عليه حواسه حسن صفات الباشا وأخلاقه ورقة شمائله . وفضلا عن هذا فقد ترك دينه المسيحى واعتنق الاسلام ولم يكن فى عمله هذا شىء من الخفة والنزق الذى يقترن دائما بالمرتدين عن أديانهم . ثم صار سيف الخادم الأمين والعبد الطائع لمحمد على . ولما أصرت بريطانيا العظمى بعد ذلك بعشرين ربيعا على إعادة سوريا إلى مساوىء الحكم التركى بذلت مساع عديدة مع سليمان باشا ـ كما كان الجنرال سيف يسمى وقتذاك ـ لإرشائه وحمله على التخلى عن محمد على . ولكن لا العرض بجعله

---

(١) ميسيت فى ٢٤ أغسطس سنة ١٨٢٥ (وزارة الخارجية ٦ ـــ ٢٤) .

والياً على إحدى الولايات ولا اقتناعه بخسران القضية التى يدافع عنها أثر فيه أو حوله عن ولائه . بل كان جوابه أنه مدين لمولاه لا بواجب الشكر لحسب بل بواجب الاخلاص والتفانى الذى لاحد لها (١) .

وما من شك فى أن الأعباء الأولى فى اعداد النظام الجديد كانت من أصعب ما واجهه سيف فى مصر طيلة حياته . فان النظام العسكرى تحت اشراف جندى أوربى كان أمراً مستغربا وغير طبيعى فى مصر . حتى ان حياة سيف كانت عرضة للخطر أكثر من مرة . مثال ذلك أنه بينما كان مرة منهمكا فى تعليم فرقة من حملة البنادق ضرب النار إذا به يسمع صفير الرصاص فوق رأسه (٢) ويقال أنه اكتشف مرة أخرى مؤامرة بين المماليك لاغتيال حياته عند ماجمعهم ليخبرهم بالمرسومات الجديدة التى تتبع فى الجيش فاضطر حينذاك أن يجرد حسامه وأن يدافع عن نفسه بمفرده وأن يصد كل من تقدم إليه منهم (٣)

وكان معسكر اسوان فى البداية يحتوى على شبان المماليك وجماعة الرقيق السودانيين . ولكن الأخيرين قد خيبوا ما كان معقوداً عليهم من الآمال . نعم انهم كانوا على جانب عظيم من الشجاعة ولين العريكة وقد خضعوا صابرين للنظام العسكرى وأحسنوا دراسة تمريناتهم . ولكن طبيعتهم لم تكن تعرف مقاومة الأمراض فكانوا يموتون بالعشرات . فالأمراض التافهة التى لم تكن تقضى على الجنود الأوربيـــة أو العربيـة بملازمة الفراش كانت تفتك فى السودانيين فتكا ذريعا . ولذلك كنت تراهم يموتون كالأغنام . فلم يحل عام ١٨١٤ حتى كان عددهم فى معسكر اسوان ٢٠٠٠٠ ولكن لم يبق من هذا العدد فى ذلك العام نفسه أكثر من ٣٠٠٠ شخص .

---

(١) كتاب (البعثة العسكرية) لدوان ص ١٣

(٢) صولت ٨ فبراير سنة ١٨٢٤ (وزارة الخارجية ١٢٦ — ٧٨)

(٣) كتاب دربو « حملة كريت والمورة » ص ١٣

ولعل مرجع هذا الفشل — الذى يختلف كل الاختلاف عن تجاربنا فى تلك الأصقاع — أن جنود محمد على لم يكونوا أحراراً بل كانوا أرقاء .

وقد أدى الاخفاق فى استغلال ذلك المورد العسكرى المنتظر الى العمل بالنصيحة التى أبداها دورفيتى قنصل فرنسا العام بتطبيق فكرة التجنيد على الفلاحين فى مصر . ولعل هذه الفكرة خطرت من تلقاء نفسها بعد ما شوهد من النجاح العظيم فى تطبيق النظم الأوربية على الهنود فى الجيش البريطانى ولكن كل مقارنة من هذا القبيل يقلل من شأنها أنه لم يحلم الى الآن أحد باستخدام الفلاح المحتقر كجندى بينما أن الجندى الهندى كان طيلة حياته من صميم الطبقة العسكرية .

على أن الاقتراح باستخدام الفلاحين سرعان ما وضع موضع التنفيذ . ولكن نظرا لخروجه عن المألوف فقد أدى الى حدوث القلاقل والفتن فى بعض الأقاليم (١) وإن كان هذا لم يمنع من ارسال ۳۰۰۰۰ من الفلاحين الى اسوان وسمح للكولونيل سيف بزيادة ما لديه من المدربين الأوربيين الذى جعل لهم هذا الضابط الفرنسى سمعة سيئة بعد أن عين رئيسا لهم . فقد وصفهم بأنهم جماعة من اللاجئين ممن قذفتهم اسبانيا أو نابولى أو بيدمونت وأنهم لا يعرفون الصدق ولا عهد لهم بالأمانة أو الشرف . وبالجملة فهم أسوأ عصابة أشرار يمكن أن يعثر عليها الانسان فى أية جهة من جهات العالم (٢) .

وبالرغم من ذلك فقد أدوا واجبهم تحت اشراف سيف على أكمل وجه . وقد رافق صولت محمد على فى زيارة معسكر التعليم فى سنة ١٨٢٤ وقد حدثنا أن من حق الباشا أن يبتهج ويفاخر بجيشه الجديد . وهو رأى قامت على صحته الأدلة العديدة فى الخدمات العسكرية التى تمت فيما بعد تحت اشراف ابراهيم

---

(١) كتاب دريو « حملة كريت والمورة » ص ١٣

(٢) كتاب دوين « البعثة العسكرية » ص ٢٢

باشا فى المورة وفى سوريا . ولعل أهم ما لوحظ من النقص بين هؤلاء الجنود عدم وجود مصلحة طبية منظمة على نحو مايراه الانسان فى الجيوش الأخرى ولم يكن فى الاستطاعة - كما قال « صولت » - أن تغرس مدرسة للطب كما يغرس البستانى حقل البطيخ . ثم ان الفلاحين كانوا يتحولون الى جنود بأسرع مما كانوا يتحولون الى أطباء .

وأول مابدأت هذه الأفكار تتجلى بشكل واضح فى خلال حروبه فى بلاد العرب . فلقد هدد قرصان الوهابيين بقطع المواصلات البحرية بين السويس وجدة . ولذا حرص على ارسال طرادته المسلحة « افريقيا » الى البحر الاحمر فلما خاب أمله فى ذلك من جراء منع الانجليز الاذن بمرورها أصدر أمره بانشاء « فرقاطة » حربية فى بمباى (١) وقد سعى لحمل أحد زعماء القرصان العرب للعمل معه (٢) بل انه تمكن من انشاء سفينة حربية فى السويس مسلحة بستة عشر مدفعا (٣) وبالجملة فقد تمكن من أن يحشد فى البحر الاحمر عمارة بحرية تستطيع صد غارات الوهابيين ودفع عاديتهم .

وبعد ذلك بقليل بدأ بتنفيذ هذه النظريات فى حوض البحر المتوسط فبدأ بابتياع ما يمكن ابتياعه من السفن الموجودة فى هذه السواحل الشرقية للبحر المتوسط أو التى بنيت فى جنوا أو البندقية . ثم سعى لتعزيز مركزه بالحصول على سفن أخرى من طراز أجود وأسمى .

وفى سنة ١٨٢١ طلب إلى كل من فرنسا وانجلترا بأن تبنى له كل منهما فرقاطتين من أحدث طراز (٤) .

---

(١) كتاب بوكهاردت « النوبة » ص ٩٣

(٢) كتاب كنهاردت « بلاد العرب » ص ٢٨٢ الجزء الاول

(٣) ميسيت فى ٩ مارس سنة ١٨١٧ (وزارة الخارجية ٦ — ٢٤)

(٤) صولت فى ٦ نوفمبر ١٨٢١ (وزارة الخارجية ١١٢ — ٧٨)

وقد أعارت الدولتان طلبه أذناً صماء . وبهذه المناسبة كتب كاننج يقول :
« ان من المستحيل استحالة باتة على حكومة جلالة الملك أن تلبى هذا الطلب
وإلا كان ذلك بمثابة انتهاك مباشر لحرمة الحياد الذى أعلن الملك لأمنيته على
مراعاته فى خلال هذا النزاع المنكود بين الباب العالى واليونان (١) ومن ثم
سعى محمد على ـ وحصل فعلا ـ إلى إنشاء فرقاطتين وسفينة حربية فى مرسيليا .
وهكذا لم يبدأ محمد على بأن ينشىء لنفسه جيشاً على الطراز الأوربى فقط بل
وأن يكون له سفن حربية تمكنه من مكافحة اليونان وأيضا مكافحة أسطول
السلطان نفسه فى يوم من الأيام لا يستطيع التمكن به بصفة خاصة .

---

(١) صولت فى ف ٣١ يناير سنة ١٨٢٣ (وزارة الخارجية ٤١٢ — ٧٨)

الفصل الثالث

عماد الامبراطورية

الحرب اليونانيـــة

كان من نتائج فتح بلاد العرب والسودان تنظيم جيش محمد على وتأسيس قوة بحرية واتساع نفوذ الباشا وسلطانه إلى حد بعيد. على أن تقدمه هذا لم يؤد إلى هذه اللحظة إلى اشتباك فى عراك مع إحدى الدول الأوربية. فقد كانت سياسة فرنسا وقتئذ بعيدة عن كل عدوان. ثم إذا كان هناك بعض أفراد من الانجليز ينظرون إلى استخدام الضباط الفرنسيين بعين الغيرة فإن لندن نفسها لم يبد عليها شيء من القلق. هذا بينما كانت كلكتا أكثر ميلا إلى التعاون على توطيد دعائم الأمن العام بدلا من مقاومته فى المناطق المهمة التى تروج فيها سوق التجارة الهندية الخارجية (١). وقد أخفقت حتى الآن كافة محاولات الباب العالى لتوريط محمد على فى نزاع مع بريطانيا.

وفى ابريل سنة ١٨٢١ اغتنم اليونانيون فرصة الفتنة التى أشعل على باشا نارها فى يانينا فرفعوا راية العصيان. وكان يوجد نحو ٢٠٠٠٠ من المسلمين موزعين فى أنحاء البلاد فلم يشعروا إلا وقد بدأ اليونانيون فى الاعتداء عليهم فالتجأ من استطاع منهم إلى الحاميات التركية أما الباقون فقد أبيدوا عن بكرة أبيهم. ومن ثم بدأت محاصرة الحاميات فاستسلم بعضها بعد الحصول

---

(١) ان زعم الاستاذ محمد صبرى فى كتابه «الامبراطورية المصرية فى عهد محمد على» بأن انجلترا كانت معادية من البداية يرجع على ما يظهر الى جهل المؤلف بالوثائق التي يقتبس منها أو الى عجزه عن فهمها.

على وعد بللامان وسلم البعض الآخر نزولا على حكم العقل ومنطق الحوادث

بيد أن هذا لم يكفل لا للأولين ولا للآخرين تمييزاً فى المعاملة . فان اليونانيين قد أعملوا السيف فيهم جميعا . وقد تمكن ٣٠٠٠ يونانى من هزيمة ٥٠٠٠ تركى بالقرب من تريبولتزا وكانت نتيجة هذه الموقعة أنهم قد استولوا على هـــذا المكان وكذا نافار . ولم يراع الثوار شروط التسليم فى كلا هذين المكانين بل قتلوا فى تريبولتزا ما لا يقل عن ٨٠٠٠ من رجال المسلمين ونسائهم وأطفالهم . وقد تلت هـذه الحوادث طبعا مذبحة عظيمة فى الاستانة وغيرها ذهب اليونانيون ضحية لها حيث شنق بطريرك الروم وأربعة من كبار الأساقفة وقتـل على أقل تقـدير يونانى واحد فى نظير كل مسلم سقط ضحية حوادث المورة . بل أن شيخ الاسلام ـ وهو كبير رجال الدين فى الاستانة ـ قد عزل من منصبه وخرج مغضوباً عليـــه لمحاولته وقف تيار هذا الانتقام (١) .

وكان طبيعيا أن تنتشر الحركة ويتسع نطاقها إلى أن تشمل جزر البحر وكانت السفن الصغيرة التى تنقل معظم تجارة البلاد المتاخمة الى شاطىء البحر المتوسط فى الشرق ملكاً لليونانيين من سكان الجزر . ثم ان الأيدى العاملة فى هاته الجزر كانت كلها يونانية كما أن الملاحين كانوا أيضا يونانيين . وهكذا أمكن تكوين أسطول حربى أصبح بعد قليـل صالحا لضرب النار . وقد أزعجت هذه الأعمال الملاحين الأتراك وأدخلت فى قلوبهم الرعب ولا ريب أن السيادة فى البحر معناها انتصـار الثوار فى البر . فتشكلت حكومة وطنيـة وعقدت جمعية شعبية . ولئن كان فى وسع السلطان أن يثأر للدم بالدم فى أزمير والاستانة ، فان ذلك ما كان ليمكنه من استعادة أملاكه المفقودة . وفى الحق لقد كان عجزه أمام الأروام الكبار أشبه بعجزه ازاء الوهابيين .

---

(١) كتاب دربو « حملة كريت والمورة » ص ٥

ويلوح أن محمد على كان ينظر الى هذه الحوادث بشيء من عدم الاكتراث فقد تخلص فى الوقت المناسب من جنوده الألبانيين الذين لم تكن له بهم حاجة بأن شجعهم على ترك خدمته والاستعاضة عنها بالخدمة فى يانينا . ولقد نما اليه نشاط الجمعيات اليونانية الثورية التى أسست فى الاسكندرية والقاهرة ولكنه لم يحرك أصبعا لوقف حركاتها . بل أنه لم يحاول بعد أن يمنع سفر متطوعى الأروام من الاسكندرية . وأكثر من هذا أنه أطلق سراح بعض اليونانيين الأرقاء الذين أرسلهم اليه باى الجزائر بمثابة هدية (١) .

وفى سنة ١٨٢٢ وهبه السلطان كريت بعد ان تمكن من اطفاء نار الثورة فيها . أما الجزيرة فقد كانت ميداناً للمذابح من الفريقين . ومن ثم تقرر ارسال حسن باشا زوج احدى كريمات محمد على الى الجزيرة . ثم بعد وفاته تقرر ارسال حسين بك . وكان ثوار كريت كثيرى العدد وعلى جانب عظيم من الشجاعة والاقدام . ولكنهم خضعوا فى النهاية بعد ماتلقوه من دروس القمع العديدة وقد استغرقت هذه العملية نحو عامين ، فلم يحل عام ١٨٢٤ حتى كان لمحمد على مركز يسمح له أن يعلن أن « سنا كيا » الحصن الأخير الذى اعتصم به الثوار قد أصبح خلواً منهم وأن زعماءهم قد أعدموا . ولإقامة الدليل على صدق قوله أرسل الى الباب العالى « غرارة » بآذان القتلى لتعليقها على البوابة الكبرى للقصر (٢) .

ولم يكتف حسين بك بهذا الدليل على نجاح أعماله العسكرية بل أراد اقامة دليل آخر وذلك بتوسيع دائرة تلك الاعمال . وكان يوجد بالقرب من شمال جزيرة كريت للشرق جزيرتان صغيرتان تسمى الأولى « كاسوس » والثانية « سكاريانتو » وكانت أولاهما مقر عدد كبير من البحارة الذين سبق أن

(١) كتاب بوليتيس « الحملة اليونانية ومصر الحديثة » الجزء الاول ص ١٨٧

(٢) الى النقيب افندي فى ١٩ شعبان سنة ١٢٣٩ هـ « مخفوظات عابدين »

عضدوا قضية استقلال اليونان أعظم تعضيد ، وذلك باصطياد التجارة التركية ووضع يدهم عليها . فجهز حسين بك حملة عسكرية ضد هاتين الجزيرتين . أما سكان كاسوس فقد رفضوا دعوته الى التسليم . وإذ ذاك أغارت الجنود على معاقلهم واستولت عليها عنوة . ثم أطلق القائد أيدى جنوده فى أعمال السلب والنهب مدة ٢٤ ساعة فتمكنوا فى هذه الفترة من قتل ١٠٠ نفس وأخذوا أسرى ما لا يقل عن ٩٠٠ من النساء والأطفال . هذا عدا ماغنموه من السلع التى ادخرها أهل الجزيرة كالبن والحرير الخ .

ولمضاعفة العقاب اختار حسين بك من رجالهم نحو ٥٠٠ شخص للخدمة فى السفن بنفس الأجور التى كان يتقاضاها الملاحون المصريون وقتئذ .

أما سكان الجزيرة الثانية (سكاربانتو) فقد ألقوا سلاحهم بمجرد وصول الانذار إليهم . فاكتفى حسين بك بتكليفهم بدفع جزية الأعوام الثلاثة التى كانت عليهم للحكومة العثمانية . وهذا الحادث يمكن أن يتخذ دليلا عادلا على سياسة محمد على وهى تقضى بإبادة العصاة شديدى المراس بلا رحمة ولا شفقة واستعمال الرفق والهوادة مع غيرهم ليظل شعور الأمل وكذا شعور الرهبة حياً فى النفوس .

وكان طبيعيا أن يؤدى نجاح الثورة الكريتية الى زيادة مطالب الباب العالى من الباشا . ففى أوائل سنة ١٨٢٤ أصدر السلطان محمود الثانى فرمانا تعطف فيه بإسناد ولاية المورة إلى محمد على . وليس من المعقول أن يكون قبول هذا التعطف السامى منشأه الخوف من اغضاب السلطان كلا فقد كان هناك الجيش الجديد الذى أبلى بلاء حسناً فى كريت وأراد محمد على أن يجربه فى أعمال أخرى أوسع نطاقا . وكانت بريطانيا العظمى ماتزال ملتزمة الحياد . وليس فى وسع أى انسان مشهور فى القاهرة بمعرفته ببواطن الأمور ـ ولو عن بعد ـ التمكن بمعرفة العوامل التى كانت ستدفعها بعد زمن قريب إلى تغيير

سياستها والاشتراك فى الموضوع اشتراكا فعلياً . وإلى جانب هذا كانت توجد الفكرة القائلة بأن التغلب على الكفرة بعد التغلب على جماعة الهرطقة سوف يرفع اسم الفاتح فى نظر العالم الاسلامى بحيث يجعل الناس يتناسون ماأحدثته من الأثر السيء محاولة تقليد المسيحيين فى استعمال الشوكة والسكين عند تناول الطعام فى المنازل أو اكتراع الشراب المسيحى أو حماية أرواح المسيحيين وأموالهم فى داخل بلاده بيد حازمة قوية . وبالجملة أن كبح الأروام سوف يجعله زعيم العصر ويفسح أمامه الطريق - إذا أراد - لأن يتحدى أوامر السلطان ويؤهله - هكذا خيل اليه - لاحترام وصداقة احدى الدول العظمى .

وانقضت ستة أشهر فى تجهيز الحملة . وفى أول يوليه غادرت ميناء الاسكندرية وكان عددها لايقل عن ١٦ ألف جندى ومائة نقالة و٦٣ سفينة مسلحة (١) وقد عهد بقيادتها الى ابراهيم باشا . ولم تكن الحملة تامة كما كان يشتهى أبوه محمد على . وقد عينه والياً على المورة وخوله السلطة التامة على الجنود وعلى بعض السفن (٢) فقط لأن السلطان كان قد عهد الى قبطان باشا - ألا وهو خسرو باشا - بالقيادة البحرية العليا . وبذا تعددت القيادة وهى عادة - وإن كانت جاءت بما يسوغ اتباعها - إلا أنها وضعت المبدأ الضار ألا وهو تقسيم السلطة . ولقد لوحظ حتى فى السفر أنه حدث دائماً أنه عند ما سلمت قيادة الجيش الى شخص معين والأسطول الى شخص آخر أن انشغل القائدان بالتنازع فيما بينهما عن السعى لإنزال الهزيمة بالعدو . وقد وصلنا الى هذه النتيجة فى الحالة التى نحن بصددها باختيار خسرو قبطان باشا . فلقد كان العداء بين خسرو ومحمد على من الأيام التى طرد فيها خسرو بطريقة مهينة من ولاية محمد على . وهكذا كان السلطان واثقاً بأن قائدى الأسطول والجيش لن يتحدا

---

(١) جاء فى خطاب موجه للصدر الاعظم فى شهر ذى القعدة سنة ١٢٣٩ (محفوظات عابدين) بأن الحملة اشتملت على ٣٠٠٠٠ جندى تصحبها ٩٦ نقالة وسفينة مسلحة .

(٢) خطاب فى ١٢ شعبان سنة ١٢٣٩ (من المصدر نفسه)

على خلفه . كما أنه كان على يقين بأنهما لن يتقدما إليه بغنائم النصر المشترك الذى أحرزاه . وقد جاءت النتائج طبقاً لما كان منتظراً . وكانت الخطة المرسومة أن يتقابل الأسطول التركى مع الحملة المصرية على مقربة من جزيرة رودس على أن يعقب ذلك الاستيلاء على منازل الملاحين المسلحين اليونانيين . ومن ثم تبدأ عملية فتح المورة من جديد . وكان محمد على هو الذى وضع الخطة وهى تدل أشد دلالة على عظم تقديره للسيادة البحرية . أما خسرو فقد بدأ بتنفيذ الخطة بإحكام . ففى اليوم الثالث من شهر يوليه استولى على جزيرة بسارا وكانت بمثابة بؤرة القرصان وتقع غرب ساقس .

أما جزيرة ساموس فان دورها كان بعد جزيرة بسارا . ولكن خسرو قضى نحو شهر فى الاحتفال بما أحرزه من الانتصار مما كانت نتيجته أن التقى غرب ساموس بعمارة من سفن اليونانيين . وقد أضاع خسرو فى المعركة التى نشبت فى ١٦ أغسطس بين الفريقين فرقاطتين وسفينة مسلحة . وإذ ذاك اضطرت العمارة التركية أن تولى الأدبار « بعد أن استولى عليها الرعب » .

وقد وصل ابراهيم باشا الى رودس فى ١٣ أغسطس . وفى يوم ٢٩ منه انضم الى قبطان باشا بالقرب من بودرن عند الجهة القديمة المعروفة باسم « هاليكارناساس » . ثم وقعت عدة ملاحم فى شهر سبتمبر مع اليونانيين . وكانوا هم البادئين بالهجوم على الدوام . وكان الحظ إلى جانبهم فى كل مرة . هذا بينما لوحظ أن السفن التركية فى الاسطول الاسلامى تسعى جهدها لاجتناب منازلة العدو . وفى نهاية الشهر استدعى خسرو الى الآستانة مؤقتاً . فلما انفرد ابراهيم بالأمر لم يسعه طبعاً إلا أن يلتزم خطة الدفاع . ولكنه تمكن فى نهاية العام من حشد سفنه ورجاله فى خليج سودا فى شمال كريت الشرقى بدون أن يعرض نفسه لخسارة تذكر .

ولا بد من الاعتراف هنا بأن هذه النتيجة السلبية كانت عملا باهراً جداً إذا ذكرنا العجلة التى اتبعت فى إعداد عمارته . ولم تستسلم العمارة المصرية ـ وهى

التي كانت تتجلى فيها عزيمة قائدها المقدام ـ للذعر الذي غمر خسرو عند التغلب عليه . ثم ان محمد علي في مصر كان آخر رجل في الوجود يستسلم للهزيمة . فقد قال في هذا الصدد «أنا أعلم جيد العلم انني لا أستطيع أن أنشيء أسطولا على رمال الأهرام، وانني لا محيص لي من تحمل الخسائر . ولكن سوف يكون لي أسطول قوى مهما طال الزمن . وهنالك أستطيع منازلة اليونانيين وقهرهم» (١)

ويمثل هذه المغامرة الباعثة على الإعجاب عكف الباشا على تعزيز أسطوله وقد وصلت السفن الأربع التي كان سبق أن أوصى عليها في مصانع السفن الايطالية .

ثم ابتاع الباشا له (بطريق غير مباشر) خمس سفن أخرى من الثوار اليونانيين . وكلف في الوقت نفسه أحد الضباط الفرنسيين بالعودة الى فرنسا للحصول على إذن بانشاء فرقاطتين وسفينة مسلحة في مصنع الملك تحت إشراف موظفين فرنسيين رسميين (٢) وقد صدرت الأوامر بناء على ذلك بانشاء هذه السفن في مرسيليا (٣) .

ثم لوحظ أن بعض التجار الأروام كانوا منهمكين في إنشاء سفن لحساب محمد علي بالرغم من أن آباءهم قد ذهبوا ضحية المذابح في ساقس وبقطع النظر عن أن عملهم هذا قد جلب عليهم سخط الكنيسة (٤) وكانت هناك سفن أخرى يجرى بناؤها في أحواض البندقية وليجهورن (٥) .

وأرغم الأسطول اليوناني في الوقت نفسه على التخلي عن مراقبة السفن المصرية بسبب إلحاف الملاحين اليونانيين في المطالبة بدفع مرتباتهم المتأخرة .

---

(١) كتاب البعثة العسكرية لدوين ص ٧

(٢) من كتاب البعثة العسكرية ص ٢٥ و ٢٦ .

(٣) كتاب الفرقاطات الاولى التابعة لمحمد علي لدوين ص ٢٨

(٤) نفس المصدر السابق ص ٣١

(٥) نفس المصدر السابق ص ٦٥

ولهذا تمكن ابراهيم باشا فى يناير سنة ١٩٢٥ من أن يعبر بلا كبير مقاومة من خليج « سودا » الى « مودون » وتقع فى خليج المورة بغرب . وقد تجلى للناس أن اليونانيين ليسو أكفاء له فى حومة الوغى . فلم يكن عجيبا أن تدور الدائرة على جزء كبير من جيشهم فى نافار وأن تلقى هذه المدينة سلاحها فى ١٨ مايو . وفى الشهر التالى استولى على تريبولتزا فى وسط شبه الجزيرة وتلا ذلك نشوب حرب العصابات حيث كان الحظ إلى جانب اليونانيين . على أن ابراهيم وضع حداً لهذا النوع من القتال بأن أحرق المدن المسؤولة عن الحرب وأتلف محاصيلها واستولى على أغنامها ودوابها . فلم يمض إلا وقت قصير حتى كان اليونانيون قد ملوا القتال وبادروا إلى إلقاء السلاح .

ويظهر أن اليونانيين لم يفيدوا من تفوقهم فى البحر ولعل أهم ما عملوه فى هذا السبيل أنهم حاولوا مرة الإغارة على ثغر الاسكندرية بقصد اشعال النار فى السفن الراسية فيها . فى عصر ١٠ أغسطس تقدمت سفينة تحمل الراية الروسية وما كادت تقترب من احدى السفن الراسية حتى اشتعلت فيها (أى فى السفينة الروسية) النار وإذ ذاك بادر الملاحون الى النزول فى أحد القوارب فى مؤخرة السفينة ويمموا وجوههم شطر سفينة أخرى كانت بانتظارهم عند مدخل الميناء . وقد حبطت المحاولة حبوطا ذريعا فان السفينة التى اشتعلت فيها النار عمدا التهمت النيران قلوعها وإذ ذاك ضلت الطريق ودفعتها الرياح الى أن تجاوزت السفن الحربية . وتصادف أن كان محمد على جالسا فى قصر رأس التين رقب الميناء وما فيها من الحركة فبادر الى امتطاء بغلته وقصد الى أقرب بطارية مدافع على أن يدرك العدو قبل التمكن من الفرار والابتعاد عن مرمى المدافع فلما لم يساعده الحظ فى ذلك أمر بعض السفن بأن تتعقب السفن اليونانية فوراً وشاء سوء الحظ أن تكون احدى السفن المصرية على قدم الاستعداد فأمرها بالذهاب وحدها لتعقب الفارين .

وفى اليوم التالى ذهبت ثلاث سفن أخرى فى أثرها ، ثم جاءت الأنباء فى

يوم ١٢ أغسطس بأن السفن اليونانية أحرقت سفينة محملة خشبا (سنطاليا) على مرأى من السفينة الحربيـة المصرية التي كانت قد أقلعت في ١٠ أغسطس لتعقب أثر اليونانيين . فاحتدم الباشا غيظاً لسماع هذه الأنباء وقد دفعه الغضب إلى أن يأخذ أول سفينة بقرب الشاطىء وانطلق بها الى عرض البحر حيث لبث أسبوعا كاملا يبحث بلا جدوى عن السفن اليونانية والسفن المصرية .

وليس من ريب في أنه لو التقى باليونانيين للقي حتفه حتما . ولـكنه عرض نفسه لخطر أكبر آخر . ذلك أن الرعب استولى على الاسكندرية عند ما أصبح الأهالي في اليوم التـالي لسفر محمد علي ووقعت أنظارهم على أسطول مركب من ٤٠ سفينة حسبوها لأول وهلة سفن اليونانيين وأنهم عادوا لتجديد الهجوم على الثغر بكامل قوتهم . ولـكن تبين فيما بعد أن هـذه عمارة قبطان باشا ونقالاته وقد أرغم بسبب نفاد المؤونة والذخائر على التخلي عن الجنود التي كانت تحاصر ميسولونجي والتي كانت مهمتـه أن يحمي ظهرها من ناحيـة البحر . وأغلب الظن أن وصوله الى الاسكندرية لم يخفف القلق الذي استحوذ على قلوب الأهالي أو الوزراء . وقد بادر الأخيرون الى عقد جلسة مستعجلة استشاروا في خلالها قنصلي بريطانيا وفرنسا العموميين فيما ينبغي اتخـاذه من الاجراءات . فتقرر السماح بدخول الأسطول التركي الى الميناء ومنع قبطـان باشا من النزول الى البر منعاً باتاً . وطارت الاشاعات حتى وصلت القـاهرة بأن قبطان باشا فصل سبعاً من سفنه وكلفها بسد مدخل فرعي النيل عند دمياط ورشيد وأنه عقد النية على أسر محمد علي فيما لو مكنته الظروف من ذلك (١) .

وقد استولت على القنصلين الانجليزي والفرنسي الدهشة لمخاطرة محمد علي وتوغله في البحر على ظهر سفينة واحدة لا تحرسها سفن أخرى في وقت كانت فيه زبدة جنوده وخيرة قواده منهمكين في الحرب في شبه جزيرة المورة . وقد

---

(١) كتاب البعثة العسكرية لدوين ص ٦٢

تنفس الناس الصعداء عند ما علموا أنه قد عاد الى الميناء ودخلها فى جنح الظلام ليلة ٢٠ أغسطس واتجه مباشرة الى قصر رأس التين قبل أن يشعر به أحد .

ومهما تكن نيات خسرو باشا عند ما جاء الى الاسكندرية وألفى عدوه القديم متغيبا عنها فانه سرعان ما غطى تلك النيات بما قدمه من التهانى الحارة لمحمد على بمناسبة عودته . وأرفق هذه التهانى بأن طلب باسم الباب العالى بلهجة الأدب والاحتشام أن يقدم له الباشا ما فى وسعه من المساعدة فى المال والذخائر لا بل انه حرص على أن يكون هو البادىء بزيارة الباشا وتقديم التحية له . وقد استقبله محمد على عند الرصيف وذهبا الى القصر معا . وما كادا يصلان الى قاعة الاستقبال حتى بادر كل منهما يدفع الآخر دفعا رقيقا لإجلاسه على كرسى الشرف . كما أن كلا منهما حاول اختطاف المذبة لطرد الذباب عن وجه الآخر . ثم صدرت الأوامر بتقديم المؤونة الى الأسطول وسلم محمد على الى خسرو نحو ٨٠٠٠٠ دولار لدفع مرتبات بحارته (١) ولما كان موعد الرحيل فى اكتوبر افترق الرجلان وكأنهما أخوان شقيقان . وقد صحبت خسرو سفن محمد على الجديدة وعدد وافر من الجيش أى نحو ١٥٠٠ جندى راكب و ٨٠٠٠ من المشاة . وقد قصد محمد على أن يعزز مركز ابنه ابراهيم فى المورة وأن يشترك فى حصار ميسولونجى التى ظل الاتراك طيلة الشهور الستة الماضية يهاجمونها عبثا (٢) وقد كللت هذه الاجراءات بالنجاح . فان ابراهيم عهد الى الكولونيل سيف بالقيادة فى المورة واتجه هو الى ميسولونجى . وقد تمكن الأتراك بفضل معونة ابراهيم هذه من مهاجمة المدينة والاستيلاء عليها عنوة فى مستهل عام ١٨٢٦ ثم تلا هذا الفوز فوز آخر بمحاصرة أثينا نفسها والاستيلاء عليها . وهكذا كانت قوة اليونان آخذة فى الانهيار . فبعد أن تمكنت من هزيمة الأتراك أناخ عليها ابراهيم باشا وتمكن من سحقها

---

(١) صولت فى ١٥ سبتمبر سنة ١٨٢٥ (وزارة الخارجية ١٣٥—٧٨)

(٢) صولت فى ٢٢ اكتوبر سنة ١٨٢٥ (وزارة الخارجية ١٢٥ — ٨٧)

بفضل الجنود النظاميين الذين دربهم أبوه و بفضل السفن التى حشدها سوياً .

وقد ثمل محمد على بما أحرزه من النصر فى كل من بلاد العرب وبلاد اليونان حتى خيل اليه وقتئذ أنه ليس ثمة ماينبغى أن يحول دون توسع سلطانه ثم حدثته نفسه بابلاغ جيشه المنظم الى ١٠٠,٠٠٠ .

وما كاد محمد على يفرغ من قمع الفتنة فى المورة حتى رأى نفسه مطالبا بأن يسلم هذه البلاد القاحلة الى سيدها الشرعى أى المولى الأكبر واسترجاع جنوده وسد ماحدث فى الصفوف من الفرغ ، كما رأى نفسه مطالبا بفتح اليمن والاستيلاء على شواطىء البحر الاحمر وتوطيد دعائم الأمن فى الخليج الفارسى مع احتلال ولايتى عكا ودمشق .

ثم بعد أن استتب له الأمر فى هذه البقاع التعيسة يمم وجهه بعزيمة مضاعفة شطر الدجلة والفرات وهناك أخذ يفكر فى أى الفتوحات أعود بالفائدة والكسب . وقد صرح مرة فقال « لقد أكسبنى السيف بأسا ووضع فى يدى من السلطان ما أكون معه ناكراً للجميل إن لم أواصل استعماله فى سبيل خدمة الامبراطورية التركية وإنقاذها » وهنا اعترض الضابط الفرنسى الذى قيلت أمامه هذه العبارات الخصوصية فقال « ولكن أتظن ياباشا أن الإنجليز يتركون لك الوقت الكافى لاتمام هذه المشاريع الهائلة ؟ » .

أما الحقيقة فهى أن الباشا ما كان فى استطاعته أن يحقق شيئا من هذه المشروعات مالم يتوصل قبل ذلك الى اتفاق مع بريطانيا العظمى ، وبذا يضمن معونتها . وأغلب الظن أنه كان يعلم كغيره هذه الحقيقة حق العلم . ولعل الوقت كان يقترب لادراك هذه الغاية أكثر من أى زمن فى تاريخ حياته . وكان لا بد لجعل المعاهدة مقبولة فى أعين الانجليز من توفر شرطين : أولا أن تتوتر علاقاتنا مع السلطان أشد توتر هذا إن لم تقطع بتاتا وهو شرط لم يكن مناص منه قبل التفكير فى الاعتراف لمصر بوجود سياسى مستقل . الشرط الثانى أن يكون لدى الباشا مزايا يستطيع منحها أو منعها تتناسب مع ماتتضمنه

المحالفة من الالتزامات . وقد بذلت فعلا محاولة فى هذا الصدد بعقد معاهدة مع حكومة الشركة فى الهند . ولكن تبين فى سنة ١٨١٠ للسلطات الانجليزية أن تنمية التجارة عن طريق السويس مشكوك فيها ولذا لم تبرم المعاهدة المذكورة . أما الآن فلعل فتح ابراهيم لشبه جزيرة المورة يكون بمثابة ضمان أقوى له قيمته العظمى ..

فلقد كان من شأن الثورة اليونانية أن تثير الاهتمام فى كافة أنحاء أوربا ولهذا حياها الشعراء والأحرار شعراً ونثراً ووصفوها بأنها بمثابة مولد الحرية من جديد . بل أن الحالمين من المؤرخين أحسوا فى حجراتهم المهجورة بروح الاعجاب تجيش فى صدورهم لما اعتبروه تكراراً لذكريات ماراتون وسلاميس فلما تبين لأولئك المعجبين أن الثورة توشك أن تقمع فى بحر من الدماء هاج هائجهم وراحوا يجأرون بصيحة الغيظ والحنق على محمد على وولده ابراهيم . ومن ثم اشتدت النعرة ضد مساوىء الحكم التركى وأخذوا يبالغون فى وصف تلك المساوىء . لا بل أن أولئك المولهين فى حب اليونان رفضوا فى حدة وغضب قول القائلين بأنه يوجد بين اليونان الحديثة واليونان المعروفة فى التاريخ بون شاسع . ثم سارت الركبان بالأراجيف بأن ابراهيم قد بيت نيته على استعباد الشعب اليونانى كله . وأنه يزمع اقصاءه عن بلاد المورة وإحلال الأتراك أو العرب مكانه . وحتى جورج كاننج الذى لم يكن يحفل بالأراجيف رأى أن الحالة تتطلب التدخل فكتب إلى ابن عم له وهو سفير بريطانيا فى الآستانة يقول « إن بيع الناس فى سوق الرقيق وتحويلهم عن عقائدهم الدينية بالعنف وإقصاء المسيحيين عن أوطانهم واستبدالهم بأناس من البلاد الاسلامية وبالجملة فان السعى لانشاء سلطة بربرية جديدة كل هذه الحقائق ... جديدة فى نفسها وجديدة فيما تنطوى عليه من المبادىء وجديدة وغريبة وغير مفهومة إلى الآن فيما قد تؤدى إليه من العواقب ـ أقول أن هذه الحقائق يصح فى رأيى أن تكون قاعدة جديدة للتخاطب إن لم تكن للعمل .... »

وليس من شك فى أن اتجاه حرب المورة فى سبيل قسمة الأراضى وتوزيعها وما كان للجيوش الاسلامية من التقاليد المعمول بها قد أحدثا حالة شبيهة بالتى أسخطت كاننج وأثارت استهجانه . وقد جربنا نحن ـ كما قدر لنا أن نجرب مرة أخرى فى أرلندا ـ فقد كان يستحيل علينا التميز بين الفلاح وبين الجندى لأن الشخصيتين قابلتان للتبديل والتغيير . ثم انه كان من العادات المعمول بها أن الأسرى من الرجال قد يصبحون أو لا يصبحون ملكا للقائد ، ولكن الأسرى من النساء والأطفال يصبحن ملكا خاصا لمن يأسرهن . وحدث أن الآستانة كانت غاصة بالرقيق المجرى أثناء انهماك الأتراك فى الحرب مع المجر . كذلك أصبحت سوق النخاسة بالقاهرة غاصة بالرقيق اليونانى أثناء حرب ابراهيم فى المورة . وكان من شأن هذا أن تصطدم عواطف الجيل الذى قد ينشأ حديثا بفظائع النخاسة وما يمر على الانسانية من الويلات والنكبات .

على أنه ليس من الانصاف فى شىء توجيه أى لوم شخصى إلى محمد على أو ابنه ابراهيم . وبهذه المناسبة أشار قنصلنا الجنرال إلى الحقيقة المرة الكاملة فقال « ينبغى ألا يفوتنا أن هذه المسألة لا تعتبر صفة خاصة ملازمة للنزاع الحاضر . بل هى وسيلة ألفها الأتراك فى كافة ما أثاروا من الحروب . . . كما لا ينبغى أن نفترض أن الباشا كان فى وسعه الى الآن أن يحدث تعديلا مذكوراً فى هذا الصدد وأنه إذا كان قد تمكن من تحقيق شىء فانما كان ذلك لعدم خروجه عن المعتقدات الراسخة فى نفوس رعاياه .

ثم أن العدو كان أقل بمراحل من الآلات التى ابتدعها الخيال . فلقد كان مجموع الرقيق اليونانى الذين جىء بهم الى القاهرة ٣٠٠٠ وقد جاء بهم فريق من محبي المضاربة ، وقد ابتاعوهم من الجنود .

ثم أن أكثر من نصف هذا العدد قد أطلق سراحهم بتدخل هيئات مختلفة فقد افتداهم بالمال بعض السكان الأوربيين الموجودين فى مصر كما أن البعض

الآخر قد أفرج عنهم الذين ابتاعوهم بمجرد شفاعة خدمهم اليونانيين .

ولقد شجع محمد على نفسه على الافراج عن هؤلاء الرقيق إما باصدار الأوامر وإما بتقديم المال من جيبه الخاص (١) .

ولقد كانت أساليب هذه الحرب بربرية بلا جدال ثم أن الوقت كان قد حان للقضاء عليها ولكنها لم تكن شخصية ولا متعمدة ثم أنها لم تكن بهذا المقياس الهائل الذى زعموه وعلى كل فان صحة الرواية ليست لها علاقة تذكر بما تتركه من الأثر فى النفوس .

ولقد لعب الاعتقاد بأن الجنس اليونانى بأسره قد يباع فى أسواق النخاسة دوراً هائلا فى دفع الدول الغربية العظمى الى التدخل .

وإليك حقيقة راسخة أخرى تدلك على مبلغ استحقاق اليونانيين لكل هذا العطف المصطنع . فلقد نجح اليونانيون فى الجزر فى صد غارات خسرو القبطان باشا ولكن حاجة هؤلاء الى النقود سببت أكبر صعوبة فى طريق الاحتفاظ بوحدات الأسطول اليونانى . ولم يكن الملاحون اليونانيون راغبين حتى فى خدمة بلادهم مجانا . وما دام دفع مرتباتهم قد أصبح متعذراً فقد سمح لهم بالقيام بأعمال السلب والنهب . فبحجة الحصار البحرى بدأوا فى أعمال القرصنة جملة والاستيلاء على أمتعة الناس .

وحدث أن سفينة فرنسية كانت قاصدة (كانديا) وعليها شحنة من الذهب لدفع ثمن ماتبتاعه من الزيوت . فاستولى عليها اليونانيون وأخذوا فى تعذيب بحارتها لافشاء مخبأ الذهب وكان ثغر (هيدرا) وثغر (سبزيا) أروج الثغور لأعمال القرصنة . فى هيدرا أرسل الأميرال الفرنسى (دى ترنجى) ضابطا الى الشاطىء ليطالب إعادة ما أخذه اليونانيون من على ظهر إحدى البواخر الفرنسية وإذ ذاك اجتمع الأهالى وهددوا بقتل كل من حدثته نفسه بإفشاء أية معلومات

---

(١) صولت فى ١٣ اغسطس سنة ١٨٢٦ (وزارة الخارجية ٢٤٧ — ٧٨)

عن القرصان المسئولين عن نهب الباخرة المذكورة وكانت توجد فى جبهة نابلى محكمة مخصوصة للبت فى أمر الغنائم . فحضر اليها القرصان شاهرى مسدساتهم وتوعدوا بإحراق بيوت القضاة إذا ترددوا فى إصدار الحكم بإبقاء الغنائم فى أيدى مقتنصيها .

وحدث مرة أن قائد العمارة النمساوية اضطر إلى وضع يده على بعض السفن اليونانية فى هيدرا وسبزيا لتعويض ما لحق بعض الرعايا النمساويين من الخسارة كذلك اضطر أحد القواد الانجليز بعد يأسه من العدالة اليونانية إلى أن يدخل الى ميناء هيدرا وأن يقبض على من رآه فيها من القرصان (١) .

فأنت ترى أن الأسطول اليونانى بعد ما أظهره بادىء ذى بدء من المهارة والبسالة قد تحول تدريجيا إلى منسر لصوص وقرصان غايته سلب البواخر الأوربية ونهبها أكثر من القضاء على الأتراك (٢) .

ومن ثم تبين للناس أن الفقر فى داخل الامبراطورية العثمانية أنه إذا مست حرية التجارة فى عرض البحار إذ كان الأتراك أنفسهم قد عجزوا عن تقليم أظافر القرصان اليونانيين فان الدول التى أصيبت تجارتها بالضرر لا مفر لها من التدخل فى الأمر لوضع حد لهذا الكفاح .

على أن الباعث الحقيقى الذى دفع الدول إلى تقرير التدخل فى النزاع لم يكن منشأه أراجيف محبي الانسانية ولا ما ارتكبه القرصان اليونانيون من الجرائم والفظائع كلا بل كان مرده إلى ما لروسيا من مطامع سياسية تبتغى تحقيقها . فان الامبراطور اسكندر كان ينظر دائما إلى حمايته الطبيعية للكنيسة الارثوذكسية باعتبارها خير وسيلة للتدخل فى الشؤون التركية على أنه لم يكن

---

(١) ناڤارين لداوين ص ٣

(٢) قام الاسطول اليونانى سنة ١٨٢٧ ضد الاسكندرية ولكنه صد بسهولة (كتاب دريو حملة كريت والمورة ص ٢٢٥ و ٢٦٥)

ميالا بين سنتى ١٨٢٣ و ١٨٢٤ الى الانفراد بعمل خاص يقوم به دون الدول الأخرى ومن ثم وضع تدابير باسم المؤتمر الأوربى من شأنه أن يؤدى الى جعل كلمة روسيا هى العليا فى اليونان . ولكن كاننج تمكن من التنصل من هذا المؤتمر ولما توفى الامبراطور اسكندر فى نهاية عام ١٨٢٥ وخلفه الامبراطور نقولا على العرش رؤى الا مفر من اتخاذ اجراءات أخرى للحيلولة دون نشوب الحرب بين روسيا وتركيا بسبب المشكلة اليونانية . وفى هذه الحالة اقترح مبدأ تدخل روسيا وانجلترا فى النزاع وتم الاتفاق على ذلك واقتنعت فرنسا بضرورة الانضمام الى الدولتين المذكورتين وكانت نتيجة كل هذه المباحثات عقد اتفاق ٦ يوليه سنة ١٨٢٧ الذى ارتبطت فيه الدول الثلاث آنفة الذكر ببذل مجهود مشترك لحمل فريقى الخلاف على أن تلجأ الدول المذكورة فى حالة الرفض إلى استخدام ما تهيئه الظروف من الوسائل الفعالة لمنع أى اصطدام آخر بينهما - أما الطريقة العملية التى رؤى استخدامها لتنفيذ المشروع فتتلخص فى ضرب الحصار على المورة بواسطة أساطيل الدول الثلاث لتدويخ ابراهيم جوعا .

وكان سفراء الدول الثلاث قد تقدموا إلى الباب العالى من قبل بالتماسات عديدة لوقف القتال ولكن لم تقابل هذه المساعى فى كل مرة الا بالجواب الجاف وهو أن الثورة اليونانية تعتبر مسألة داخلية بحتة ليس لها أهمية شرعية بالنسبة للدول الأوربية . وفى يوم ١٦ أغسطس حمل تراجمة السفارات الثلاث إلى الرئيس افندى - أى وزير الخارجية - مذكرة رفض استلامها وفى اليوم التاسع والعشرين من الشهر نفسه كرروا الزيارة فأكد لهم الرئيس افندى أن السلطان لن يقبل أى اقتراح أو مسعى خاصا باليونان وأنه لن يتزحزح عن موقفه هذا إلى يوم القيامة . وفى يوم ٣١ من الشهر المذكور ذهب السفراء الثلاثة يحملون تصريحا جديدا وقد رفض الرئيس افندى استلامه أيضا بعد ادعائه بشكل أقرب الى ادعاء الأطفال بأنه لم يفهم محتويات ذلك التصريح (١)

(١) كتاب نافرين الديوان ص ١١١

فلم يبق ثمت أمام الدول المذكورة الا الاتجاه الى القوة :

وليس من شك فى أن السبب فى هذا القرار الجنونى إلى الاعتقاد بأن أوربا كانت منقسمة على نفسها بحيث لاتستطيع التدخل بصفة فعالة وأن روسيا لن توافق على أى عمل تقوم به العمارتان الفرنسية والانجليزية وقد كان هذا الاعتقاد يرتكن أولا إلى ما للمحالفات الأوربيـة من التاريخ المملوء بالمصاعب وثانيا إلى سلوك السفير الروسى (١) وأخيرا الى ما اقترحته النمسا عن عمد فقد كان ميترينج ينظر إلى الثوار اليونانيين نظرته إلى الثوار الايطاليين سواء بسواء وكان مقتنعا فى الوقت نفسه بان الدول الأخرى سوف تجنى من الفائدة إذا تدخلت فى الشئون التركية أكثر مما تجنيه النمسا وعقد المترجم الأول الوسيط اجتماعات طويلة غامضة مع كبار الموظفين المحيطين بشخص السلطان (٢) ونحسب أننا بعد أن عرفنا ما فيه الكفاية عن مسلك الساسة النمساويين فى البلدان الأخرى أصبحنا على يقين ان الغاية التى كان الوسيط يرمى اليها هى الالحاح على السلطان بأن يعمل بالقضاء على الثائرين فى أقرب وقت ولاريب فى أن هذا الرأى كان يتفق مع ما رأى السلطان محمود نفسه .

ولقد كانت نتيجة أول تلميح لاحتمال التدخل المشترك أنه أرغى وأزبد وأخذ يقسم باغلظ الايمان والدمع يجرى فى مآقى عينيه ليمزقن كل ولاية وليخربن كل مدينة يمتلكها فى أوربا عن أن يرضخ لمثل هذا الاذلال الذى لا يمكن الصبر عليه (٣) ثم أصدر الأوامر لموظفيه أن يعلنوا على الملأ أن التدخل لن يؤدى الا إلى محق اليونانيين محقا تاما . ثم قال «ولنقتلن كل يونانى فى بلادنا حتى إذا ما بدأ الدم يسيل ثم قال «ما أسوأ ما تكون العاقبة لو أن الأرمن — وهم أعداؤنا الآخرون — والفرنسيين اختاروا أن يمزجوا دماءهم بدم المدنيين (٤)

---

(١) كتاب نافرين لدوين ص ١١٧
(٢) « « « « ١٢١
(٣) « « « « ١٩١
(٤) « « « « ١٢٣

على أن السلطان محمود كان لابد له أن يعلم عندما قاه بهذا الوعيد أنه ليس كسليمان القانونى .

وليس من شك فى أن هذه الخزعبلات والاوهام لم يكن لها نصيب بين المشروعات التى كانت تجول فى خاطر محمد على . فلقد كانت الغاية الوحيدة التى يسعى طول الوقت لتحقيقها هى تعزيز مركزه فى داخل الامبراطورية ـ العثمانية وخارجها مع تفضيل الفكرة الثانيـة . فيما لو مكنته الظروف من ذلك . وقد قلق أشد قلق عند سماعه بنبأ التحاق لورد كوشران ـ ذلك الأميرال المتقلب ـ بالأسطول اليونانى (١) وأنه نظر الى التوبيخات الانجليزية بغير العين التى نظر بهـا الرئيس افندى اليها . وقد قيل أنه عثر على المفتاح اللازم لتحريك العالم الأوربى .

فقد عرض على انجلترا قبـل بداية الثورة اليونانية بزمن بعيد شروطا اختيارية . ومن أجل هذه الشروط كان صولت شديد الرغبة فى زيارة لنـدن سنة ١٨٢٠ لأسباب صحية على ما قيل ـ ولـكن فى الواقع لأسباب تتعلق بشؤن الدولة . وقد كتب صولت بهذه المناسبة « ان رجلنا العظيم هنا قد ألح على فى تبليغ رسائل لا أستطيع اثباتها على الورق (٢) وعلى أن شيئا لم يترتب على هذا العرض . » فى سنة ١٨٢٦ حضرت لاسندا تفورد كانتج فى الاستانة هذه الحقيقة البديهية وهى أن أسهل طريقة لتليين قناة الحـكومة العثمانية هى الحصول على تأييد باشا القاهرة

ولهذا كتب الى صولت يسأله (ألا يعتبر محمد على أن بدلا من محق اليونانيين مع ما فى ذلك من المجهود أن الأصلح له أن يحصل على نصيب فى الجزية التى كان يقترح وقتئذ أن تقدمها اليونان إلى الباب العالى يضاف اليها اعطاء ولاية سوريا

---

(١) صولت فى نوفمبر سنة ١٨٢٥ (وزارة الخارجيه ١٣٥ - ٧٨) وفى أغسطس سنة ١٨٢٦ (وزارة الخارجية ١٤٧ ـ ٧٨)

(٢) صولت فى ٢٠ أغسطس سنة ١٨٢٠ (وزارة الخارجية ٩٦ ـ ٧٨)

لولده ابراهيم)(١) وقد خطر لصولت في بداية الأمر أن من المستحيل أن يتوقع الانسان النجاح في جرح الشعور الاسلامي إلى هذا الحد لحمله على تأييد القضية اليونانية (٢). ولكن لم يمر أسبوعان حتى بدأت سلسلة من المحادثات أخذ الباشا يبسط فيها آراءه - تدريجيا - على أنه بدأ باغفال اية فكرة ترمى إلى تأييد وجهة النظر الانجليزية في الاستانة لأن للديوان كان كثير التذبذب بينما كان السلطان شديد التعصب ولكن كانت ثمت وسائل لتحبيذ سياستنا وأنه يهمه معرفة ماذا عسى أن تعرضه الحكومة البريطانية عليه من الشروط المرغبة . ثم مر أسبوع آخر حيث ذكر صولت بأنه لما يضع إلى الآن على خاتمه سوى اسمه فقط . إلى أن قال « فانت ترى أن حظى من أمارات الباشوية قليل اللهم الا إذا استثنيت الجاويشية العصى الفضية وديواني . » ثم استطرد الباشا فقال « ان مصر وانجلترا يمكن من الوجهة الجغرافية والتجارية أن تفيد أحداهما الأخرى . وهذا غاية ما اتمناه » ولما عرض صولت على مسألة الجلاء عن المورة أجابه الباشا « ان هذه ليست بالمسألة السهلة لأنها في حاجة إلى معونة رجل سياسي قادر لتحقيقها . اما إذا وجد من يرغب في ذلك فلاريب في أنهم يستطيعون حل الاشكال » على أن الباشا كان أقرب إلى الصراحة في آخر سلسلة هذه المحادثات وقد دارت في ٢٦ سبتمبر فقد قال « أني أضع قدمي الآن في ركابين وعليه فالامور سوف تبقى معلقة في الميزان لحين حلول فصل الربيع فاذا ما وجد وقتئذ أن لدى حكومتكم اقتراحات مرضية لى فانى على استعداد لقبولها وإذا يمكن إيجاد أسباب للانسحاب نهائيا من اليونان . اما إذا جاء الأمر على عكس ذلك فلسوف أجمع كافة قواتى ثم أحصل بما لدى من النفوذ لدى

---

(١) ستراتفورد كاننج إلى صولت بتاريخ ١٠ يونيه سنة ١٨٢٦ (وزارة الخارجية ١٤٧ - ٧٨) كتاب لين بول الجزء الاول ص ٤٩٠

(٢) صولت الى ستراتفورد كاننج بتاريخ ٣١ أغسطس سنة ١٨٢٦ (وزارة الداخلية ١٤٧ - ٧٨)

الباب العالى على قيادة الأسطول العثمانى بأكمله لأن القبطان باشا سوف يكون قد ساءت سمعته – ومن ثم أضع نفسى على رأس الأسطول وبذا أوجه كل اهتمامى إلى الفراغ من المهمة وحلها نهائيا ، وإذ ذاك سأله صولت عن الخدمات التى ينتظرها الباشا من انجلترا فى مقابل ذلك . فأجابه محمد على ، انه ينتظر المساعدة فى صدد زيادة الأسطول ثم الجزية للتوسع فى بلاد العرب ، ولكن صولت أضاف هنا ، أننى مقتنع بأنه يرمى فى صميم فؤاده إلى الحصول من حكومتنا على تأكيد عام بالموافقة على استقلاله فيما لو دفعته الظروف إلى قطع علاقته مع الباب العالى ،

ولكن الباشا تحاشى الخوض فى هذه النقطة (١)

وما هو أن انتهت هذه المباحثات حتى هبط إلى الاسكندرية أحد الساسة النمساويين موفدا بمهمة من ميترينج وهذا السياسى هو بروكسن أوستمد الذى قام فى تاريخ آخر بعد ذلك بزيارة أخرى غريبة للباشا .

وقد جاء إلى مصر فى هذه المرة ليستحث الباشا ليترك التردد وليلح عليه فى القيام بحملة ضد اليونانيين فى الشتاء ليضمن لنفسه الغلبة عليهم قبل أن تتمكن روسيا والدول الغربية الأخرى من التدخل فى الأمر .

وقد اسهب فى وصف فى ما فى استقلال اليونان من الخطورة على التجارة المصرية وأخذ يطنب فى ميل الانجليز إلى بقاء مصر فى حالة ضعف وزعم بأن بضائع بريطانيا مهما كانت تحمل فى ظاهرها الخير الا انها ترمى فى الواقع إلى مساعدة ممثل السلطان بل إلى شل حركته . على أن هذه النظرية لم تنفع فى اقناع محمد على بان أية محالفة توازى فى فائدتها صداقة بريطانيا العظمى أو أن أية فائدة يمكن أن تعوض عليه ما يخسره بسبب معاداة سيادة بريطانيا البحرية وفى النهاية توجه بهذا السؤال الصريح إلى محادثه النمسوى فقال « إذا لم ترغب

---

(١) صولت بتاريخ اول أكتوبر سنة ١٨٢٦ (وزارة الخارجية ١٤٧ – ٧٨)

انجلترا فى أن تقوم بما تشير به علىّ فما جيلتى معها إذن » (١) .

ولما مرت الأسابيع دون أن يصله رد على مقترحاته كان فكره قد اتجه بطبيعة الحال الى المشروع الآخر وهو الحصول على الاذن من الباب العالى بجعله المشرف الأعلى على الحرب اليونانية وبخاصة لأن نجاحه فى الاستانة لن يحول مطلقا دون الوصول الى اتفاق مع الانجليز هذا فضلا عن أن ذلك النجاح من شأنه أن يدفع بعدوه الشخصى خسرو فى سبيل الذل والعار . وكان محمد على قد أرسل الشكاوى العديدة من سوء إدارة خسرو فى قيادة الاسطول التركى (٢) .

ثم أنه أرسل فى يوم ٧ يناير سنة ١٨٢٧ خطابين أولها الى الصدر الأعظم وثانيهما إلى معتمده فى الاستانة (٣) وقد ذكر فى أولها أنه لم يدخر أموالا ولا رجالا فى سبيل خدمة السلطان وأن موارده قد نفذت الآن هذا فضلا عن ظهره قد أصبح منحنيا تحت ثقل سنه المتقدمة وأنه لهذه الأسباب يرجو أن يعفى من اجابة مطالب جديدة لكى يقضى ما بقى له من عمر فى سلام داعياً لمولاه بداوم الصحة والسعادة . على أن أهمية هذا التوسل المتواضع قد بينها ماورد فى الخطاب الثانى إذ قال أن اشتراك خسرو باشا فى شئون الحرب كان من شأنه أن يؤدى إلى الاهمال والتكاسل فاذا ما ظل فى منصبه فلسوف أكف عن التعاون معه واطلب اقالتى من هذه الخدمة (٤) . وقد حدث أنه على أثر وصول هذين الخطابين إلى الاستانة أن تقدم ستراتفورد كانتج بسلسلة اقتراحات غير مقبولة لدى الباب العالى فى صدد اليونانيين . فلم يكن من سبيل إلى التسويف

(١) الامبراطورية المصرية للاستاذ محمد صبرى .
(٢) مثلا خطابه للصدر الاعظم بتاريخ ٥ رمضان سنة ١٢٤١ (محفوظات عابدين)
(٣) ناقارين لدوين ص ١٩
(٤) ناقارين لدوين ص ١٩

فى هذه الظروف حتى فى الديوان التركى نفسه . وفى الحال صدر الأمر الى أحد كبار الأغوات بالذهاب إلى مصر فى مهمة سرية . وقد حاول أن يعبر البحر فى بارجة انجليزية خوفا من وقوعه فى أيدى اليونانيين ولكن ستراتفورد كاننج رفض لاقتناعه بان المهمة لن تكون مرضية لنائب السلطان (١). ولكن لم تكن هناك حاجة لأن يقلق كاننج كل هذا القلق لأن الاغا كان يحمل معه نبأ بأبعاد خسرو عن منصب القبطان باشا وهذا غدا الفرمانات اللازمة بجعل محمد على المسؤول وحده عن إدارة دفة الحرب .

ولكن هذه الأنباء لم يكن من شأنها أن تتغلب على حكمة محمد على أو تدفعه إلى سحب قدمه من أحد الركابين . بل شرع على مهل فى اجراء استعدادات لاستئناف الحملة . وحتى فى منتصف شهر يونية التالى كانت سفنه ماتزال موجودة فى مراسيها فى الاسكندرية كما أن أمداداته لابراهيم لم تكن قد تمت بعد . ولكنه شرع فى الالحاح على قنصلنا العام بارسال جواب على اقتراحاته المتقدمة لأنه لا يستطيع تأخير الأسطول إلى أجل غير مسمى . يضاف إلى ذلك أن الديوان فى الاستانة قد لاحظ أن التغيير فى القيادة لم يغير شيئا من بطء سير القتال كما أن خسرو الماكر كان قد نال الحظوة التى كانت لمحمد على وانعم عليه بالعطف والسيف أشارة لجعله صارى عسكر وقائدا عاما لقوات السلطان . وفى ١١ يونية أكد محمد على لصولت رغبته فى النزول على ارادة الحكومتين البريطانية والفرنسية ، ثم قال إذا كان فى نية هاتين الدولتين فعلا أن تتدخلا فيحسن أن يظهر الأسطول الانجليزى والفرنسى أمام الاسكندرية لعمل مظاهره لارغام سموه على الامتناع عن الحرب فاذا ما أظهر أن الامتناع لفائدته فانه فى هذه الحالة يبادر بسحب جنودة وولده من الموت . وقد أكد لى سموه أنه

---

(١) ستراتفورد كاننج بتاريخ ٨ فبراير سنة ١٨٢٦ (وزارة الخارجية ١٥٢–١٨)

انما يطلب طلبا مسوغا معقولا لاتخاذ هذه الخطوة الحاسمة (١) ثم أنه برغم الحاح الباب العالى وبرغم تحريض القنصل النمساوى ما زال متمسكا بخطة التريث والانتظار مدة ثمانيـة أسابيع أخرى (٢) وأخيرا أقلع الأسطول فى يوم ١٦ أغسطس وبعد ذلك بيومين وصل رسول انجليزى بمهمة خاصة (٣)

وكان هـذا الرسول الميجر كرادوك الذى أرسله كاننج خصيصا لابلاغ الباشـا بقرار الخفاء فى لندن والتخلى عن المورة فورا بلا لف ولا دوران . وكان عليه أن يبين له أن الدول العظمى قد اتفقت كلمتها مع أنه لا ينتظر أى تدخل من ناحية تركيا وان قوات كافية ترسل إلى شرق البحر المتوسط فان شاء الاتراك أن يواصلوا المقاومة ، فان عواقب انضمام الباشا إلى الباب العالى فى نضال غير متساو كهذا قد تـكون ضارة لمشروعات التحسينات البحرية والتجارية التى ظل سموه حتى الآن يواصلها بقسط كبير من النجاح . وقد خطر لـكاننج أن مثل هذه الاعتبارات لا بد أن تـكون لها نتيجة فعالة مع رجل حذر فطين لا يعتبر من المسلمين المتعصبين كما أنه ليس من الخـدام المخلصين للباب العالى (٤) ومع أن كرادوك قد أمر بأن يجتنب استعمال التهديد فان مهمته لم تـكن بالمهمة السهلة لأنها كانت كما عدها صولت بمثابة ، طلب الى محمـــد على بالتزام الحياد الذى قد يضر ابلغ الضرر لعلاقاته مع الباب العالى بدون أى مقابل معين (٥) ،

ولقـد انقضى نحو أسبوع فى هذه المباحثات أظهر الباشا فى خلاله كل

---

(١) صولت بتاريخ ١١ يونية سنة ١٨٢٧ (وزارة الخارجية ١٦٠ ــ ٧٨)

(٢) نافارين لدوين ص ١٥ (٣) صولت الى ستراتفورد كاننج بتاريخ ١٢ أغسطس سنة ١٨٢٧ (وزارة الخارجية ١٦٠ ــ ٧٨)

(٤) تعليمات كرادوك بتاريخ ١٤ يونية سنة ١٨٢٧ (وزارة الخارجية ١٨٢ــ٧٨)

(٥) صولت لستراتفورد كاننج فى ١٢ أغسطس سنة ١٨٢٧ (وزارة الخارجية ١٦٠ ــ ٧٨)

ما كان في استطاعته من الميل وألح عليه صولت بان ينتهز هذه الفرصة لايضاح رغباته للحكومة البريطانية بعبارة جلية محدودة لأنه إذا أضاع هذه الفرصة الطيبة للتحبب للدول العظمى ، فلن ينتظر أن تسنح له فرصة مثلها في المستقبل » وهنا أشار محمد على بأن تطلب أميرالية الحلفاء من ابراهيم باشا بصفة رسمية بألا يهاجم « هيدرا » وهي الهدف الحربي الثاني في سلسلة الاعمال الحربية التي يقوم بها ابراهيم ، وقد لمح محمد على بأنه سوف يصدر من ناحيته أوامر بهذا المعنى الى ابراهيم . ثم استطرد فقال « لتقف انجلترا بجانبي وبذا أستعيض بما أخسره في ناحية أخرى . ولقد طالما رغبت من صميم فؤادى . . . أن أعقد معها اتفاق صداقة وتجارة لا تبليها الأيام . ولعلها تشعر الآن - على ما أرجو - أنها ملزمة بمساعدتي » وقد رد صولت على هذا بما يعبر عن رأيه الشخصي فقال « متى حان الوقت المناسب واذا ما نفذ الباشا هذه الخطة بنجاح فان انجلترا لن تتخلى عنه ومن ثم اندفع الباشا يتكلم وقلبه مفعم بالآمال في المستقبل فقال وقد لمعت عيناه وتهلل وجهه « ان سوريا ودمشق وبلاد العرب كلها في متناول يدي . فاذا ما ساعدتني حكومتكم كما أؤمل واذا ما أعترف بي كأمير مستقل متى سنحت الفرصة فسوف أكون راضيا الرضا كله » (١) وقبل أن يخرج كرادوك التفت الى باغوص بك الخادم الأمين للباشا وقال « انه يعتقد شخصيا أن مصر إذا اعلنت استقلالها واستطاعت الاحتفاظ به فسوف تعترف بها انجلترا » (٢)

وانتهت المحادثات دون أن يتقيد أحد الفريقين بأمر معين . وألمح ممثل السلطان إلى ابقاء جنوده في المورة بلا عمل . وإذ ذاك رد المندوبان الانجليزيان بأنه يستطيع في هذه الحالة أن يعتمد على حسن نية الحكومة البريطانية على

مذكرات صولت في ١٩ اغسطس سنة ١٨٢٧ (وزارة الخارجية ١٥٦ - ٧٨)

(٢) كرادوك لسترانفورد كانيج في ٢١ اغسطس سنة ١٨٢٧ وزارة الخارجية — ١٨٢ - ٧٨) وكذلك تمبرلى (سياسة جورج كانتج الخارجية) ص ٤٢٨ .

أن نمايؤسف له حقا أن كرادوك لم يتمكن من الوصول الى الاسكندرية فى الوقت المناسب ليحمل الباشا على تأجيل ارسال أسطوله الى المورة .

ولذا كان موقف الباشا يبعث على الحيرة . فان السلطان كان يأمره من ناحية بأن يبادر فى الحال الى سحق الأروام بينما كانت فرنسا وانجلترا تطالبه بالانسحاب فوراً من المورة .

فإزاء هذا الموقف المحير لم يكن للباشا مفر من أن يغضب أحد الفريقين غضبا تاما . ولقـــد كان مقتنعا فى قرارة نفسه بعبث الاسترسال فى مقاومة رغبات الحلفاء . ولكنه فى الوقت نفسه كان مرتبطاً ببلاط يأبى عليه جهله الشديد وصلفه أن يسلم بأنه قد فات الوقت الذى كان غضب السلطان يكفى وحده إلى حبس سفراء الدول الغربية فى قصر الأبراج السبعة ، أو أن يستطيع الأتراك أن يصمدوا للقوات المسيحية المتحدة على قدم المساواة .

لقد بذل فى يوم ٥ أكتوبر مجهوداً جدياً ليفتح عينى الديوان الى خطورة الموقف فكلف معتمده أن يبلغ البلاط أن مطالب الحلفاء قد تكون مجرد بلف ولكن ليس معنى ذلك أنها لا يمكن تنفيذها ، وأن العقلاء من شأنهم الاستعداد لتقلبات الحظ بدلا من تعليل أنفسهم بالسعادة والهناء ، وأن عمارات الحلفاء إن التجأت الى استعمال القوة فان العمارة التركية فى رأيه الضعف تتمزق شذر مذر ويهلك معها ٣٠٠٠٠ - ٤٠٠٠٠ نفس .

ثم استطرد فقال « من الخطر المحض أن يقصر همه فى شئون الحرب على التوكل على الله بل ينبغى فى الوقت نفسه أن يغفل عن كل ماينبغى عليه فعله . نعم ان النصر من عند الله وأنه هو وحده صاحب الحول والطول ولكنه أمرنا فى قرآنه الكريم بالسعى ثم وعدنا بالمساعدة لنيل النصر (١) والخلاصة أن الإيمان وحده لا يمكن أن يعوض عن البارود المبلل أو عن السفن الرديئة .

---

(١) نافارين لدوين ص ٢٤٣ - ٢٤٥

وقد جاءت الحوادث اسوء الحظ محققة لما كان يتوقعه . فان أميرالى الحلفاء وهما كودرينجتون وربنى — لأن العمارة الروسية لم تتدخل الى حلبة النزاع قبل يوم ١٣ اكتوبر — بدآ لفورهما باستعمال الضغط على فريقى المتحاربين . وقد بادر الأروام طبعا إلى إعلان موافقتهم على عقد الهدنة ولكن نظرا لأن السلطان رفض الهدنة فقد اعتبر هؤلاء أنفسهم فى حل من أى ارتباط . لذا أعدوا حملة لتوجيهها إلى ألبانيا حيث دمروا عمارة بحرية تركية صغيرة فى جالاكسيدى . وبعدئذ اجتمع الاميرالان بابراهيم شخصيا فوافق على وقف الاعمال الحربية مدة شهر إلى أن تصله تعليمات إما من الباب العالى أو من أبيه ولكنه عند ماسمع بأن الأروام يواصلون أعمالهم الحربية اتخذ الاحتياطات اللازمة لارسال المؤونة الى باتراس وأن يطهر البلاد التى يحتلها جنوده ممن يحتمل أن ينقلبوا الى أعداء . وحاول الأميرالان مراعاة العدل بين الفريقين . فاذا كان كودرنجتون مثلا قد أرغم الأسطول التركى من جهة على الالتجاء الى نافارين بدون ارسال الامدادات إلى باتراس ، فانه من الجهة الأخرى حظر على الأروام أن يسيروا حملتهم التى انتووا إرسالها الى البانيا ولكن كودرنجتون كان يميل هو وزملاؤه الى منع استمرار أعمال التخريب فى المورة . ولما لم تكن لديهم الا قوة بحرية فقد حسبوا أن يدركوا غايتهم المذكورة بالقيام بمظاهرة مزدوجة ضد الاسطولين التركى والمصرى (١) .

ففى يوم ٢٠ اكتوبر أقلعوا بسفنهم الحربية قاصدين الى خليج نافارين ولكن الأتراك كانوا دائما يرتابون فى نوايا كودرنجتون وأصحابه ، ولذلك أطلقت البنادق الرصاص على بحارة إحدى السفن الإنجليزية فأجابت هذه على ذلك باطلاق قنابلها على الأسطولين التركى والمصرى وإذ ذاك نشبت

---

(١) نافارين ادوين فصل ٩ و١٠ و١١ على أن هناك رواية أخرى تختلف بعض الاختلاف عن هذه وتوجد فى كتاب تمبرلى « سياسة كاننج الخارجية ص ٤٠٦ — ٤٠٩

معركة حامية استمرت من منتصف الساعة الثالثة إلى الغسق . وقد أسفرت عن تدمير الأسطول الاسلامى على بكرة أبيه .

وقد هلل كافة انصار القضية اليونانية لهذا الحادث الذى قابلته حكومات الحلفاء بالدهشة والاستغراب . ذلك أن الحكومات المذكورة كانت قد حاولت أن تستخدم القوة البحرية فى أكثر ما يمكن أن يتحقق بواسطتها إذ ليس يخفى أن تأثير الأعمال البحرية فى الأعمال البرية بطىء ومحدود وتدريجى ، فى حين أن ما كان يتمناه الحلفاء هو وقف الأعمال العسكرية فى الحال ، فهم والحالة هكذا قد كلفوا أميراليهم بمهمة شاقة تكاد تنوء بها كواهلهما . ثم ان تعليماتهم كانت خاطئة وناقصة . وهذا بلا ريب نتيجة الموقف الذى وقفوه مما يتعارض مع المنطق . لأنهم فى الوقت الذى تظاهروا فيه بالتدخل بين السلطان ورعاياه المتمردين كان تدخلهم فى الواقع لانقاذ اليونانيين فبينما قد تجاوز هذا العمل البحرى المدى الذى كانت تنوى الدول الغربية الذهاب اليه فانه فى الوقت نفسه قد ساعد كل المساعدة على تحقيق الغاية المنشودة . هذه المعركة كانت بمثابة خدمة مزدوجة لمحمد على . فانه كان على استعداد لفتح باب المفاوضات مع الحلفاء وأكبر الظن أن كرادوك لو كان عجل بالوصول إلى مصر بيومين اثنين فقط لما أقلع الاسطول المصري قاصدا إلى المياه اليونانية بتاتا على نحو ما قاله كانتج ، ولما اشتبكت الأساطيل فى معركة نافارين وكان من رأى ابراهيم وديوان الاستانة بادىء ذى بدء الانسحاب من المورة شمالا اى إلى خارج مرمى مدافع أساطيل الحلفاء . ولكن محمد على لم ير معنى لمواصلة هذا الكفاح العقيم . وفى اليوم التالى الذى وصلت اليه أنباء معركة نافارين ابلغ القنصل الانجليزى بان الحرب لو اشتعلت بين تركيا وبريطانيا العظمى فلا خوف مطلقا على الرعايا الانجليز فى مصر . ثم قال « أعلم كيف أقدر أن

احتفظ بمالى من سمعة حسنة على السهر على العدالة والسخاء » (١) ثم كتب فى اليوم نفسه إلى ولده ابراهيم يخبره أن حمق الديوان هو سبب هذه النكبة وأنه يأمره بالا يبرح معسكره وألا يقوم بأية محاولة ضد الأروام (٢) ولما سمع بالاقتراح المقصود به سحب جيش ابراهيم إلى الشمال رفع عقيرته بالاحتجاج الشديد الذى كان له مفعوله (٣) ومن ثم ظل ابراهيم باقيا فى المورة إلى أن تحرج مركزه بسبب القوة الفرنسية التى نزلت إلى البر حتى أن الباب العالى لم يسعه الا التسليم بألا مناص من الاذعان. وفى اليوم السادس من شهر أغسطس سنة ١٨٢٨ ذهب كودر نجتون إلى الاسكندرية لزيارتها وتوقيع الاتفاق مع محمد على وبمقتضى هذا تم الجلاء عن المورة نهائيا (٤) مع أن السلطان ظل مصرا على رأيه فاضطرت روسيا إلى أن تلجأ إلى استخدام القوة. وفى العام التالى أرغمت الباب العالى على توقيع معاهدة أدرنه التى سلم فيها بنفس الآراء التى أبداها والى مصر من قبل ذلك بعامين.

ولا ريب فى أن تورط محمد على فى شؤون أوربا السياسية على نحو ما بسطناه هنا قد انهك موارده إلى أقصى حد. فان ما انفقه من الأموال الطائلة على بناء سفنه وفى شراء المؤن والذخائر التى تدفقت على المورة ثم أن ما جمعه من الرجال ودربه من الجنود وبعث به إلى ميادين القتال كل هذا قد ذهب ادراج الرياح بين عشية وضحاها ، وقد عاد جيش ابراهيم من المورة وهو فى حالة جوع وعجز وبؤس شديد. بل أن الكثير من الجنود قد غلبتهم الفاقة حتى عجزوا عن مواصلة السير (٥).

---

(١) كتاب باركر « سوريا ومصر » الجزء الثانى ص ٥٨

(٢) الى ابراهيم بتاريخ ١٣ ربيع الاول سنة ١٢٤٣ (محفوظات عابدين)

(٣) الى نجيب أفندى بتاريخ جمادى الاول سنة ١٢٤٣ (محفوظات عابدين)

(٤) تاريخ الاتفاق ٦ اغسطس سنة ١٨٢٨ (وزارة الخارجية)

(٥) من باركر الى السير مالكولم بتاريخ ٢٤ سبتمبر سنة ١٨٢٨ (وزارة الخارجية)

وهكذا نجح الباب العالى فى تسخير الثورة اليونانية لخدمة غاياته وأغراضه فان باشا مصر القوى لم يعد الآن صاحب القوة التى كان عليها عندما سمى نفسه حامى الاسلام . على أنه لم يتورط فى عداء الدول الغربية إلى الحد الذى كان يرغب فيه الباب العالى برغم من احراق اسطوله وتجويع جيشه . بل كان لديه لسوء الحظ من اصالة الرأى وبعد النظر ما يجعله يلقى تبعة هذه النكبات على عاتق « السلطان العنيد » ووزرائه المأفونين الذين لم يحفلوا بما بذله لهم من الآراء السديدة . وقد انسحب محمد على من حومة الوغى وظل يشهد سير الأمور من مكانه الحريز ، بينما كان أهالى الاستانة يترقعون وصول الروس الفاتحين اليها يوما بعد يوم . وقد امتلأت جوانح محمد على بالازدراء لعجز الباب العالى وحقده . وصار الآن أشد تصميما منه فى أى زمن مضى على تحرير نفسه تحريرا نهائيا من نفوذه السيء ثم أنه أصبح الآن أشد ايمانا باهمية السيادة البحرية وبخاصة سيادة بريطانيا البحرية ، وقد تبين له الان أن امتلاك المورة لا يصح أن يعتبر الضمان الذى يمكن تقديمه فى مقابل الحصول على محالفة انجليزية ، لأن السيادة البحرية قد انتزعت من قبضة يده فى عصر يوم واحد ذلك الضمان الذى حسبه ضمانا قويا . ولكنه قد يوفق إلى الحصول على الضمان المطلوب يوما ما . فهلا يمكن أن يكون هذه الضمان هو الاستيلاء على طريق الهند بل الا يمكن أن يكون هذا الضمان هو التهديد بعقد محالفة مع مزاحمة انجلترا فى البحر الأبيض .

الفصل الرابع

مسألة الجزائر وفتح سوريا

تمتد بلاد البربر على طول الشاطىء الأفريقى من موغادور إلى بنغازى وهى أمارات مكونة من القرصان ومنها كانت تتركب بعض أجزاء الخلافة فى الأيام الخالية . وقد احتفظت باستقلالها بعد انهيار الامبراطورية الاسلامية ولم يكن من شأن قيام الامبراطورية العثمانية أن تتدخل فى شئون تلك الإمارات التى ظلت حرة فى أعمالها لا ترتبط بتلك الامبراطورية إلا بروابط الاحترام لتلك الدولة المتوحشة التى وطدت سلطانها فى مدينة الاستانة وسلخت بلاد البربر طيلة القرنين السادس عشر والسابع عشر فى حروب متواصلة ضد الملاحين الأوربيين كافة .

على أن تأسيس أساطيل الدول الغربية فى إبان القرن الثامن عشر وإن كان قد قلل من نشاط تلك الولايات وضيق الخناق على ما كانت تقوم به من أعمال اللصوصية، إلا أنه لم يغير شيئا من ميولها ونزعاتها . وإذا كانت الولايات البربرية المذكورة قد خشيت العبث بالسفن الانجليزية أو الفرنسية فانها لم تفتأ تشن الغارة على كل ما كان يقع فى أيديها من سفن اسبانيا أو جنوا أو نابلى . وقد بلغ عدد ما استولت عليه بلاد البربر من السفن بين سنتى ١٨٠٥ و١٨١٥ نحو ٩٠ سفينة وإذا كانت الامارات المذكورة قد قللت شيئا من أعمال القرصنة بعد أن أطلق لورد اكسموث قنابل أسطوله على مدينة الجزائر فى سنة ١٨١٦ فانها قد تمكنت على الرغم من ذلك من الاستيلاء على ٢٦ سفينة أخرى فى خلال السنوات العشر التالية . ومن ثم ذهب الأسطول الانجليزى فى سنة ١٨٢٤

إلى مدينة الجزائر مرة أخرى لأنه لم يبق مناص من تصفية الحساب نهائيا مع هؤلاء الأقوام الذين كانوا يدينون بمبادىء أهالى القرون الوسطى .

وكان أهالى بلاد البربر - كغيرهم من المسلمين الطيبين - قد غضبوا أشد الغضب لتدخل المسيحيين فى شئون اليونان . وكذا بادروا بإرسال كل مالديهم من السفن لمساعدة الخليفة وهم محنقون لزوال حرية البحار التى تمتعوا بمزاياها دهراً طويلا وغير حاسبين حسابا لكارثة نافارين التى كانت تنتظرهم . وقد كانوا يميلون فى حالتهم العقلية المحنقة هذه إلى تحدى الغرب وما لديه من الأساطيل ففى ابريل سنة ١٨٢٧ دارت مناقشة عنيفة بين حسين باى الجزائر وقنصل فرنسا العام المسيو ديفال . ولم يتحرج الباى من لطم القنصل الفرنسى بالمذبة على وجهه . فطلبت فرنسا تعويضا عن تلك الاهانة . ولكن الباى أبى تقديم أى تعويض . ومن ثم سحبت قنصلها المذكور وكلفت احدى عماراتها بمحاصرة الجزائر . ونظراً لأن الباى ظل مصرا على رأيه ، وأبى الاستغفار عما فرط منه ، ولأن الحالة العامة - وخاصة بعد نشوب الحرب الروسية التركية فى سنة ١٨٢٨ - لم تكن لتشجع على القيام بعمل حازم ، فلقد حاول قنصل سردينيا ثم أحد ضباط فرنسا البحريين أن يقنع الباى بقبول شروط أخف من الشروط التى كانت معروضة عليه أولا . على أن هذه المحاولات لم تكن إلا لتزيد الباى اقتناعا بأن فرنسا بدأت تضعف أمامه مما زاده صلابة على صلابة . وفى أواسط سنة ١٨٢٩ تقرر إرسال السفينة (بروفانس) وهى رافعة العلم الأبيض باقتراحات جديدة ومعها تهديد بارسال حملة عسكرية فى حالة رفض تلك الاقتراحات . ولكن الباى حسين ظل مصرا على الرفض . وكان جوابه عند ماهدده ربان السفينة بالقتال تلك العبارة الخالدة وهى « لدىّ البارود ولدى المدافع وبما أننا لا يمكن أن نتفق فالأولى أن ترحل من هنا »

فلم يسع السفينة (بروفانس) إلا أن تقلع مراسيها وتعود إلى بلادها فى

٣ أغسطس بينما كان العلم الأبيض لايزال يرفرف على ساريتها . على أن الريح قد غلبتها ودفعتها إلى أقرب بطاريات المدينة . وقد عد الأهالى عملها هذا بمثابة إهانة متعمدة فأطلقوا عليها القنابل وظلوا يطلقونها طالما بقيت السفينة فى داخل مرمى المدافع حتى تمكنوا بعد إطلاق ثمانين قنبلة من إصابتها ثلاث مرات .

فلما أن وصلت هذه الأنباء الى باريس ازداد الرأى العام سخطا على سخطه وأصبح قلقه بسبب التباطؤ فى إخضاع الباى ينذر بالخطر ولكن الوقت لم يكن ملائما بالمرة لاستعمال العنف بل كان داعيا للحيرة . ذلك أن الروس كانوا وقتئذ قد احتلوا أدرنه وأصبح انهيار الامبراطورية العثمانية وتمزيق شملها قاب قوسين أو أدنى فهل كان بوسع أى وزير بعيد النظر أن يقوم فى مثل هذه اللحظة الخطيرة بتوريط قوات فرنسا البرية أو البحرية فى الحرب فى شمال افريقيا ؟ ثم ان المسيو بولنياك الذى عين فى أغسطس وزيرا للخارجية ـ كان قد فرغ وقتئذ من وضع مشروع لو أمكن تنفيذه لضمن التفاف الشعب حول عرش شارل العاشر الذى كان مهددا بالانهيار ولأحبط اتفاق الحلفاء على خلع نابليون (١) وقد توهم أن روسيا والنمسا سوف تقتسمان فيما بينهما معظم ما لتركيا من الأراضى فى أوربا وبذا تسنح لفرنسا الفرصة للمطالبة بتعويض عما ينشأ من الاخلال بالتوازن الدولى أما مشروعه فكان يتلخص فى أن تستولى فرنسا على المقاطعات البلجيكية لغاية نهرى الموز والرين . ويمكن حمل بروسيا على الموافقة على هذا الترتيب بالسماح لها بضم ساكسونيا والمقاطعات الهولندية الشمالية . أما ملك هولندا فيمكن تعويضه عن تقسيم مملكته بتنصيبه ملكا على الاستانة وغيرها مما لم تزدرده روسيا والنمسا من الاراضى التركية فى أوربا . هذا بينما يمكن تعويض انجلترا باعطائها المستعمرات الهولندية التى

---

(١) لاريب فى أنه كان متأثرا بسخط الاهالى فى جنوبى البلاد المنخفضة (هولندا).

تصبح وقتئذ غير خاضعة لأحد . وكانت النية منصرفة إلى تنفيذ هذه الفكرة بمعاهدة تعقد بين فرنسا وروسيا حتى اذا ماتم توقيعها تدعى بروسيا للاشتراك فيها . وبعدئذ يصبح لامناص للنمسا من الانضمام الى هذا المشروع . وإذن تصبح انجلترا مخيرة بين قبول جزيرتى جاوا ومولاكاس أو رفضهما . وبمجرد ما يتم توقيع المعاهدة تحشد الدول المتعاقدة جيوشها ومواجهة أوربا بقوة لايسع أى دولة من الدول الباقية أن تحلم بمقاومتها . وكان بوليناك يرى أن تحشد فرنسا ٢٠٠,٠٠٠ جندى . ولذا كان يعتقد أن تنفيذ المشروع يحتم عدم ارسال حملة بحال من الاحوال لتأديب باى الجزائر المشاغب .

فى ظروف كهذه استقر رأى وزير خارجية فرنسا على اتباع الفكرة التى طالما أوصى بها دورفيشى الذى شغل منصب قنصل عام لفرنسا فى مصر والذى كان قد عاد فى سنة ١٨٢٩ فى الأجازة . أما هذه الفكرة فهى معاقبة الباى لا بيد فرنسا ولكن بيد محمد على الذى كان ميالا الى إعداد حملة كبيرة لفتح ولايات البربر الثلاث وهى طرابلس وتونس والجزائر وضمها . وكان من رأى دورفيشى أن أرسال حملة فرنسية خليق بأن يثير حسد انجلترا ومعارضتها . وبالعكس فان امتداد سلطة الباشا على طوال الشاطىء الافريقى لن يفتح باب الاحتجاج السياسى هذا عدا ـ وهو ما كان يجول فى خاطر بوليناك ـ أن التفكير المزمع فى تغيير الخريطة الأوربية من شأنه أن يشغل بال الوزارة البريطانية بحيث لاتفكر فى مصير تونس والجزائر ، بينما أن دول أوربا الأخرى سوف ترحب بلا جدال بوجود حكم صالح فى تلك المناطق ، نعم حكم قائم على النظام والأمن كالمشاهد فى القاهرة والاسكندرية (١) .

ويظهر أن هذا المشروع كان من بنات أفكار دورفيشى نفسه . فلقد لفت نظر محمد على إلى مزايا الاتفاق مع فرنسا فى الجزائر بدلا من إثارة هواجس

---

(١) كتاب محمد على وحملة الجزائر الجزء الاول (لدوين)

أوربا بأسرها بما عسى أن يقوم به من المغامرات فى سوريا (١) . وقد توهم دورفيشى أن مزايا هذا الاقتراح لن تغيب عن أفكار الساسة الانجليز كما أنها لم تغب عنه شخصياً .

وفى سنة ١٨٢٩ كان المشروع قد ملك على دورفيشى حواسه حتى أصبح العضو الوحيد الذى يتحدث عنه حتى مع باركر القنصل الانجليزى العام الذى حكم على المشروع بأنه خيالى محض . ولكن المصاعب كانت تتلاشى تدريجا من أمام عينيه كلما أصغى إلى أقوال دورفيشى وحماسته فى تحبيذ المشروع . هذا إلى أن مساعدة فرنسا فى السفن والرجال كان من شأنها أن تكفل النجاح وتجعله مضمونا (٢) .

أما خطة محمد على فأغلب الظن أنها لم تكن كما حمل دورفيشى على اعتقادها فانه فى الواقع لم يكن مهتما ببلاد البربر بل لعله كان يدرك أن امتداد سلطانه فى تلك الجهات سوف يكون مصدر ضعف لا مصدر قوة . وقد كان يدرك ما المنطقة التى تضم أقليمى سوريا وبغداد من الأهمية العسكرية ، ثم أنه كان يعلم جيد العلم أنه لو أتيح له يوما ما أن يبلغ المنزلة والقوة التى يطمح إليها فان سوريا وبغداد تكون لها قيمة لا تدانيها قيمة امتلاك الشاطىء الافريقى ، ولكن فى الوقت نفسه لم يكن ممن يقعدون عن انتهاز الفرص. فالاقتراحات الفرنسية ـ مهما كان من شأنها ـ فلسوف تؤدى الى تحقيق أمرين :

(أولا) : أنها تتيح له الفرصة لاعادة انشاء أسطوله المتلاشى .

(ثانيا) : احتمال عقد محالفة مع فرنسا نفسها .

وإذا كان فى هذا ما يقلق بال الانجليز فلتكن المعاهدة مع انجلترا . أوبعبارة آخرى أنه كان على استعداد لفتح الجزائر اذا كان ثمة مغنم له من وراء ذلك ،

---

(١) كتاب محمد على وحملة الجزائر الجزء الاول لدوين ص ٦

(٢) باركر ١٨ أغسطس سنة ١٨٢٩ (وزارة الخارجية ١٨٤ ـ ٧٨)

أو أن يطرح المشروع جانبا اذا رأى أن فى ذلك فائدة أكبر .

ويلوح أن دورفيشى قد أغرم بمشروعه إلى حد أعماه عن معرفة حقيقة نيات الباشا . هذا بينما كان بوليناك متعطشا لاتباع أية خطة ترمى فورا إلى تهدئة ثورة الرأى العام الفرنسى وذلك بانزال العقاب بالجزائر مع الاحتفاظ فى الوقت نفسه بالقوات الفرنسية لتنفيذ المشروع الأوربى الخطير الذى كان مايزال يجول فى خاطره . ولهذا بادر بعرض الأمر على الملك وحصل منه على الموافقة ثم راح بدوره يستشير زملاءه على مايظهر . فأرسل تعليمات الى جيبو مينو سفيره فى الاستانة وميمو قنصله العام فى الاسكندرية وقد كلف الأول بأن يطلب الى السلطان اصدار الفرمانات اللازمة الى محمد على لأن يقوم باخضاع ولايات البربر وأن يعزز هذا الطلب بهاتين الحجتين :

(أولا) ان فرنسا إذا ماأرسلت حملة تأديبية من عندها فأغلب الظن أنها لن تغادر تلك الجهات التى ستفلت من قبضة الباب العالى نهائيا .

(ثانيا) بأن محمد على سوف يدفع أتاوة بعكس الباى (١) .

أما تعليماته الى الثانى فكانت تتلخص فى وجوب ابلاغ الباشا بأن فرنسا موافقة على آرائه وتؤيد خططه ضد ولايات البربر وأن الأسطول الفرنسى — إذا طلب الباشا ذلك — سيكون على استعداد للتعاون مع قواته ، وأنه سيتسلم فى الحال عشرة ملايين فرنك اذا ماأرسل الحملة المذكورة فورا (٢) .

على أن مباحثات الاستانة والاسكندريه لم تجر بالسهولة التى كان يتوهمها بوليناك بسبب عجلته . فان محمد على استهجن أشد الاستهجان مفاتحة الاستانة

---

(١) تعليمات الى جيبو مينو فى ١٠ اكتوبر سنة ١٨٢٩ (كتاب دوين محمد على وحملة الجزائر ص٩)

(٢) تعليمات الى ميمو فى ١٩ اكتوبر سنة ١٨٢٩ (كتاب دوين محمد على وحملة الجزائر ص ١٤)

فى الموضوع قائلا أن الاستانة لن تسمح من تلقاء نفسها بامتداد سلطة باشا مصر ، وأنها قد تسعى للحصول على مساعدة الأسطول الانجليزى لإحباط أعماله العسكرية فى ولايات البربر أو لو لم يؤخذ رأيها مقدما فى الموضوع فان الأرجح أن ترضخ للامر الواقع (١) وقد بينت الحوادث أن هذه الاعتراضات كانت فى محلها . فعبثا حاول السفير جيبو مينو الانتفاع الى أقصى حد بالمشروع الفرنسى . فان الباب العالى ـ كما تنبأ محمد على بذلك ـ كان يعارض أشد معارضة ـ دون أن يصرح بذلك ـ بازدياد نفوذ أو هيبة تابعه الكثير المطامع .

فعرض بدلا من ذلك اقتراحا مضاداً للاقتراح الفرنسى المذكور وقد صرح الرئيس افندى أن كل ما هو مطلوب لحسم الخلاف بين الباى وبين الفرنسيين هو إن يتوسط جلالة السلطان بما له من السلطة السامية . ولهذه الغاية عرض أن يرسل مندوباً من طرفه ـ ألا وهو طاهر باشا أحد أعداء فرنسا الألداء لحمل الباى على الرضوخ لحكم العقل بدون التجاء الى القوة (٢)

وبينما كان البحث يدور حول هذا الاقتراح المراد به عرقلة الأمور اذا بوزير خارجية تركيا يشعر سفير بريطانيا السير روبرت غوردون بحقيقة ما هو جار خلف الستار . وقد أصاب فى تقديره بأن هذه هى أخطر طريق لاحباط أى مشروع بغيض للديوان العالى (٣) .

وأعلن محمد على فى الاسكندرية بأنه على استعداد لارسال نحو ٢٠٠٠٠ جندى نظامى ومثلهم من رجال البدو بقيادة ابنه ابراهيم . ولكنه يطالب على

---

(١) كتاب ميمو فى ٢٧ نوفمبر سنة ١٨٢٩ (دوين ص ٢٣)

(٢) خطاب جيبو مينو فى ٩ ديسمبر سنة ١٨٢٩ (كتاب دوين محمد على والحملة الى الجزائر ص ٥٣)

(٣) غوردون فى ١٥ ديسمبر سنة ١٨٢٩ (وزارة الخارجية ١٨١ ـ ٧٨)

الأقل بضعف المبلغ الذى سمح للقنصل العام ميمو للمفاوضة على أساسه . وفوق ذلك كله فقد طالب كشرط أساسى فى المساومة تعطيه فرنسا ـ بمقتضى عقد بيع صورى ـ أربع بوارج حربية تحمل كل منها ٨٠ مدفعا . وقد صرح بأن هذه السفن لا محيص من الحصول عليها لضمان نجاح الحملة بسرعة وللحيلولة دون أى تدخل أجنبى . وقد ذهب عبثا كل ما بذله ميمو وهيدرا وقد أرسل خصيصا لمساعدة ميمو ـ من المساعى لحمل محمد على على العدول عن طلب البوارج الأربع التى قال انها كانت جزءا لا يتجزأ من المباحثات التى دارت بينه وبين دوروفيش (١) .

ومن ثم قفل هيدرا راجعا إلى باريس ليبسط هذه المطالب على بوليناك الذى أطلع عليها فى ٢٦ ديسمبر .

ومع أن معاهدة الصلح التى عقدت فى أدرنة قد أخرجت وقتئذ مسألة تعديل الحدود الأوربية من دائرة الاحتمال العملية فان بوليناك كان ما يزال يعلل نفسه بالحصول على تأييد روسيا لضم الولايات البلجيكية إلى فرنسا .

ولهذا صحت عزيمته على قبول اقتراحات محمد على وعرضها على زملائه فى الوزارة . ولكنهم تشددوا فى معارضة الاقتراحات وأعلن أغلبهم أن الموافقة على نقل بوارج تحمل العلم الفرنسى ـ إلى دولة اجنبية يعتبر عملا غامضا بل يكون متنافيا مع مقتضيات الشرف .

ثم أن وزير البحرية عارض أشد معارضة فى اضعاف الأسطول إلى هذا الحد وأعلن أنه لا يتأخر عن تقديم استقالته فيما لو قبل الاقتراح المذكور أما وزير الحربية بورمون فقد مر بخاطره طيف المجد الشخصى فيما لو ذهب إلى الجزائر على رأس حملة . ولذا رفض بتاتا أن يحل محله ابراهيم باشا فى

---

(٢) ميمو بتاريخ ٢٧ نوفمبر سنة ١٨٢٩ (دوين ص ٢٧)

قيادة الحملة . وبعد محاولات عديدة لم يستطع بوليناك أن يقنع زملاءه باكثر من الموافقة على اعتماد بمبلغ ٣٨ مليون فرنك يسلم منه ٢٠ مليون فرنك لمحمد على كطلبه ويخصص الثمانية الملايين الباقية لانشاء أربع بوارج له فى الحال . ولكن لا بد إلى جانب هذا من ابقاء عمارة فرنسية على قدم الاستعداد لتقديم مساعدتها لابراهيم فيما لو اقتضى الأمر ذلك . ثم عاد هيدرا إلى الاسكندرية حاملا هذه الشروط المعدلة وصدرت فى الوقت نفسه التعليمات إلى قائد العمارة الفرنسية فى شرقى البحر المتوسط بالحيلولة دون تهديد الأسطول التركى للاسكندرية أو مهاجمة النقالات المصرية المتجهة نحو ولايات البربر – ولما آن وقت العمل على المكشوف وأصبح قاب قوسين أو أدنى رأى بولينياك الاحرج عليه من مفاتحة الدول الأوربية فى الموضوع .

وعلى الرغم مما أبدته دوائر باريس السياسية من التكتم فان الوزارة البريطانية لم تكن تجهل المشروعات التى استقر عليها الرأى . فلقد أبلغها باركر فحوى محادثاته مع دروفيش فى سنة ١٨٢٩ ثم أن السفير غوردون أرسل من الاستانة الأنباء المهمة التى أبلغها له الرئيس افندى . يضاف إلى ذلك أن مستر نيتج أوقف الرسائل الفرنسية التى بعث بها جيبومينو من الاستانة إلى باريس وبادر بتقديم نسخ منها إلى سفيرنا لورد كولى . وكانت الحكومة الفرنسية فى الوقت نفسه تجيب على كل سؤال توجهه اليها الحكومه البريطانية بالنفى البات ولم يكن من شأن هذا التصرف أن يحمل ابردين أو ولنجتون على الاقتناع بما أبدى لها من البيانات فى النهاية أو أن يوافقا على السياسة الصورية التى أعلنت أمامها . وفى ٢٣ يناير ذهب الدوق دى لافال (سفير فرنسا فى لندن) لزيارة لورد ولنجتون وتلا عليه رسالة صورية تلقاها من بولينياك . وقد استقبل السفير بشىء من الجفاء وقيل له أن محمد على لا يمكن قانونيا أن يمتشق الحسام ضد ولايات البربر الا باسم مولاه السلطان ونزولا على أمره الهمايونى . وأبديت

للسفير الرغبة فى أن تعدل الوزارة الفرنسية عن العمل المشترك مع والى مصر (١) وكتب لورد ابردين من فوره إلى ممثلى بريطانيا فى القاهرة والاستانة فكتب إلى ثانيهما يقول « إذا كان السلطان قد وافق أو لم يوافق على هذا فان انجلترا لا يسعها أن تقف وقفة المتفرج إزاء ما يراد ادخاله من التغييرات على ملكية الأراضى المهمة الأفريقية بواسطة وسائل فرنسية وتحت النفوذ الفرنسى وعلى الأرجح خدمة لمصالح فرنسا (٢) وكتب إلى الأول مشيرا إلى معارضة انجلترا فى قيام الباشا بامثال هذه المشروعات بتعضيد الفرنسيين . ثم استطرد فقال أنه يرجو الا يشك محمد على فى اخلاص البواعث التى دفعت بريطانيا إلى اسدائه النصح بان يزن جيدا فى هذه المناسبة ماسوف يترتب من العواقب الوخيمة على المشروع الذى يلوح أنه ميال للتورط فيه (٣) .

على أن هذه المعارضة للمشروع الفرنسى لم يكن ينتظر أن تثير الدهشة فى نفس أحد وليس يخفى أن توطيد دعائم النفوذ الفرنسى فى الجزائر ـ سواء أكان مباشرة أو عن طريق فريق ثالث يعمل لحساب الفرنسيين ـ كان يؤدى حتما إلى تغيير الموقف فى حوض البحر المتوسط وبذا تنشأ مسألة حماية المصالح البريطانية فيه . أضف إلى هذا أن المشروع كان يتضمن احتمالات عظيمة أخرى . فشبح المسألة الشرقية بأثرها كان يطل من وراء المسألة الجزائرية . وأن محمد على لو تمكن من فتح الجزائر لحساب فرنسا لما كان لهذا الفتح أى معنى سوى أن يصبح فورا تحت الحماية الفرنسية . فان مركزه حيال مولاه السلطان سوف يتأثر بذلك الفتح الذى يتغير بمقتضاه مركز مصر ضمناً . فيكون معنى هذا أن تصاب أسوار الامبراطورية العثمانية وهى تترنح بتأثير

---

(١) كتاب محمد على والحملة الى الجزائر لدوين ص ٤١

(٢) كتاب الى فوردون بتاريخ ٢٥ بناير سنة ١٨٣٠ (وزارة الخارجية ١٨٨-٧٨)

(٣) كتاب الى باركر بتاريخ ٢٩ بناير سنة ١٨٣٠ (وزارة الخارجية ١٩٢-٧٨)

الشيخوخة بصدمة أخرى تهز كيانها وتعجل بانهيارها وبذا يصبح العثمانيون وهم أقل قدرة على كبح شهوات جيرانهم الروس . وهذه الحوادث قد ترحب بها الحكومة الفرنسية الآن كما كانت تفعل فى الماضى - باعتبارها فرصة سانحة لتوسيع سلطان فرنسا فى أنحاء المعمورة - ولهذا كان بولنياك قد بدأ يستغلها لفائدة الملكية .

ولكن كان الأمر على عكس ذلك فى نظر الانجليز . لأنهم كانوا يعتبرون الحوادث المذكورة حافلة بالمخاطر التى تنطوى على الشر المستطير مما كانت تقتضيه مصالحنا الحيوية إلا أن نصبر على توطيد إحدى الدول الأوربية أقدامها على الطرق المؤدية إلى الهند .

ومن هنا نرى أن الاحتفاظ بالامبراطورية العثمانية كان يعتبر فى نظر الفرنسيين بمثابة البديل الوحيد لتطورات لا سبيل لأحد أن يتكهن بمداها ، وهى تطورات لايسع العاقل على كل حال إلا أن يبذل كل ما فى استطاعته لتأجيل حدوثها إلى أبعد حد ممكن . إذن فالحالة فى سنة ١٨٣٠ كانت تمهيداً يشير إلى تناقض السياسة الانجليزية والسياسة الفرنسية الذى ظهر بصفة جلية بعد ذلك بعشر سنوات .

وقد شاءت الصدف أن يجىء إعلان الانجليز الحازم رفضهم لذلك المشروع فى نفس الوقت الذى أخفقت فيه تدابير بولنياك لاستعادة حدود الرين وحبطت حبوطاً ذريعاً . فان مباحثاته السرية الغامضة مع سان بطرسبرج وهى المباحثات التى وضعت لها شفرة خاصة ثم ألغيت فيما بعد - لم تسفر عن نتيجة تذكر . فان بروسيا أجابت صراحة أن أحداً لن يستطيع أن يحملها على السماح لفرنسا بالزحف الى ضفة الرين اليسرى .

وهكذا أصبحت القوات التى كانت حتى الآن واقفة عاطلة على حساب مساعدة المشروع الأوربى فيما لو دعت الحاجة - أصبحت هذه القوات طليقة

فى نفس الوقت الذى تبين فيه صراحة أن انجلترا ستضع نفوذها بأكمله فى كفةالميزان ضد محاولة محمدعلى احتلال ولاياتالبربر . وإذ ذاك قرر بوليناك مرة أخرى أن يغير خطته وأن يقصر عمل محمد على على احتلال طرابلس وتونس وأن يرسل حملة فرنسية إلى الجزائر .

وخيل إليه أن والى مصر سوف يبقى على كل حال حليفا إيجابيا لفرنسا يمكن الاعتراف به فى الوقت المناسب (كما كتب بولنياك نفسه) بأنه من مساعدى ملك فرنسا (١) .

ولكن بوليناك لم يحسب حساب حليفه المزمع فى تقديراته هذه ؛ فان محمد على كان من بداية الأمر مصمما على أن لايخطوخطوة إلا إذا نالمنالمزايا البحرية والسياسية ما يرجح كفة الفائدة من السير فى هذا المشروع . ثم أنه لايعقل أن يكون قد قابل بالارتياح تردد السياسة الفرنسية وقتئذ وتذبذبها . لأنه - وهو الرجل المعروف بمضاء العزيمة - كان يشعر بكثير من الاحتقار نحو أولئك الرجال الذين يغيرون آراءهم وينقضون ما أبرموه بين عشية وضحاها . وأغلب الظن أن اضطراب الخطط الفرنسية وتناقضها قد دفعه إلى الارتياب فى فوائد المحالفة التى يعقدها مع فرنسا وهى محالفة - مهما كانت فوائدها ومزاياها - لابد أن يصحبها عداء الانجليز على طول الزمن . ولهذا كله استقر رأيه على رفض الاقتراحات الفرنسية قبل أن تبلغ له مذكرة لورد ابردين .

وبعد أيام قلائل استقبل القنصل البريطانى العام الذى حضر إلى القاهرة من الاسكندرية خصيصا ليبلغه نصائح ابردين . فاعترض نائب السلطان بأن تحذير الانجليز لا لزوم له . ثم راح مرة أخرى - كما فعل مرة من قبل مع

---

(١) كتاب الى باركر فى ٢٩ يناير سنة ١٨٣٠ (وزارة الخارجية ١٩٢ - ٧٨)

صولت - يشرح ميوله ويبان رغبته فى الوصول إلى تفاهم ودى مع بريطانيا العظمى وقد سأل القنصل السؤال الآتى «ألست ترى أن من المستحيل الاحتفاظ بالباب العالى قد تستطيعون الترقيع هنا أو الترقيع هناك ، ولكن تعرفون أن كل هذا مجهود ضائع عبثا . إذ ماعساكم تصنعون بحكومة فقدت ثقة الشعب فى قلب العاصمة والأقاليم . . . ولهذا كان من العبث الاعتماد على الأتراك فى مقاومة الاعتداء الروسى فى المستقبل مقاومة فعالة . وبالرغم من ذلك كله فإن الاحتفاظ بالباب العالى من الأمور التى تمس مصالح بريطانيا العظمى فى الصميم ثم استرسل الباشا فقال « فالطريقة الوحيدة لتقوية السلطان تنحصر فى تقوبتى وشد أزرى لأنكم لو شددتم أزرى لأصبح تحت تصرف السلطان فى الحال جيش منظم يبلغ عدده ١٢٥,٠٠٠ جندى على استعداد تام للوقوف كالسد المنيع فى وجه روسيا لا فى الاستانة وحدها بل فى فارس أيضاً . إذ لا محيص للانجليز من الاصطدام بروسيا فى فارس إذ ما هى فائدة اختلاس النظرات من خلال أصابعك مع الادعاء فى الوقت نفسه بأنك لا تبصر شيئا . ولقد زال الباب العالى فينبغى إذن على انجلترا أن تمد فى آسيا قوة لصد الروس. فأين ياترى يسعها إيجاد هذه القوة إلا معى ومع ابنى من بعدى .. »

ثم أخذ يسهب فى سهولة انضمام العثمانيين إليه والتفافهم تحت رايته قال : « لو استقر رأى الانجليز على تأييدى » واسترسل فى وصف موارده التى قال بحق « أن الوزارة البريطانية قد بخستها قدرها » . وأخيرا صرح قائلا « ان الانجليز لو اتخذونى صديقاً لهم لأصبح فى وسعى أن أفعل ماأريد . أما بدون صداقتهم فليس يسعنى أن أفعل شيئا . . ولقد أدركت منذ أمد بعيد ان ليس فى استطاعتى الاقدام على عظائم الأمور بدون إذن انجلترا لأننى أينما ألتفت بوجهى أراها واقفة لى بالمرصاد ومستعدة لإحباط تدابيرى » .

ويندر أن يكشف الساسة مكنونات صدورهم لسامعيهم إلا بالقدر الملائم

لا أكثر ولا أقل . ولم يكن محمد على بالطفل الغر الذى يزل لسانه إلا بالشىء الذى يرومه .

ولكن ليس من ريب فى أنه كان مخلصا فيما قاله عن موقفه إزاء بريطانيا لأنها كانت تحيط به من كل جانب إحاطة السوار بالمعصم ولم يكن فى استطاعة دولة أخرى عدا انجلترا أن تقدم له مساعدة فعالة كمساعدتها . ثم أنه لم يعد الحقيقة فيما ذكره عن موقفه وعن الفرص التى تنتظره . ولقد كان وقتئذ القوة الوحيدة الحية القادرة على النمو والترقى فى العالم الإسلامى بأسره . وبهذه الصفة كان فى وسعه بالاشتراك مع انجلترا ومساعدتها له أن يؤسس فى ظل الخلافة العثمانية دولة عظيمة كالتى أنشأتها شركتنا الهندية الشرقية فى ظل امبراطورية دلهى .

ولكن لابد لنا أن نسأل مرة أخرى : ما هى المزايا التى كان يسعه تقديمها لحمل الساسة الانجليز على ترك سياستهم التى أعلنوها واستبدالها بسياسة لانشاء دولة جديدة فى الشرق الأدنى ؟ فلو رسخت أقدامه يوما ما على حدود فارس وامتد سلطانه من القاهرة إلى بغداد ألا يمكن أن يتقدم إليه الروس بما يغريه على ترك أصدقائه الانجليز وقلب ظهر المجن لهم .. وإذن يصبح مركزنا فى خطر محقق . إلا أن تأييدنا لسياسة مصر فى الفتح لا يمكن أن يسوغه إلا باعث قهرى ومثل هذا الباعث لايحتمل على الأرجح أن يتهيأ إلا إذا حدثت أزمة أوربية عظيمة ليس غير . وعلى كل فان مجرى السياسة الانجليزية بوجه عام لم يكن على التحقيق معارضة عظيمة لمصر كما توهم بعض الكتاب ـ بل لتظل مصر فى أنحاء خارجة عن حدود البلاد الطبيعية .

ومن جهة أخرى فان محمد على كثيرا ما رمى بعينيه إلى امتلاك اقضية سوريا الأربعة . وقد كان يعتقد أن امتلاكها يؤمن أراضيه المصرية ضد غارات الأتراك ويضع فى قبضة يده مدينة القدس احدى مدن الاسلام المقدسة وبذا يرفع مكانته ويضاعف هيبته فى نظر العالم الاسلامى ويزيد من موارده فى

المال والرجال كما حسب ذلك وجاءت الحوادث تكذب حسابه . أجل أن امتلاك هذه الاقضية يعطيه دمشق إحدى المراكز المهمة للثقافة الاسلامية ثم أنه بذلك يستولى على مناطق غنية باخشابها فيوفر على نفسه ابتياع الأخشاب من تريستا باثمان باهظة . هذا إلى أن ذلك يقيم الدليل أمام الملأ على صحة النظرية التى يتشبث بها وهى زوال سلطة الباشا الوالى وانقراضها وقدرته وحده على تنظيم سلطة تركيا من جديد وردها إلى الشباب بعد ما دبت فيها الشيخوخة ونخر عظامها الهرم .

وكانت الأقضية الأربعة المذكورة فى حالة رثة فقد تغلغلت فيها القلاقل بحيث لا يضمن سعاة البريد أن يجتازوها بسلام (١) .

فلقد حكمها الباشوات منذ اجيال عديدة ولم يقيد ميلهم إلى السلب والنهب الا تحديد سلطتهم .

وعليه لم يكن باستطاعة أحد من السكان أن يتظاهر بشىء من اليسار والبذخ بل كان كل انسان فى حالة بؤس أو أنه كان يتظاهر بانه كذلك .

ثم أن الأهالى مع ما كان بينهم من اختلاف الشيع والأديان ـ كانت الأحقاد والمشاكل المتغلغلة فى نفوسهم تمزقهم كل ممزق . فهذه البلاد التى سادت فيها الفوضى كانت مطمع انظار نائب السلطان منذ زمن بعيد فلقد تكلم إلى القنصل الانجليزى سنة ١٨١٢ عن ميله إلى غزو فلسطين متى سنحت الظروف الملائمة (٢) .

ولكنه أقعده عن تنفيذ ذلك العزم وقتئذ ما كان قائما فى سبيله من المصاعب

---

(١) كتاب كارتريت شركة الهند الشرقية بتاريخ ٧ نوفمبر سنة ١٨٢٢ (وزارة الهند ومصر والبحر الاحمر ٧)

(٢) ميسيت بتاريخ ٢٠ يونيه سنة ١٨١٢ (وزارة الخارجية ٣٤ ـ ٤)

التى لا حصر لها ولعل أول هذه المصاعب حاجته إلى إنشاء جيش منظم يمكن أن يتخذ عدة صالحة لتنفيذ غاياته .

ثم لا تنس إلى جانب تلك العقبة نفوذ السلطان الروحى وقد كان ينبغى على محمد على أن يحسب له حسابه وبخاصة فى السنوات التى كانت الضرورة تقضى بايقاظ روح التعصب الدينى أثناء الثورة اليونانية .

ولقد قال مرة لصولت فى السنة التى وقعت فيها معركة نافارين ماملخصه : « هذا هو مبلغ تعصب الأهالى الدينى غير أنهم ليهجرون الباشا متى كان مغضوبا عليه من رئيس الكنيسة » ثم استطرد فقال « فلمقاومة السلطان مقاومة فعالة يجب أن يكون لدى الباشا من القوة ما يضمن له التفاف الرأى العام حوله وليس هذا بالأمر الهين » .

وقد عزز هذا الرأى بالمثل الذى أورده عن أحد باشوات كردستان وقد شق عصا الطاعة فانفضت من حوله الجنـــود كما تسقط الرمال من قدم الحاج (١)

ولكن عام ١٨٣٠ رأى لمصر جيشا كبيرا منظما أحسن تنظيم كما أن ابنه ابراهيم أقام الدليل على أنه قائد محنك ماضى العزيمة . هـذا فى حين أن نظـام القرعة العسكرية كان يبشر بأن يلتحق بالجيش العدد المطلوب من الرجال . ومن جهة أخرى فان مانزل بالأتراك من الكوارث على أيدى الكفرة سواء فى البحر فى موقعة نافارين أو فى البر أثناء الحرب الروسية كل ذلك قد نبه حتى البلداء من الأتراك إلى أن السلطان محمود لا يصلح بحال ما أن يكون دليلهم إلى مواطن النصر والفوز . وفى الواقع فان الامبراطورية كانت بحيث تكون رجة عنيفة واحده لأن تلاشيها تماما وتمزق شملها .

وفى الوقت الذى تلاشت فيه المقتضيات السلبية التى كانت فى الماضى تصد

---

(١) مذكرة صولت فى ٢٠ يناير سنة ١٨٢٧ وأرسلت داخل رسالة فى ١٠ فبراير سنة ١٨٢٧ (وزارة الخارجية ٧٨ — ١٦)

محمد على عن التفكير فى التقدم إلى الأمام ظهر سبب إيجابى جديد . ذلك أن الطعم الذى أغرق به الباب العالى محمد علياً للاشتراك فى الحرب اليونانية كان وعده إياه باعطائه أقضية سوريا الأربعة متى انتهت الحرب المذكورة ووضعت أوزارها ولكن هذا الوعد وضع الآن فى الثلاجة بعد أن استعاد خسرو نفوذه فى الباب العالى وكان نائب السلطان لغاية سنة ١٨٢٧ مازال يطالب عبثا بالفرمانات الخاصة بتوليته شئون الأقضية المذكورة (١) ثم أدرك محمد على أنه أضاع أسطوله وعرض جيشه وابنه للخطر والهلاك فى غير مقابل فاستقر رأيه على أن يحتل سوريا قبل أن يسبقه أحد الى احتلالها .

ولم تكن تعوزه الحجج اللازمة لتنفيذ ما استقر رأيه عليه . فلقد كان الباب العالى طلب إلى محمد على أن يقدم المساعدة لقضم ظهر الفتنة التى كان مصطفى باشا الاشقودرة يرلى قد رفع رايتها فى بلاد الروملى . فأخذ محمد على تحت ستار تنفيذ هذا الطلب يعد معداته العسكرية دون أن يثير الشكوك فى نياته . ولكن لما ابلغها الباب العالى أن مساعدته قد استغنى عنها اقترح أن يستخدم قواته المتجمعة فى محاربة عبد الله باشا والى عكا لابتزاز أموال التجار المصريين (٢) ثم أن هناك سبباً آخر انتحله محمد على الا وهو الاستقبال الردىء الذى استقبل به عبد الله باشا الفلاحين المصريين الذين فروا من القرعة العسكرية وذهبوا إلى عكا . وقد قيل أن عدد الفلاحين الذين فروا هكذا فى خلال سنة ١٨٣١ قد بلغ نحو ٦٠٠٠ وقد أبى عبد الله باشا اعادتهم إلى مصر فاجابه محمد على بانه سوف يأتى بنفسه لأخذهم (٣) وفى أكتوبر سنة ١٨٣١

---

(١) صدرت فى ٢٧ اغسطس سنة ١٨٢٧ (وزارة الخارجية ١٦٠ — ٧٨) وكتاب محمد على الى الشيخ افندى فى ٢٣ جمادى الاولى سنة ١٢٤٣ (محفوظات عابدين)

(٢) كتاب الصدر الاعظم إلى والى دمشق بتاريخ ٣ ربيع الاول سنة ١٢٤٣ (محفوظات عابدين)

(٣) كتاب صبرى (الامبراطورية المصرية) ص ١٩١

أصدر الأمر إلى جنوده بالزحف على عكا .

ولعل ابلغ مثل نقدمه على عجز الباب العالى وتشتت ووهن نفوذه إذ ذاك هو كيفية استلامه اقتراح محمد على بمحاربة عبد الله باشا . فان الصدر الأعظم مع علمه بان استعدادات محمد على انما يراد بها احتلال الولايات العربية فى داخل الامبراطورية العثمانية ـ وتحسين إدارتها وتنظيم شئونها ثم اعلان استقلاله ـ لم ير وسيلة إزاء ذلك الخطر خيرا من أن يلفت نظر عبد الله باشا بأن يستعمل الكياسة ويتجنب كل ما عساه أن يؤدى إلى الاشتباك فى الحرب ثم أنه كتب فى الوقت نفسه الى محمد على كتابا رقيقا قال فيه « ان شكوى بعض التجار لا يمكن أن تسوغ تحكيم الحسام واشعال نار الحرب وأن ما ينشب من النزاع بين الباشوات المتجاورين لا يمكن أن يسوى باشهار السيف بل يتدخل الباب العالى (١) ولكن تركيا لم تعمل من ناحيتها استعدادات مطلقا لدفع الخطر المنتظر .

وحوصرت عكا برا وبحرا طبقا للخطة التى وضعتها القيادة المصرية ولكن المصريين فوجئوا بمقاومة لم يكونوا يتوقعونها . أما عبد الله باشا فان صح القول بأنه لم يكن نزيها ولا حكيما فانه كان شجاعا . وهذا بالرغم من أن الحصار فى مرحلته الأولى لم تدبر شئونه بالمهارة اللازمة . ثم بذلت محاولة فى اليوم التاسع من شهر ديسمبر للتغلب على المدينة باطلاق القنابل من البوارج الحربية ومن البطاريات البرية ولكن السفن أصيبت بعطب كبير بينما كان ماتركته البطاريات البرية من الأثر تافها زهيدا . وبعد مجهودات عدة فى خلال الأشهر الثلاثة التالية بذلت محاولة جديدة للاستيلاء على أسوار المدينة عنوة وكادت المحاولة تكلل بالنجاح فان لفيفاً من المهاجمين قد توغلوا حتى وصلوا

---

(١) كتاب الصدر الاعظم لوالى مصر

سوق المدينة ولما لم يجدوا المدد خلفهم اضطروا إلى العودة من حيث أتوا. ومن ثم بدأ مركز ابراهيم يتحرج (١) وخاصة بعد ما أخذت شراذم من الجنود تتجمع لتخفيف الضغط عن المدينة وبعد ماتشجع الباب العالى بما رآه من طول دفاع عكا فقرر شطب اسم محمد على وابراهيم من قائمة أسماء باشوات الامبراطورية التى تنشر سنويا فى عيد الأضحى والتى حان موعد نشرها فى سنة ١٨٣٢ فى ذلك الوقت ومن ثم بدأ ينتشر شعور القلق لا فى القاهرة وحدها بل وفى الاسكندرية أيضا . وبدأ الناس يتهامسون ضد حكومة نائب السلطان وفى ١٤ مارس وكذلك فى ٢١ و٢٣ منه عثر الناس بالقرب من باب زويلة بالقاهرة على جثث ثلاثة أتراك عارية وقد أطيحت رؤوسهم حديثاً وكان اثنان منهما من رجال الجندية والثالث من العلماء وقد تدلت من صدورهم رقعة كتب عليها « هـذا هو المصير الذى ينتظر كل من يعجز عن ضبط لسانه » (٢) وفى يوم ٢٧ عثروا على جثتين عاريتين مع هذا التحذير « هذا العقاب ينتظر أولئك الذين يتكلمون ضد الحكومة » (٣)

ويلوح أن جماعة المتذمرين لم يحسبوا حساب جواسيس محمد على ولا حساب قواد القوات التركية البعيدين عن المهارة وبعد حبوط الهجوم الذى قام به ابراهيم على عكا فى ٩ مارس قرر أن يترك ٥٠٠٠ جندي لمواصلة الحصار وزحف ببقية الجيش لتفريق شمل ما جمعه خصومه من القوات فبعد أن شتت الجيش التركى المركب من ١٢٠٠٠ جندى بالقرب من حمص عاد ابراهيم لتجديد الهجوم على عكا وفى فجر يوم ٢٧ مايو تولى قيادة الهجوم على المدينة بنفسه وإذ ذاك نشبت معركة حامية قيل بشأنها أن ابراهيم قتل بسيفه بعضا

---

(١) كتاب باركر لستراتفورد كاننج فى ١١ ابريل سنة ١٨٣٢ (وزارة الخارجية ٢١٣ — ٧٨)

(٢) كتاب باركر فى ٤ و٢٧ يونيه سنة ١٨٣٢ (وزارة الخارجية ٢١٤ — ٧٨)

من الضباط الذين حاولوا التخلف عن اخوانهم المهاجمين وما كاد يخيم الظلام حتى كان ابراهيم قد نجح فى الاستيلاء على المكان بعد جهود الجبابرة وهنالك عمت الفوضى ودار السلب والنهب طبقا لقواعد الحرب كما كانت معروفة إذ ذاك فى بلاد العرب(١) وقد أعلن عبدالله باشا فى كثير من المباهاة « انى عند ماشرعت فى الدفاع عن عكا كانت لدى أسوار ورجال وأموال فلما استولى عليها ابراهيم كانت الأسوار قد دكت دكا . أما جنودى الذين كان عددهم ٦٠٠٠ فقد طاح منهم ٥٦٠٠ ولم يبق فى خزانتى إلا بعض جواهر لا تسمن ولا تغنى من جوع » وقد ألقى بحق تبعة هزيمته على الباب العالى بشىء من مرارة النفس فقال « ان شرفه لأشبه شىء بشرف الراقصات (١) .

وبعد سقوط عكا شرع ابراهيم فى الزحف شمالا مرة أخرى فدخل دمشق بلا مقاومة فى ١٣ يونيه وفى يوم ٨ يوليه رأى نفسه يهاجم القوات التركية بالقرب من حمص بدون أن يتوقع ذلك . وبعدمعركة قصيرة فرقها شذر مذر واستولى على بطارياتها ومخازن الذخيرةوالمنقولات وفى١٥يوليه استولى على حلب وفى ٢٩ منه هزم قوة تركية أخرى عند ممر بيلان وهنا أوقف الأعمال الحربية مؤقتاً .

وهنا رأى نائب السلطان نفسه أمام طريقين فإما أن يعلن استقلاله ويوالى الزحف ضد الأتراك الذين اضمحلت قوتهم المعنوية وبذا يرغم السلطان على الاعتراف بمركزه وإما أن يتوقف عن الزحف أملا فى أن يحصل بواسطة تدخل الدول الغربية على التسوية التى يبتغيها . وكانت لكل من هاتين الخطتين أخطارها العظيمة . فالزحف على الاستانة كما كان يقترح ابراهيم قد يحتمل مع الأسف أن يدفع الدول إلى التدخل فى مصلحة السلطان . ومن هنا رفض محمد على ما اقترحه ابراهيم من سك العملة باسمه وأن يكون الدعاء باسمه أيضا فى

تاريخ صبرى (الامبراطورية المصرية) ص ٨ — ١٩٧

خطبة الجمعة . وقد صرح محمد على بأنه لم يصل الى منصة الحكم إلا بانتهاج خطة الاعتدال . ولذا فهو لا يرضى بتاتا أن تضاف الى اسمه ألقاب شرف جديدة (١) وبينما كان ابراهيم يتوهم بما داخله من الزهو بسبب انتصاراته أن كل مايطلبه هو وأبوه خليق بأن يتحقق بهزيمة الأتراك، كان أبوه يرى بثاقب نظره أن هناك دولا أخرى أشد بأسا من تركيا ينبغي أن يحسب حسابها إذا ماأريد تثبيت ما أحرزه من النجاح ولا ريب فى أن زحف ابراهيم على الاستانة سوف يكون الاشارة الأكيدة لتدخل الدول الأخرى التى سبق أن تدخلت فى اليونان ومن جهة أخرى فان وقف الزحف معناه إمهال الأتراك للتغلب على مانزل من الذعر بهم وجمع شتاتهم من جديد لحراسة الطريق المؤدية إلى الاستانة ، ولكن الأتراك قد غلبوا مرة على أمرهم ، ومن السهل هزيمتهم مرة أخرى . وخلاصة القول أن محمد على كان يعتبر الجنود التركية كما مهملا وعدوا لا تقاس خطورته بخطورة فرنسا أو انجلترا ولذا آثر وقف الزحف وأن يفتح باب المفاوضات .

وفى الواقع كان موقف الدولتين المذكورتين بالنسبة له موقفا وديا . فان ملكيته لولايته كانت شديدة الرغبة فى رؤية شوكة محمد على تتضاعف طالما أن ذلك لايؤدى إلى حدوث رد فعل عنيف فى الاستانة يكون من ورائه فتح باب تجزئة تركيا قبل الأوان . وعليه كان نفوذ فرنسا منذ منتصف عام ١٨٣٢ فصاعدا يتجه نحو حمل محمد على بالا يستخذى فيما استولى عليه من البلاد وأن يحصر مطامعه فى النقطة التى صرح بوجوب تسويتها وتحقيقها وأن يؤثر الاتفاق مع الباب العالى رأسا عن مواصلة القتال (٢) .

ولم تكن خطة الوزارة الانجليزية مباينة لخطة فرنسا . فان القنصل العام

---

(١) تاريخ صبرى « الامبراطورية المصرية » ص ٢٠٥

(٢) كتاب دوين « بعثة البارون دى بوابى كومت » ص ٣

باركر بسبب وقوعه تحت تأثير آراء القناصل فى سوريا حيث سبقت له الخدمة فيها وحيث كان يفهم حق الفهم مزايا نظام الرشوة والفساد كما كانت فى عهد الأتراك - أعلن استهجانه لانتصارات ابراهيم وأبى أن يذهب لزيارة محمد على وتهنئته بمناسبة سقوط عكا (١) وكان يطيب له أن يسمى محمد على بعد صدور فرمان الباب العالى بعزله « بنائب السلطان سابقا » أو « بالنائب الثائر » ولكن موقف باركر لم يكن يترجم بحال ما عن موقف وزارة الخارجية بلندن . فان بالمرستون الذى ارتقى إلى منصب وزير الخارجية وتسلم اختامها فى نهاية ١٨٣٠ لم يكتف بتوبيخ باركر أشد توبيخ لاجترائه على تعجل خطة حكومة جلالة الملك نحو محمد على (٢) والاندفاع من تلقاء نفسه فى سياسة لم يقرها رؤساؤه بل استبدله بعد قليل بالكولونيل باتريك كامبل (٣) وهو بلا ريب أقدر مندوبى انجلترا فى مصر فى عهد محمد على وأكثرهم فهما لحقائق الأمور .

ولكيما يستر فتوحاته بستار يجعلها بعيدة عن آثارة الشكوك والانزعاج فى نفوس الدول الغربية فان نائب السلطان الذى ما برح يسمى نفسه بهذا الاسم مهما تبرأ منه مولاه راح يضع أساس مشروع متناقض كان قد سبق أن عرضه على بريطانيا العظمى . هذا المشروع هو أنه ما زال فى أعماق قلبه خادما أمينا للامبراطورية العثمانية لم لم يكن للسلطان العثمانى نفسه وأنه انما قام بما قام به لخير الباب العالى ولرفعة مجده وأنه لا يطمع بحال ما فى الاستقـــلال أو الانفصال عن الامبراطورية وأنه إذا كان قد فتح سوريا فليس الا لتوطيد دعائم الحكم التركى (٤) ولكن وقد اثبتت التجارب أن السلطان محمود قد أصبح

---

(١) باركر ١٣ يونية ١٨٣٢ (وزارة الخارجية ٢١٤ - ٧٨)

(٢) خطاب الى باركر فى ٣ اكتوبر سنة ١٨٣٢ (وزارة الخارجية ٢١٤-٧٨)

(٣) رسالة الى كامبل فى ٧ يناير سنة ١٨٣٣ (وزارة الخارجية ٢٢٦ - ٧٨)

(٤) رسالة باركر فى ٢٥ يونيه سنة ١٨٣٢ (وزارة الخارجية ٢١٤ - ٧٨)

عاجزا عن قيادة الشعب التركى الا فى طريق الهزيمة والخسران ونظرا لأن الديوان قد تملكت من نفسه البغضاء ومن الرجل الوحيد ـ الا وهو محمد على نفسه ـ الذى فى وسعه انقاذ الامبراطورية من الخراب إذن فقد أصبح واجبا محتما عليه بصفته تركيا مخلصا أن يخلع محمود من على العرش وأن يجلس مكانه نجله الأصغر عبد المجيد على أن يكون له ديوان يكفل تسيير شئونه فى طريق الحكمة والرشاد (١) وفى شهرى أغسطس وسبتمبر قام محمد على بتجربة لالغاء شارة السيادة الوحيدة للسلطان محمود على مصر . فبحجة أن العملة التركية قد أصابها التدهور منذ سنوات عديدة وأنها آخذة فى الاضمحلال المستمر بحيث تسير من سيء إلى أسوأ فقد أمر محمد على بان يقف التعامل بها فى كافة انحاء مصر وذلك لمنع حلولها محل العملة الأوربية والمصرية المتداولة فى البلاد . ولم تكن لهذه التجربة أية صلة بالقانون المشهور الذى وضعه جريشام . وفى الحق كانت محاولة محمد على هذه محاولة تدل على منتهى الذكاء فقد تمكن تحت ستار الاصلاح الاقتصادى من أن يعلن للشعب المصرى أنهم لم يعودوا يحكمون باسم السلطان محمود .

كانت المباحثات فى الوقت نفسه متواصلة بين الاسكندرية والاستانة فان السلطان قد بعث مندوبين فى نهاية عام ١٨٣١ إلى القطر المصرى حيث استقبلوا بكافة مظاهر الحفاوة والتبجيل ولكن المباحثات نفسها استمرت طيلة الشهرين التاليين ولم تسفر عن شيء ثابت سوى الدخان المتصاعد من الجبلين اللذين ظلا الرجلان يتسليان بتدخينه يوما بعد يوم فى قصر نائب السلطان ثم دارت المفاوضات بطريقة غير مباشرة بواسطة قبطان باشا التركى . وفى شهر سبتمبر ابلغ محمد على المستر باركر أنه لم يتسلم ردا شافيا وأنه لم يبق أمامه

---

(١) رسالة القنصل (باركر) فى ١٢ أغسطس سنة ١٨٣٣ (وزارة الخارجية ٢١٤ — ٧٨) .

إلا مواصلة الزحف على الاستانة. وأنه قد وصلته أنباء سرية بأنه « لا يوجد الآن ما يعوقنى أن أفعل هذا » (١) على أنه كان برغم ذلك على استعداد لأن يفتح باب المفاوضة فى شهر نوفمبر مع أى رسول يروق للسلطان أن يرسله إلى الاسكندرية (٢) .

وأرسل يوصى ابنه ابراهيم بألا يعلن انتهاء حكم السلطان فى سوريا ما لم يحصل أولا على فتوى من رجال الشرع المحليين بأن السلطان محمود قد خلع لعدم لياقته للحكم (٣) .

على أن السلطان كان تحت ستار هذه المحاولات يعد العدة لبذل مجهود نهائى لطرد قوات الوالى الثائر من سوريا . وفى الواقع لم تكن مفاوضاته إلا ذرا للرماد فى عينى العدو لتخدير أعصابه وليلهيه عن مواصلة الزحف على الاستانة أو مضاعفة قواته ريثما تتم الاستعدادات التركية .

أما ابراهيم فكان قد وصل بجيشه شمالا إلى قونية حيث اضطر لوقف الزحف بسبب تخوف أبيه من أن تؤدى مواصلة الزحف إلى تدخل الدول الغربية . وفى نهاية سنة ١٨٣٢ تولى رشيد محمود باشا الصدر الأعظم بنفسه القيادة ضد ابراهيم .

وكان الجيش التركى كثير العدد تسنده وحدات قوية من البوسنة وألبانيا وفى ٢١ ديسمبر التحم الجيشان بالقرب من قونية فلم تلبث الخيالة التركية أن غادرت المعمعة بينما المشاة تسمح لهم بالهجوم إلى أن تبينوا فجأة أنهم بين نارين وقد هزموا شر هزيمة ووقع الصدر الأعظم نفسه فى الأسر ومن ثم صارت الطريق إلى الاستانة مفتوحة ولا مدافع عنها . فاستقر رأى ابراهيم على مواصلة

---

(١) كتاب الاستاذ صبرى ص ٢٠٨ .

(٢) و(٣) كتاب الاستاذ صبرى ص ٢١٢

الزحف فورا على أمل مواجهة أوربا بالأمر الواقع وهو خلع السلطان . ولكنه تلقى فى قوتاهية كتابا من أبيه يأمره بالتوقف أينما كان .

وقد كان هذا القرار بناء على التدخل الأوربى الذى كان يخشاه محمد على منذ زمن . فان الاشاعات راجت فى ١٢ يناير سنة ١٨٣٣ ووصلت إلى اسكندرية بأن الأتراك قد قبلوا المحالفة التى عرضتها روسيا عليهم (١) وكانت هذه الاشاعات سابقة فى الواقع لأوانها ذلك لأن قيصر الروسيا وإن كان قد عرض فعلا على السلطان أن يعضده ببعض قواته العسكرية المسلحة ضد محمد على إلا أن العرض لم يكن قبل فعلا ولكن لم تمر سوى أيام قلائل حتى وصل الى الاستانة أحد الضباط الروس ألا وهو اللبوتونانت جنرال مورافييف يحمل تعليمات بأن يذهب رأسا الى الاسكندرية ليطلب الى نائب السلطان أن يكف عن زحفه ضد تركيا . فوصل الى الاسكندرية فى يوم ١٣ يناير وفى صباح اليوم التالى حظى بمقابلة نائب السلطان مقابلة قصيرة . ولم يقدم الجنرال الى محمد على مستندات رسمية من أى نوع ومن ثم أذيع أنه جاء كوسيط فى الصلح . ولكن كان السائد على الأفهام أن مهمته تنحصر فى مطالبة محمد على بالانسحاب من كرامانيا وسوريا وأن يسلم أسطوله إلى السلطان وأن يخفض جيشه الى ٢٠,٠٠٠ وبعد يومين وكذلك فى يوم ١٨ يناير حظى بمقابلة نائب السلطان وحادثه مليأ وكان حديثهما سريأ . وقد أذعن محمد على ووعد بأن يقدم خضوعه للسلطان وأن يقف القتال كدليل على حسن نيته (٢) .

وكان الديوان التركى يتطلع بطبيعة الحال فى تلك الساعات العصيبة إلى معونة انجلترا بصفتها حليفته التقليدية لا إلى روسيا عدوته اللدودة القديمة .

---

(١) باركر فى ١٧ يناير ١٨٣٣ (وزارة الخارجية ٢٣١ - ٧٨)

(٢) باركر فى ١٧ و ١٩ يناير سنة ١٨٣٣ (وزارة الخارجية ٢٣١ - ٧٨) وأيضا كتاب الاستاذ صبرى

ولهذه الغاية أرسل الى لندن رسولا خاصا للحصول على مساعدة بعض البوارج البريطانية . ولكن بالمرستون لم يكن على استعداد للتورط فى عمل معين من هذا القبيل . فرفض وترتب على هذا الرفض أن السلطان محمود قرر برغم إرادته أن يتفق رأساً مع نائبه الثائر . ومن ثم وصل الى الاسكندرية فى ٢١ يناير خليل قبطان باشا يحمل اقتراحات لعقد الصلح .

وكانت مقابلة نائب السلطان للقبطان باشا محاطة بكافة مظاهر التبجيل والأبهة . فلقد تقدم ضابطان من كبار ضباط محمد على من القبطان باشا وتأبطا ذراعيه لمساعدته على ارتقاء درج قصر رأس التين أما محمد على نفسه فقد نزل إلى نصف الدرج لاستقبال زائره ولم يسمح له بتقبيل يده بل عانقه وقبل وجنتيه . ومن هناك قصدا إلى حجرة الاستقبال ويد كل منهما فى يد الآخر بينما طوق خليل باشا بذراعه الطليق وسط الباشا الهائل . ولما استقر بهما المقام جلس خليل باشا راكعا على ركبتيه مبالغة فى الاحترام . وكانت هذه الرسميات بمثابة تمهيد طبيعى لما سيعقبها من محادثات طويلة مملة وبعيدة عن الاخلاص .

ونتساءل هنا ماذا عسى كان محمد على يطمح الى نيله من شروط الصلح لقد كتب اليه ابراهيم من معسكره فى كوتاهية يقترح عليه سلسلة مطالب وقد ذكر فى رأسها الاستقلال باعتباره مسألة جوهرية بالنسبة لنا تفوق فى أهميتها كافة المسائل الأخرى ، ثم طلب ضم الأناضول وكليكية نظرا لما فيهما من الخشب اللازم لمصر والذى لا بد لها من ابتياعه من الخارج إذا أصرت على الاحتفاظ بأسطولها وطلب فى النهاية جزيرة قبرص كقاعدة صالحة للأسطول أما بغداد فقد كانت فى نظره قليلة الأهمية ثم أنها بعيدة وفقيرة (١) .

وقد كانت هذه الطلبات مرغوبا فيها من وجهة النظر المصرية ولكن كان بديهياً أن هذه لا يمكن أن يطالب بها الا الفريق الغالب أو بعبارة أخرى

---

(١) ورد فى كتاب صبرى ص ٢٢٧ و ٢٢٨

لا يمكن تحقيقها إلا بتوفير القوة المنقوضة ولم يكن ثمت من سبب يحمل أوربا على الموافقة على مطالب كهذه إذ تبين لها أنها غير مرغوب فيها من الناحية السياسية..

وللمقارنة الطفيفة بوجهة نظر ابراهيم هذه نذكر تلك التعليمات التى بعث بها بالمرستون فى الوقت نفسه الى الكولونيل كامبل فقد كتب يقول «ان حكومة جلالة الملك تعلق أكبر أهمية على صيانة أملاك الامبراطورية العثمانية لأنها تعتبر أن سلامة تلك الدولة عنصراً أساسياً فى التوازن الدولى فى أوربا . فمن رأيها أن كل انتقاص خطير من الأملاك الأسيوية التابعة للسلطان وما يترتب على ذلك من الموارد التى لاغنى عنها لجلالته مما يكفل الدفاع عن أملاكه فى أوربا. من رأيها أن ذلك كله لابد أن يؤثر بالنسبة عينها فى موقفه إزاء الدول المجاورة لها وهو ما لابد أن تكون له عواقب ضارة خطيرة على مصالح أوربا العامة.. ولذا ترى حكومة جلالة الملك أن ليس من المهم أن تحول دون تمزيق أوصال الامبراطورية العثمانية فقط بل أن تعارض حتى فى فصل بعض ممتلكاتها وكان من المستحيل بداهة اعادة الحال إلى ما كانت عليه ولذا كان خير حل للإشكال أن تعطى سوريا لمحمد على فى مقابل شروط خاصة بالحربية والتجنيد مما يترك موارد الباب العالى كاملة غير منقوصة(١) ».

أما الحقيقة التى لامراء فيها فهى أن عجلة ابراهيم واعتماده على الحسام برغم تجاربه القاسية فى المورة كانا سببا فى انقلاب الأمور عليه وترجيح كفة المين ان ضد ما كان يجيش فى صدره وصدر أبيه من المطامع الكبيرة . لأن الاستانة عند ما سمعت باعتزامه الزحف عليها على أثر ارسال خليل باشا إلى الاسكندرية وقعت فى حيرة وأدركها الهلع الحقيقى الذى لا يرى فيه الإنسان أية مبالغة . فلم يكن هناك جيش تركى منظم يصد ابراهيم عن الزحف بل كل ما كان هناك

---

(٢) الى كامبل فى ٤ فبراير سنة ١٨١٣ (وزارة الخارجية ٢٣٦ — ٧٨) .

هو الوحدات المهشمة التي بقيت بعد اندحار جيش رشيد باشا الصدر الأعظم لذلك خيف طبعا أن يؤدى زحف ابراهيم الى إيقاظ الفتنة النائمة ومن ثم يساعد أعوان محمد على على توسيع الخرق الى أن تعم الفتنة العمياء فتحرق الأخضر واليابس فيه تمزق شمل الامبراطورية ويتزلزل العرش وتسقط الوزارة وقد يكون نصيب الوزراء في ذلك الانقلاب أن يعجل ابراهيم منيتهم . لهذا ولى الوزراء في هلعهم وجزعهم شطر الروسيا التي كانت عرضت قبلا مساعدتها العسكرية فتوسلوا اليها أن ترسل على الأقل ٣٠٠٠٠ جندى لانقاذ الاستانة فلبت روسيا الرجاء وهي أشد ما تكون فرحا واغتباطا . وحتى بعد أن عاد موزاينيف من الاسكندرية وهو يحمل البشرى بأن زحف ابراهيم قد وقف وحتى بعد أن أكد مندوبا انجلترا وفرنسا للباب العالى بأن المعونة العسكرية لم يعد لها معنى أو حاجة فان الباب العالى ما زال رافضا سحب توسله الى روسيا وكانت النتيجة أن جيش روسيا بدأ يعسكر على ضفة البسفور الأسيوية .

وفى الواقع أن ابراهيم ارتكب شططا كبيرا بعمله هذا فانه لم يقتصر على إثارة روسيا وحدها بل أثار الدول الغربية على بكرة أبيها فبعد أن كانت طيلة المراحل الأولية فى الحرب السورية واقفة موقف المتفرج ترقب مجرى الحوادث دون أن تحاول التأثير فيها رأت نفسها الآن مضطرة الى التدخل بعد أن لم يعد منه مناص . وقد رأت الدول المذكورة أن لا مفر من وضع نهاية لهذه الحرب السورية لتبديد مخاوف الاستانة أولا وللتخلص من الروس بأسرع ما يمكن ثانيا وللوقاية الأتراك — إذا سمح القدر — من مغبة العواقب الناشئة عن سوء تصرفاتهم ثالثا . وذلك خوفا من أن يؤدى تمزيق امبراطوريتهم الى اشتعال النار فى أوربا .

وعبثا حاول محمد على أن يصلح زلة ابنه باحياء مشروعه القديم وهو تجنيد الامبراطورية وبعثها من موتها عن طريق الثورية . ولم يخطر له أن ينادى

باستقلاله لا بل أكد لكامبل أن انجلترا وفرنسا بتقديمهما المساعدة له انما يؤيد أن السلطان فى الواقع بأحسن وسيلة فعالة مستطاعة (١) .

وقد جاء فى المذكرة التى دفع بها إلى كامبل « أن التأمل الهائل والنظر الثاقب يدلان على أن الحكم التركى قد نخره السوس من كل جانب وأن قواعده قد أصبحت عرضة للانهيار وأن موارده المادية والأدبية قد نفذت وأن الأمة قد أشاحت بوجهها عنه وأصبحت تزدريه (٢) لا بل أن سمعته انحطت فى نظر أهالى الأستانة أنفسهم وأصبحوا يشكون فيه ويرتابون لأنه لم يعد يستطيع حماية نفسه ولا حماية الأمة وبالجملة فانه قد ترك نفسه العوبة فى يد الأقدار وأصبح فريسة جاهزة فى براثن روسيا (٣) ولكن مزاعم الباشا ـ وإن كانت فى الواقع لم تعد الحقيقة كما كانت تعرفها أوربا المعاصرة ـ الا أن الساسة فى الغرب لم يكونوا ميالين إلى التسليم بان محمد على هو الشخص الوحيد الذى يستطيع بعث الامبراطورية العثمانية من موتها ـ بل أن الأمم الأوربية قد تبادر بتقديم المعونة اللازمة للسلطان لأن الاحتفاظ به دون أن يلحق به كبير ضرر قد خيل اليها أنه أعود بالفائدة وأكفل بتحقيق المراد من حيث اقصاء الروس وابعادهم عن ذلك الموقف الغريب الذى لا نظير له فى الماضى وهو تظاهرهم بشد ازر الأتراك ـ هذا أكفل لتحقيق المرغوب من كافة ما لدى ابراهيم من القوات والعتاد .

ونظرية أخرى حاول الباشا التشبث بها وهى خاصة بمبدأ تقرير المصير « كما ينبغى أن نسميه اليوم » وهذا لعمرك من الأمثلة اللطيفة على السهولة الكاذبة التى يستطاع بواسطتها تسخير المبادىء السياسية المعروفة فى الغرب فى شهر أعمال تختلف كل الاختلاف من حيث الجوهر فلقد زعم محمد على أنه انما فعل ما فعل باسم

---

(١) كامبل بتاريخ ٣١ مارس سنة ١٨٣٣ (وزارة الخارجية ٢٢٧ — ٧٨)
(٢) كتاب « العالم الاسلامى » لسمست
(٣) مذكرات كامبل المشار اليها آنفا

أئمة «الأسلام» ولتبرير هذه الدعوى لفت نظر ابنه ابراهيم إلى ضرورة الحصول على فتاوى من علماء سوريا بان السلطان محمود عزل أو ينبغي عزله لأنه غير أهل للحكم

وقد أجاب ابراهيم على ذلك بأن بين له أن من خطل الرأى أن يتوقع موافقة علماء دمشق على رفض سيادة السلطان قبل أن تصبح هذه السيادة لشخص آخر يحل محله ويدعم حقه فيها بالقوة . ومن ثم نشأت صعوبة أخرى عن وجود قناصل للدول الأجنبية فى كافة أنحاء سوريا وألا سبيل للحصول على الفتاوى المذكورة دون أن تردد الألسنة ذكر الوسائل التى لا يمكن الحصول على الفتاوى المذكورة بدونها . على أن ما لم يمكن الحصول عليه فى سوريا بدون فضيحة وما بذل فى سبيله من استعمال الرشوة والضغط يمكن طبعا أن يقال عن الجهات النائية التى لم يكن للدول قناصل فيها وقد ظهر تصريح منسوب الى جماعة من الأكراد الضاربين على شواطىء البحر الاسود وقد نقضوا ولاءهم للسلطان ونادوا بدخولهم تحت حكم باشا مصر وكان من المدهش حقا — كما لاحظ ذلك قنصل فرنسا الجنرال — أن يصدر مثل ذلك التصريح من ولاية لايستطيع محمد على أن يحميها ضد أعوان السلطان فى الوقت الحاضر على كل حال وأن يتمكن واضعو التصريح من السفر عن طريق أنقرة دون أن يلحقهم أذى أو ضرر (١) .

على أن أمثال هذه النظريات لم يكن لها تأثير قائم أمام الأوربيين فلقد كان فى وسع الباشا أن يزعم بأنه موضع العطف العام بقدر ما كانت أوربا تعطف على البلجيك أو اليونان ولكن عباراته الساحرة ولسانه الجذاب لم يكن ليخفى عن الناس هذه الحقيقة وهى أن الباشا كان يعمل فى الواقع لحساب نفسه وذلك لانه لم يكن يمثل أمة معينة تكافح من أجل حريتها . ثم أن تفوقه على

(١) من مذكرة ليمو فى ٢٥ ديسمبر سنة ١٨٩٢ ونقلها الاستاذ صبرى ص ٢٣٠ — ٢٣١ وفى ظنى ان الاستاذ صبرى لايدرى قيمة الجزء الختامى من المذكرة .

تركيا من الوجهة العسكرية لا يجعله محلا لأى عطف خاص . فاذا كانت له دعوى — إذا صح أن نسميها بهذا الاسم — فمرجعها الى تفوق النظام وضمانة العدالة واطراد الأحوال فى بلاده وهى أمور ربما استطاع ادخالها فى فتوحاته الجديدة كما أدخلها فى مصر من قبل . وحتى لو تمكن من ذلك ألم يكن فى استطاعة الساسة الغربيين — مادامت إدارته سوف تكون شرقية حتما — أن يجدوا دائما فرصا عديدة للتجريح والتشكيك . . إذن فالضرورة السياسية كانت الوجهة الوحيدة التى يمكن من ناحيتها بحث الموضوع فى كل من باريس ولندن .

واتحدت على الاقل وجهتا النظر الفرنسية والانجليزية اتحادا تاما لا على ضرورة اقصاء ذلك النفوذ الروسى الذى ظهر فجأة على ضفاف البوسفور بل وعلى ضرورة وقف زحف ابراهيم الذى ولد فى قلب الباب العالى ذعرا خارجا عن حد المألوف . ومن ثم طلبتا الى محمد على الانسحاب من آسيا الصغرى بل وذهبتا الى أبعد من ذلك بأن هددتاه فى حالة عدم الاذعان بضرب الحصار على الاسكندرية (١) .

على أنه بينما كان بالمرستون معارضا كل المعارضة فى أى تغيير فى مركز الباشا من حيث تبعيته الصورية لتركيا فان الفرنسيين كانوا على العكس ميالين لمداعبة فكرة الاعتراف به حاكما مستقلا يوما ما على شاكلة الباى فى ولايات البربر على أمل التوصل الى حمله يوما ما على قبول شروط غير مقبولة لديه بدون ابداء كثير من المفاضلة بل لقد أرسلت مندوبا الى الاسكندرية وهو خطأ جعل بمثل انجلترا يتساءل عن مركز ذلك المندوب وفى أى بلاط يمثل الدولة التى أرسلته وبإزاء ذلك اضطر قنصل فرنسا الجنرال الى التصريح بأنه لا يختلف مركزه عن مركز مندوب موفد بمهمة خاصة (٢) .

---

(١) تعليمات الى كامبل فى ١٩ ابريل سنة ١٨٣٣ (وزارة الخارجية ٢٢٧ — ٧٨)

(٢) كامبل فى ٣٠ مايو سنة ١٨٣٣ (وزارة الخارجية ٢٢٧ — ٧٨)

وهكذا بينما كانت الدول الغربية تسعى إلى التحايل على نائب السلطان أو تهديده لحمله على سحب جنوده إذا بالباب العالى يسلم فجأة بمطالب محمدعلى الى حد أنه منحه جزيرة كريت والأربعة ألوية السورية محتفظا فقط بأقليم اطنة . وقد وردت الأنباء بهذا فى يوم ١٦ ابريل واستقبل رسول السلطان فى مصر قنصلى انجترا وفرنسا الجنرالين وما كاد ينتهى رسول السلطان من تبليغ مايحمله من التعليمات الخاصة بتنازل الباب العالى عن الألوية المذكورة حتى « نهض الباشا وعيناه مغرورقتان بدموع الفرح ثم خرج عن كل ما له علاقة بالوقار التركى وضحك ضحكة هستيرية » (١) ولا ريب فى أنه اعتقد أن هذا التسليم علامة على أن الباب العالى قد تولاه الضعف وأنه لابد من أن يسلم بأطنة أيضا بعد قليل من الزمن ولكن فرنسا وانجلترا والنمسا مافتئت تلح على محمدعلى بضرورة التسليم والاذعان . وأخيراً أعلن على رؤوس الاشهاد « أنه على أتم استعداد للعدول عن المطالبة بحكم أطنة وأن يقطع فوق ذلك عهداً لكافةالدول العظمى بأن يظل الى الأبد الخادم المطيع للباب العالى وألا يعكر مزاج مولاه بحال ما بشرط أن يعلن الباب العالى من ناحيته أمام مندوبى الدول بألا يحاول مطلقا أن يسحب الحقوق التى سبق منحها له أى لمحمد على » (٢) .

وبعد أيام قلائل صرح محمد على أمام « المندوب الخاص » الفرنسى بنفس الروح السابقة فقال « أنا رجل مسالم لا يرمى إلى غرض آخر سوى أن يكرس بقية أيامه فى سبيل سعادة البلاد التى حكمها الآن . انهم يطلبون برهانا على أن هذه نياتى . وإنى أقدم لهم البرهان بأن أتوسل الى أوربا أن تحمى تركيا من أى اعتداء يأتى من ناحيتى وأن تحمينى فى الوقت نفسه من أى اعتداء يأتى من ناحية تركيا » (٣) .

---

(١) كامبل فى ١٧ ابريل ١٨٣٣ (وزارة الخارجية ٢٢٧ — ٧٨)

(٢) كامبل فى ٩ مايو (والحاشية فى ١٠ مايو) سنة ١٨٣٣ (وزارة الخارجية ٢٢٧ — ٧٨)

(٣) كامبل فى ١٣ ابريل ١٨٣٣ (وزارة الخارجية ٢٢٧ — ٧٨)

وقد دارت هذه المفاوضات بكثير من الفتور ولكنها كانت بمثابة فرصة ثمينة سنحت للباشا لإظهار نياته والتصريح بآرائه لأن الباب العالى قرر فى يوم ٣ مايو التنازل عن أطنة أيضا . وهكذا سويت كافة المسائل المختلف عليها اللهم إلا مقدار الجزية التى يدفعها الباشا عن الولايات التى تنازلت له تركيا عنها . ولكن الاتفاق قد تم فى سبتمبر التالى على هذه المسألة أيضا وهو يتلخص فى أن يدفع الباشا ٣٠,٠٠٠ كيس سنويا عن مصر وأطنه وسوريا وطورسوس(١) .

وهكذا وضعت الحرب السورية أوزارها دون أن تعود على أحد بفائدة فالسلطان قد خرج منها بعار الهزيمة على أيدى أحد باشواته الثائرين بينما لم يحقق محمد على أحلامه لا من حيث الاستقلال ولا من حيث المركز الممتاز فى البلاط العثمانى . وبينما كانت الدول الغربية حانقة على انتصارات ابراهيم التى فتحت ثغرة نفذ منها الجنود الروس كانت روسيا نفسها متألمة لأنها لم توطد اقدامها كما ينبغى على ضفاف البسفور . على أن روسيا على كل حال لم تنسحب إلا بعد أن نالت بمقتضى بند سرى وارد فى معاهد (أونهكيار يوكايس) المعقودة فى ٨ يوليو الحق فى اقفال بوغاز الدردنيل فى وجه البوارج الاجنبية . ولعل هذا على الأرجح هو السر فى ذلك التشكك الغريب الذى كان بالمرستون ينظر به إلى سياسة محمد على . وحتى قبل توقيع المعاهدة المذكورة كان بالمرستون غير ميال لمشروعات محمد على وان لم يكن شديد المعارضة فيها . وفى هذا الصدد كتب بالمرستون يقول « ان غاية محمد على الحقيقية ترمى إلى إنشاء مملكة عربية تضم كافة البلاد التى تتكلم العربية . وقد لا يكون هناك وجه للخطر من تحقيق هذا المشروع فى حد ذاته ولكن لما كان تحقيقه يتضمن تمزيق شمل تركيا ولم يبق لنا مناص من معارضته . ومن جهة أخرى لا فرق بين أن تضع تركيا يدها على طريق الهند وبين أن تكون تلك الطريق فى يد ملك عربى قوى»(٢) وهذه

---

(١) كامبل فى ١٣ سبتمبر سنة ١٨٣٣ (وزاره الخارجية ٢٨ — ٨٨)
(٢) (حياة بالمرستون) طبلوبر جزء أول من ١٢٤ — ١٢٥

الخطة طبيعية حيال الأحلام التى كانت تجيش فى صدر رجل كانت مطامعه سبباً فى اثارة مسألة من أعقد المسائل الأوربية فى شكلها الحاد . وهكذا أصبح من غير المحتمل أن يتم ذلك التعاون فى المستقبل بين انجلترا ومصر — وهو ما كان يطمح اليه الباشا — بسبب ضعف تركيا أو بسبب ما بين الدول الأوربية من التنافس . وليس من ريب فى أن التمسك بأى مبدأ سياسى كالمطالبة بالاستقلال الوطنى أو باحلال الحرية السياسية محل الظلم والاستبداد — نقول لا ريب فى أن شيئاً من هذا القبيل يصلح لان يتخذه قاعدة لاثارة القلاقل السياسية ويمكن على الأقل أن يستخدم فى اكتساب العطف العام من الشعوب الأخرى — ولكن مجرد المطالبة باحلال حكم أوتوقراطى صالح محل آخر فاسد لم يكف لاثارة أية عاطفة فى صدر حزب الأحرار — ومما يدعو الى الأسف حقا أن عملية الاصلاح التى بدأها محمد على وما ترتب من النتائج الحسنة على الحكم الفردى الجاف المنظم وقدرته على أن يدخل فى شعب كالشعب المصرى مركب من عناصر غير متجانسة ذلك الشعور المشترك الذى لا سبيل للوطنية بدونه لا بل أن عوامل التمدين التى كانت تتجلى تدريجيا فى ادارته — نقول أن مما يدعو الى الأسف أن ذلك كله قد تنوسى فيما كانت تردده الألسن عن قسوة نظام الجندية الاجبارى والشدة التى كانت تتجلى فى عقوباته والارهاق الذى ظهر أثره فى امتيازاته . ولا ينبغى ألا ننحى باللائمة الشديدة على بالمرستون إذ لم يكن قد فهم حق الفهم أهمية حكم محمد على الذى لم يكن فى رأيه سوى الرجل الذى كادت مطامعه البعيدة أن تثبت تقدم الروس فى مركز خطير على ضفاف البوسفور .

الفصل الخامس

فكرة إنشاء امبراطورية والطرق البرية

كان بالمرستون على نحو مامر بك ـ هو الذى عزا إلى محمد على فكرة إنشاء (امبراطورية عربية) تضم شمل كافة الاصقاع التى تنطق بالعربية ومثل هذه الرغبة كان بديهيا أن تجيش فى صدر نائب السلطان فان فتح سوريا بعد أن دانت له الأمور فى مصر والحجاز والسودان لم يترك أمامه ما يستحق الذكر من العقبات فى سبيل تحقيق تلك الرغبة إذ لم يبق لاتمام ذلك التوسع الاقليمى الا أن يحتل الطرق و الخليج الفارسى وجنوبى بلاد العرب . وبديهى أن قطرا من تلك الاقطار لم يكن مغريا من الناحية الاقتصادية اللهم إلا إذا استثنينا مصايد اللؤلؤ فى جزيرة البحرين ـ فى انها من الناحية العسكرية آهلة بقبائل رحالة أو شبه رحالة لن ترضى بسهولة عن إنشاء حكومة نظامية وخاصة إذا كانت مصحوبة بفرض ضرائب مقررة وسن قانون للخدمة العسكرية الاجبارية . ولكن هذه الاصقاع إذا لم تكن قيمتها كبيرة الا أن احتلالها كان له من الناحية الأخرى مزايا معينة . لأن احتلال الطرق يجعل أملاك نائب السلطان متاخمة لايران ثم أنه بواسطة إيران يصبح قريبا من أواسط آسيا . أما احتلال جنوبى بلاد العرب فانه يكفل له السيادة على البحر الأحمر من ناحية والخليج الفارسى من الناحية الأخرى ولها ما لهما من المزايا العسكرية فى جميع الأزمان والعصور بحيث أنه قد يستطيع أن يحظر على العمارات البحرية الانجليزية الموجودة فى الشرق المرور فيهما وبالجملة فان ذلك التوسع وأن لم يؤد إلى زيادة موارد محمد على المادية زيادة تذكر قد يضاعف كثيرا من نفوذه السياسى ويزيد هيبته

وكان يعتقد ـ وبحق ـ أن جنوبى بلاد العرب لن يمكن أن تثبت طويلا أمام قوة منظمة وان بغداد على الأكثر لن تبدى مقاومة ما . لأن الحالة العامة فى الأقاليم كانت حالة تعاسة وبؤس لا نظير لها . وقد كتب الكولونيل تيلور وكيل شركة الهند الشرقية بهذه المناسبة يقول « ان الأهالى من فرط بؤسهم يتطلعون إلى ابراهيم (١) أما تجار بغداد فانهم لايرون حدا لاطماع الحكومة التركية وميلها إلى السلب والنهب الا تخوفها من وصول الجنود من الهند وقد استهجنوا قرار بالمرستون بمنع ضم اقليمهم إلى ما أصبحوا فعلا يسمونه « بالخلافة المصرية » (٢) .

وفى الواقع لو استطاع محمد على أن ينادى باستقلاله لأحياء الخلافة المصرية من جديد فانه كان يشرف على إدارة الحجاز وهو المكلف بحمايته ضد المطامع الخارجية ومهما كان شأن ما حاكه رجال الدين من ضروب الخبث والدهاء حول مركز الخليفة الدينى فان الجمهور كان يعتقد أن خلافة السلطان لن يمكن أن تظل طويلا بعد أن أفلتت منه سلطته الأسمية على مكة والمدينة . فالسلطان كما كتب ابراهيم إلى أبيه ـ لا يمكن أن يذكر اسمه بعد اليوم فى خطبة الجمعة أو يشار اليه باعتباره خادم الحرمين (٣) وحتى قبل نشوب الحرب السورية رددت الألسن فى مصر أن شريف مكة على وشك أن يذيع منشورا بأن « من يملك الكعبة ويذود عنها هو الذى يصح أن يسمى بحق حامى حمى الملة المحمدية » (٤)

---

(١) تيلور كامبل فى ٦ نوفمبر سنة ١٨٣٣ (وزارة الخارجية ٢٨٨ ـ ٧٨)

(٢) ريون إلى كامبل فى ٢٧ نوفمبر سنة ١٨٣٣ (وزارة الخارجية ٢٨٨ ـ ٧٨)

(٣) كتاب الاستاذ صبرى ص ٢٨١ (راجع بولنيى رقم ٣٠٥ فى ٧ نوفمبر سنة ١٨٣٠ (وزارة الخارجية ٣٦٠ ـ ٧٨)

(٤) باركر إلى كاننج فى ٢٣ فبراير سنة ١٨٣٢ (وزارة الخارجية ٢١٣ ـ ٧٨)

ثم الى جانب الاستيلاء على الحجاز . فقد كانت لمحمد على السيطرة على مركز خطير آخر من مراكز النفوذ فى العالم الاسلامى، وهو القاهرة .. لأن مكة وإن كانت تعتبر مهد الدين الاسلامى من الناحية الروحية — إلا أنها لم تكن مركزا للثقافة أو العلم الاسلامى فلم يكن فيها مدارس تذكر ولا مكاتب كبيرة يلجأ اليها طالب العلم .. بل لم يكن فيها مكان واحد لبيع الكتب أو تجليدها نعم لقد كانت المحاضرات تلقى فى المسجد الأعظم ولكن لم يكن يلقيها أحد من علماء الاسلام الأعلام .. هذا فضلا عن أن القليلين الذين حضروا الاستماعها لم يخرجوا عن كونهم شرذمة من جهلاء الجنود والمالاى والعبيد (١) .

ولكن القاهرة ودمشق كانتا وقتئذ قاعدتى الثقافة الاسلامية وقد كانت المدينتان فى قبضة محمد على . وهذا ما جعل له أهمية خاصة فى العالم الاسلامى . فلو أنه استطاع ترقية هاتين المدينتين وجعلهما مركزا للثقافة العربية لا للثقافة الاسلامية فحسب ولو أنه جعل نفسه محاميا للقضية العربية ضد القضية التركية — نقول لو أنه فعل ذلك لتوصل الى ايجاد روابط للاتحاد بين البلاد التى يحكمها أقوى بكثير من روابط الخضوع لسيد مشترك .

ولقد وجه بعضهم الى محمد على قوارص اللوم على تهاونه فى تحقيق هذه الفكرة ولكن صاحب ذلك الانتقاد تناسى بعض العوامل الرئيسية فى الحالة العامة كما كانت وقتذاك . فان الاسلام كدين من الأديان لم يشجع مطلقا على ظهور القومية أو العنصرية فان صفته العامة قد أضعفت بدلا من أن تقوى ما بين الأجناس من اختلاف فى الثقافة مما كان يمكن أن يتحول يوما ما إلى خلال وطنية . ومما يلفت النظر حقا أن الحكام الوطنيين — حتى بعد مرور قرن بأكمله — لعبت فيه الآراء والأفكار الغربية دورها — كانوا يشعرون بما تقيمه أمامهم تعاليم الدين الاسلامى من العقبات بسبب غاياته العامة التى

(١) ... كتاب بلاد العرب لـ ... جزء أول ص ...

لا حصر لها . وليت الأمر وقف عند هذا الحد . فلم تكن بين الأمم العربية إذ ذاك روابط مشتركة عدا رابطة اللغة ورابطة الخضوع لسيد واحد . فالسورى والمصرى والعربى المتنقل والفلاح والعلماء والكافة كل أولئك كانوا منقسمين فيما بينهم بسبب العادة والتقاليد أو الآراء المحلية إلى حد أنهم لم يكونوا ميالين الى التسليم برابطة أخرى غير رابطة الدين . وهذا ما جعل محمد على يظهر بمظهر المدافع عن الأمة الاسلامية بدلا من الأمة العربية التى لم يمكنه حتى التفكير فيها . وهذه حقيقة اقتنع بها ابراهيم فقد تبين له أن الخلافات بين السوريين والمصريين أكبر وأشد من أن تجمع الفريقين فى صعيد واحد أو تجعلهم أمة واحدة .

أما محمد على فكان يرى أن أهمية البلاد التى تتكلم العربية تنحصر فى مزاياها العسكرية لا فيما يمكن أن تؤدى اليه من احتمالات لم يكن يمكن التفكير فيها أو تصورها فى عهده .

ففكرة الوطنية العربية لم تتولد وتظهر على المسرح السياسى إلا فى أيامنا . ويرجع الفضل فى ظهورها الى ازدياد النفوذ الغربى وانتشار التعليم ووجود الصحافة الشعبية وفوق هذا كله الى سهولة طرق المواصلات .

فلم تكن فكرته متجهة اذن الى إنشاء وحدة عربية داخل دائرة الاسلام بل أن يصبح زعيم الاسلام الاشهر المشار اليه بالبنان وأن ينادى به الناس كامام لهم . ولكن تحقيق هذه الفكرة كان يقتضى أما خلع السلطان وتمزيق أملاكه أو قلب الديوان فى الاستانة رأسا على عقب واحلال نفوذ محمد على محل نفوذ خسرو باشا . أما موقفه فانه كان دائما غامضا وقد أصبح الآن أشد غموضا وخاصة بعد انتهاء الحرب السورية التى أسفرت عن انتصار ابراهيم الباهر وقد كتب كامبل يصف هذا الموقف على حقيقته فقال « انه تابع للسلطان من الوجهة القانونية ولكنه مستقل عنه فى الواقع ومع أنه لا يفتأ يعلن أنه تابع وخاضع للسلطان إلا أن تركيباته هذه أقنعتنى أنه لا يرغب أن يعتقد غير

ذلك عنه (١) ». ولقد طالما عززت الصحف الفرنسية والتصريحات الرسمية الفرنسية الأمل فى نفسه بأنه لو أعلن الاستقلال لقوبل ذلك الاعلان بكثير من العطف والتأييد . وكان يدفعه إلى السير فى ذلك الطريق نفسه ما كان يظهره السلطان ووزراؤه حياله من سوء النية الظاهرة ـ وهو أمر كان طبيعياً ـ. وبهذه المناسبة كتب كامبل بعد ذلك بأسبوع فقال « ان مابدا من ناحية الباب العالى أخيرا من التهديدات المصحوبة بالمظاهرات سوف يقوى عزيمة محمد على فى رغبته الحصول على الاستقلال وتحقيق الغاية التى لا شك فى أنه يعمل لها . إلا وهى انشاء خلافة عربية . . . وهو شديد الحنين الى نيل السلطة والمجد طبعا ويختلف عن بقية المسلمين بأنه مدفوع برغبة شديدة فى تخليد اسمه فى صفحات التاريخ . ولا مناص من الاعتراف بأن النجاح كان على الدوام حليفه (٢) ».

وساعد مسلك السلطان فى التجائه إلى الروسيا على اشتداد احتقار محمد على واشمئزازه من الطريقة التى تدار بها الأمور فى الاستانة لأنها ادخلت فى دائرة النزاع عاملا لم يكن يحسب أحد حسابه . ولقد كانت بمثابة طعنة نجلائية لم تفتق له الحيلة وسيلة لدرئها بل كان ذلك المسلك أحد الأساليب القوية التى تجعله يشن الغارة على رجال الاستانة علنا وألا يتورع عن تقديم وتوجيه أشد عبارات النقد إليهم وحسبك أن دعوة روسيا الى مساعدة الباب العالى رجت عواطف المسلمين رجة عنيفة وكادت تشق وحدتهم . وفى الحق انها نفرت الناس جميعا بحيث أن الغازى الذى وصل أخيرا إلى القاهرة ـ والذى كان تعيينه فى منصبه من الآثار البارزة الدالة على سيادة تركيا على مصر ـ صرح بأن مهمته تقضى باصلاح الأمور مع الباشا لاعادة المياه إلى مجاريها وأنه واثق من أن كثيرين من أصحاب الرأى فى الاستانة ينظرون الى محمد على باعتباره

---

(١) كامبل فى ١٦ اغسطس ١٨٣٤ (وزارة الخارجية ٢٤٦ ـ ٧٨)

(٢) كامبل الى بولسنبى فى ٢١ اغسطس ١٨٣٣ (وزارة الخارجية ٢٣٧ ـ ٧٨)

أكبر دعامة للامبراطورية العثمانية فيما لو نشبت الحرب بينها وبين روسيا يوما ما (١) فلو أمكن معادلة التحالف المعقود بين تركيا وروسيا بتفاهم بين مصر وانجلترا لكان فى الاستطاعة تحقيق الأحلام التى كانت تجيش فى صدر نائب السلطان منذ سنوات عديدة .

ومن ثم قدمت مذكرة ممتعة وعلى جانب عظيم من الأهمية إلى قنصل انجلترا العام لابلاغها إلى لندن ، جاء فيها أن أول غاية يرمى نائب السلطان إلى تحقيقها هى اقتلاع نفوذ روسيا من تركيا وأن ينظم جيشا لا تنحصر مهمته فى حمل روسيا على احترام استقلال تركيا وحدها بل واستقلال إيران أيضا « أما الغاية التى كان يرمى اليها نائب السلطان من امتلاك سوريا فقد كان باعثها النية السابقة ولذلك كان يعلل نفسه بعد معركة قونية أن يحدث انقلابا فى نظام الحكم فى الاستانة بحيث يتمكن بمساعدة فرنسا وانجلترا من التعجيل باحباط مآرب روسيا » ثم استطردت المذكرة بان الباشا سوف يكون لديه قريبا جيش قوى يبلغ ١٥٠٠٠٠ كامل العدد والعدد وعلى قدم الاستعداد للتعاون مع انجلترا فى المهمة المجيدة مهمة تخليص تركيا وإيران من النير الروسى . ثم انتهى الباشا بتوجيه خطابه إلى ما عرف عن الانجليز من شيم العدالة وحب الانصاف إذ كان يصح له فى الوقت نفسه أن ينادى باستقلال مصر وهو ما عول على فعله فيما لو استمرت عداوة الباب العالى له (٢)

وكان معتمدو انجلترا فى الشرق ميالين فى ذلك الوقت للموافقة على تلك الاقتراحات واليك ما كتبه بونسيني إلى كامبل فى سنة ١٨٣٣ إذ قال « إذا كانت روسيا مدفوعة بعوامل الأثرة والأنانية فالمرجو أن تكون قوة محمد على فى

(١) كامبل فى ٢٥ يونيه سنة ١٨٣٣ (وزارة الخارجية ٢٣٧ — ٧٨) .

(٢) بوغوص بك الى كامبل فى ٣ سبتمبر سنة ١٨٣٤ (وزارة الخارجية ٢٤٦—٧٨)

الجهة التى تقضى مصلحته باستخدامها فيها أى فى أن يطرد من آسيا ومن كافة الأراضى التركية تلك الدولة التى إذا سمح لها بغرس جذورها لتمكنت قبل مرور وقت طويل من شل مجهودات شعبه المصرى والعربى الجديد (١) ، بل أن كامبل كتب فى العام التالى يقول أن من رأيه ، فيما يتعلق بصد روسيا ووقف اعتدائها من ناحية آسيا أن انشاء خلافة عربية برعاية محمد على قد يكون أقوى سد يمكن إقامته لصد روسيا بل لعل ذلك يكون أضمن من أية مقاومة يمكن أن يبديها الباب العالى بل أن محمد على فيما لو اقتضت الظروف ذلك قد يقدم مساعدة عظيمة لايران (إذا افترضت أنه استولى على بغداد) فيما لو اشتبكت فى حرب مع روسيا (٢) .

ومن المحتمل أن هذه الآراء اتفقت إلى كراهية بالمرستون لسياسة روسيا والغايات التى ترمى اليها فلقد كان ينظر اليها باعتبارها الدولة الوحيدة التى يرجح نشوب الحرب بيننا وبينها . ولطالما أبدى تذمره مما كانت تبديه من روح العداء فى مختلف الأنحاء وهى الروح المستمدة من خلق القيصر شخصيا ومن هيأة الحكم الدائم فيها وفضلا عن ذلك فقد كان يتلقى فى الوقت نفسه معلومات من أشخاص ليسوا تحت سلطة محمد على ولا تحت تأثير سحره بأن روسيا تعمل بنشاط على ترسيخ أقدامها فى منطقة الطرق الخطيرة ؛ وبهذه المناسبة كتب معتمدنا هناك يقول ، أن روسيا إذا ما وطدت أقدامها فى بغداد فإن وجود العراق فى مركز وسط وما يجرى فيه من الأنهار الصالحة للملاحة وما لديه من الموارد الطبيعية كل هذا يكون بمثابة احسن فرصة للزحف على الهند فى المستقبل . . . أو على الأقل لترسيخ أقدام الدسائس ومواصلتها وهى أشد خطر من الحرب نفسها (٣) ،

---

(١) بولمنيتى الى كامبل فى ٢٤ مايو سنة ١٨٣٣ (وزارة الخارجية ٢٢٢ ـ ٧٨)
(٢) كامبل الى بولمنيتى فى ٢١ أغسطس سنة ١٨٣٤ (وزارة الخارجية ٢٤٦-٧٨)
(٣) بالمرستون الى كامبل فى ٣ ديسمبر سنة ١٨٣٣ (بتلور جزء ثان ص ١٧٦)

أفليس فى الاستطاعة أن يؤدى الخوف الى دسائس الروس وزحفهم عن طريق ايران الى الهند الى تحقيق ما كان يرجوه نائب السلطان من اعتراف الانجليز ومساعدتهم إياه بعد أن خاب فى تحقيقها (أولا) الجلاء عن المورة و (ثانيا) التلويح بعقد معاهدة مع فرنسا . . ألم تسع الحكومة الانجليزية فى الهند الى عقد محالفة بين السيخ والأفغان وايران عند ما خيف من زحف نابليون على الهند بالطرق البرية .

بيد أن هذه الاعتبارات أغفلت اغفالا تاما مركز بريطانيا العظمى وشخصية وزير خارجيتها وخلاف ذلك أنها كانت الى ذلك الحين عالمة أو على الأصح معتبرة بأسها ومسؤوليتها . لأنها لم تخسر فى خلال الأجيال الخمسة الماضية إلا حربا واحدة وحتى فى هذه المرة الواحدة لم يضعف من بأسها ويفت فى عضدها إلا علمها أنها إنما تقاتل شطرا من أسرتها أما الحرب الأخيرة التى اشتبكت فلم تكن فقط أشد الحروب هولا بل انها خرجت منها وهى أشد تيها بانتصارها فيها فى أى حرب سابقة .

. فهل كان يحتمل إذن أن تغير القاعدة التى قامت عليها سياستها فى أوربا منذ أجيال عديدة لتبتاع بدلا منها محالفة ضد عدو محتمل لم يعرف فى تاريخه أنه انتصر فى حرب ما إلا ضد الأتراك أو الايرانيين . . ثم ان بالمرستون لم يكن بالرجل الذى يحاول سد النقص بعقد محالفة أجنبية ليستغنى بها عن تنمية قوة بلاده واستثمار مواردها . فاذا كان ثمت ما يستحق عليه المؤاخذة فهو عدم سعة احتياله وليس خور العزيمة أو قلة الشجاعة . ولذا فقد اعتزم الوقوف فى طريق تقدم روسيا بغير الوسائل التى كان يقترحها محمد على . ولذلك أرسل رداً قاطعا من شأنه أن يقفل الباب فى وجه كل رجاء . فلقد كلف كامبل بأن يبلغ محمد على أسفه ودهشته لتلك الاقتراحات التى تتعارض مع توكيداته السابقة فضلا عن كونها تتنافى مع شرف الحكومة البريطانية وتعهداتها . فمحمد على فى الواقع يرغب فى أن تقره بريطانيا العظمى على اعتدائه على السلطان أو أن

توافق على مجازلته التخلص من ولائه لجلالته والمناداة بنفسه حاكما مستقلا على البلاد التي يديرها الآن باسم مولاه السلطان . فكيف لنا أن نسمح بحدوث مثل هذه الفتنة وهذا الاعتداء المباشر على حقوق ملك متوج تربطه محالفة بمليكنا (١) . . .

وليس من شك فى أن هذه اللهجة كانت تنم عن عنصر السخف بل والبهتان فان بالمرستون كان يكتب عن موقف محمد على ازاء السلطان كما لو كانت علاقة ذلك السلطان المجرد من السلطة بوزرائه شبيهة بالعلاقات المألوفة فى الغرب .

وقد عالج وزير الخارجية الموضوع كما كان يتوقع أن تنظر الولايات المتحدة الى مايقدمه حاكم كندا العام من اقتراحات من هذا القبيل أو كما كانت تقابل فرنسا اقتراحات كهذه من حاكم الهند العام .

إذ لاريب أن مجرد قبولها بل وحتى تشجيعها لا يمكن تسويغه الا بوجود حالة ينتظر معها نشوب الحرب فعلا هذا فى حين أن الوزير الذى تسمح له نفسه بطلب المعونة الأجنبية ضد مليكه لا يمكن أن يكون إلا متلبسا بأسوأ أنواع الخيانة العظمى .

على أن هذه الآراء كانت على مايظهر تعتبر كقضية مسلمة لا وجود لها بالمرة ذلك لأن حاكم كندا العام يستطيع أن ينام قرير العين وهو يعلم أن نجاح ادارته لا يمكن أن يعرضه الى حقد مليكه أو الى الرغبة فى الانتقام منه كما أن حاكم الهند العام يستطيع أن يطمئن الى أن رئيس الوزراء لن يعمل على تلويث سمعته وإرساله الى المشنقة . والنتيجة أن الآراء السارية فى الغرب كانت تطبق بلا حساب على الشرق مع أنها لم تكن مفهومة على وجهها الصحيح بل ومجهولة تماما . .

على أن التسليم بهذا لا ينتقص من موقف بالمرستون لأن تركيا قد أصبحت جزءا من نظام الدول فى أوربا فللمحالفة التى تعقد معها نفس الالتزامات التى

---

(١) رسالة بالمرستون الى كامبل فى ٢٦ أكتوبر ١٩٣٤ (وزارة الخارجية ٢٤٤ـ٧٨)

المعاهدات التى تعقد بين الدول الأخرى : وهى التزامات لا يمكن والحق يقال الاضطلاع بها بسبب الفوضى السائدة فى شؤونها الداخلية . كل هذا لم يكن ليجارى فيه أحد وفى هذه الحالة التى الاسترشاد بالمبدأ السياسى مما يعززه من الاعتبارات السياسية وليس من ريب فى انه لم يكن ثمت ما يحول دون الغاء ما بيننا وبين السلطان من التحالف القديم وأن نؤيد بعد ذلك محمد على فى مشروعاته ضد الامبراطورية العثمانية والخلافة التركية . ولكن فن السياسة الخارجية يتضمن بين ما يتضمنه خدمة المصالح الوطنية فى داخل الحدود التى يفرضها مراعاة المبدأ السياسى ولا سبيل إلى انكار أن هذا الأخير كان يصبح فى خبر كان باقرارنا والى مصر فى مشروعاته ـ ولو سرا ـ كما أن الأول كان يصبح فى خطر باتفاقنا علنا مع محمد على . إذ لا ريب فى أن سحب مؤازرتنا للسلطان كان يترتب عليها مبادرة الدول إلى اقتسام امبراطوريته وهو احتمال لم يكن يسعنا أن ننظر اليه بعين الارتياح لأننا لم نكن لنستفيد من تحول الادرياتيك إلى بحيرة نمساوية أو الأستانة إلى ميناء روسية . فماذا عسى أن تكون الفائدة التى يقدمها محمد على والتى يمكن أن تعوضنا عن قلب القارة الأوربية رأسا على عقب . إذ ما الذى يحملنا على التبرع بمساعدة حاكم مصر بأن يبسط سلطانه عن طريق الفتح العسكرى إلى بقاع جديدة لا يستطيع أن يزعم أن لديه شبه حق فى الاستيلاء عليها . . . فلهذه الاعتبارات جميعا نشأت سياسة ترمى إلى الاحتفاظ بسلطة محمد على فى البقاع الواقعة فعلا تحت سلطانه مع إقامة العراقيل فى سبيل توسيع ذلك السلطان . ولذلك آثر بالمرستون وبحق أن يقوى مركزنا حول الطرق البرية الجديدة المؤدية إلى الهند على إنشاء دولة جديدة قد تنضم الينا فى يوم ما فى حرب محتملة مع روسيا .

ولكن الطريقين البريتين الممكنتين إلى الهند هما طريق الفرات وطريق السويس ـ لم تخرج إحداهما بعمل من أعمالنا من تحت سيطرة احدى السلطات السياسية . فظهور محمد على على المسرح السياسى فى مصر قد مكنه من وضع يده

على طريق السويس بينما كان وادى الفرات ما يزال تحت سيطرة السلطان ولو أنها سيطرة اسمية واحسب أنه كان يكون منتهى الحمق لو أننا عملنا بلا باعث سياسى أو أدبى - على وضع هاتين الطريقين تحت سلطة محمد على فى الوقت الذى بدا يظهر فيه لما لها من أهمية سياسية كبيرة (١) .

ومن أهم العوامل التى زادت فى أهميتها استعمال البخار فى الملاحة فطالما كانت طريق البحر الأحمر معطلة لمدة أشهر من كل سنة بسبب الرياح الموسمية وطالما كانت طريق الفرات متعذرة لا يمكن اجتيازها إلا بسحب السفن وهى عملية مضنية فان هاتين الطريقين إلى الشرق - برغم مالها من الأهمية العسكرية لم يكن يمكن أن تضارعا الطريق البحرية الطويلة حول رأس الرجاء الصالح . على أنه قبل أن تضع الحرب مع نابليون أوزارها بدأ استعمال « اللنشات » البخارية فى الأنهر والترع الانجليزية . وبعد سنوات قليلة بدأ استخدامها فى عبور خليج المانش . ولم يحل عام ١٨٢٠ حتى كان الناس يتوقعون استخدام البواخر فى طرق المحيطات الكبرى . ولكن التقدم كان بطيئا هنا : ذلك لأن الآلات البخارية التى زودت بها أول باخرة لعبور الاوقيانوس كانت ضعيفة ومتلفة بمعنى أنها استهلكت مقدارا هائلا من وقود الفحم وهذا ما جعلها لا تجرؤ على الابتعاد عن السواحل لتأخذ حاجتها من الوقود أما (طنبوشة الطارة) الكريهة المنظر فقد كانت عرضة لأن تقتلعها الأمواج فى عرض البحر من أساسها . هذا إلى أن الآلات نفسها كانت توقف أكثر من مرة لتنظيفها واصلاحها . فلهذه الأسباب كان استعمال السفن فى هذه الأمر قاصرا على الجهات التى توجد بها سلسلة من الموانى كالمانش والبحر المتوسط والبحر الأحمر والخليج الفارسى .

وسرعان ما أدركت الهند أهمية هذه الاحتمالات . و... اجتمع تجار

---

(١) بالمرستون إلى كامبل فى ٢١ مارس سنة ١٨٣٣ .

كلكتا فى أوائل سنة ١٨٢٣ وشكلوا لجنة لبحث الموضوع فأذى نشاطهم الى الرحلة التى قامت بها السفينة (انتربريز) حول رأس الرجاء الصالح وبلغت المسافة بين كلكتا ولندن فى ١١٣ يوما نصفها فى السفر بالبخار ونصفها فى السفر بالشراع . وكان من أثر هذا الاخفاق النسبى أن أدرك الناس مضار السفر الطويل بهذه السفن على حالتها الفطرية واتجهت الأنظار الى الطريق الملائم المختصر طريق السويس والبحر الاحمر .

وكان فى طليعة محبذى هذه الفكرة مونتستيوارت الفنستون وقد صادف ذلك الوقت الذى شرعت فيه لجنة كلكتا فى القيام بحملتها . ولما خلفه السير جون مالكولم فى منصب حاكم بمباى راح يتحمس فى تحبيذ الفكرة حتى أنه حاول فى سنة ١٨٢٩ أن يرسل السفينة (انتربريز) من بمباى الى السويس ثم أمر بانشاء سفينة جديدة اسمها (هيولندس) وقد استطاعت فى سنة ١٨٣٠ أن تقوم بأول رحلة بخارية فى حوض البحر الاحمر . ومع أن شركة الهند الشرقية لم يمكن وقتئذ حملها على اتمام المشروع بتخصيص سفن بخارية الى الاسكندرية وبالعكس لمقابلة البريد والمسافرين عند وصولهم الى السويس . فقد جربت السفن فى رحلات مختلفة وأخذت السفن التابعة لوزارة البحرية تسافر من مالطة الى الاسكندرية وتشكلت لجنة من الخبراء لوضع تقرير عن مسألة المواصلات البخارية مع الهند بحذافيرها . وأخذ التجار يستخدمون طريق السويس بكثرة فى شئون البريد حتى قبل انشاء خط منظم (١) ثم ان توماس وجهورن الذى كان حجر الزاوية فى الترويج والدعاية اتخذ له مكتبا فى الاسكندرية وشرع يعمل كوكيل لنقل الرسائل البريدية وهذا بالرغم من اصرار شركة الهند الشرقية على عدم الانتفاع بالطريق . وقد وصف لنا اوكلند حاكم الهند العام الحالة فى سنة ١٨٣٦ وصفاً حياً فقال فى كتابه لهيوس « يتسلم التاجر فى (انديا هوس) تحاويله على خزانتنا لدفع مقدار معين بعد الاطلاع وذلك

---

(١) كتاب الطرق البريطانية الى الهند بقلم هوسكنز ـ الفصل الخامس .

بمقتضى مدة السفر التى قررتها المحكمة (أى حول رأس الرجاء الصالح) ينبغى أن يكون بعد التاريخ بأربعة أو خمسة أشهر ثم أنه يرسل هـذه التحاويل الى الاسكندرية وهناك يستأجر النشيط واجهوزن قاربا شراعيا ومعه حقائب البريد ويقصد الى (مخا) ويضع هذه الحقائب على ظهر احدى السفن التجارية فتصل الى كلكتا فيما لا يزيد عن شهرين منذ خروجها من انجلترا : وهنا يتسلم التجار الخطابات الواردة اليهم وأيضا تحاويلهم لأن خزانتنا قد أودع فيها نحو ٢٠ لكخ من الروبيات لمكسب التجار ولخسارتنا نحن وهكذا ترى حركة الرسائل الخصوصية فى ازدياد مستمر وسيل الصحف يقوى على مر الأيام . أما إنا فبصفتى حاكما عاما فأنى أوثر المواصلات عن طريق رأس الرجاء الصالح من طريق البحر الاحمر بل انى أفضل طريق رأس هورن (فى جنوب أمريكا) عن الطريقتين المذكورتين ولكن اذا فتحت الطريق المختصرة فلسوف يكون من دواعى العجب بل ومن أسباب التنقص أن يستخدمها كل فريق ماعدا الفريق الذى له فى الهند مصلحة هائلة » (١)

ولكن كانت هذه الأحوال آخذة فى التلاشى وبسرعة ذلك لان الفرنسيين انشأوا فى سنة ١٨٣٥ خطا للسفر بالبواخر فيما بين مرسيليا والاسكندرية وهكذا اضطرت شركة الهند الشرقية تحت ضغط لجنة المراقبة أن توصى بصنع سفينتين بخاريتين جديدتين للسفر فيما بين بمباى والسويس وبالعكس . ومن ثم أصبح تحسين الطريق طبقا لتوصيات لجنة الجزاء مضمونا .

ولم تكن هذه هى الطريق الوحيدة الممكنة ـ فقديما كانت البصرة منافسة جديدة لميناء السويس ولما كانت قد ظهرت فائدة البواخر فى المياه الداخلية فقد جعل الناس يتساءلون طبعا أليس من الأصوب أن تتصل مياه أورنتس بمياه الفرات فى هذا العصر الذى أصبحت فيه انجلترا مغطاة بشبكة من الترع وبخاصة وأن مثل ذلك المشروع يكون أقل كلفة من شق قناة فى برزخ السويس

---

(١) اوكلند الى هبهوس فى ١٧ اكتوبر سنة ١٨٣٦

وفى نهاية سنة ١٨٣٠ وأوائل سنة ١٨٣١ شرع بمسح هذه الطريق فى وقت واحد « بشيسنى » من ناحية سوريا وفريق من ضباط الشركة من الهند . على أن الضباط قد حدث ما يعرقل أعمالهم بفعل الأعراب الضاربين على ضفاف الفرات وقد اغتالوا بعضهم فعلا . أما شيسنى فقد تمكن من اتمام المساحة الابتدائية برغم ما قام فى سبيله من عقبات جبارة . ثم أرسل مرة أخرى فى سنة ١٨٣٤ على رأس بعثة ـ اصطحبت معها سفينتين بخاريتين من سفن الأنهر ذوات القاع المسطح لاستخدامها فى نقل أعضاء البعثة من مياه الفرات الأعلى إلى الخليج الفارسى وقد استصدر فرمان سلطانى بالسماح بالملاحة فى الفرات وبعد أن ذلل شيسنى مصاعب جمة تمكن من جمع سفينتيه على النهر المذكور ولكن سرعان ما أغرقت الريح احداها ووفقت الثانية فى الوصول الى البصرة وبالرغم من أن كبير البعثة كان شديد التفاؤل بما يمكن أن يصل من الاحتمالات بهذه الطريق التى تمكن من مسحها بعد جهود جبارة فان الناس جميعا كانوا مقتنعين بأنه مهما كانت أهمية هذه الطريق من الناحية السياسية فان طريق الفرات قد تستطيع منافسة طريق السويس والبحر الأحمر إلى الهند (١) .

على أن البعثة كانت مدفوعة إلى أعمالها بغاية سياسية معينة ذلك أن تلك المنطقة التى يشغلها الفرات أصبحت لها أهمية هائلة بعد التقدم الذى تقدمته روسيا وبعد أن تطورت مشروعات محمد على وتبينت الغايات التى يرمى اليها لذلك أصبح فى طليعة المسائل السياسية المهمة أن تعرف وسائل النقل فى تلك المنطقة وهل هى سهلة والى أى حد تعتبر هكذا . ويلوح أن روسيا كانت شديدة المعارضة لمحمد على فى إرسال البعثة المذكورة وقد علم بونسيبى فى الاستانة أن روسيا أبلغت البـاب العالى بأن والى مصر على اتم استعداد لوضع كل ما يمكن من العراقيل فى سبيل تلك البعثة إذا رغب السلطان ذلك (٢) . ثم

---

(١) كتاب هوسكنس السالف الذكر الفصل السابع

(٢) بونسيبى فى ٦ نوفمبر سنة ١٨٣٥ (وزارة الخارجية ٢٥٦ ـ ٧٨)

أن كامبل كان مقتنعا وهو فى الاسكندرية بان قنصل روسيا العام حاول جهده لاستثارة الباشا ضد المشروع (١) وقامت المصاعب الشديدة بسبب العمال والمؤونة . وكانت هذه الاعترافات معقولة لأن الروس لم يكن يروق فى نظرهم ترسيخ قدم انجلترا على ضفاف الفرات فى حين أن محمد على كان يخشى أن تكون نيتنا من وراء هذه الأعمال إنشاء قلاع هناك ترمى الى احتلال النهر (٢) .

كما أنه كان شديد الحرص ـ من الناحية الاقتصادية ـ على تحسين طريق البحر الأحمر أولى من طريق الخليج الفارسى . ولعله كان يؤمل أن تؤدى معارضته فى مشروع يعلم أنه يهم الانجليز إلى تساهلهم معه فى مسألة الاستقلال .

لهذا بينما كان يعمل ابراهيم خفية فى سوريا كل ما يمكنه عمله لعرقلة تقدم شيسنى فان محمد على ظل يرفض بدوره إرسال أوامر معينة إلى ابنه إلا بطلب صريح من السلطان (٣) .

وهذا ما أثار حفيظة بالمرستون ودفعه إلى تحرير خطابين بنغمة جافة قال فى ثانيهما " أن حكومة جلالة الملك مصممة على ألا يفشل المشروع . . . بسبب عراقيل نقيمها سوء النية أمامه فى جبهة من الجبهات (٤) .

وهكذا بينما كان محمد على يعمل على عرقلة مساعى بريطانيا لاختبار مبلغ صلاحية انهار العراق للملاحة كانت وزارة الخارجية البريطانية تنظر بعين يقظى إلى أملاك السلطان الباقية حتى لا يعتدى أحد عليها فلقد أراد محمد على

---

(١) كامبل فى ٣٠ يوليه سنة ١٨٣٥ (وزارة الخارجية ٢٥٧ ـ ٧٨)
(٢) كتاب الاستاذ صبرى ص ٢٩٩
(٣) كامبل فى ٢٨ سبتمبر سنة ١٨٣٥ (وزارة الخارجية ٢٥٨ ـ ٧٨)
(٤) كامبل فى يولية سنة ١٨٣٥ (وزارة الخارجية ٢٥٧ ـ ٧٨)

مثلا أن يضم منطقة أورفه الى أملاكه فى سوريا مستندا فى طلبه هذا الى أن المنطقة المذكورة لم يكن يحتلها الأتراك وأنها فى حالة فوضى وتحت سلطة قطاع الطريق وأن سكانها كثيرا ما يغيرون على الجهات الواقعة حول حلب وأنه لايتردد فى دفع الأتاوة عنها وأنها كانت من قديم الزمن جزءاً لا يتجزأ من ولاية حلب (١) على أن ذلك لم يفده شيئا بل اضطر الى الانسحاب من المنطقة المذكورة . وفى سنة ١٨٣٥ احتل جهة « الدير » الواقعة على الفرات وكان يرمى بذلك بلا ريب الى مراقبة بعثة شيسنى مراقبة فعلية . وكانت حجته فى ذلك الاحتلال أن القبائل الرحالة فى تلك الجهات ألفت الغارة على أراضيه (٢) وقد صدر اليه تحذير حازم بألا يحاول الاقتراب من ولاية بغداد

ومهما كانت نيات الباشا فان مدينتى بغداد والبصرة كانتا تعتبران فى نظر الانجليز بأن لها أهمية خاصة . وقد صادف احتلال الدير نشاط الأعمال العسكرية فى جنوبى بلاد العرب واحتمال امتدادها الى الخليج الفارسى ولهذا بادر بالمرستون الى الكتابة لكامبل بأن « بريطانيا العظمى سوف تعتبر أن لمصالحها مساسا مباشرا بحيلولتها دون زعزعة هيبة السلطان فى بغداد أو العبث بها » ثم استطرد فكتب فيما يختص بأية حركة عسكرية موجهة الى بغداد فقال « قل للباشا صراحة ان بريطانيا العظمى لايسعها الوقوف مكتوفة اليدين ازاء تنفيذ مثال هذه المآرب » (٣) .

وليس من شك فى أن هذه العبارات لم تكن مجرد بيان وجهة نظر بريطانيا كلا إذ مهما يكن نتيجة بعثة شيسنى فى نهر الفرات ومهما تكن النتيجة التى تترتب على تحسين طريق السويس فليس من شك فى أن البحر الاحمر والخليج الفارسى كانا بمثابة طريقين مباشرين الى الهند ولذا صممت بريطانيا العظمى

---

(١) كامبل فى ١٩ اغسطس و٧ اكتوبر ١٨٣٤ (وزارة الخارجية ٢٤٦ و٢٤٧ — ٧٨)
(٢) كامبل فى ٢١ ديسمبر ١٨٣٥ (وزارة الخارجية ٢٥٨ — ٧٨)
(٣) كامبل فى ٢٣ و٢٥ ديسمبر ١٨٣٧ (وزارة الخارجية ٣٢٧ — ٧٨)

على السهر على حمايتهما بالقوات البريطانية .

أما الحوادث التي أدت الى احتكاك المصالح بين بريطانيا ومصر وتوسيع الهوة بين الفريقين فقد نشأت عن الفتنة التي وقعت بين جنود محمد على المرابطة في بلاد العرب . فان الحرب السورية كانت قد أنهكت مالية محمد على واستنفدت موارده وتأخر على ذلك دفع مرتبات الجنود في بلاد العرب مما دفع ضابطين من الضباط الألبانيين إلى اعلان تذمرهما .

وكان الباشا قد كتب في سنة ١٨٣٢ الى حاكم الحجاز يبلغه أنه أرسل إليه ٥٠٠٠ كيس لتهدئة ثائرة الجنود ولكن لابد له من حمل الضابطين المذكورين على العودة الى مصر أو القبض عليهما وإرسالهما الى القاهرة مكبلين بالحديد (١) ولكن لا أكياس الذهب ولا القبض على الضابطين أدى الى النتيجة المرجوة بل سرعان ما رفع الجنود راية العصيان وأخذ زعماؤهم يتحدون حاكم الحجاز ومن ثم أرسل اليهم محمد على أحد أصدقائهم الأقدمين لاعادة النظام ولكنه اضطر الى الفرار الى القاهرة متسربلا بثياب الخزى والعار . أما النقود التي أرسلت لابتياع البن لحساب الباشا فقد استولى عليها القواد وتقاسموها بينهم (٢) وفي جدة وضع الثوار أيديهم على الممتلكات العامة كما استولوا على سفن الأفراد وسفن الباشا (٣) وفي أواخر سنة ١٨٣٢ كان الثوار قد رسخت أقدامهم في بلاد اليمن (٤) واتخذوا «مخا» قاعدة لأعمالهم . وهنالك جعلوا يعبثون أشد عبث بتجارة سورات (٥) ولم يكن يمكن القيام بعمل منتج في تلك الظروف ولكن محمد على أخطر كامبل في منتصف عام ١٨٣٣ بأن في نيته ارسال تجريدة

---

(١) كتاب محمد على الى حسن اغا في ٧ رمضان سنة ١٢٤٧ (محفوظات عابدين)
(٢) بادكر في ٢١ يوليه سنة ١٨٣٢ (وزارة الخارجية ٢١٤ — ٧٨)
(٣) بادكر في ١٠ ديسمبر ١٨٣٢ (وزارة الخارجية ٢١٤ — ٧٨)
(٤) كامبل في ١٦ ابريل (وزارة الخارجية ٢٢٧ — ٧٨)
(٥) كامبل في ٢٧ اكتوبر ١٨٣٣ (وزارة الخارجية ٢٢٨ — ٧٨).

لاخضاع «مخا» (١) وهو مشروع كانت شركة الهند الشرقية تحبذه من صميم قلبها (٢) .

وفى نهاية العام تحركت التجريدة وهى مزودة بالأموال لرشوة القبائل العربية المحالفة للثوار (٣) وأخيرا كللت هذه المحاولات بالنجاح فان مشايخ القبائل سرعان ما انتقلوا من معسكرات الثوار إلى المعسكر المصرى بما عرف عنهم من الاستعداد للانتقال من جانب إلى آخر بمجرد التلويح لهم بالمال . ومن ثم لم يسع الضابط المتمرد الباقى على قيد الحياة الا الفرار لأحد البوارج التابعة لشركة الهند الشرقية بينما وقع ١٦ من كبار معاونيه فى الأسر وصدرت الأوامر باطاحة رؤوسهم (٤) .

أما رؤساء العشائر فانهم كانوا قد أبدوا ميلا الى أخذ مال المصريين مقابل الانقلاب ضد الجنود الثائرين الا انهم كانوا غير راغبين فى ترك الحبل لمحمد على على الغارب لينعم بادارة البلاد الواقعة فيما وراء مينائى الحديدة ومخا الواقعين فى جنوب البحر الأحمر ولذا نشبت حرب طويلة الأمد بين ضباط محمد على وشيوخ القبائل فى العسير واليمن . على أن الضباط لم يربحوا من هذه الحرب فائدة ثابتة تذكر فى حين أن الحرب شلت حركة التجارة . وحتى لغاية سنة ١٨٣٨ كان كامبل مايزال يلح على نائب السلطان ويبين له خطل السعى لكبح جماح قبائل العسير واخضاعهم بدلا من الاكتفاء باحتلال الموانىء وتشجيع شتى القبائل فى الداخل على احضار حاصلاتهم لبيعها فى الموانى المذكورة (٥) .

(١) كامبل فى ١١ يونية سنة ١٨٣٣ (وزارة الخارجية ٢٢٧ ـ ٧٨)

(٢) كتاب شركة الهند الشرقية الى لجنة المراقبة فى ٩ أغسطس سنة ١٨٣٣ (وزارة الخارجية ٤٨ ـ ٩٧)

(٣) كامبل فى ٥ ديسمبر سنة ١٨٣٣ (وزارة الخارجية ٢٣٨ ـ ٧٨)

(٤) كامبل فى ٢٢ فبراير سنة ١٨٣٤ (وزارة الخارجية ٢٤٥ ـ ٧٨)

(٥) كامبل فى ٢٠ مارس سنة ١٨٣٨ (وزارة الخارجية ٣٤٣ ـ ٧٨)

على أن هذه الأعمال العسكرية انما كانت أهميتها بالنسبة لبريطانيا العظمى لأنها قربت الجنود المصريين من عدن وفى الواقع لم يكن يظن بعد اخفاقهم فى احراز أى نجاح يذكر لغاية سنة ١٨٣٨ أن هناك أملا فى أن يبسطوا سيطرتهم على شواطىء البحر الأحمر الجنوبية . ولكن محمد على ما لبث أن أحرز فجأة فى خلال العام المذكور انتصارين باهرين . وفى اليوم الخامس من شهر ابريل حاول أحمد باشا أن يطيح رؤوس ٥٠٠ من رجال قبائل عسير وأن يأسر ١٠٠٠ رجل منهم (١) ووصل فى الشهر التالى إلى جهة عنيزة القائد خورشيد باشا الذى كان قد قصد بلاد الوهابيين وتقع عنيزة فى منتصف خط مستقيم يمتد من مكة إلى البصرة وكانت عنيزة عامرة بالتجار ويقصدها التجار من بغداد ودمشق ولذا كان يحتمل إتخاذها قاعدة صالحة لمواصلة زحف الجيش فى المستقبل وبعد قليل من التردد قصد شيخ القبيلة ومعه وجهاء قومه إلى معسكر خورشيد وقدموا طاعتهم ولكن وقع حادث دفع الفريقين إلى تحكيم الحسام فورا . ذلك أن أحد الجند الأتراك أفرغ مسدسه فى صدر أحد الأعراب فى خلاف شخصى نشب بينهما وفى الشجار الذى نشب بسبب ذلك الحادث مزق الجمهور الساخط ذلك الجندى أربا وقد مات من الفريقين نحو اثنى عشرة شخصا هذا عدا أن الجنود قد طردوا إلى خارج المدينة واغلقت الأبواب فى وجوههم وهنا لم يجد خورشيد مناصا من إطلاق قنابله على المدينة مدة ثمان وأربعين ساعة قبل أن يتمكن من اخضاعها (٢) وتلا هذا مواصلة الزحف فى العام التالى حتى وصل إلى شواطىء الخليج الفارسى : وفى أوائل سنة ١٨٣٩ أشار معتمدو بريطانيا فى الخليج إلى خضوع جبهة الحصا والقطيف وكذا الاراضى الواقعة على طوال الشاطىء الغربى وتوقعوا أن يصر الحاكم

---

(١) كامبل فى ١٠ يونية سنة ١٨٣٨ (وزارة الخارجية ٣٤٣ — ٧٨)

(٢) كامبل فى ٣ يوليو سنة ١٨٣٨ (وزارة الخارجية ٣٤٣ — ٧٨)

الذى عينه محمد على فى نجد على تحصيل الاتاوة «التى اعتادت جزيرة البحرين أن تدفعها (١) » .

أما خورشيد فقد كتب إلى المقيم الانجليزى فى الخليج يبلغه اعتزامه احتلال جزيرة البحرين ولو اقتضى الامر استعمال القوة (٢) ولم يتورع الضابط الذى كان يقود الجنود المصريين عند دنوه من القطيف عن استعمال لهجة جافة فى مخاطبته للاميرال البريطانى الذى كان يزور الخليج وقوله له أنه ذاهب لاخضاع البصرة وبغداد هذا بينما قد عزى إلى خورشيد نفسه أنه قال أنه ينتظر وصول المدد من المدينة ليزحف بكامل جيشه (٣) .

على أن هذا النشاط فضلا عن منافاته للحكمة فقد جاء فى غير الوقت الملائم وحسبك أنه انطوى على التعمق فى غير حاجة فى منطقة لبريطانيا فيها نفوذ عظيم . فلقد كان شيخ البحرين أحد زعماء العرب المسالمين فى الخليج الفارسى (على حد التعبير الغريب الذى كان يستعمله قلم الشؤون الهندية فى السياسة) وأنه قد وقع المعاهدة العامة فى سنة ١٨٢٠ ولذا رأت حكومة الهند وبحق أن تصد ذلك الاعتداء الموجه إلى موقعنا وذلك باصدار الأوامر باستعمال لهجة خشنة حازمة ردا على خورشيد وقومه على أن تشفع تلك اللهجة بارسال الامدادات وأن تطلب الى مشايخ القبائل أن يقدموا معونتهم الودية لصد مطالب مصر (٤) .

ولقد حاول محمد على أن يسوغ نشاطه هذا بأنه لم يرد من ورائه إلا صد الوهابيين وحماية الحرمين والحصول على الابل (٥) وأن الاشاعات التى تروج

---

(١) كامبل فى ١٦ ابريل سنة ١٨٣٩ (وزارة الخارجية ٣٧٣ ــ ٧٨)
(٢) مرفقات مرسلة الى كامبل فى ١٨ مايو سنة ١٨٣٩ (وزارة الخارجية ٣٧٤-٧٨)
(٣) كتاب ميتلاند الى وزارة الحربية فى ٧ ابريل سنة ١٨٣٩ (وزارة البحرية ٢١٩-١)
(٤) الهند الى عباى سرى فى أول أغسطس سنة ١٨٣٩ (وزارة البحرية ٢٢٠ــ ١)
(٥) كامبل بتاريخ ١٦ ابريل سنة ١٨٣٩ (وزارة الخارجية ٣٧٣ - ٧٨)

ضده فى الاستانة وبغداد تتعمد أن تعزو إليه نيات عدائية (١) الخ .. ولكن هذه المحاولات تجردت حتى من صفة مشابهة للحقيقة .

وأما نشاط محمد على فقد جاء فى غير الوقت الملائم فلأنه وقع فى وقت وقوع حوادث أخرى يؤسف لها وكان من نتيجتها جميعا أنها أظهرت — إن خطأ أو صوابا — أن المسألة « مرتبة ومطبوخة » ففى سنة ١٨٣٥ كان فى نية شاه العجم ارسال مندوب الى القاهرة وفى سنة ١٨٣٨ ذهب أحد أعضاء البعثة الايرانية فى الاستانة لزيارة محمد على (٢) ثم أشيع فى اليوم التالى أن الشاه ينوى ارسال ٥٠ شابا ايرانيا الى القاهرة للالتحاق بمدارسها (٣) وفى أوائل سنة ١٨٤٠ وصل مندوب خاص من العجم يحمل معه بعض الهدايا الثمينة (٤)

ومن يدرى أن هذه الروحات والجيئات تكون قد جاءت عفوا بدون قصد معين ولكنها وقعت فى وقت كان لروسيا نفوذ كبير فى البلاط الايرانى وفى الوقت الذى ذهبت فيه سدى كافة محاولات المندوب الانجليزى وانتقاداته للشاه لحمله على العدول عن محاصرة مدينة « هيرات » فى الوقت الذى قامت فيه حملة من بمباى سنة ١٨٣٨ لاحتلال جزيرة « كرك » التى تملكها ايران فى الخليج الفارسى .

وحفلت إذ ذاك سوق الاشاعات بما راج فيها من الخرافات الغريبة وتصادف أن هبط الاسكندرية فيما بين سنتى ١٨٣٥ و ١٨٣٦ رجلان من الاستانه يدعى أحدهما محمود والآخر حسين لم يكن ثمة مايدعو الى الارتياب لا فى وصفيهما ولا فى نواياهما . وقد قيل أنهما من جماعة المخاطرين ولكنهما شخصا قبل ذلك الى زيارة روسيا فى ثوب مندوبين من قبل بلاط دلهى . وقد

---

(١) كامبل فى ١١ يوليه ١٨٣٩ « وزارة الخارجية — ٣٧٤ — ٧٨ »
(٢) هودجز فى ١٢ فبراير ١٨٤٠ « « ٤٠٤—٨٨
(٣) كامبل فى ١٩ مارس ١٨٣٨ « « ٣٤٣—٨٨
(٤) هودجز فى ٦ فبراير ١٨٤٠ « « ٤٠٤—٧٨

وقعت أعين الناس على محمود فى القاهرة وفى الاسكندرية ثم اختفى فجأة ، أما حسين فقد وصل إلى مصر بعد زميله بعدة أشهر وكان مصابا بالطاعون ولذلك طالب إلى وكيل القنصل الانجليزى الذى استعاد ميله الشديد لمقارعة بنت الجان بسبب إلمامه باللغتين التركية والعربية طالب اليه أن يعنى بأمتعة حسين لأنه يحمل بين طياتها ٥٠ كيس من النقود وما كاد وكيل القنصل يسمع اللهجة الهندية فى كلام حسين حتى ذكر أنه قابل زميله محمود عند اجتيازه الأراضى المصرية واعترف حسين بأن ذلك هو الواقع ولكنه كان مريضا بحيث لا يستطيع مواصلة الحديث .

وفى اليوم التالى أصابته حمى جعلته يهذى الى أن أدركته منيته ومن ثم أخذت الأوراق الخاصة به من المستشفى فاذا بها مجموعة خطابات باللغة الفرنسية من الصدر الأعظم الى بعض الزعماء الهنود ومعها خطابات باللغة التركية يقدمه فيها الصدر الأعظم إلى محمد على (١) .

فلم يكن ثمت مناص من أن يحيط هذا الجو السياسى المكفهر بزحف محمد على فى اتجاه الخليج الفارسى بجو من الشكوك ولذا صدرت التعليمات الى الأميرال المرابط فى المحطة التابعة لشركة الهند الشرقية بأن يذهب الى زيارة الخليج وهناك يبذل كل مافى وسعه للحيلولة دون وقوع أى اعتداء على جزيرة البحرين وإن كان اوكلند قد عارض فى أن يحرك أصبعاً فى الموضوع مالم تصله تعليمات صريحة فى اتباع خطة حازمة .

وكانت لندن قد عقدت نيتها على اتباع خطة الحزم فلقد صدرت إلى بونسبى فى الاستانة التعليمات بأن يستفهم هل تمت فتوحات محمد على بارادة

(١) بونسبى الى كامبل فى ٣١ مارس ١٨٣٦ وكذلك رسالة كامبل فى ١٨ يناير سنة ١٨٣٧ (وزارة الخارجية ٣١٩ - ٧٨)

الباب العالى (١) وصدرت الأوامر فى الوقت نفسه الى كامبل فى الاسكندرية بأن يبلغ نائب السلطان بأن التعليمات أرسلت الى الأميرال ميتلند بأن يحول دون احتلال البحرين ولو اقتضى الأمر استعمال القوة (٢) وكان كامبل قبل أن تصله هذه التعليمات قد أصر بناء على تعليمات سابقة وعلى الأنباء الواردة من الهند على إرسال أوامر صريحة الى خورشيد بأن يدع جزيرة البحرين وشأنها (٣).

واتفق أن نشاط محمد على فى جهة اليمن أدى إلى ما يشبه هذه الحالة عند مدخل البحر الاحمر فان انتصاره على قبائل عسير فى سنة ١٨٣٨ جعله صاحب الأمر والنهى مؤقتا فى جهات بلاد العرب التى كانت تسمى من قبيل التهكم « بلاد الرخاء » وكان محمد على ميالا الى اعتبار حاكم عدن مجرد تابع خاضع لإمام صنعاء الذى أرغم حين قبل الدخول فى طاعة السلطان (٤) كما أنه ادعى من ناحية أخرى أنه يضع يده عليها لأنها كانت من قبل جزءا من الامبراطورية العثمانية (٥).

وبالطبع لم يكن من المستطاع النظر إلى هذه الدعاوى وأمثالها بعين جدية نعم لقد حاول إمام صنعاء بلا ريب من آن لآخر أن يبسط نفوذه على عدن ولكن لم يكن له فى الواقع نفوذ يصح وصفه بأنه نفوذ حقيقى وثابت فاعتراف الانجليز بانه كان يتمتع بحقوق السيادة كان يكون إذن ضربا من ضروب الحمق والسخف. كذلك قل عن دعوى الأتراك فانها كانت وهمية. نعم لقد احتل الأتراك عدن أيام عظمة امبراطوريتهم إبان القرن السادس عشر والسابع عشر

---

(١) الى بوسنى فى ١١ مايو ١٨٣٩ (وزارة الخارجية ٣٥٢ — ٧٨)

(٢) الى كامبل فى ١٥ يونيه ١٨٣٩ (وزارة الخارجية ٣٧٢ — ٧٨)

(٣) كامبل فى ١٥ يونيه ١٨٣٩ (وزارة الخارجية ٣٧٤ — ٧٨)

(٤) ارنيديك لباغوص بك فى ٢٢ مارس ١٨٣٨ (وزارة الخارجية ٣٤٢ — ٧٨)

(٥) كامبل فى ٩ يونيه ١٧٣٨ (وزارة الخارجية ٣٤٣ — ٧٨)

فلما لم تسعد حالتها تحت حكمهم تخلوا عنها فى سنة ١٦٣٠ باعتبار انها عديمة الفائدة . وشاءت الظروف فى مناسبات عديدة فى السنين القريبة أن يتصل الانجليز اتصالا وديا بسلطان عدن . مثال ذلك أنهم عندما صحت عزيمتهم على سد طريق البحر الأحمر خوفا من زحف نابليون على الهند احتلوا إلى أن تصير جزيرة « بريم » وهى التى كانت توصف بانها « الصخرة القائمة فى وسط البحر لا يملكها غير الله العلى القهار والتى لا تدفع اتاوة ولا ينتظر أخذ اتاوة منها » فلما تبين لهم ألا سبيل إلى البقاء فى تلك الصخرة الجرداء التى هى أشبه بالجحيم وخاصة بعد أن ذهبت سدى كافة مساعيهم فى نقر الصخرة جريا وراء الأمل الكاذب وهو العثور على الماء قر رأيهم على الانتقال إلى عدن مؤقتا وهناك كانوا أحسن حالا فلقد خيل اليهم فى الواقع أنهم أصبحوا فى فردوس بالنسبة لذلك الجحيم الذى كانوا فيه من قبل . ومما زاد فى اغتباطهم أن سلطان عدن رحب بمقدمهم وعرض أن يقدم لهم دائما عددا من رجاله للخدمة العسكرية فى صفوف الشركة الهندية (١) وفى سنة ١٨٠٢ عقد السير هوم بوبهام فعلا معاهدة مع السلطان وفى سنة ١٨٠٨ أشار اليها فالنشيا بحماس شديد فى تقرير له قدمه أثناء رحلاته فى حوض البحر الأحمر إلى كاننج فبعد أن أسهب فيما أظهره سلطان عدن من ضروب الصداقة نحو الانجليز استطرد يقول « انها تعتبر جبل طارق الشرق ويمكن فى مقابل مبلغ زهيد من المال تحصينها تحصينا منيعا » (٢) وعندما ذهب مندوبنا فى مخا لزيارة عدن إذا بها توشك أن تقع فى قبضة محمد على . فلقد وافق السلطان على إبقاء حامية مصرية وسمح بانشاء حلقة صغيرة على الخليج الشرقى بشرط أن يؤذن له بامتلاك أبواب المدينة وأن

---

(١) من سبرى فى ٤ اكتوبر سنة ١٨٩٩

(٢) فالنشيا إلى كاننج فى ١٣ سبتمبر سنة ١٨٨٠ (وزارة الخارجية ١ — ٢)

يباشر داخلها سلطته العسكرية والمدنية (١). ولسنا ندرى ما السر الذى جعل محمد على يحجم عن انتهاز تلك الفرصة وخاصة وقنصلنا العام صولت كان يتوقع انتهازها (٢). لا ريب فى أن محمد على قد اضاع وقتئذ تلك الفرصة الذهبية التى كانت تكفل له السيطرة التامة على البحر الأحمر كما أنه أضاع فيما بعد ـ أى فى الحرب اليونانية ـ الفرصة النادرة التى عرضت له طيل حياته للحصول على اعتراف الدول باستقلاله التام.

ثم استمرت الحال على ذلك المنوال إلى أن بدأ يتحقق مشروع سكة السويس وظهرت الحاجة إلى إيجاد محطات للفحم. وتدل الشواهد على أن الاختيار وقع فى بدء الأمر على « سقوطرة » ولذا أرسلت حملة لاحتلالها من بمباى فى سنتى ١٨٢٤ و ١٨٣٥ ولكن دل الاختبار على انها غير صالحة لهذه الغاية. فان شدة اندفاع المياه نحو الشاطىء جعل النزول إلى البر متعذرا. ثم أن الجزيرة كانت موبوءة بحمى الملاريا ولذا تقرر العدول عنها (٣) وكانت الفكرة فى سنة ١٨٢٨ قد اتجهت إلى عدن واتخاذها مستودعا للفحم وذلك بمناسبة أول تجربة لتسيير السفن التجارية من بمباى إلى السويس ولكن الباخرة « هيولندس » تعذر عليها اكثر من ٣٠ طنا من الفحم يوميا لقلة الأيدى العاملة وهو سبب يبدو غريبا فى عين السائح العصرى (٤).

وفى أوائل عام ١٨٩٧ ارتطمت بالشاطىء بالقرب من عدن الباخرة « دريايا دولة » وهى من البواخر التابعة لمدارس فكانت الراية الانجليزية تخفق على ساريتها وقد كانت الباخرة تحمل عددا من الحجاج عدا الهبة العظيمة التى

---

(١) هتشنسن الى بمباى فى ٢٧ مارس سنة ١٨٢٢ (وزارة الهند مصر والبحر الاحمر ٧)

(٢) صولت الى هتشنسن فى ٧ ديسمبر سنة ١٨٢٢ (« « « « « ٧)

(٣) صولت الاسطول الهندى بقلم « لو » الجزء الثانى ص ٧٤

(٤) صولت الاسطول الهندى بقلم « لو » الجزء الثانى ص ١٠٥

اعتاد (نواب ارقوط) ارسالها الى مكة سنويا لغرض مقدس .

فالحجاج الذين نجوا من الغرق وقعوا غنيمة باردة فى أيدى الأعراب الذين سلبوهم أمتعتهم كما أن أعوان السلطان أنقذوا كل ما يمكن انقاذه من الباخرة تحت إشراف ابن السلطان نفسه .

وتولى نائب السلطان الرئيس بيع هذه السلع فى الأسواق (١).

ولما بعث السير روبرت جرافت حاكم بمباى تقريره المفصل عن هذه الحوادث لاح له أن يتخذ التدابير المستعجلة . فقد كتب يقترح انشاء مواصلة بحرية كل شهر مع البحر الاحمر بواسطة البخار لا بتكوين عمارة من البواخر المسلحة يتحتم معها أن تكون لنا محطة خاصة على شاطىء بلاد العرب كالمحطة التى لنا فى الخليج الفارسى .

أما الاهانة التى لحقت الراية البريطانية بسبب سلوك سلطان عدن فقد حملتنى على القيام بتحقيق كانت نتيجته أنه لم يعد يخامرنى أى ريب فى وجوب وضع يدنا على ميناء عدن (٢) .

والأرجح أنه كتب ما كتب تحت تأثير توسع الفتوحات المصرية فى اليمن على أن أوكلند لم يشأ أن يستعجل الحوادث بل أشار بطلب تعويض فان أداه سلطان عدن أمكن وقتئذ عقد اتفاق ودى خاص بمستودع الفحم أما إذا لم يدفع التعويض المطلوب أمكن بعدئذ النظر فيما يجب اتخاذه من الاجراءات (٣) .

وإذ ذاك تقرر ارسال الكابتن هينز من رجال الأسطول الهندى لمباحثة سلطان عدن فى الموضوع وسارت المباحثات بادىء الأمر بشكل يبعث على الرضا .

---

(١) الاوراق البريطانية سنة ١٨٣٩ المجلد ١١ ص ٤٢

(٢) الاوراق البريطانية سنة ١٨٣٩ المجلد ١١ ص ٥٤

(٣) الاوراق البريطانية سنة ١٨٣٩ المجلد ٢٩ ص ٥٥

وبعد مباحثات طويلة سلخ فيها السلطان الليل كله مع مستشاريه وراء أبواب مغلقة وكان يخشى أن تسقط (لحج) عاصمة بلاده من زمن قديم فى قبضة محمد علي - قرر أن يتخلى لشركة الهند الشرقية عن ميناء عدن الآخذة فى الانحطاط فى مقابل مبلغ معين من الدولارات لا بل وضع خاتمه على وثيقة التنازل عن عدن للانجليز.

وهنا نشأت بعض المصاعب فقد كان ابنه الأكبر معارضا فى هذا التنازل ولم يكن هينز فى مركز يسمح له بانزال جنوده لاتمام الصفقة (١) .

فلما أذيعت الأنباء شرع جرافت يضرب على نغمة الضرورة الملحة من جديد (لأن تحصل الحكومة البريطانية فى الفرصة الوحيدة حتى تجعل تحقيق هذه الفكرة ممكنة لمدة قرون عديدة على جهة مهمة وضعتها الظروف الغير منتظرة فى متناول يدها) (٢) .

ولكن حكومة الهند تراءى لها أن المسألة ينبغى أن يبت فيها ولاة الأمور فى لندن (٣) .

وهكذا أرجىء العمل إلى أن وصلت فى شهر أغسطس رسائل معينة من اللجنة السرية (٤) وبمقتضاها سمح أوكلند لحكومة بمباى فى الشروع فى العمل (٥) فأرسل هينز من فوره الى عدن وهو يحمل فى جيبه مشروع معاهدة وبصحبته حرس مركب من ثلاثين من سكان بمباى الأجانب وذلك خشية من أن يكر محمد على على عدن ويستولى عليها بينما كانت الأوامر قد صدرت باعداد قوة عسكرية أكثر عدداً وأوفر عددا (٦) .

---

(١) الاوراق البرلمانية سنة ١٨٣٩ المجلد ١١ ص ٥٦ - ٦١
(٢) » » » » ص ٧٣
(٣) » » » » ص ٧٦
(٤) من اللجنة السرية الى الهند فى ٣٠ مايو ١٨٣٨ (وزارة الهند)
(٥) من الهند الى بمباى فى ٣ سبتمبر ١٨٣٨
(٦) أوامر الحاكم فى ٥ سبتمبر ١٨٣٨

ووصل هينز الى عدن فى ٢٤ اكتوبر وهنا لابد أن يلاحظ كل من له أقل إلمام بشؤون الشرق – ان قلة عدد رجاله شجعت ابن السلطان على أن يلح على أبيه بألا يرضخ للاقتراحات الانجليزية . وقد نجحت مساعيه فى هذا الصدد . وبعد أن كانت الأوامر صدرت بالتخلى عن البضائع المشروقة من الباخرة (درايا دوله) واختزانها تقرر عدم السماح بنقلها ثم مرت أيام دفع الغرور العرب فيها الى اطلاق النار على السفن الانجليزية . فانسحب هينز إلى إحدى الجزر الصغيرة فى انتظار وصول الامدادات . وقد وصلت هذه فى ١٦ يناير ولم ينقض يومان حتى استولى على المدينة عنوة .

وأما السير تشارلس ملكولم فبعد أن كان قد اقترح بصفته مفتشا عاما لقوة بمباى البحرية الحصول على امتيازات من السلطان . . بدلا من أخذ تصريح بانشاء مستودع للفحم يظل تحت إدارة احد شيوخ العشائر الطامعين المذبذبين ، فانه أصبح الآن مغتبطا بسير الحوادث حتى أنه كتب يقول « ان ميناء عدن وخليجها الذى يطل على الجهة الجنوبية فقط يفوقان كل تصوراتى واحسب أنه كان يستحيل الوصول إلى شىء أحسن من هذا يفى بكافة مطالبنا . . (١)

وليس من شك فى أن هذا الاحتلال الانجليزى لثغر عدن جاء مخيبا لآمال محمد على بل لعله كان أكثر ايلاما له من اصرارنا على انسحابه من الخليج الفارسى . فلقد قلب ظهرا لبطن كافة مشروعاته التجارية والسياسية فلقد كان المأمول – وان كان ذلك الأمل لم يتحقق – أن تتحول تجارة البن كلها من مخا إلى عدن (٢) وبذا يفقد نائب السلطان امتيازا له قيمته الكبيرة . وقد شكا القائد المصرى من نقص الرسوم الجمركية فى مخا (٣) وبديهى أن الدول الأجنبية

---

(١) مالكولم الى كولى فى ١٨ يناير سنة ١٨٣٩

(٢) كامبل فى ١ نوفمبر سنة ١٨٣٧ (وزارة الخارجية ٣٨١ – ٧٨)

(٣) كتاب القائد العام فى اليمن الى محمد على فى ١٢ فبراير سنة ١٨٣٨ (وزارة الخارجية ٣٤٢ – ٧٨)

وخاصة فرنسا وروسيا لم تكن مرتاحة إلى هذا الانقلاب الذى طرأ على عدن لأنه لم يكن ينتظر أن يؤدى إلا الى ترسيخ مركز الانجليز فى الشرق وتوطيده .

ولما كتب كامبل يقول « انني على يقين بان فرنسا وروسيا قد افهمتا محمد علي ولن تفتأ تفهمانه باراء خاطئة عن وجهة نظرنا فى امتلاك عدن (١) على أن محمد علي مهما كان شعوره الداخلى حيال تقدم النفوذ الانجليزى فانه اجتنب الاحتجاج وقصر نفسه على التكلم برغباته وآماله فعندما نمى اليه أن حكومات ولايات الهند قررت ارجاء العمل إلى أن تصلها تعليمات صريحة من ولاة الأمور في لندن لاحظ محمد علي (بأنه يؤمل أن تقتنع الحكومة الهندية بأن عدن جزء لا يتجزأ من اليمن . . . وأنه يرجو أن لا تتشكك حكومة الهند فى مبلغ ارتياحه إلى إنشاء مستودع للفحم فى عدن وحدها بل فى كافة ممتلكاته الأخرى (٢) ولعل أقرب عبارة للهجة الاحتجاج الرسمى قوله « أنه مما يتنافى مع المعقول أن نوافقه على إرسال تجريدة الى اليمن ثم نأتى بعد ذلك فنستولى على إحدى موانيها (٣) . .

ولكن مثل هذه الأقوال لم يكن من شأنها تهدئة ثائرة بالمرستون فأمسك القلم غاضبا ووضع خطا غليظا تحت الضمير فى إشارة محمد علي الى أملاكه كما لو كان الضمير فى نفسه بمثابة خيانة ضد ميول محمد على صديق بريطانيا الصدوق أما فيما يختص بموافقتنا على إرسال تجريدة الى اليمن فقد اجاب بالمرستون صراحة باننا لم نبد معارضة فى إرسال محمد علي تجريدة لكبح جماح جنوده الثائرين ولكن التجريدة كانت ارسلت قبل وصول موافقتنا على ارسالها

---

(١) كامبل فى ٢٧ مارس سنة ١٨٣٧ و ١٨ ابريل سنة ١٨٣٩ (وزارة الخارجية ٣٤٢ – ٧٨ – ٣٧٣)

(٢) كامبل فى ٩ يونية ١٨٣٨ (وزارة الخارجية ٣٤٣ – ٧٨)

(٣) كامبل فى ١٧ ابريل سنة ١٨٣٨ (وزارة الخارجية ٣٤٢ – ٧٨) .

بزمن طويل (١). ولما استصوب نائب السلطان استعادة الجنود من اليمن تفاديا من وقوع حوادث على الحدود رد عليه وزير الخارجية بأنه لا يرغب في استمرار احتلال الجيش المصرى لليمن. بل ما أشد ما يكون اغتباطه على العكس إذا حدث ما يدل صراحة على أن الباشا مهتم بتحسين ادارة الولايات المعهودة الى حكمه بدلا من تسخير جهود ذهنه وموارد القطر الذى يحكمه فى ارسال تجريدات عسكرية مهمتها شن الغارة على البلدان المجاورة ومناصبتها العدوان (٢) وحتى قبل أن يحتل الانجليز عدن فعلا أنذر بالمرستون محمد على « بأن كل محاولة عدائية ضد عدن سوف تعتبر بمثابة اعتداء على أملاك انجليزية وإذ ذاك تعامل على أن لها تلك الصفة ».

ومن ذلك الحين فصاعداً وخاصة بعد أن أخذت العلائق تزداد توترا بسبب حوادث سوريا ظلت عدن مصدرا للجفاء بين الفريقين. وقد أنذر محمد على بألا يتعرض لرؤساء العشائر المتاخمين للمستعمرة الانجليزية الجديدة (٣) وقد دار على الألسن فيما بعد أن نائب السلطان يحسن صنعا لو أنه عمل باقتراحه فأصدر أمره بالجلاء عن اليمن كلية (٤) ثم راجت الاشاعات بأن الجنود المصريين قد حفزوا رؤساء العشائر لمهاجمة عدن. واسوء الحظ أن قنصلنا العام السخيف المجرد من اللياقة وهو الذى خاف كامبل صدق تلك الاشاعات وآمن بها كالو كانت حقيقة لاريب فيها (٥) وحتى بعد أن انسحب محمد على نهائيا من اليمن لم يكف ذلك القنصل العام عن تجريحه ولومه (٦)

---

(١) الى كامبل فى ١٢ مايو ١٨٣٨ (وزارة الخارجية ٣٤٢ – ٧٨)
(٢) « « « « ٢٤ « « « «
(٣) الى كامبل فى ١١ مايو ١٨٣٩ (وزارة الخارجية ٣٧٢ – ٧٨)
(٤) الى كامبل فى ١٣ سبتمبر ١٨٣٩ (وزارة الخارجية ٣٧٢ – ٧٨)
(٥) هيتز الى هودجز فى ١٠ فبراير ١٨٤٠ (وزارة الخارجية ٤٠٤ – ٧٨)
(٦) هودجز فى ٢٢ فبراير و ٦ يوليو ١٨٤٠ (وزارة الخارجية ٤٠٤ و ٤٠٥ – ٧٨)

فأنت ترى فيما سقناه أمامك من الحوادث التى وقعت فيما بين الحرب السورية الأولى والثانية مبلغ وهن سياسة محمدعلى وقوتها وعدم ثباتها فى كثير من النواحى . فلقد رأى بحصافة رأيه وبعد نظره أهمية الصداقة البريطانية بالنسبة اليه ويظهر أنه كان يرغب دائما فى نيل هذه الصداقة فكان لا يفتر عن السعى لابتكار الوسائل التى تزيد فى قيمة تعاونه فى أعين الانجليز ولكن يلوح هنا أن الباشا أساء فهم مركزه كما أساء فهم مركز بريطانيا العظمى .

نعم لقد كانت مصالح انجلترا ومصر متشابكة . ثم أن استخدام طريق السويس الى الهند جعل من الأهمية بمكان بالنسبة إلينا أن تظل مصر بعيدة عن الوقوع تحت أية سيطرة أجنبية اللهم الا اذا كانت تحت سيطرة بريطانيا وأن نساعد على توطيد مركز حكومتها وزيادة رخاء سكانها هذا بينما كانت سيطرة بريطانيا البحرية سببا فى جعل انجلترا خير حليف يمكن أن يحالفه قطر لا سبيل الى مهاجمته إلا من ناحية البحر لهذا كان عقد محالفة بين مصر وانجلترا رأياً صائباً . ولكن من وجهة نظرنا كان يوجد فارق كبير بين محمد على باشا مصر الساعى لتوطيد دعائم النظام وإقامة سنن العدل ونشر العلوم والمعارف فى وادى النيل — وبين محمد على الذى يسخر شعبه فى فتح بلاد العرب وتدويخ سوريا ونشر سلطانه وبسط نفوذه شرقا لغاية البصرة وجنوبا لغاية عدن مهددا بهذا أعصاب أوربا بقلب الامبراطورية العثمانية ظهرا لبطن .

ولم يكن هناك ما يمكن أن يقنع بالمرستون — وفى هذا كان وزير خارجية بريطانيا على حق — بأن مصالح بريطانيا فى حاجة الى تأييد دولة عسكرية قوية فى الشرق الأدنى كالتى كان محمد على — وبخاصة ابنه ابراهيم يحلم بانشائها . بل لم تكن مصالح بريطانيا فى حاجة إلى حماية أخرى عدا حماية الأسلحة البريطانية . فلم يكن ثمت مناص من أن يؤدي بسط نفوذ الباشا شرقا الى اصطدام المصالح وتعارض السياسات .

وكذلك لم يكن هناك شبه ظل لما زعم بعض الكتاب المصريين المعصريين لوجود عداء من ناحية بريطانيا العظمى لمصر . فلقد كان المجال فسيحا أن يبلغ محمد على شأو العظمة كما شاء فى داخل حدود مصر الجغرافية الطبيعية . ولكن لم يكن من شأنه أن يعرض مصالح أوربا للخطر أو أن يضطلع بالنيابة عن انجلترا بأعباء يحس هى أن فى وسعها الاضطلاع بها على أحسن وجه .

وقد كان بالمرستون حكيما ومصيبا عند ما آثر أن يدعم سلطة انجلترا فى الخليج الفارسى وعند مدخل البحر الاحمر بدلا من أن يسمح للغير — مهما كانت توكيدات صداقته — باحتلال مناطق كان القدر قد أعدها لأن تلعب دورا خطيرا فى تاريخ الانسانية .

الفصل السادس

الحرب السورية الثانية

وحبوط تدابير محمد على

كانت النتائج التى تولدت من مشكلتى البحر الأحمر والخليج الفارسى كثيرة الشبه لسوء الحظ فى اتجاهها وآثارها بالنتائج التى أسفر عنهما تطور الحوادث فى سوريا و ا جاورها من البلاد . فان التسوية التى وصل اليها الفريقان فى صلح قوتاهية لم تكن تسوية بالمعنى المفهوم من هذه اللفظة لانها تركت كلا منهما مغيظا غير راض يتربص الفرص لاحداث تغييرات جديدة . وكان هذا هو المعروف بين الشخصين البارزين فى هذا النضال العنيف . .

فى الاستانة كان السلطان محمود وصارى عسكر خسرو مصممين الأول على استعادة سوريا والثانى على إذلال منافسه القديم .

وفى الناحية الأخرى كان محمد على الذى بسط نفوذه على كثير من البلاد ولكن كان احتفاظه بها فى مقابل شروط مجحفة . كيف لا وقد كان يؤدى الاتاوة التى تتجدد كل عام ويستولى عليها السلطان سنويا .

وكان الباشا يعرف أنه أصبح هرما وأنه لا يرجو أن يفسح له الأجل طويلا فجعل يسائل نفسه عما يكون مصير ممتلكاته ومصير اسرته بعد انتقاله إلى الدار الباقية . ولم يكن يخالجه أى شك فى أن انتقاله من على المسرح السياسى سوف يكون بمثابة إشارة لخصومه لتجديد محالفاتهم القديمة لا لاعادة سوريا وحدها إلى قبضة السلطان ووضعها تحت نفوذه المباشر بل واستعادة القطر

المصرى أيضا . وإذ ذاك يطاردون اسرته انتقاما من مسلك كبيرها ومؤسسها حيال السلطان . كما أن الولايات التى بذل فيها من الجنود مابذل لتحسين الادارة ونشر المعارف والعلوم سوف تقتسم بين باشوات من الطراز القديم فلا يكون لهم هم الا أن يمتصوا دماء الأهالي ويستلبوا ما عندهم من حطام ونشب قبيل افتضاح الأمر واحالتهم إلى الاستيداع . وفى الحق لقد تكهن محمد على بأن أسرته واصلاحاته لن يطول أجلهما بعد وفاته وأن الأمس سوف يصبح منسيا كما أن العمل الذى وقف حياته وجهوده عليه سوف يتلاشى كأن لم يكن . وكلما تقدمت به السنون كلما ازداد يقينا بأن عمله مازال غير ثابت وأنه يخشى عليه من تقلبات الأزمان وتصرفات الحدثان .

ولقد دلت العلاقات بين السلطان وبين الباشا بعد انتهاء الحرب مباشرة إلى أى حد كان صلح قوتاهية صلحا أجوف لا قيمة له فقد كانت هناك مسألة الاتاوة فحتى بعد أن تحدد مقدارها وانتهى البحث فيها ظل السلطان متمسكا بدفع المؤخرات التى رفض محمد على دفعها رفضا باتا . وحدث أنه فى أثناء البحث فى مسألة الزيادة ان انتهز محمد على فرصة زواج احدى اميرات البيت السلطانى فارسل إلى الاستانة مندوبا خاصا متظاهرا برفع تهانى الباشا بينما كانت مهمته الحقيقية ترمى إلى أكثر من ذلك . وذهب المندوب تصحبه حاشية عددها اثنى عشر شخصا وقد زوده محمد على بالتعليمات بان يتظاهر فى الاستانة بكافة مظاهر الابهة التى تليق باحدى الوزراء ، فيوزع ما قيمته مليون قرش بشكل هدايا (١) وكلف المندوب فى الوقت نفسه بأن يبين للسلطان محمود بأنه طالما بقى خسرو فى الديوان فأنه لن ينفك عن تسوئة سلوك الباشا وأن السلطان لو أصدر أمره الكريم بابعاد الصارى عسكر عن ديوانه السامى فان الباشا

---

(١) كامبل فى ٧ ابريل سنة ١٨٣٤ (وزارة الخارجية ٧٨ - ٢٤٠).

لن يكتفى بالمواظبة على أداء الاتاوة فى مواعيدها .. بل يدفع شطرا كبيرا من المؤخرات التى يطالب السلطان بها . وقد كان المظنون ان يجتمع فى الاستانة لهذه المناسبة عدد كبير من كبار خصوم خسرو وبذلك تكون الفرصة سانحة (١) وعلى كل فلم تفشل البعثة فقط فى تحقيق غايتها بل لقد كان وجودها فى الاستانة بمثابة فرصة لتوجيه الاهانات والعبارات الجارحة الى مرسلها محمد على مثال ذلك أنه لم يسمح لرئيسها حبيب افندى أن يضع علماً على قاربه ولا أن تكون له « تندة » ليتقى بها حرارة الشمس كذلك لم يسمح للعمال الذين تولوا عملية التجديف فى القارب بأن يؤدوا مهمتهم بالشكل المألوف عند ما ينقلون شخصا له مركز هام . وقد كانت نتيجة ذلك كله أن كثيرين من ذوى الحيثيات فى الاستانة خشوا الذهاب الى مقره لزيارته علنا ولم يستقبلوه فى منازلهم إلا خفية . بل ان السلطان نفسه تذمر عند ما علم بأن بحارة القارب الذى أقله إلى الاستانة صعدوا الأسكلة ورددوا قولهم « على الطراز الأوربى » اعترافا بكرمه عند ماوزع بينهم هبات تقدر بخمسين الف قرش (٢) .

وأخيرا تم الاتفاق فى خلال سنة ١٨٣٤ على مسألة الأتاوة وذلك بأن يؤدى المبلغ السنوى وتهمل المؤخرات بتاتا . على أن ذلك الترتيب لم يشف عن أى تحسين حقيقى فيما بين السلطان محمود ومحمد على من العلاقات المضطربة الغامضة . فان الأول مثلا لم يدع فرصة تمر إلا وانتهزها لاثارة الاضطرابات والقلاقل فى سوريا ولقد سبق أن أدخل ابراهيم فى هذه الولاية نظام الخدمة العسكرية الاجبارية مع بعض اجراءات لحماية السكان المسيحيين وبذا أثار عوامل السخط بين طبقات الشعب ثم تجمعت العاصفة وانفجر مرجل الثورة فى المنطقة الواقعة حول القدس . وتحرجت الحالة وأصبحت من الخطورة

---

(١) كامبل فى ١٠ مايو سنة ١٨٣٤ (وزارة الخارجية ٢٤٥ - ٧٨)

(٢) كامبل فى ١٥ و١٦ يوليو ١٨٣٤ (وزارة الخارجية ٢٤٦ - ٧٨)

بحيث رأى الباشا بأن يذهب لزيارة سوريا بشخصه . ولم يكن هناك أقل ريب فى أن الثورة انما كانت بايعاز أشخاص معينين كانوا يعملون لحساب الاستانة ويمكن من الحادث الآتى الذى وقع فى نابلس استنتاج الغاية التى كان يبشرون لها . فلقد صعد أحد الأتراك الى مأذنة أحد المساجد وجعل يصيح بأعلى صوته « ألم يعد ثمت وجود للديانة الاسلامية هل تلاشت وعفا أثرها .. ألسنا عثمانيين فليهرع كل من يحب النبى محمد صلى الله عليه وسلم الى السلاح وليصمد لذلك الرجل الذى يسمى ابراهيم باشا والذى لا إيمان له . ذلك المدمن الذى يعاقر الخمر ويأكل لحم الخنزير وكل مايخرجه البحر من القاذورات (يشير بذلك الى أكل ابراهيم باشا الترسة وغيرها من أسماك البحر التى يحرمها الدين الاسلامى) تشبها بالمسيحيين والذى يسكن الأديرة مع القسيس ويصلى معهم مع أنه لايذهب الى المسجد مطلقا » (١) .

وعلى كل فقد اتخذت الاجراءات القاسية لقمع الثورة وقد جىء إلى محمد على بثلاثة من زعماء الثوار فأمر باطاحة رؤوسهم فى الحال (٢) وتم نزع سلاح المناطق الثائرة ونفذ نظام الخدمة العسكرية الاجبارية . وبالجملة فقد قمعت الثورة دون أن تزعزع شيئا من شوكة الباشا .

ولكن الحالة العامة كانت تنذر بالخطر . فان كل فريق كان يرتاب فى نيات الآخر ولا يطمئن اليه ولذا أخذ كل منهما يعد العدة للنضال الحاسم المقبل . وبهذه المناسبة كتب القنصل البريطانى فى حلب « ان كل شىء فى سوريا أصبحت عليه الآن مسحة عسكرية وقد اتخذت كافة الاجراءات لتقوية الجيش وزيادة عدده وعدده ، وقد حصنت حزون جبال طوروس وأصبحت جنود الباشا

---

(١) مذكرات كامبل فى ٣٠ يونيه ١٨٣٤ (وزارة الخارجية ٢٤٥ - ٧٨) وقد حررت الترجمة بالانجليزية .

(١) مذكرات كامبل فى ١٧ يوليه ١٨٣٤ (وزارة الخارجية ٢٤٦ - ٧٨)

متجمعة خلف حدوده الشمالية وليس من شك فى أن الحالة فى الجانب الآخر من الحدود مشابهة للحالة هنا فلقد حشد الأتراك فى قونية ما لا يقل عن ٩٠٠٠ جندى (١) .

أما الشىء الذى استلفت النظر بصفة خاصة فى انجلترا بل وأدى الى الامتعاض والتذمر فهو نظام الخدمة الاجبارية الذى تمكن الباشا بمقتضاه من الاحتفاظ بقواته العسكرية كاملة غير منقوصة بعد أن ازدادت وحداتها . ولم يكن هذا النظام سوى بدعة غير مرغوب فيها فى سوريا فان الباشوات الأقدمين لم يدر بخلدهم شىء من هذا القبيل بل كانت عاداتهم استخدام بعض الجنود الألبانيين أو غيرهم من الجنود الأجنبية المأجورة لأنهم كانوا يستصغرون شأن صفات السوريين العسكريين (٢) .

ولكن محمد على عقد النية على استخدام السوريين فى الأعمال الحربية — وان لن يكن هناك احصاء بعدد السكان يمكن أن يعتمد عليه الانسان كما أنه كان يستحيل عمل مثل هذا الاحصاء . فلم يكن ثمت مندحة عن الالتجاء الى النظام الرومانى لتنفيذ هذا المشروع الذى كان يعتبر فى كل جهة بأنه منحوس فى حد ذاته ولا مفر من أن يؤدى الى زيادة عبء الضرائب . ويلوح أن السوريين كانوا لا يزالون يعللون به أنفسهم من الاعتقادات فى عهد اوجستس فلقد كانوا يعتقدون أن الطريقة الوحيدة التى يمكن بها تنفيذ نظام الخدمة الاجبارية وهو دعوة عدد معين من الأشخاص فى منطقة معينة الى الخدمة العسكرية والقاء القبض عليهم عنوة . ولكن السوريين الذين كانوا يؤثرون ما يلحقهم من اهانات الجنود المأجورين الغير نظاميين على التحاقهم أنفسهم بالجيش لم يتركوا حيلة إلا ولجأوا اليها لاجتناب القبض عليهم فى حلب مثلا

---

(١) ويرى الى كامبل فى ٣ يونيه ١٨٣٥ (وزارة الخارجية ٢٥٧/٧٨)

(٢) مذكرات لادى هيستر ستانهوب الجزء الثانى ص ١١٣

اختفى الأشخاص الذين بلغوا السن القانونى عن الأعين عند ماصدرت الأوامر فى سنة ١٨٣٣ بدعوة ١٠٠٠٠ رجل للالتحاق بالجيش ففر بعضهم الى دور القنصليات ليحتموا بحرمها وجيء بآبائهم لجلدهم بالقرب من النوافذ على أمل إخراج الفارين من مخابئهم وأخيراً كلف مشايخ أقسام المدينة بذكر عدد الرجال الذين يستطيعون جلبهم للالتحاق بالجيش (١) .

وفى سنة ١٨٣٥ تكررت هذه الاجراءات وأشباهها وكانت مصحوبة بنفس المقاومة السلبية . ففى بيروت أحاطت السلطات بالمساجد وألقت القبض على الذكور اللائقين للخدمة العسكرية وفى حلب أغلقت المساجد والدكاكين ووقف دولاب التجارة حتى تعذر الحصول على الخبز واللحم وغيرها من أنواع التغذية مدة يومين كاملين وإذ ذاك أخذ كثير من الناس يفرون الى القرى الواقعة فى سفح جبال طوروس بينما لجأ آخرون الى التزى بزى النساء . وتمكنوا بهذه الطريقة من اجتياز الحدود الى أراضى السلطان ولشد ما كانت خيبة آمالهم عند ماأبصروا أن السلطان محمود كان يحتذى حذو محمد على فى جمع الأنفار وأنه كان ينفذ الخدمة الاجبارية بمنتهى الصرامة والقسوة .

ولقد بولغ فى رواية هذه الحوادث أشد مبالغة أدت إلى أن تعلق عليها الصحف والدوائر السياسية تعليقات ملؤها السخط والاشمئزاز . وقد أصدرت إلى كامبل تعليمات بأن يبلغ محمد على بصفة خصوصية غير رسمية بأنه ان كان يرغب فى التجنيد الاجبارى حقيقة فلا أقل من أن توضع أسماء الأشخاص اللائقين فى جداول منظمة وأن ينفذ المشروع بطريقة نظامية لا أن يخطف الناس من الطريق خطفاً بالقوة العسكرية وبدون تمييز بين اللائق منهم للخدمة وغير اللائق . كما يحدث عند مايراد اقتناص عدد من الحيوانات البرية أو قطيع من المواشى فى الصحراء (٢) على أن هذا الشعور الانسانى ما لبث أن خفف

---

(١) كامبل فى ١٨ فبراير سنة ١٨٣٦ (وزارة الخارجية ٢٨٢ - ٧٨)
(٢) كامبل فى ٨ ديسمبر ١٨٣٧ (وزارة الخارجية ٣١٨ - ٧٨)

لتأييده فى نواح معينة بعض الصوالح الخاصة .

وكان يوجد أحياناً ما يسوغ ذلك العطف والتأييد . مثال ذلك ما حدث فى سنة ١٨٣٥ عند ما قبض الجنود فى بيروت على بعض أشخاص فى خدمة القنصليات ففى هذه المناسبة أوفد محمد على الكولونيل سيف (سليمان باشا) بعمل تحقيق خاص فى الموضوع وطلب الى قناصل الدول العموميين فى الاسكندرية أن يختاروا مندوبا لمرافقة سليمان باشا (١) وأحيانا كنت ترى بالمرستون يقوم ويقعد ويرغى ويزبد عند سماعه أنباء غير حقيقية تفتقر الى اثبات . مثال ذلك أنه علم فى سنة ١٨٣٥ بأن المسيحيين جندوا كأنفار فكتب من فوره الى كامبل يقول « ان لأوربا الحق فى أن ترجو معافاة المسيحيين التابعين للباب العالى والذين يسكنون الأقطار التى عهد بها السلطان فى الوقت الحاضر الى حكم محمد على من ذلك التجنيد الجديد الذى يخيل الى الباشا أنه يستطيع أن يرهق به السكان المسلمين الذين عهد اليه بالمحافظة على صوالحهم والسهر على رخائهم ويسرهم (٢) ولكن كامبل تغافل عن هذا التهكم اللاذع . وراح يؤكد لرئيسه أن مسيحيا واحداً لم يطبق عليه نظام الخدمة الاجبارية فلقد قام أخيرا برحلة طاف فيها أنحاء سوريا فألفى كثيرين من الحجاج وقد وشموا الصلبان على سواعدهم فلما سألهم عن السر فى ذلك أخبروه أن الوشم عادة شائعة لاتنحصر مزيتها فى تمييز المسيحيين من المسلمين بل أنها تحميهم من التجنيد الاجبارى (٣) .

على أنه لو كان للمبادىء الانسانية والعواطف المسيحية دخل فى تذمر الدول العظمى وبخاصة بريطانيا من عملية التجنيد الاجبارى فى سوريا فان الاعتبارات السياسية جعلت للمسألة خطورة مزعجة . ذلك لأن نشوب الحرب

(١) كامبل فى ٥ سبتمبر ١٨٣٥ (وزارة الخارجية ٢٥٧ — ٧٨)
(٢) كامبل فى ٩ مايو ١٨٣٦ (وزارة الخارجية ٢٨١ — ٧٨)
(٣) كامبل فى ١٠ يوليه ١٨٣٦ (وزارة الخارجية ٢٨٢ — ٧٨)

بين السلطان والباشا كان نذير بظهور الروس من جديد على المسرح السياسى وتعزيز نفوذهم فى الاستانة طبقا لنصوص معاهدة انكيار سكيليسى . وإذذاك لا يكون أمام بريطانيا إلا أحد أمرين فاما السكوت على أن يكون لروسيا التفوق فى بوغازى البوسفور والدردنيل أو تلجأ الى الحسام لتهدم ذلك التفوق والقضاء عليه . وبديهى أنه لم يكن من السهل التفضيل بين أحد هذين الأمرين إذن فلابد من منع محمد على من مهاجمة الباب العالى أو اذا لم يمكن منع نشوب الحرب فان بريطانيا تنضم الى روسيا فى تأييد السلطان وشد أزره ولهذا وجهت الى محمد على عبارات اللوم والتقريع فى مرات عديدة .

وفى نهاية سنة ١٨٣٧ اضطر كامبل أن يبين له ان الدول العظمى لن تسمح له بالاحتفاظ بكل هذه التسليحات التى لن تكون لها نتيجة أخرى عدا وقوعه فى اشكال مع السلطان وبذا يتعذر نشر ألوية السلام فى ربوع الشرق(١) .

أما بالمرستون فقد رفع عقيرته وردد عبارات التحذير عالية وطلب الى كامبل بأن يلفت نظر الباشا الى العواقب السيئة التى سوف تكون حتما من نصيبه اذا ما عاد الى الاعتداء على أى قطر من الأقطار التابعة للسلطان . ثم عليك أن تبلغ الباشا بأن نظامه الخاص بالتجنيد الاجبارى وتنفيذه الى مدى واسع مضافا اليه تأهباته العسكرية الايجابية وحشده الجنود فى سوريا . كل هذا خليق بأن يثير الارتياب فى نياته حيال الباب العالى (٢) ولكن محمد على لم يكن له إلا رد واحد على هذه الاعتراضات وكان هذا الرد مفحما يصعب ألا يرضخ له الانسان ذلك أن السلطان محمود كان منهمكا فى اعادة تنظيم جيشه ثم ان الضباط الألمان بما فيهم الجنرال فون ملتكه الشهير قد استأجرهم السلطان لتمرين الجيش وتنظيمه .

ولما كان الباب العالى وقتذاك غير مشغول بحرب خارجية ولا مهدد بثورة

---

(١) كامبل فى ٢٢ ديسمبر ١٨٣٧ (وزارة الخارجية ٣٢١ - ٧٨)
(٢) الى كامبل فى ٦ فبراير ١٨٣٨ (وزارة الخارجية ٣٤٢-٧٨)

داخلية يستعد لقمعها فما معنى هذه الاستعدادات إن لم تكن موجهة ضد مصر فاذا كان الباشا يستعد من ناحيته فاستعداده ذلك انما هو ما تمليه عليه رغبته الصادقة فى الاحتفاظ بالسلام وهى الترجمة الشرقية للعبارة اللاتينية « إن أردت السلام فعليك بالاستعداد للحرب » .

ولم يرق هذا الرد طبعا فى نظر بريطانيا وفرنسا بل اغتاظتا له أشد الغيظ فأصدرتا لقنصليهما العموميين التعليمات اللازمة بالتكلم مع الباشا فى الموضوع بلهجة حازمة شديدة بل ان بالمرستون كتب فى هذا الموضوع مرتين متواليتين فى شهر مارس سنة ١٨٣٨ فقد طلب أول مرة بيانات صريحة عن نيات محمد على (١) أما فى المرة الثانية فقد حذره من عواقب الحرب الخطيرة فقد استطرد فى هذه الرسالة الثانية يقول لكامبل « ولا يفوتك ان تبين للباشا انه ينبغى عليه أن يفهم أن مواهبه وجهوده ـ على عظمتها فى أعين العالم جميعا ـ سوف تجد مجالا واسعا للبروز فى ايجاد نظام محمود للادارة فى الأقطار الخاضعة لحكمه » (٢)

ولكن بالمرستون برغم هذه الألفاظ المعسولة وبرغم هذا السخط الأدبى لم يكن ينظر ولعله لم يكن يستطيع فى مكانه ذلك أن ينظر الى الموقف نظرة عادلة مجردة عن الهوى . فانه كان يطالب الباشا بالتنازل عما لا يمكن التنازل عنه إلا خضوعا للقوة وقد اقترح كامبل اتخاذ خطة أدنى الى العدل عند ما كتب الى رئيسه فى نهاية سنة ١٨٣٧ يقول « ليس يسعنى إلا أن أشعر أن محمد على استطاع أن يكون آمنا على نفسه ضد أى اعتداء من جانب السلطان ثم انه اذا اضطر وقتئذ بتخفيض جيشه وأسطوله الى حد معين ولو حظر عليه الالتجاء الى الخدمة الإجبارية فى أى قطر من الأقطار التابعة له ـ فليس من شك فى أن هذا التعبير الصالح سوف يظهر أثره الحسن عاجلا فى كافة أنحاء البلاد » (٣) وهذا لعمرك هو الحق الذى لاريب فيه . فان الباشا لم يكن يمكن

---

(١) الى كامبل فى ١٦ مارس ١٨٣٨ (زارة الخارجية ٣٤٢ ـ ٧٨)
(٢) الى كامبل فى ٢٩ مارس ١٨٣٨ (وزارة الخارجية ٣٤٢ ـ ٧٨).
(٣) كامبل فى ٢١ ديسمبر ١٨٣٧ (وزارة الخارجية ٣٢١ ـ ٧٨)

أن يزيل مخاوفه ويبدد شكوكه ويغنيه عن الحاجة الى التسليح إلا ضمان من هذا القبيل اللهم الا اذا كان المقصود أن يستعد الباشا لتسليم السلطان أى قطر من الأقطار التابعة له يقع عليه اختيار عاهل الاستانة . ولقد كان من بواعث الأسف أن موقف روسيا جعل تقديم مثل هذا الضمان ضرباً من المستحيلات. ولذا لم يسع بالمرستون إلا أن يردد النظرية الرسمية وهى أن محمد على لم يخرج عن كونه مجرد خادم السلطان ووزيره وأن لهذا الحق كل الحق فى أن تتطلع نفسه لاستعادة أملاكه فى أى وقت شاء وأن مايقوم به الباشا من الاستعدادات الحربية هو فى الواقع عمل غير قانونى ومناف لقواعد الولاء وينطوى على الخيانة.

وغير خاف أن هذه الصفات نفسها كانت هى نفس النظرية التى ترددها الامبراطورية العثمانية ولكن كانت هناك نقطة تنتهى عندها هذه الخرافات القديمة وتصبح لا مفعول لها .

فلقد حدث فى الهند أن حكومة شركة الهند الشرقية قررت أنها فى حل مما عليها حيال امبراطورية المغول من الواجبات بمجرد ما تخلى عن حمايتها وانضم الى قبائل الماهراتا وهم أعداء الشركة المحتملون . ولقد أجمع العقلاء على تسويغ عمل الشركة . وإنما سقنا هذا المثال لنبين أن محمد على لم يكن يختلف موقفه عن موقف شركة الهند الشرقية الشريفة ـ ولعل الخلاف إن وجد يرجع إلى ملابسات السياسة أكثر مما يرجع الى المبادىء السياسية لأن خروج « دارين هيستنجز » على سلطة عاهل المغول « شاه علام » لم يكن من شأنه أن يعرض سلام أوربا للخطر كما كان يعرضها خروج محمد على على السلطان محمود عاهل الإستانة . وكانت النتيجة أن الباشا العظيم مع أنه كان أهلا للعطف بسبب ما كان يبذله من المساعى والجهود لتوطيد دعائم ما بذله من الاصلاحات التى أدخلها وأن ينقذها من عبث الادارة التركية ـ فقد بقيت بعض أسباب قوية تسوغ سياسة بالمرستون برغم الكثير من النظريات غير المقنعة التى استند إليها فى قضيته ضد محمد على . أو بعبارة أخرى أن بالمرستون كان يحسب حساب

الصوالح العالمية الكبرى ويرى مراعاتها أهم بمراحل من تعزيز نفوذ محمد على أو الاحتفاظ باصلاحاته ولا يمكن أن تعدل مزايا هذه الاصلاحات الأخطار التى تنشأ حتما من نشوب حرب أوربية ولقد صرح بالمرستون فى سنة ١٨٣٣ — وكان على حق فيما قاله فى ذلك الحين — ان العناية الكبرى التى جعلتها الحكومة البريطانية نصب عينيها هى المحافظة على السلام . . . اننا لا نميل الى احداث تغييرات كبيرة فى توزيع السلطة السياسية توزيعا نسبيا لأن حدوث هذه التغييرات لا يكون إلا بالحرب أو اذا اقتضت حدوثه جدلا فلا بد حتما أن يؤدى عند اتمام التغيير الى نشوب الحرب (٢) .

ونحسب أن من حق محمد على علينا أن نرجىء الخوض فى طبيعة ادارته وكفايتها الى فصل آخر . ولكن لا يفوتنا أن نذكر هنا أنه مهما كانت قيمة تلك الادارة فقد كان عنصرا رئيسيا فى سياسة بالمرستون أنه كان ينظر الى ادارة محمد على بعين الشك والارتياب . فقد كان من رأى ذلك السياسى الحر (التابع لحزب الأحرار) ان الغايات الصالحة الانسانية المتنورة التى قال الناس أن محمد على وضعها نصب أعينه تتنافى بتاتاً مع قبضه على الناس بالقوة للخدمة فى جيوشه ولم يكن فى استطاعة لورد بالمرستون بصفته من كبار الأعيان أن يوفق بين الحكومة العادلة وبين تجريدها الناس من أملاكهم . هذا الى أن رجال الاقتصاد فى الغرب أجمعوا على استهجان الاحتكارات التجارية التى أوجدها الباشا فى مصر وفى غيرها من البلاد التابعة له .

فهذه الأسباب العامة وغيرها هى التى جعلته لا يميل الى النظر بعين العطف الى مطالب محمد على وآرائه . فكان كلما أشار كامبل الى حماية الباشا لممتلكات الأشخاص يرد عليه بالمرستون بقوله « ما عدا ممتلكات الشعب الذى يحكمه محمد على » وكلما أشار القنصل العام الى حب الباشا للخير يجيبه وزير الخارجية

---

(٢) الى كامبل فى ٢ اكتوبر سنة ١٨٣٣ (وزارة الخارجية ٢٢٦ — ٧٨)

«ليس حب الخير هذا هو ميله للحرب وفتح البلاد واستلاب الناس وسن نظام الخدمة الاجبارية وايجاد الاحتكارات التجارية»(١) فهذه الآراء وان كانت بلا قيمة فى تقدير ماقام به محمد على من جلائل الاعمال تساعد بلا شك على تفسير سياسة بالمرستون فى الأزمة التى كانت ستهب ريحها فى القريب العاجل.

ولم تكن هذه الآراء مجرد نتيجة أفكار عامة أو منشأها المضايقة مما كان يبديه الباشا من نشاط لايدعو الى الارتياح . وكان سير الادارة فى سوريا كما سأبين بعد - أقل توفيقا وأبعد عن النجاح مما كان فى مصر . ولم تتورع الصوائح المغرضة عن المبالغة فى مساوىء الادارة السورية بلهجة لبقة خداعة . وليس من شك فى أن تدهور الادارة التركية واهمال الباشوات يضاف اليهما استمرار انحطاط قوة تركيا العسكرية ثم ماترتب على ذلك من احجام الديوان وتخوفه من معالجة المسائل الخاصة بالشؤون الخارجية - كل هذا قد شجع بعض العناصر فى التمادى والاغراق فى اساءة استعمال الامتيازات التركية . من ذلك أن القناصل زعموا أن لهم الحق فى معافاتهم من كافة الضرائب والرسوم اللهم الا شيئا تافها محددا وأن لهم الحق فى تطبيق هذه المعافاة على كل من يستخدمونه وعلى أى شخص يقولون أنه من رعاياهم .

وقد أثبت «لبارد» أن معظم القناصل فى سلانيك كانوا يعيشون على الايرادات المتحصلة من بيع جوازات السفر أو الحماية للمسيحيين الوطنيين(٢). وقد كانت هذه الفضائح ترتكب فى سوريا بلا رادع . وبهذه المناسبة كتب كامبل «ان القناصل والأعوان اعتادوا أن يحموا عددا لاتحصر له من رعايا الترك المسيحيين وكذلك للتجار بتوصية بعض السماسرة للتراجمة الخ» وكانت

---

(١) تقرير كامبل عن مصر (وزارة الخارجية ٧٨ - ٤٠٨).

(٢) لبارد (ترجمة حياته) الجزء الثانى ص ٤٦ ويلاحظ التوازى بين هذا العمل وبين ماتفعله شركة الهند الشرقية فى البنغال بين ١٧٥٧ و ١٧٦٥.

هذه الحمايات تباع للرعايا المسيحيين وكان بعض هؤلاء من الثروة الضخمة ما يجعله يدفع الأموال الطائلة للقنصل فى سبيل التظلل بحماية تخرجه من طائلة القانون التركى (١) .

بل أن ليدى «هيستر ستانهوب» لغير ما سبب سوى مزاجها الأوتوقراطى أعطت ٧٧ حماية بعضها لأشخاص ذوى ثروة ضخمة وقد أعطيت كافة هذه الحمايات لأشخاص لم يكونوا فى خدمتها يوما بل ولم تكن تدفع لهم مرتبات مطلقا .

ثم ان القناصل اعتادوا أن يصدروا شهادات بأن البضائع الموجودة فى الجمارك التركية تابعة لهم (فهى إذن معفاة من الرسوم ولا يمكن تفتيشها) مع أن الناس كانوا يعرفون جميعا بأن القناصل انما يتسترون على بضائع تابعة لبعض التجار الوطنيين (٢) .

ولقد كان من نتائج قيام حكم محمد على فى سوريا مع ما تضمنه قيام هذا هذا الحكم من ادخال نظام الخدمة الاجبارية أن زاد ثمن الحماية التى يحصل الانسان عليها من القناصل . ولقد عاد الكولونيل سيف الذى أرسله محمد على الى سوريا للتحقيق فى حوادث الاعتداء على دور القنصليات(٣) بتقرير شنيع وقاس وقد أيده فيه مندوب القناصل العموميين الذى ذهب لمرافقته فى مهمته وفى التقرير أن معظم التراجمة الملتحقين بالقنصليات هم جماعة من أغنياء التجار ليس فى استطاعة أحدهم أن يؤدى للقنصل وظيفة الترجمة لأنهم لا يعرفون لغة أخرى غير اللغة العربية . ثم ان الجنود الانكشارية كانت لهم وكالين وانخرطوا فى سلك التجارة هذا الى أن الكتاب العموميين صاروا تجارا

(١) كامبل فى ١٩ يونيه ١٨٣٤ (وزارة الخارجية ٢٤٥ ـ ٧٨)

(٢) كامبل فى ١٩ يونية ١٨٣٤ (وزارة الخارجية ٢٤٥ ـ ٧٨)

(٣) راجع الفصل السابق .

وبعضهم كانت له ثروة ضخمة . وكان الكثيرون من هؤلاء الموظفين (بالاسم فقط) لا يضطلعون بواجباتهم إما لأن مرتبهم أسمى من أن يسمح لهم بذلك وإما لأنهم كانوا عاجزين فعلا عن أداء هذه الواجبات ولكنهم كانوا مع ذلك يدفعون مبلغا طائلا فى مقابل الوظائف التى يشغلونها وبخاصة لأن الحماية المعطاة لهم من القناصل لم تكن قاصرة على أولئك الموظفين وحدهم بل كان مفعولها نافذا على أسرات هؤلاء الموظفين وخدمهم أيضا (١) .

وقد قدم كامبل نفسه أدلة معينـــة وصلت الى علمه تثبت سوء استعمال الامتيازات . فلقد رأى فى بيروت فى سنة ١٨٣٦ أن القنصل البريطانى كان يحمى شحنة من القمح تبين فيما بعد أن أحد اليونانيين أرسلها الى آخر ولما أشار القناصل العموميين فى الاسكندرية بناء على شكاوى محمد على المشروعة بتحديد(٢) هذه الحمايات الرباحة فى نفس الوقت الذى كان يبشر بأن تدر من الربح أضعاف أضعاف ما كانت تدره فى الماضى تألم القناصل غاية الألم لسخر القدر هذا . فلقد كان من رأيهم أن أيام سوء الادارة التركية منذ كان فى استطاعة أى شخص من رعايا تركيا المسيحيين أن يحصل (لأى اعتبار من الاعتبارات) على الجنسية الروسية أو الفرنسية أو البريطانية - أعود بالربح وأضمن للمكسب من نظام الاصلاحات البعيد عن المكسب الذى جلبه لهم محمد على من مصر فلم يكن عجيبا أن نرى فى تقاريرهم صورة لاحساساتهم المحزنة وأيديهم الخالية من الذهب .

وكثيرا ما رأى كامبل نفسه مضطرا الى الاشارة الى ولع بعض أولئك القناصل ورغبتهم الشديدة فى انتهاز كل تافه من الأمور يحتمل أن تغضب حكومة جلالة الملك على نائب السلطان . كما أنهم كانوا يتحادثون من آن لآخر عن امتيازات لم يكن لها وجود فى يوم من الأيام (٣) فلقد طلبوا أن التراجمة

---

(١) كامبل فى ٢٢ نوفمبر ١٨٣٥ (وزارة الخارجية ٢٥٨ — ٧٨)
(٢) « « ١٩ يوليه ١٨٣٧ « « ٣٢٠ — ٧٨)
(٣) « « ٣ ديسمبر ١٨٣٦ « « ٢٨٤ — ٧٨)

الانجليز ومعظمهم من سكان شرقى البحر المتوسط مما لم يكن لهم سوى حظ بسيط من التعلم فضلا عن صفة النسب ـ يستقبلون بنفس مظاهر الاكرام كما يستقبل التراجمة الفرنسيين وقد كانوا من الأوربيين المثقفين الذين يعملون فى وظائفهم باسم مليك بلادهم وهم مرشحون مع الزمن للترقية فى السلك القنصلى(١) . لا بل أن أحدهم ذهب إلى حد تقديم عريضة مزورة وبأسماء مصطنعة ضد ولاة الأمور المصريين دافع فيها عن مساوىء لاسبيل للدفاع عنها (٢) .

وإلى جانب ذلك كله لم تمز على القناصل الوسائط الملائمة التى يتصلون عن طريقها بالسفارة البريطانية فى الاستانة فقد كان الترجمان الثانى بشارد وود صهر المستر مور القنصل البريطانى فى بيروت . ويمكن الحكم على مزاجه بالحادث الآتى ، فبينما كان كامبل يجوب أنحاء سوريا فى سنة ١٨٣٦ التقى بهذا الرجل وسمعه يقص عليه حكاية تشمئز منها النفوس عن فظائع ابراهيم فى قمع ثورة كانت قد نشبت حديثا وبخاصة إحراقه ما لا يقل عن ثلاثين قرية لم يبق لها أثر ، فسأله كامبل عن أسماء تلك القرى فارتج الأمر على مور ولم يحر جوابا فهل رأى القنصل هذه القرى المحروقة . . كلا بل سمع بها فحسب . وقد أصاب كامبل عند ماطلب الى القنصل مور أن يتثبت من صحة الرواية ومع أن مور لم يستطع التثبت منها فان صهره وود أبلغها الى السفير بونسيبى فى الاستانة باعتبارها حقيقة لاريب فيها (٣) .

وليس من شك فى أن هذه التقارير الواردة من القناصل كانت على اتفاق مع حالة بالمرستون العقلية وهى التى أصبحت مشتتة من جراء ما وصفناه لك فى الفصل السابق عن تضارب السياسة ثم انقلبت الى ثورة غضب بما كان يهدد سلام أوربا من الخطر الكائن فيما بين السلطان ومحمد على من علاقات

---

(١) كامبل فى ٢٢ سبتمبر ١٨٣٧ (وزارة الخارجية ٣٢٠ — ٧٨)
(٢) « « ٥ اكتوبر ١٩٣٧ « « ٣٢٠ — ٧٨)
(٣) « « « ٣١ يوليه ١٨٣٦ « « ٢٨٣ — ٧٨)

متوترة . لهذا كان نظره الى الموقف الأوربى وارتيابه فى حقيقة اصلاحات محمد على يدفعانه الى تأييد السلطان ضد الباشا .

أما خطة فرنسا فكانت تختلف كل الاختلاف عن موقف انجلترا . ذلك لأن فرنسا لم تكن تنظر الى الامبراطورية العثمانية باعتبارها كعبة مقدسة لا يصح قص شىء من أطرافها بل لم تتردد فى قطع الجزائر منها .

وفى حين من الأحيان لم تحجم فرنسا عن إرسال وزير مفوض الى الاسكندرية رأسا . كما أن لويس فيليب أشار فى محادثة خاصة الى استقلال محمد على بأنه أمر لا بد من تحقيقه مع الزمن (١) .

ولقد سبق لفرنسا أن قدمت إلى محمد على ما يحتاجه من الضباط لجيشه ولأسطوله كما قدمت ماطلبه من الخبراء لمصانع البوارج والترسانات المصرية. ثم لاننسى المموابن الفرنسيين الذين زودوه بالقروض(٢) .

وكانت علاقة قنصل فرنسا العام بالباشا علاقة ودية وثيقة . وإذا كانت فرنسا بحثت كانجلترا فى الاحتفاظ بسلام أوربا فانها كانت تختلف عنها إلى تحقيق ذلك السلام بمنع السلطان من مهاجمة محمد على بدلا من منع محمد على من تقوية نفسه ضد مولاه التركى . ولهذا كانت الخطوة الأولى فى برنامجها أن تصلح السلطان مع الباشا وبهذه المناسبة كتب المسيو ميمو قنصل فرنسا العام يقول « ان من واجب فرنسا ان تؤلف بين شقى الامبراطورية»وفى خلال سنة ١٨٣٦ أرسلت الى السفير الفرنسى فى الاستانة تعليمات يعرض فيها وساطته لمصلحة الفريقين والظاهر أن الفرنسيين كانوا على استعداد لضمان مركز محمد على طول حياته فى مقابل تخفيض جيشه وأسطوله بمقدار النصف وهذا يساعد الباب العالى بدوره على احتذاء حذو الباشا (٣) .

---

(١) كامبل فى ٣١ مايو ١٨٣٣ (وزارة الخارجية ٢٢٧ — ٧٨)

(٢) كامبل فى ١٢ و ١٤ اكتوبر سنة ١٨٣٣ (وزارة الخارجية ٢٢٧—٧٨) وكتاب الاستاذ صبرى « السوريون » ص ٣١١

(٣) كامبل فى ٣٠ اكتوبر ١٨٣٦ (وزارة الخارجية ٢٨٤ — ٧٨) وكتاب الاستاذ صبرى ص ٣١٩ .

وفى اليوم الذى سافر السفير فى مسائه إلى باريس لمباحثة الميوتير ودارت فيه المباحثة بين قنصل فرنسا الجنرال ومحمد على أعلن السفير للرئيس افندى بأن على الباب العالى أن يعدل عن خطته العدائية نحو باشا مصر (١) وكانت نتيجة هذه الاقتراحات وما دار من المباحثات الغامضة بين السلطات الفرنسية والباب العالى ومندوبى محمد على (٢) أن تم الاتفاق على ارسال صارم افندى على رأس بعثة خاصة إلى مصر . ولم يكن هذا العمل الا مثالا آخر على سوء نية الباب العالى المعلومة . ففى الوقت الذى كان يتظاهر فيه بتنفيذ رغبات فرنسا شرع (وربما بالاخلاص نفسه) فى أن يكتب لوزيره فى لندن بانه يعمل على ترضية السفير الفرنسى بدون كشف نوايانا . وأن بريطانيا هى الدولة الوحيدة التى يمكن أن تعتمد تركيا عليها (٣)

وعندما وصل صارم إلى الاسكندرية تبين لمحمد على أنه إنما جاء لتملقه ومعرفة طوايا نفسه . وبعد يومين من خروجه من الكورنتينا التى فرضها الخوف من انتشار الطاعون على كل وارد من الاستانة استقبل محمد على المستر كامبل وانتقل بهما الحديث إلى ماتتناقله الالسن عن نوبات الجنون التى تصيب القيصر نقولا ثم استرسل الباشا فقال « لست اعتقد أنه هو الملك الوحيد الذى يصاب بهذه النوبات فان مليكى لايلوح عليه أنه سليم فى عقله » فقد أرسل مندوبا للاتفاق على التعاون بين القاهرة والاستانة دون أن يزوده بالسلطة الكافية لعرض شروط معينة (٤) وفى المناقشات التى دارت بعد ذلك التاريخ اقترح صارم استبقاء مصر وعكا ولكن الباشا أصر على أن يكون العرض شاملا لكافة الممتلكات التى تحت يده (٥) ولذلك باءت البعثة بالفشل التام كما أراد ديوان

---

(١) كتاب الاستاذ صبرى ص ٣٢٠
(٢) كامبل فى ٢٠ ديسمبر سنة ١٨٣٦ (وزارة الخارجية ٢٨٤ — ٧٨)
(٣) كتاب الاستاذ صبرى ص ٣٢٠ — ٣٢١
(٤) كامبل فى ٢٠ يناير سنة ١٨٣٧ (وزارة الخارجية ٣١٩ — ٧٨)
(٥) كامبل فى ٢٠ و ٢٧ يناير سنة ١٨٣٧ (وزارة الخارجية ٣١٩ — ٧٨)

الاستانة ذلك . ولكن العقبات التى تحول دون الوصول إلى تفاهم شامل قد أصبحت الآن أشد وضوحا (١) وهكذا بقى سوء نية الاستانة على حالة لم يغيره شيء .

ولم يخف على أحد الدور الذى لعبته فرنسا فى هذه المحاولة العقيمة فلقد كان السائد فى الافهام أنه لولا تشجيعها لمحمد على وتأييدها اياه لكان اهتمامه باقتراحات بالمرستون أشد وأكثر . وفى الحق أن فرنسا كانت شديدة الحرص على تحذير محمد على مما كانت تعتقد انها سياسة عدائية مطردة من ناحية بريطانيا (٢) ولعل سياسة ميترنخ كانت ترمى إلى اثارة شكوك بريطانيا فى خطط فرنسا لذلك كان مندوبوه يضعون تحت تصرف زملائهم البريطانيين كل ما كانوا يستطيعون اكتشافه أو سرقته أو اختلاقه فى هذا الصدد . فمثلا لم يكتف دى لوران قنصل النمسا الجنرال بان يبلغ كامبل فحوى رسائله إلى وزارة الخارجية بل أبلغه كذلك الوقائع التى « حملها » من القنصلية الفرنسية وقد اطلع كامبل مثلا على خطاب بعث به الكولونيل سيف إلى ميمو وعليه توقيع ميمو وملاحظاته على الهامش وقد كتبت بخطه (٣) على أن سياسة فرنسا لم يكن يعرقلها خداع الأتراك وحده أو مشاغبة الأجانب ممن الفوا الصيد فى الماء العكر . كلا بل أن عدم خضوع مندوبيها للنظام المركزى — كما أظهر ذلك مندوبوها فى الشرق فى أكثر من مرة — جعل أمثال سفيرها « روسان » فى الاستانة أو « سبستيانى » سفيرها فى لندن يتمسكان بآراء تتنافى كلية مع آراء حكومة باريس (٤) .

---

(١) كامبل فى ١١ ابريل سنة ١٨٣٧ (وزارة الخارجية ٣١٩ — ٧٨)

(٢) مثال ذلك التعليمات الصادرة الى (كوشيليه بصفته قنصلا جنرالا فى ١٢ سبتمبر سنة ١٨٣٧ وكذلك كتاب الاستاذ صبرى ص ٣٢٥

(٣) كامبل فى ٩ اكتوبر سنة ١٨٣٧ والمرفقات (وزارة الخارجية ٣٢٠ — ٧٨)

(٤) مثال ذلك مذكرة بالمرستون فى ١٩ يولية سنة ١٨٣٨ (وزارة الخارجية ٤٩ — ٩٦)

وأخيرا لما تبين لمحمد علي في سنة ١٨٣٨ أنه لم يفد شيئا من نوايا فرنسا المنبعثة عن الاخلاص عول على أن يدفع الأمور حتى تؤدى إلى النقطة الحاسمة . وقد خيل للسفارة البريطانية في الاستانة أن قرار محمد على هذا كان بايعاز روسيا . ولقد رسخت هذه العقيدة في نفس السفارة المذكورة واستقرت عدة سنوات وهناك ما يحمل على الظن بان الذى أوجد هذه الفكرة وساعد على رسوخها هم جماعة القنصل (١) الذين من أصل « ليفانتى » ممن أغاظهم حكم محمد على . أما كامبل فلم يصدق تلك الفكرة بل هزأ بها وبين أن صحة هذه الحكاية مشكوك فيها ولا يمكن التوفيق بينها وبين استدعاء قنصل روسيا الجنرال قبل اتمام سلسلة دسائسه ولا بين قلة الزيارات التى يقوم بها خلف ذلك القنصل لمحمد على (٢) وكانت معلومات كامبل فى هذه المسألة كما فى غيرها من المسائل الخاصة بمصر أصدق واستنتاجاته أدق من معلومات واستنتاجات سفيرنا الهوائى المتصرف (٣) .

أما الذى ساق الباشا فى الظاهر إلى أن يخطو الخطوة الثابتة فلم يكن إيعاز السياسة الروسية الخداعة ولا تأثير من رجال السياسة فى سان بطرسبرج كلا بل الذى حفزه اليها ما كان يبديه نحوه التجار البريطانيون والفرنسيون من الميول الطيبة الصادرة من نفوس مخلصة . ولقد سبق أن بينت للقارىء مبلغ أسفهم لأن محمد على لم يسمح له بأن يضيف بغداد إلى أملاكه . ولقد كان يمكن تعليل هذه الميول بأنها رغبات تنم عن الجهل من رجال يتاجرون فى ظل نظام قائم على الرشوة وعدم الكفاية ولكن رغباتهم هذه لم يكن يشاركهم فيها تجار بغداد الأوربيون وحدهم بل شاركهم إياها تجار القاهرة والاسكندرية

(١) قارن ماكتبه وود الى بونسيبى فى ١٣ ديسمبر سنة ١٨٣٥ (وزارة الخارجية ١٠٧ـ ١٩٥)

(٢) كامبل فى ٢١ مارس سنة ١٨٣٨ (وزارة الخارجية ٣٤٢ ـ ٧٨)

(٣) انى اعتقد أن المراسلات التى دارت مع القنصلية الروسية والتى يجرى طبعها الان ستؤيد هذا الرأى .

بل كانت هذه رغبة شركائهم ومراسليهم فى لندن وباريس ومرسيليا نعم كان الباشا مولعا باتباع نظام الاحتكارات ولكن لا ينبغى أن ننسى أن العدالة المطلقة والنظام لم يستتبا فى جهة من جهات شرق البحر المتوسط كاستتبابهما فى الجهات التى كان يحكمها محمد على . وبالجملة فان حكومته كانت الحكومة الوحيدة التى كان يمكن المساومة معها بشىء من الإطمئنان ولقد كان التجار الفرنسيون والبريطانيون ـ بقطع النظر عن الاختلاف بين حكومتهم ـ على اتفاق فى تمنيهم بأن يظل حكم محمد على قائما إلى ما شاء الله . فمثلا (واجهورن) مندوب القفل بالترانسيت عن طريق السويس قد أكد للباشا على ما يظهر بأن بريطانيا سوف تعترف باستقلاله (١) كذلك فأمر التجار الانجليز أن يغادروا القاهرة والاسكندرية عند انسحاب قنصل بريطانيا الجنرال وعند ما شرعت الجنود البريطانية فى مهاجمة ابراهيم باشا فى سوريا . ولما خمدت القلاقل فى سنة ١٨٤٢ تشكلت فى لندن لجنة مخصوصة للتوصية على صنع مدالية ذهبية كتذكار للحماية التى (قدمها الباشا بنبل) إلى الانجليز المقيمين فى مصر (٢) هذا فى حين أن قنصلنا الجنرال كان يشعر بكثير من الحيرة عند ما طلب اليه أن يقدم إلى الباشا خطابا موجها اليه من الغرفة التجارية فى بنغال يتضمن عبارات الاغتباط بالمثل الحسن الذى ضربه للأمم المسيحية وكان له خير وقع فى النفوس (٣)

فينبغى فى نظرى ـ التماس العذر لمحمد على إذا اعتقد خطأ ان اتجاه الرأى

---

(١) كامبل فى ١٦ ابريل ١٨٣٨ والمرفقات (وزارة الخارجية ٣٤٢ ـ ٧٨) وكذلك الفقرة التى اشير بحذفها فى الرسالة السرية الى كامبل فى ٩ يونيه ١٨٣٨ (وزارة الخارجية ٣٤٣ ـ ٧٨)

(٢) كتاب هوسكنز ص ٢٩٠

(٣) من (بارنت) فى ٣٠ سبتمبر سنة ١٨٤١ (وزارة الخارجية ٤٥١ ـ ٧٨)

العام فى مسألة من المسائل لا يمكن الا أن يترك أثره فى موقف الحكومة الشعبية

من أجل هذا رأى محمد على أن يطالع قنصل بريطانيا العام وزميله الفرنسى فى ٢٥ مايو سنة ١٨٣٨ ثم من بعدهما قنصلى النمسا وروسيا بتصريح رسمى أبلغهم فيه أن رأيه استقر على أن يعلن نفسه مستقلا عن السلطان . وقد ذكر سببين لتسويغ خطته هذه . السبب الأول مراعاة مصالح أسرته والسبب الثانى صيانة الاصلاحات التى أدخلها . ولقد روى كامبل عن محمد على أنه قال « انه » لا يسعه أن يوافق على أن تضيع تلك الغاية السامية التى وضعها نصب عينيه أو أن تعود إلى الباب العالى بعد انتقاله إلى الدار الأخرى كافة ما أنشأه من التأسيسات النافعة ذات الا كلاف الضخمة كالترسانة والأسطول والسفن التجارية ومصانعه المزودة بالماكينات الأوربية والعمال سواء الأوربيين أو المصريين الذين أنفق عليهم ما أنفق فى سبيل تعليمهم فى أوربا . ثم أن المدارس العديدة النافعة والمعاهد الأدبية التى أسسها على النظام الأوربى البحت وما فتحه فى سوريا من مناجم الفحم والحديد ولا ما انشأه من الطرق والترع فى مصر وأنه سوف يتألم عند ما يحس أن كافة ما قام به من ضروب الاصلاح كان كله لحساب الباب العالى الذى سوف يترك تلك الاصلاحات تلعب بها يد الخراب والتلف هذا بينما أن أسرته وأولاده وأحفاده قد يكونون عرضة للحاجة والعوز وبل وقد يتخطفهم النطع واحد بعد واحد .

على أن اقتراح محمد على هذا كان نصيبه الاعتراض الشديد من جانب فرنسا وبريطانيا ولقد صدرت التعليمات إلى القنصل كوشيليه أن يبلغ الباشا « بان دولتى انجلترا وفرنسا اعتزمتا الالتجاء إلى القوة إذا ما اقتضى الحال ذلك لحمل الباشا على البقاء داخل حدوده كتابع لسيده السلطان » أما كامبل الذى قدم كثيرا من النصائح الأدبية فقد طلب اليه أن يعرف الباشا بقلق الوزارة البريطانية وهو قلق مصحوب بالرجاء بأن يعمل الباشا على الوصول إلى قرار

أحكم من القرار الذى صمم عليه . ولكن كان لا يزال هناك أمل بأن تنفض الأزمة دون أن تؤدى إلى انفجار وقد خشى وقتئذ أن يظهر الأسطول التركى أمام الشواطىء المصرية لأن محمد على أعلن للملأ أن الأسطول المذكور لو جاء فعلا إلى المياه المصرية لما تردد الباشا فى الكر عليه وابادته بنفسه وإذ ذاك بادر بالمرستون إلى اقتراح أن يطوف الاسطول التركى تصحبه العمارة البحرية الانجليزية المرابطة فى البحر المتوسط بجهات البحر المذكور وأن يذهبا حيثما شاءا

وقد رمى بهذا الرأى إلى تهدئة خاطر فرنسا والباشا من ناحية وأن يبين لها أن الأسطول التركى لم يترك موانئه إلا للتمرين والتعليم فقط بينما كان غرضه الحقيقى أن يظهر للملأ مابين تركيا وبريطانيا من صلات ودية وثيقة العرى(١)

وتسلم الباشا فى الوقت نفسه الردود الباعثة على اليأس والقنوط مع كثير من رباطة الجأش وضبط النفس ولم يزد على قوله أنه لايستطيع الرجوع فيما اعتزمه بل يؤمل أن تقف منه الدول العظمى موقف أقرب الى العدالة والانصاف (٢) . ويغلب على الظن أن آماله وقتئذ تزلزلت فى إمكان وصوله إلى تفاهم مع الباب العالى يسد عليه طريق الأسباب الفنية التى من أجلها تقاوم الدول اقتراحاته . ولم يكن هناك أى شك فى أن للمال فى الاستانة قوة وسلطانا على النفوس أكثر مما له فى أى عاصمة أوربية أخرى . وكان الباشا قد أراد جس النبض أولا فسأل « ميديم » قنصل روسيا الجنرال كما سأل كامبل عن موقف حكومتيهما فيما لو تمكن من اقناع الباب العالى بالاعتراف به كحاكم مستقل أو أن يكون وراثيا فى أسرته .

ولكن جواب القنصلين لم يكن باعثا على الأمل(٣) أما الفرنسيون فكان

---

(١) الى بونسيني فى ٢٥ يولية ١٨٣٨ (وزارة الخارجية ٣٢٩ — ٧٨)

(٢) كامبل فى ١١ اغسطس ١٨٣٨ (وزارة الخارجية ٣٤٣ — ٧٨)

(٣) رد ميديم فى ٢٠ مارس وأول ابريل ١٨٣٨ ورد كامبل فى ٩ يوليه ١٨٣٨ (وزاره الخارجية ٣٤٣ - ٧٨)

ردهم أشد عطفا من زملائهم . فلقد كانوا فى مستهل العام التالى مايزالون منهمكين فى محاولة حمل الباشا على الكف عن الأعمال العدائية وذلك بتعليله بالوصول الى اتفاق مع السلطان يضمن مركز سلالته فى المستقبل (١) ولكن هذا الاقتراح لم يكن بالمرستون ميالا الى قبوله ما لم يوافق الباشا على التنازل عن الجزء الأكبر من سوريا (٢) .

فلما اطمأن السلطان محمود إلى موقف الدول العظمى خياله وقوى أمله فى حمايتها له فيما لو دارت عليه الدوائر استقر رأيه على اشعال نار الحرب التى كان يعد عدتها من زمن طويل . ويغلب على الظن أن مندوبى روسيا لعبوا الدور الأكبر فى أعمال التحريض على أمل أن تدور دائرة الحرب على الأتراك فيلجأوا إلى طلب المساعدة من روسيا وإرسال نجدة من جيوشها إلى الاستانة (٣) وفى شهر فبراير نمى إلى علم بونسيبى أن السلطان محمود قد اعتزم إعلان الحرب فى الربيع (٤) فلقد رددت الألسن أنه أرسل أمرا إلى مجلس وزرائه قال فيه أن الصار عسكر حافظ باشا قد صرح بأن جيشه فى حالة تضمن له التغلب على جيش محمد على وأن قبطان باشا أعلن بأن الأسطول التركى فى وسعه سحق الأسطول المصرى وأنه ينتظر بناء على ذلك أن يبدى مجلس الوزراء ما يلزم من الشجاعة والحزم فى اداء الواجب (٥) . ولقد ظل حافظ باشا يلح ومعه ضباطه الألمان ليبدأ الزحف ضد جيش ابراهيم باشا فى سوريا (٦) وفى شهر ابريل عبر الأتراك نهر الفرات أمام « بير » وانقضى شهران دون أن يحدث

---

(١) جرانفيل فى ١٥ فبراير ١٨٣٩ (وزارة الخارجية ٥٨ — ٢٧)

(٢) كتاب بالمرستون الى بوفيل ٢٨ يونيه ١٨٣٩ (وزارة الخارجية ٢٧٨ — ٢٧)

(٣) بونسيبى فى ٢٧ يناير سنة ١٨٣٩ (وزارة الخارجية ٣٥٤ — ٧٨)

(٤) « « ١٤ فبراير « « (« « « — «)

(٥) « « ٧ مارس « « (« « « — «)

(٦) « « ١٩ مارس « « (« « ٣٥٥ — «)

ما يستحق الذكر . وهنا طلبت روسيا من فورها أن ينسحب جيش ابراهيم إلى دمشق ووعدت عند موافقة ابراهيم أن تحمل السلطان على الانسحاب من الحدود السورية (١) فاجاب الباشا بان ابراهيم سوف ينسحب بمجرد عودة الأتراك إلى ماوراء الفرات وأنه إذا ضمنت أربع من الدول العظمى الايهاجمه الباب العالى وأن تؤيد رغبته فى أن يكون الحكم وراثيا فى أسرته فانه يسحب بعض جنوده من سوريا نهائيا (٢) وهنا أرسلت فرنسا إلى السلطان محمود رسالة طلبت فيها منه اجتناب الأعمال العدائية وأعلنت أنه ان لم يرتد حافظ باشا إلى ما وراء الفرات فانه يعتبر الفريق المعتدى (٣) وطلبت من محمد على فى الوقت نفسه أن ينسحب أيضا (٤) ولم ينتصف شهر يونية بعد أن يئس الباشا من طول الانتظار للحصول على حل مرض بينما كان القائد التركى يحاول اثارة الفتن فيما وراء جيش ابراهيم حتى أعلن أنه لم يعد يسعه الصبر على اطلاق الحرية لولده (٥) .

وفى باكورة صباح ٢٤ يونية أى بعد الفجر بساعتين بدأ ابراهيم بمهاجمة معسكر حافظ باشا فى نصيبين .

ولقد أسهب الضباط الألمان فى ذكر الأسباب التى كان ينبغى بمقتضاها أن يكسب الأتراك هذه الملحمة التى كانت أشبه باندحار تام منه بمعركة (٦) لأن ابراهيم استولى على كافة مدافع خصمه وخيامه وأوراقه أى أن الجيش التركى ذاب ذوبان الجليد تحت أشعة الشمس .

---

(١) كامبل فى ٧ مايو سنة ١٨٣٩ (وزارة الخارجية ٣٨٣ — ٧٨)

(٢) » » » » » (» » — »)

(٣) بونسيبى فى ١٦ يونية سنة ١٨٣٩ (وزارة الخارجية ٣٥٦ — ٧٨)

(٤) كامبل فى ١٦ يونية سنة ١٨٣٩ (وزارة الخارجية ٣٧٤ — ٧٨)

(٥) كامبل فى ١٤ يونية سنة ١٨٣٩ (زارة الخارجية ٣٧٤ — ٧٨)

(٦) بونسيبى فى ٨ بوليه سنة ١٨٣٩ (وزارة الخارجية ٣٥٦ — ٧٨)

على أن الفوز الباهر قد اكتمل بنبأين آخرين يبعثان على السرور ففى أول يوليه وردت الأنباء بانتقال السلطان محمود إلى الدار الأخرى (١).

فلقد زادت همومه بما أصابه من خيبة أمل مقرونة بالقلق. وكان رئيس قسم الملابس قد لاحظ قبل ذلك باشهر تهدل ثياب مولاه فاوعز إلى الترزى بأن يضيقها قليلا حتى لا تلوح فضفاضه على هيكل سيده الذابل (٢) وقد ظل السلطان يرقب ما يجرى من التأهبات لمهاجمة محمد على بكثير من اللهفة المتواصلة حتى لقد قيل أنه كان يخفف من قلقه بتناول المشروبات الروحية المحرمة. فلقد حولته كراهيته العنيدة إلى عدو خطير. لذلك كله كان من حق باشا مصر أن يغتبط بوفاة خصمه ولقد خلفه على أريكة السلطنة أبنه الأكبر عبد المجيد وهو فتى فى السادسة عشر من عمره وقد نشأ فى الحريم وكان له أصدقاء اخصاء ثلاثة وهم خصيان أسودان وقزم (٣) وبديهى أن عناء محمود وان لم يلطف من حدته الا بعض طفرات من الذكاء الا أن مجلس شورى الامبراطورية لا بد أن يصيبه الوهن والضعف ما لم يجد ارشادا من الخارج.

وبينما كان الناس لا حديث لهم إلا فوز ابراهيم الباهر ووفاة السلطان محمود إذا بالأسطول التركى قد ظهر فى مياه الاسكندرية لا ليطلق قنابله عليها بل ليعلن انضمامه إلى محمد على. ولقد تبادر الى أذهان الكثيرين من الناس أن هذا الانضمام كان نتيجة رشوة ولكن هناك أسباباً تكفى بنفسها لتعليل سلوك القومندان قبطان باشا. فلقد صدرت الأوامر إلى احمد مشير قومندان الأسطول بالذهاب الى شاطىء سوريا لمعاونة حافظ باشا فى مساعيه لإيقاد نار الفتن ضد محمد على وقد زود لتحقيق هذه الغاية بنحو ٦٠٠٠ من البحارة (٤).

---

(١) بوفيل فى ١١ يوليه سنة ١٨٣٩ (وزارة الخارجية ٢٨١ — ٧) وقد ذكر أن الوفاة حدثت فى ٢٩ يونيه ولكنها ظلت مكتومة ٣٦ ساعة

(٢) ماكارثى وكارانيودوري — مرض محمود الثانى ... ص ٢٠

(٣) بوفيل فى ١٠ يوليه سنة ١٨٣٩ (وزارة الخارجية ٢٨١ — ٧).

(٤) كامبل فى ١١ يوليه سنة ١٨٣٩ (وزارة الخارجية ٣٧٤-٧٨).

ولكنه ما كاد يعبر الدردنيل حتى تلقى أوامر جديدة بالذهاب الى رودس فأثار هذا العمل هواجسه وأنه علم من الكابتن الذى جاءه بالأوامر المذكورة أن النية باتت معقودة على تجريده من القيادة عند وصوله الى رودس واستدعاء الاسطول الى الاستانة . فجمع ضباطه وأعلن فيهم أنه مقتنع تمام الاقتناع أن خسرو باشا يعتزم تسليم الأسطول التركى لروسيا وأنه فى هذه الحالة يؤثر الانضمام الى محمد على فأقروا هذا الرأى بالاجماع (١) وكان قبطان باشا من ألد أعداء خسرو ولما لم يكن هناك ريب فى أن وفاة السلطان محمود ستعزز مركز خسرو وتضاعف نفوذه فقد كان طبيعيا أن يذهب احمد مشير الى الاسكندرية ويقترح على ضباطه الانضمام إلى محمد على عسى أن يؤدى تعاونهم جميعا الى القضاء على خسرو عدوهم المشترك . فالشىء الذى كان يحتمل أن يعتبر فى أية دولة أوربية بمثابة عمل ينطوى على الخيانة كان فى السياسة التركية يعتبر دليل الفطنة المقرونة باصالة الرأى وبعد النظر .

وبهذه المناسبة كتب كامبل يقول « ولا أعرف شخصاً تركيا ... ولم يصدر فى كافة أعماله من غير مصلحته الشخصية أو كان مدفوعا بغاية أخرى عدا شهوة الحكم ورغبته فى القضاء على خصمه الشخصى »(٢) .

ولقد كان من نتائج تسليم الأسطول أن أصبحت لمحمد على الكلمة العليا وأن يفعل كما يشاء . وكيف لا ولم يكن ثمت ما يحول دون زحف ابراهيم على البوسفور بطريق البر بينما احتشد الأسطول التركى والمصرى أمام الاستانة . ولم يخامر بونسيني أى شك فى أن قلاع الدردنيل سوف لا تصمد لمقاومة الأسطولين بالهمة المطلوبة رأن الأمر سيؤدى الى تشكيل حكومة جديدة فى العاصمة التركية يكون لأصدقاء محمد على الرأى الأعلى فى كيفية إدارتها (٣) .

---

(١) كامبل فى ١٧ يولية ١٨٣٩ (وزارة الخارجية ٣٧٥ ـ ٧٨ وكذلك بونسيق فى ٨ يوليه ١٨٣٩ (وزارة الخارجية ٣٥٦ - ٧٨)

(٢) كامبل الى بونسيني فى ١٦ يوليه ١٨٣٩ (وزارة الخارجية ٣٧٨ ـ ٧٨)

(٣) بونسيني فى ٢٢ يوليه ١٨٣٩ (وزارة الخارجية ٣٥٧ - ٧٨)

ولكن الباشا مع مافطر عليه من حب الاعتدال لم يشأ الذهاب إلى هذا الحد البعيد . فما كاد يسمع بوفاة السلطان محمود حتى أصدر أوامر إلى ابنه ابراهيم بوقف رحى القتال . وفى اليوم التالى لوصول احمدمشير الى الاسكندرية أرسل خسرو مندوبا خاصا إلى محمد على يحمل خطاباً رسميا بارتقاء السلطان عبد المجيد الأريكة السلطانية وكانت لهجة الخطاب ودية . وصفح السلطان الجديد عن سلوك الباشا نحو أبيه الراحل ووعد بأن يغدق عليه النعم وأن يوليه ملك مصر وملحقاتها على أن يكون ذلك ميراثا بين أفراد أسرته وأخيراً ناشد الباشا أن يساعد على ترقية الامبراطورية وزيادة رخائها ويسرها (١) .

على أن هذه الشروط الاجمالية لم يكن يحتمل أن يقنع بها محمد على أو تجعله راضيا عنها ولكنه كان واثقا بأن فى استطاعته الآن تحقيق ما كان يطمح إليه وهو جعل حكم البلاد الخاضعة له وراثيا فى ذريته ومن ثم أخذ يصرح أمام الملأ بعزمه على الذهاب الى الاستانة لاعلان ولائه الشخصى للسلطان الفتى ولكن الوزراء العثمانيين . كما كتب بونسينى « رجال أخساء حقراء » فان خسرو الذى يجرى النفاق فى عروقه ولا يعرف معنى الشرف والأمانة أرسل إلى مصر سلسلة خطابات أخرى عدا الخطاب الودى الذى أرسله إلى الباشا . فقد كتب إلى أربعة من كبار ضباط الاسطول يأمرهم بالقبض على قبطان باشا وإحضاره إلى الاستانة .

وإذ ذاك تقبل محمد على هذا التحدى من فوره وكتب إلى خسرو يأمره باعتزال منصبه بعد أن أصبح من المستحيل الوثوق به من كبار رجال الدولة ولا من الأمة بصفة عامة (٢) وزاد على ذلك إن أرسل منشورا إلى كافة باشوات الامبراطورية ناشدهم فيه المساعدة للتخلص من هذا الصدر

---

(١) كامبل فى ١١ يوليو ١٨٣٩ « وزارة الخارجية ٣٧٤ — ٨٧ » وكذلك بونسينى فى ٢ يولية ١٨٣٩ « وزارة الخارجية ٣٥٦ — ٧٨ »

٢ — بونسينى فى ٨ يوليه ١٨٣٩ — وزارة الخارجية ٣٥٦ — ٧٨

الأعظم الخسيس الذى لم ينتفع بسلوكه لا العرش ولا الأمة بل كان سبب كل ما نزل بالدولة من الرزايا والمصائب مدة سنوات طويلة (١) .

واستولى الهلع على قلوب الناس فى الاستانة وتولاهم الجزع ورأى خسرو أن المخرج الوحيد لنجاته من الخطر المنتظر هو النزول على إرادة الباشا وتلبية مطالبه بجعل حكم البلاد التى فى قبضته وراثيا فى ذريته .

وما كاد أن يتم وضع هـذا القرار حتى كان وزير النمسا المفوض قد تلق من ميترنخ تعليمات من شأنها أن تغير الموقف ظهرا لقلب . فلقد كان الموقف فى نظر وزير النمسا كما كان فى نظر صولت فى باريس أو بالمرستون فى لنـدن ينذر باحتمال تدخل الروسيا بمقتضى معاهدة أونكيار سيكيليس ولذا صدرت التعليمات لممثل النمسا بأن يخاطب ممثل فرنسا وبروسيا وروسيا وبريطانيا العظمى للاشتراك معه فى تقديم مذكرة إلى الباب العالى يصارحونه فيها بأن الاتفاق بين الدول الخمس العظمى أضحى مضمونا وأن الباب العالى يحسن صنعا إذا لم يبت فى أمر من الأمور بدون استشارة الدول العظمى وقد امضيت المذكرة فى نفس اليوم الذى وصلت فيه التعليمات وسلمت الى خسرو فى باكورة اليوم التالى (٢) وكان من شأن هذه المذكرة أن تشجع خسرو على نقض القرار الذى كان قد استقر عليه رأيه . وفى يوم ٦ اغسطس أرسلت إلى محمد على مذكرة السفراء بناء على طلبهم فوجم لقراءتها وكانت ملامحه يبدو عليها القلق الناشىء على هذا التغير الجديد الفجائى . وكان بونسينى شديد الاغتباط بهذا التطور فلقد كان مصابا بنوع من حمى كراهة روسيا ولذلك كنت تراه يشتم رائحة الدسائس الروسية فى كل ما يجد من الأمور . فلقد كان شديد الاعتقاد بأن مصر لا تخدم الا مصالح روسيا . وقد انتقلت منه هذه العدوى إلى بالمرستون . وقد حدث فى أوائل سنة ١٨٣٦ أن محمد على ارتأى تخفيض

---

(١) مرفقات فى رسالة من بونسينى فى ٦ اغسطس سنة ١٨٣٩ (وزارة الخارجيـة ٣٥٧ ـ ٧٨)

(٢) بونسينى فى ٢٩ يوليو سنة ١٨٣٩ (وزارة الخارجية ٣٥٧ ـ ٧٨)

الرسوم التجارية المستحقة على البضائع الروسية ولكنه لم يكن ميالا إلى معاملة البضائع الانجليزية بالمثل وقد اعتبر عمله هذا مؤيدا لما كانت تتناوله الألسن بأن هناك تفاهما وثيقا بين الباشا وبين الحكومة الروسية وأنه يتضمن من الأمور أكثر مما اعترف به أحد الفريقين الى الوقت الحاضر وقد أصبح ما يفعله الباشا من الآن فصاعدا يعتبر خطأ بأنه بايعاز روسيا . ولقد قيل أن هناك معاهدة بينه وبين روسيا وفارس .

وأن روسيا كانت تؤيد وجهة نظره وأن حزبا جديدا قد تألف لاسقاط خسرو بمساعدة روسيا وعبثا حاول كامبل أن يبين سخف هذا الزعم مستعينا بكل ما كان يخطر له من الخواطر والنظريات .

ومن المدهش أن سفيرنا الحاد الشم لم يحس شيئا يدعو إلى الاستغراب فى مبادرة السفير الروسي إلى توقيع المذكرة المشتركة مادامت الغاية المزعومة التي يرمى إليها هى المحافظة على الحالة الخطيرة القديمة ليتمكن من تحقيق المآرب الروسية .

كان أول مااستقر عليه الرأى هو غل يد الباشا عن العمل بينما كانت أوربا منهمكة في بحث الحالة من جميع نواحيها . وقد اتفق رأى فرنسا وانجلترا فى هذه المسألة حتى أن القنصل الفرنسى حذر محمد على بأن العمارتين الفرنسية والانجليزية قد تستخدمان سويا فى تنفيذ اجراءات الضغط ولقد كتب بالمرستون إلى كامبل يقول « وينبغى أن يفهم الباشا جيد الفهم بأنه ليس فى مركز — لا من الوجهة الجغرافية ولا من السياسية بل ولا من حيث الاعتبارات الحربية أو البحرية — يمكن أن يستطيع معه أن يتحدى بلا حساب أو عقاب حكومات أوربا عامة والدول البحرية خاصة .

ولقد كان مما استرعى الانظار حقا أن قررت وزارة الخارجية استدعاء الكولونيل كامبل فى تلك الظروف . وكان قد ظل فى منصبه فى مصر منذ

سنة ١٨٣٣ فأتيح له فى خلال وجرده فى القاهرة أن يشهد سياسة الباشا عن كثب وتطوراتها فى الداخل والخارج هذا إلى أنه زار كافة أنحاء القطر المصرى كما زار سوريا وكريت . وفى الحق أن كامبل لم يكن أحد المعجبين بالباشا إعجاباً أعمى بل بالعكس لقد انتقد سياسته فى مناسبات مختلفة وانتقدها بشدة . ولكن أخلاقه المرضية تضاف إليها لهجته الجذابة فى المخاطبة ومايتبعه وجوده من الهيبة هذا إلى إصالة رأيه وحكمه على الأمور حكما صحيحا ـ كل هذه المزايا والصفات أكسبته حظوة ونفوذا كبيرا لدى محمد على الذى أنزله منزلة الصديق الحميم . ولكن كامل قد غفل عن مصلحته لأنه حاول صد التيار السياسى فى الوقت الذى كان يشتد فيه ضد الباشا . خذ مثلا على ذلك أنه سعى لتخليص بونسبنى من الأوهام والخزعبلات التى كانت تشغل فكره عن علاقة روسيا بمحمد على . كما أنه عمل على أن يبين لولاة الأمور بصراحة سابقة لأوانها أن اليهود والمسيحيين سوف يصيبهم المكروه فيما لو أعيدوا إلى حكم السلطان مباشرة (١) ولم ينس له رؤساؤه اجترائه على القول بأن الامبراطورية العثمانية يمكن أن يعود إليها سابق تقدمها ويسرها فيما لو أبعد خسرو عن منصبه ودعى محمد على إلى التعاون فى عملية الاصلاح (٢) وكان مما لا يمكن أن تطيقه النفس فى عين الرؤساء الرسميين أن يلح كامبل بصفته الرجل الذى خبر شعب مصر وشعب سوريا وشهد بعينه مبلغ ما عمل من الأعمال النافعة الصالحة باختلاف رأيه عن الرأى الرسمى السائد وقتذاك بأن اصلاحات محمد على لم تكن إلا اصلاحات جوفاء عارية . وكم كان استغراب أولئك الرؤساء لأن كامبل لم تستولى عليه الدهشة عند سماعه بطلب محمد على أيضا على ابعاد خسرو عن كرسى الحكم وهى دهشة تشبه ما كان يصيبه لو أن لورد أوكانت طلب فى ساعة غضب ابعاد لورد بالمرستون من وزارة

---

(١) كامبل فى ٧ أغسطس ١٨٣٩ (وزارة الخارجية ٣٧٢ ـ ٧٨)

(٢) كامبل الى بونسبنى فى ١٦ أغسطس ١٨٣٩ (وزارة الخارجية ٣٧٥ ـ ٧٨)

الخارجية (١) وفى شهر سبتمبر أبلغ بايجاز أن بالمرستون ينوى أن يشير باستدعائه (٢) وهو أمر كان موضع تفكير الوزير منذ عام (٣) وكأنما أراد القدر الساخر أن لا ينقل إلى مالطة أثناء احتلال الجنرال كين لمدينة كابول إلا بالباخرة التى وضعها الباشا تحت إشارة الكولونيل كامبل (٤).

وفى شهر ديسمبر سنة ١٨٣٩ هبط القاهرة الكولونيل هودجز الذى عين خلفا للكولونيل كامبل (٥). وقد دلت الحوادث على أنه رجل حاد المزاج محب للشغب والنزاع. وكانت باكورة أعماله فى منصبه الجديد المشاجرة مع مندوب مصلحة الطرود فى الاسكندرية لأنه فرض عليه رسوما بريدية طبقا للتعليمات الصادرة من مدير مصلحة البريد (٦) ثم راح يضع ثقته فى شخص وكيل قنصل معين كان من شأن الروايات التى يذيعها أن تثير ثائرة القنصل الجنرال ووزير الخارجية أيضا.

وكانت أخلاقه كفيلة بأن تجعله موضع سخط القناصل جميعا وقد رأى رؤساؤه قبيل إعادة فتح القضية العامة من جديد فى سنة ١٨٤١ أن الحكمة تقضى بارساله إلى حيث يمكن تلطيف مزاجه الحاد فى جو هادىء كجو همبرج (٧) وحسبك دليلا على الاعتراف بما قدمه من الخدمات فى أزمة ١٨٤٠

---

(١) من رسالة الى كامبل فى ١٣ اغسطس ١٨٣٩ (وزارة الخارجية ٣٧٢ – ٧٨) طبعا لم يذكر بالمرستون هذه المقارنة ولكن يؤخذ من نفى عبارته أن هذه المقارنة كانت فى فكره.

(٢) الى كامبل فى ١١ سبتمبر ١٨٣٩ (وزارة الخارجية ٣٧٢ – ٧٨)

(٣) مذكرات بالمرستون فى ٢٦ اكتوبر ١٨٣٨ (وزارة الخارجية ٣٤٤ – ٧٨)

(٤) كامبل فى ١٢ اكتوبر ١٨٣٩ (وزارة الخارجية ٣٧٥ – ٧٨)

(٥) كامبل فى ١٨ ديسمبر ١٨٣٩ (وزارة الخارجية ٣٧٥ – ٧٨)

(٦) هودجز «تقرير القنصل» فى ٢٣ يناير ورسالة الى هودجز فى ٣ يولية ١٨٤٠ (وزارة الخارجية ٤٠٧ – ٧٨)

(٧) الى هودجز فى ١٥ يوليه ١٨٤١ (وزارة الخارجية ٤٥١ – ٧٨)

أنه سمح له بقبول وسام قائد فرقة تركية(١) . .

ولنذكر هنا لا على سبيل الحصر بل على سبيل المثال حادثين تافهين لهما أهميتهما إذ يدلان كيف كانت الأمور بعمله غير مأمونة العواقب ومصحوبة بكثير من التهور وعدم الاعتدال . فلقد ذكر هودجز أن قنصل السويد العام حبذ عمل محمد على فى اعتقال الأسطول التركى وفى الحال بدون انتظار وصول تفاصيل أخرى طلب بالمرستون إلى الحكومة السويدية استدعاءه ولكن هذه الحكومة أصرت على معرفة الأسباب وهنالك كتب بالمرستون إلى هودجز يطلب بعض تفاصيل ومناسبات تخدش سمعة القنصل وتحرجه فى نظر حكومته ولكن هودجز عجز عن تلبية رغبة رئيسه(٢) .

وفى الحادث الثانى سنة ١٨٤٠ ذلك أنه وصلت إلى هودجز فى ٥ مايو رسالة خاصة بمحاكمة بعض اليهود فى دمشق وقد طلب اليه فى الرسالة المذكورة أن يهول بما تركته « هذه الفظائع الوحشية » من آثار العار حول اسم حاكم يفاخر بأنه ممن يعملون على خدمة قضية المدنية(٣) وقد جاء فى رسالة تالية وصف « لشعور السخط العام » الذى عم البلاد الانجليزية من أقصاها (٤) وحسبك هذا دليلا على مبلغ الاستعداد وعدم التردد فى تصديق أسوأ الاشاعات والأقاويل . أما الحادث المشار اليه فيتلخص فى اتهام اليهود بذبح أحد المسيحيين لخلط دمه بالخبز الغير مخمر . وقد كان الاعتقاد بوجود هذه الاجراءات سائدا فى شرق شاطىء البحر المتوسط كما كان سائراً فى أوربا فى العصور الوسطى وقد قبض على المتهمين وحوكموا أمام المحاكم العادية وصدر الحكم عليهم ولكن تبين لسوء الحظ هناك ما يدعو إلى الظن بأن شريف باشا وهو الحاكم الذى

---

(١) الى هودجز فى ١٨ فبراير ١٨٤٠ (وزارة الخارجية ٤٥١ ـ ٧٨)
(٢) هودجز فى ٢٤ يناير ١٨٤٠ (وزارة الخارجية ٤٠٤ ـ ٧٨)
(٣) رسالة الى هودجز فى ٥ مايو ١٨٤٠ (وزارة الخارجية ٤٠٣ ـ ٧٨)
(٤) رسالة الى هودجز فى ٣٠ منه

ـ.نه محمد علي في دمشق قد توخى الاعتدال في تصرفاته ذلك أنه نزل على نصيحة مندوب القنصل الفرنسي .

وأدعى إلى الأسف من هذا أن القنصل البريطاني المستر « درى » لم يخطر له فقط أن البينة قد قامت على المتهمين بما اتبع من الاجراءات أثناء محاكمتهم راح يؤكد أن ما اتخذه شريف باشا من الاجراءات العاجلة قد أنقذ اليهود من مذبحة عامة يذهبون فيها ضحية السلب والنهب .

ولقد كان ما أبداه بالمرستون من القلق العصبي في هذين الحادثين نتيجة ما قام أمامه من المصاعب في سبيل الوصول بالمسألة العامة التي هي مثار النزاع إلى نتيجة مرضية . لأن الأمور قد جرت على خلاف ما كان يهواه فان الصعوبة الرئيسية المنتظرة كانت تدور حول حمل روسيا على التعاون مع الدول الأخرى ومنعها من توطيد مركزها بالانفراد بالعمل ولكن تبين أن هذه الصعوبة بولغ فيها لأن القيصر نقولا لم يكن شديد الميل إلى العمل بنصوص معاهدة أونكيار سكيليس علما منه بأن عودة الروس إلى الاستانة ربما أدى إلى الاشتباك في الحرب مع انجلترا وربما مع فرنسا أيضا هذا إلى أنه قد يؤدي إلى توطيد مركز محمد علي في الشرق الأدنى وهي غاية بعيدة كل البعد عن تفكير القيصر . وفضلا عن ذلك قد بدأ دبيب الخلاف في الرأي يظهر بين بالمرستون « رصول » وزير خارجية فرنسا . فان الأول أعرب عن رغبته في رد سوريا إلى حظيرة السلطان بينما ارتأى الثاني إبقاءها في حيازة الباشا فاذا ما عمد القيصر إذن إلى تأييد سياسة بالمرستون بدلا من الانفراد بالعمل فانه يكون بعمله هذا أدنى إلى تحطيم التعاون بين بريطانيا وفرنسا منه إلى توثيق عراه (١) وهكذا استقر رأيه على إرسال البارون (برينون) في مهمة خاصة إلى لندن في سنة ١٨٣٩ .

---

(١) أقوال (موات) في كتابه تاريخ كمبردج عن السياسة الخارجية البريطانية جزء ثان ص ١٧٢ — ١٧٣

ولكن ما كادت هذه الصعوبة تتلاشى حتى قامت مكانها صعوبة أخرى لأن بالمرستون كان شديد الميل إلى اجتذاب فرنسا إلى رأيه كما اجتذب روسيا إن أمكن ولكن السياسة الفرنسية وقتئذ كما كانت قبل ذلك بعشر سنوات تتخللها المصاعب الجمة فان النظام الملكى الذى كان موجودا فى شهر يوليه كان كالنظام الملكى السابق أضعف من ألا يكترث بتيارات الرأى العام المختلفة وقد كان شعور الفرنسيين بصفة عامة إلى جانب محمد على . ولا يفوتنا أن السياسة كانت وقتئذ كما كان شأنها فى كل حين عرضة للتحول والتقلب بسبب المصالح القارية والاستعمارية المتشابكة فالخوف من السنة الصحف جعل من الصعب على « صول » أن ينسحب من الموقف الذى كان فيه وقد اعتزلت الوزارة التى كان عضوا فيها فى نهاية فبراير سنة ١٨٤٠ بسبب مسألة داخلية بحتة وخلفه فى منصبه البارون تير .

ونهج وزير الخارجية الجديدة منهج سلفه ولكنه كان شديد العداء نحو بريطانيا وكانت باكورة أعماله استئناف المفاوضات المنفردة مع الباب العالى وبين الباشا بواسطة المسيو بونترا سفير فرنسا فى الاستانة أملا منه فى أن يواجه بريطانيا العظمى وروسيا بتسوية لا يسعهما أن يجدا سبيا معقولا لنقضها أو تبديلها (١) ويرجح أن يكون إبعاد خسرو عن وظيفته نتيجة هذه المساعى وإذ ذاك قرر محمد على من فوره إرسال سكرتيره الخاص سامى بك الى الاستانة فى مهمة خاصة وكانت حجته الظاهرة فى هذا التصرف رغبته فى رفع التهانى بمناسبة ميلاد كريمة السلطان وتقديم هدية تذكر بهذه المناسبة وهى إعادة الأسطول التركى (٢) وكان رد انجلترا على هذا العمل انها عقدت مع روسيا والنمسا وبروسيا معاهدة نص فيها على أن تكون مصر ملكا لمحمد على وذريته من بعده وأن يظل حكمه فى جيبولى قائما مدة حياته فقط بشرط أن يقبل هذا العرض

---

(١) رسائل ميديم الى نيسلرود فى أول و١٣ و٢٢ مايو و٤ يونيه ١٨٤٠

(٢) هودجز رقم ٥٠ و٥٣ فى ١٧ يونيه ١٨٤٠ (وزارة الخارجية ٤٠٥ — ٧٨)

فى خلال عشرة أيام من وصول المذكرة اليه . أما إذا أظهر ترددا بطول أمده إلى ٢٠ يوما فان مصر وحدها تكون ملكا له ولذريته وإذا ما رفض نهائيا فان الدول الأربع تبادر إلى محاصرة الشواطىء المصرية فاذا ماحاول الزحف على الاستانة فان الدول المذكورة تتعاون فى الدفاع عنها بناء على طلب السلطان ومن ثم يستأنف العمل بالمادة الرابعة من النظام القديم للامبراطورية العثمانية وهى القاضية باغلاق الدردنيل فى وجه كافة السفن الحربية فى أثناء وجود الامبراطورية فى حالة السلم وقد أمضيت هذه المعاهدة فى ١٥ يوليو سنة ١٨٤٠ وبذا نجح بالمرستون فيما كان يسعى اليه من أرباح معاهدة أونكيار سكيليس فى اتفاق أعم ولكنه أخفق فى الحصول على تعاون فرنسا .

وأثارت هذه الأنباء عاصفة من التذمر والاستياء فى العاصمة الفرنسية وأخذت الصحف الباريسية والوزراء بل وملك فرنسا نفسه يتكلمون كما لو كانت الحرب أصبح وقوعها لامفر منه ولكنهم كانوا يعلمون كما كان بالمرستون يعلم أن الحرب غير واقعة . وبهذه المناسبة كتب بالمرستون إلى هودجز يقول « ان فرنسا لن تستطيع » أى الباشا أن تقدم له أية مساعدة . . ثم أن تعوزها الوسائل لتنفيذ عزيمتها فيما لو أرادت مساعدته .

نعم أن لها ١٥ سفينة فى البحر المتوسط ولكن هذا هو كل اسطولها ثم أن لها جيشا يبلغ عدده ٦٠ ألف يرابط فى الجزاير وهو فى حاجة إلى عدد كبير من جنود الاحتياطى لسد النقص الذى « يسببه المدافعون الجزائريون والحمى » فكيف يسع فرنسا فى هذه الحالة أن تشتبك فى الحرب مع أقوى الدول العسكرية فى القارة الأوربية (١) .

وكان ثانى ما علل به المسيو تير نفسه من الآمال أن يستمر الحوار وتظل المسائل معلقة بحيث لايبت النزاع نهائيا ريثما يأتى الشتاء فتتفرق من الأساطيل

---

(١) الى هودجز فى ١٨ يولية ١٨٤٠ (وزارة الخارجية ٢٠٣ ــ ٧٨)

المحاصرة وتقف حركات الجنود وإذ ذاك يتمكن من تحطيم ذلك الاتفاق الذى عقدته الدول ويثبت نفوذ فرنسا من جديد وإذا جعل هذه الغاية نصب عينيه فقد نصح للباشا بتقوية مركزه والتزام خطة الدفاع وعدم التزحزح قيد شعرة عن موقفه (١) ولقد كانت نصيحته هذه أسوأ نصيحة يمكن تقديمها اذ لا ريب فى أن مواصلة الزحف بغتة على الاستانة ربما كان يؤدى الى حدوث تطور أساسى يتمكن معه الباشا من الحصول على شروط مرضية وأدنى الى تحقيق مآربه اما أن يرفض شروط الحلفاء ثم يكتفى بمجرد المقاومة السلبية فقد كان معناه الهزيمة بعينها وهذا هو أيضا نفس ما حسب بالمرستون حسابه إذ قال « أن فرنسا سوف تنتظر وتتحين الفرصة حتى إذا ما استطاع محمد على مقاومة الحلفاء أمدا طويلا عرضت فرنسا أن تتدخل فى الأمر كوسيط ولكن مهمة الدول الأربع تنحصر فى تضييق الخناق على محمد على بحيث لا تدع لفرنسا فرصة كالتى تعلل بها نفسها (٢) .

ولقد ظل باشا مصر رافعاً رأسه عالياً أزاء ذلك الاتفاق الدولى الخطير الذى كانت عراه يتوثق تدريجيا ضده ولعل الأرجح أنه اعتقد أن من المستحيل أن تتفق فعلا كلمة الدول على خطة معينة للعمل فى مسألة كانت على الدوام سببا فى اختلاف تلك الدول وانقسامها بعضها على بعض أشد انقسام وكان يعتمد على روسيا وفرنسا أن تلغيا عمل انجلترا فيما لو قررت هذه أن تقوم بعمل ما . وعند ما صدرت إلى هودجز التعليمات بأن يستحث ضباط الأسطول العثمانى على أداء واجبهم بالالتفاف حول راية السلطان والخليفة (٣) نهض الباشا واقفا من مقعده وأقسم بأغلظ الايمان ليطلقن الرصاص على أول من

---

(١) تعليمات الى كوشيليه فى ٢٩ يوليه سنة ١٨٤٠ وكذلك كتاب الاستاذ صبرى « السوريون » ص ٥٠١

(٢) الى هودجز وكذلك تعليمات بالمرستون الى هوبهوش فى ٢٧ يوليه ١٨٤٣

(٣) الى هودجز فى ٢٥ فبراير ١٨٤٠ (وزارة الخارجية ٤٠٣ — ٧٨)

تحدثه نفسه بالفرار ومن ثم قرر هودجز أن الأصوب الا ينفذ التعليمات الواردة له (١) وإذ ذاك ـ جندت أورطة جديدة واستدعى الجيش من بلاد العرب وانشيء معسكر قرابة ٣٦ ألف جندى فى دمنهور وهو اختيار حكيم نظرا لتوسط مركز المدينة المذكورة وقد تم هذا كله بنظام وترتيب لم يكن على به هودجز (٢).

ولكن هودجز نفسه بدأ يتأثر بطريقة معيشة ذلك الباشا المسن كما بدأ يدرك مبلغ نشاطه وفرط ذكائه. ولقدخشى انهو تشدد معه أن يدفعه اليأس إلى احداث انفجار عام قد تنشأ عنه اتفاقات دولية جديدة أو تظهر فيه صوالح جديدة أو تسنح منه فرص يمكن أن تستخدم لمصلحته (٣). ولكن العام لم ينتصف حتى كان القلق الذى لا نهاية له قد بدأ يفعل فعله فى صحة الباشا فلقد اثرت فيه نوبات الحمى والقلق (٤) حتى أن القنصل العام الروسى عند ما دخل عليه فى أحد ايام شهر أغسطس الفاه مستلقيا على الديوان فى حالة نوم عميق فاخبره محمد على بأنه لم يذق طعم النوم لعدة ليالى سويا. وبهذه المناسبة كتب القنصل المذكور ان حالة سموه الصحية تضاف اليها الآلام والعذاب التى كان على ما يظهر فريسة لها هذا فضلا عما كان يبذله من الجهود للتغلب على روح السخط والتذمر التى نشأت عن موقفه الحاضر ثم إلى جانب هذا الشعور المتناقض الذى يشعر به الرجل الذى بلغ الحلقة الثانية من العمر ذلك الشعور الذى يعمل على هد القوى التى امتاز بها الباشا. أن هذه العوامل مجتمعة قد جعلت محادثاتنا مؤلمة الى أقصى حد (٥)

---

(١) رسالة هودجز فى ٣١ مارس ١٨٤٠ (وزارة الخارجية ٤٠٤ ـ ٧٨)
(٢) رسالة من هودجز فى ٢١ فبراير ١٨٤٠ (وزارة الخارجية ٤٠٤ ـ ٧٨)
(٣) رسالة هودجز فى ٢٦ يوليه ١٨٤٠ (وزارة الخارجية ٤٠٥ ـ ٧٨)
(٤) رسالة هودجز فى ٥ يوليه ١٨٤٠ ـ وزارة الخارجية ٤٠٥ ـ ٧٨
(٥) ميديم الى نيسلرود فى ١٩ و٣١ أغسطس ١٨٤٠

ولكن الباشا برغم هذه العوامل كلها لم تفلت منه قدرته على القبض على ناصية الحال كما لم تخنه مهارته فى وزن الفرص وتقديرها . فلقد كان مثله كمثل المسوتير إذ أدرك بثاقب فكره أن الحلفاء لم يتوخوا السرعة فى أعمالهم وأن الحصار البحرى متى أعلنوه لن يسفر عن نتيجة حاسمة مباشرة (١) وقد ارتأى له أنه يستطيع أن يعتمد لا على تأييد فرنسا المادى بل على مساعدتها الادبية ثم أنه كان يعتقد اعتقادا جازما بأن شعور الجمهور الانجليزى هو فى صفه أكثر مما هو فى صف الباب العالى. ولذا خيل اليه أنه إذا لم تأت طبق مايشتهى فانه يمكنه أن يضمن على الأقل أن يكون ملك مصر وراثيا فى ذريته . أما لو تصدع التحالف من الناحية الأخرى لسبب من الأسباب فانه قد يحصل على سوريا أيضا (٢) من أجل هذا أبى محمد على عند ماحضر مندوب الاستانة ورفع القناصل العموميون إلى الباشا مطالب الحلفاء أن يصغى الى طنطنة (٣) الكولونيل هودجز وبلاغة عباراته وأصر على المطالبة ببيان كتابى (٤)

ثم مرت الأيام العشرة الأولى بدون رد رسمى من جانب محمد على . ولما أوشكت مدة العشرين يوما أن تنقضى عرض محمد على قبول الحل الثانى ولكنه أبى أن يؤكد موافقته على الحل المذكور باطلاق سراح الاسطول التركى (٥) ثم انقضى الأجل المضروب ولكن القناصل العموميين مازالوا يتباطؤون فى الاسكندرية بالرغم من وصول الأنباء فى يوم ٧ سبتمبر بأن السلطان قد خلع محمد على من كافة المناصب وبالرغم من أن الأوامر قد صدرت من سحب

(١ و٢) تقرير والوسكى كما أورده الاستاذ صبرى فى كتابه السالف الذكر ص٥٠٨

(٣) كقوله مثلا فى رسالته « انه يود أن يبلغ آراء اللورد بالمرستون بعبارة مؤثرة »

(٤) هودجز فى ٢٠ أغسطس ١٨٤٠ — وزارة الخارجية ٤٠٦ - ٧٨

« ٥ » هودجز فى ٣٠ أغسطس ١٨٤٠ — وزارة الخارجية ٤٠٦ — ٧٨

القناصل العموميين (١) وفى الواقع لم يبرح القناصل المذكورون الاسكندرية قبل يوم ٢٣ سبتمبر (٢)

ويرجح أن يكون بين الأسباب التى أخرت سفر القناصل رغبتهم فى أن يرقبوا عن كثب سلوك قنصل فرنسا الجنرال وسبب آخر أنهم كانوا قليلى الثقة بعضهم ببعض مثال ذلك أن إحدى البواخر وصلت من بيروت فى يوم ٧ سبتمبر وما كادت تلق مراسيها فى ثغر الاسكندرية حتى أرسلت ماقيمته ٥ آلاف جنيه من النقود التركية فى قارب ترفرف عليه الراية البريطانية لوضعه على ظهر إحـــدى البواخر الانجليزية التى كانت مرابطة فى الثغر الاسكندرى ولكن قومندان الميناء وضع يده على القارب وعلى النقود لأن القانون التركى يحظر تصدير الذهب . وهنااستولى الغضب على هودجز وتهدد من انزال الراية من على داره وأدرك ممثلا الروسيا والنمسا أن هذا التصرف يحتمل أن يثير نزاعا بين الباشا وبريطانيا العظمى مما تجد معه الثانية الفرصة سانحة للانفراد بالعمل دون الانتظار لتدخل حلفائها . ولهذا تدخلا فى النزاع بقصد تسويته (٣)

ومع أن هذا الحادث كان من أعمال التحريض فانه لم يبلغ حدود الامتهان والازلال الذى تحمله هودجز آخر أيامه فى الاسكندرية . فقد كانت هناك مسألة البريد الهندى أيضا . فقد وصلت إلى هودجز قبل ذلك بأشهر عديدة تعليمات بأن يستفسر من الباشا عما ينوى اتخاذه حيال البريد المذكور فيما لو استعمل الضغط ضده (٤) وفى يوم ١٩ سبتمبر وصل البريد الهندى وهنا وقع هودجز فى حيرة شديدة وقام من فوره قاصدا الديوان راجيا

---

(١) هودجز فى ١٥ سبتمبر ١٨٤٠ — وزارة الخارجية ٤٠٦ ـ ٧٨

(٢) ميديم الى نسلرود فى ١٣و٢٥ سبتمبر ١٨٤٠

(٣) ميديم الى نسلرود فى ١٤ منه

(٤) تعليمات لهودجز فى ١٤ ابريل ١٨٤٠ — وزارة الخارجية ٣٠٤ ـ ٧٨

ألا يعتدى أحد على البريد . فما كان من الباشا إلا أن هز رأسه علامة الايجاب ولكن القنصل العام طلب توكيدا على ذلك فرد عليه الباشا بأنه لا يجيبه إلى طلبه .

وهنا أبدى هودجز استغرابه ودهشته فلم يسع محمد على إلا أن يرد عليه بحدة قائلا « ان الدول التى تزعم أنها متمدينة قد شرعت فى اتخاذ اجراءات قد ترغمنى على أن أحتذى حذوها فيها » .

فلما طلب اليه هودجز أن يوضح مايريده من هذه العبارة استطرد الباشا فقال « ان تصريحات تلك الدول لايمكن الارتكان إليها والثقة بها » .

وهنا قال هودجز انه لا يسعه احتمال تلك الملاحظة اذا كان المقصود بها انجلترا فابتسم الباشا ابتسامة التهكم وقال « فلتأخذ هذه الملاحظة بأنها تعنى انجلترا أو لاتعنيها ولكن ملاحظتى هـــذه ليست إلا صدى ما تتناقله الأفواه فى كل مكان » .

وأخيرا أخبره محمد على أنه يسمح بمرور البريد هذه المرة فقط . ولما عاد هودجز إلى دار القنصلية والغضب مستول على حواسه أبرق إلى لورد بالمرستون وإلى حكومة بمباى بأن البريد لن يسمح بمروره فى المستقبل .

وفى مساء اليوم نفسه بينما كان الحديث دائراً بين هودجز ومدير بريد حكومة جلالة الملك أخبر الثانى الأول « بأن انسانا ضعيفا قد أثار الفزع والرعب الكاذب بلا مسوغ » حول مسألة البريد (١) .

وفى اليوم التالى علم هودجز من قنصل روسيا العام أن محمد على قد أكد لوكيل شركة الهند أنه طالما يبقى على عرش مصر فان البريد سوف يكون فى أمن تام (٢) .

---

(١) هودجز « خاص » فى ٢٢ سبتمبر ١٨٤٠ — وزارة الخارجية ٤٠٦ — ٧٨

(٢) « فى ٢٢ سبتمبر ١٨٤٠ — وزارة الخارجية ٤٠٦ — ٧٨

وهنا ثارت ثائرة القنصل العام وتغلب الغضب على حواسه فأرسل إلى رؤسائه شكوى مرة من مدير البريد ووكيل الشركة قال فيها « أصبحت المسألة منحصرة فيما إذا كان يحق لمحمد على أن يجعل أحد الموظفين الساخطين يمشى مشية الجواد البطىء ليسخر من معتمد جلالة الملكة وأن يقلل من اعتباره ليوجد فى مكانه سلطة انجليزية مجهولة وبالاختصار هل يحق لمحمد على أن يحول معتمد جلالتها إلى كمية سياسية مهملة . ثم استطرد فقال « انه لم يتوقع الا العداء والخذلان من كافة الافراد الانجليز هنا ولكنه كان يؤمل على الأقل أن يلقى شيئا من العطف من جانب الأشخاص الذين يشغلون مناصب عمومية على الأقل (١) » وفى الحق أبدى بالمرستون عطفه عليه إلى حد أنه شكا إلى رئيس لجنة المراقبة ضد وكيل الشركة ولكن الرئيس أخبره بصراحة « ان الشكوى إذا بعثت إلى رئيس الشركة فاسوف يعلم بها البلاط ومن ثم ينكشف أمرها وتصبح معلومة عند الجمهور (٢) » .

أما من ناحية محمد على فانه قد أوفى بعهده فعلى الرغم من سحب القنصل الجنرال وبالرغم مما وقع فى سوريا من أعمال العدوان وما كان ينتظر أن يحدث من القلاقل فى مصر فانه لم يكتف بالسماح بمرور البريد بل وضع اجراءات خاصة لحماية المسافرين عن طريق السويس (٣) . وكثيرا ما كان يقول أن الحرب ليست بينه وبين الشعب الانجليزى بل بينه وبين بالمرستون .

ومع أن محمد على هو الذى ضحك على ذقون خصومه الا أنه قد خرج مخذولا من الميدان لأن القوات التى تجمعت ضده كانت أكثر مما كان يستطيع مكافحته ثم أن القيادة التى كان لها الاشراف على تلك القوات لم يكن يعوزها الحزم والعزم كما أنها لم تكن تعرف التوانى أو التقاعد ، فى يوم ١١ سبتمبر

---

(١) هودجز « خاص » فى ٢٢ سبتمبر ١٨٤٠ (وزارة الخارجية ٤٠٦ — ٧٨)

(٢) هوبهوش إلى بالمرستون فى ١٩ اكتوبر ١٨٤٠ وزارة الخارجية ٤٥١ - ٧٨

(٣) كما جاء فى « الوجيز الخاص بالطريق البرى » بقلم باربرى ص ٢٥٧

نزلت إلى البر السورى بقرب بيروت قوة مركبة من البحارة الانجليز والجنود التركية . وقد حدث هذا بعد أن قضى الأعوان الأتراك الأشهر الطويلة فى حض السوريين على رفع راية العصيان . وكان جيش ابراهيم وقتذاك متفرقا فى انحاء البلاد وفى حالة ضعف شديد فضلا عن حاجته إلى الذخائر والمؤن ولم يحل شهر اكتوبر حتى رفع الدروز راية العصيان . وفى ١٠ اكتوبر التقى الكولونيل نابيير فى جهة بيت عانى بابراهيم على رأس شرذمة من الجند فانزل به الهزيمة واستولى على رايته . ثم سقطت بيروت وفى اليوم الرابع من شهر نوفمبر سلمت عكا بعد ضربها بالقنابل يوما واحدا وهى التى قاومت ابراهيم من قبل مدة ستة أشهر كاملة . وبسقوط عكا انهار حكم مصر فى سوريا . أما فى باريس فان وزارة تيير التى أوشكت أن تجر فرنسا إلى حافة الحرب فقد سقطت قبـــل ذلك بأيام أى فى يوم ٢٩ اكتوبر وفى يوم ١٥ نوفمبر ظهر الكولونيل نابيير فى مياه الاسكندرية على رأس عمارة بحرية قوية وفى اليوم السابع والعشرين من الشهر المذكور عقد مع الباشا اتفاقا بدون أن يكون له سلطة لعقد مثل ذلك الاتفاق وقد وافق الباشا على الجلاء عن سوريا وإعادة الأسطول العثمانى فى مقابل أن يعترف به حاكما على مصر هو وذريته من بعده وفى يوم ٢٩ نوفمبر ارسلت التعليمات لاستدعاء ابراهيم من سوريا .

وما كادت تذاع هذه الأنباء حتى دهش لها رجال السياسة فى الاستانة أيما دهشة . وقد كتب هودجز بهذه المناسبة بلهجة لم يراع فيها منزلته القنصلية فقال « ان مافعله نابيير قد أثار ضجة شديدة بين رجال السلك السياسى هنا » ولقد كان فى مسلكه بعض ماعرف به الملاحون من الخروج على العرف فقد أبلغ الباشا القرار الذى وضعه بالمرستون والوزارة الانجليزية فى اكتوبر مراعاة لشعور فرنسا . ويقضى القرار المذكور بالتوصية على أن يكون عرش مصر وراثيا فى أسرة محمد على فى مقابل مبادرته بسحب جنوده من الأراضى التركية الأخرى وتسليم الأسطول العثمانى .

ولما وصلت صورة الاتفاق الذى وضعه نابيير إلى لندن أقرتها الوزارة البريطانية فى الحال على أن هواجس بونسيني وظنونه مازالت تضع العراقيل فى سبيل التسوية التامة . فلقد حمل البـاب العالى على أن يصدر فرمانا بتاريخ ١٣ فبراير سنة ١٨٤١ يشتمل على عدة تحفظات غير مرغوب فيها (١) ولـكن محمد على بناء على نصيحة نابيير رفض العمل بهذا الفرمان . وألحف بالمرستون وميترنيخ فى طلب تعديل المنحة وقد تم لها ما أرادا وصدر فرمان جديد بتاريخ أول يونية متضمن جعل العرش وراثيا للأرشد فالأرشد(٢)من الذكور من أعقاب محمد على مباشرة . وقد حدد هذا الفرمان الجزية فجعلها ٨٠ألف كيس دراهم وجعل عدد الجيش ١٨ الف جنـدى إلا فى حالة الحرب أو إذا صـدر تصريح خاص بزيادته وقد حظر الفرمان على مصر إنشاء سفن جديدة وهكذا أصبح حاكم مصر وليس فى قدرته أن يهدد سلام أوربا مرة اخرى ولئن قيل أن محمد على قد أخفق فى تحقيق غايته الرئيسية وهى انشاء امبراطورية فانه توصل بلا شك الى تحقيق أشياء هامة فان مصر قد أصبحت بفضله مستقـلة عن الباب العالى فيما عدا الاسم ثم ان ادارتها أصبحت ادارة منفصلة . وقد أصبح هـذا الامتيار مضمونا باتفاق كلمة الدول ومع أن الباشا لم يوفق إلى تحقيق مشروعه الأكبر إلا أنه تمـكن من وضع أسس دولة جديدة .

---

١ — كتاب الاستاذ صبرى ص ٥٣٢ ٢ — طبقا لقانون الوراثة التركى

الفصل السابع

حكم محمد على فى مصر

سبق أن بينا أن من بين الأسباب التى حملت بالمرستون على المعارضة فى امتداد نفوذ محمد على عدم فهمه لحقيقة الاداة الادارية التى وضعها الباشا. وقد كانت الاداة المذكورة على التحقيق هى هدف المعاصرين يكيلون لها المديح بلا حساب أو يسلقونها بألسنة حداد لاتعرف معنى الاعتدال. فكنت إذا سمعت أناسا متحمسين من أمثال واجهورن فلا تسمع عن الأداة الادارية المذكورة إلا أنها أداة صالحة أسفرت عما فيه خير البلاد والعباد.

وأمثال هذا الكاتب لايعترفون طبعا بأن كثيرا من اصلاحات الباشا كانت اصلاحات عرضية لا جوهرية وبالعكس كنت ترى غيرهم من أمثال هولرويد مراسل بالمرستون لا ينظرون إلى المسائل الا بالعين البريطانية البحتة التى ترثى لحالة الفلاحين لأنهم لايعيشون فى مساكن مبنية بالطوب الأحمر ولايأكلون اللحم البقرى (١). ولكن لا بد للحكم بنزاهة على اصلاحات الباشا ومايلحق بها من الآراء الادارية أن يلقى الانسان باله دائما إلى عدة نقط بحيث لايتناساها مطلقا. فاولا كان الباشا يعمل فى بلد شرقى ومعنى هذا أن وظيفة الحكومة ومهمتها كانت صورة مشوهة عن مهمتها فى بلاد الغرب. وقد كان من المتعذر حقا على قوم ألفوا مبدأ « معلهش » ان يقدروا قيمه نظام يضطلع بارشاد كل فرد من أفراد الرعية فى كل ناحية من نواحى الحياة. وبديهى أن تشبيه حالة

---

(١) كامبل فى أول سبتمبر ١٨٣٧ (وزارة الخارجية ٣٢٢ — ٧٨

مصر بحالة حكومة الهند لم يكن له خطر مطاقا لأنه فيما عدا القليلين فى انجلترا من رجال « أنديا هاوس » أو « النادى الشرقى » لم يكن يعرف أحد ما يصنعه مواطنوه فى الهند لهذا لم يكن مدهشا أن الناس لم يفهموا محمد على حق الفهم وأساءوا تأويل أعماله ونواياه وفى الواقع لم يكن يسمع أحد بين حين وآخر عبارات الانتقاد المعقولة المنطوى على العطف الا من أمثال صولت أو كامبل ممن كان لهم المام بحالة البلاد أو من الموظفين الانجلو أنديان الذين قامت أمامهم فى الهند مشاكل كالتى قامت فى وجه محمد على وحوله رعية شرقية تنظر شزرا الى أعماله .

ثم لا ننسى من الناحية الأخرى أن الباشا ورث تركة مثقلة وحكومة عاطلة من كل شىء ويتعذر على الانسان حقا أن يبالغ فى وصف ما كانت عليه الولايات التركية فى بداية القرون التاسع عشر من حالة البؤس والشقاء .

ولقد حدثنا بوركنهاردت وكان فى حديثه صادقا أن واليا نزيها لا يمكن أن يعلل نفسه بالبقاء طويلا فى منصبه لأن الباب العالى لا ينفك عن المطالبة بتقديم الهبات ولا شىء غير الهبات والاعانات وإذ ذاك يرى الباشا ترضية لجشع الباب العالى نفسه مسوقا الى مضايقة رعاياه وإرهاقهم وليس الوالى الذى يسهر على مصالح رعاياه ولا تحدثه نفسه بتقديم شىء عدا الجزية المعتادة أو الذى يدع العدالة تجرى مجراها من أن يبوء بسخط مولاه السلطان ليس لعدله ولكن لأن عدله يحول بينه وبين انتهاب الشعب وتقديم بعض الأسلاب هدية الى ديوان الاستانة وإذا باء بسخط مولاه ولا يرى له مخرجا لانقاذ حياته إلا أحد طريقين إما تسليم رعاياه البائسين فى هدوء وسكينة الى سياط والى مستبد يحل محله واما أن يعلن مولاه بالثورة ويظل ينازع مزاحمة السلطان الى أن يقتنع الباب العالى باستحالة عزله فيظل صابرا على جمر الغضا الى أن تسنح له الفرصة للتخلص من ذلك الوالى العادل (١) ومع أن هذه الأقوال

(١) بوركنهاردت فى كتابه « بلاد النوبة » ص ٣٨

قيلت فى سنة ١٨١٠ فكأنما تكهن قائلها بأنها ستنطبق تماما على حالة محمد على وكان عدم إدراك هذه الحقيقة سببا فى حمل بالمرستون على إساءة الظن بأعمال محمد على والارتياب فى غاياتها .

وإذا ما استثنينا العراق فان مصر كانت أسوأ حالا من كافة الولايات العثمانية فان المماليك كانت سياستهم قائمة على إرهاق البلاد واستلابها ولم يفكروا مطلقا فى حماية الفلاح لا من أسلحة البدو الذين كانوا يهاجمونه ويقضون مضجعه ولا من عسف محصلى الضرائب وسياطهم بل لقد سولت لهم أنفسهم أن يتركوا أراضيه بلقع بعد أن أصبحت الترع مسدودة بسبب ما تجمع فيها من الوحل والطمى حتى أن الدلتا وهى أخصب أراضى العالم قد قل خصبها بنحو الثلث تقريبا . ثم أن غارات البدو فى أقليم الفيوم كانت نتيجتها فرار السكان وترك الأراضى خراباً . ولم يكن أحد يعرف مبلغ ما ينتزع من الفلاح ولا مقدار ما اختلس من الايراد العام فى أثناء طريقه الى خزينة الدولة أما أعيان الفلاحين ـ وكانوا يسمون روزنامجية ـ فقد كانوا معروفين بصلفهم وثرواتهم الطائلة(١). أما العدالة فقد كانت مسألة رشوة لا أكثر ولا أقل . وأما الغنى واكتناز الثروة فقد كان عماده المحسوبية . أما الحياة نفسها فكانت عبارة عن مجرد حظ أعمى .

ذلك كان شأن الحكومة التى ورثها محمد على وألفها ونشأ فى ظلالها فى ولاية ألبانيا . وليس من شك فى أن استتباب الأمر له فى مصر قد صيره حاكما أوتوقراطيا ونحسب أن أحداً لا يدهش لقبوله لتلك التركة أو أنه سلك فى بعض الأحيان نفس المسلك الذى كان لا ينتظر أن يحيد عن أسلافه . ولقد قيل أن الجبرتى ـ صاحب التاريخ المعروف لقى حتفه خنقا وهو عائد من قصر شبرا الى القاهرة فى إحدى ليالى شهر يونية سنة ١٨٢٢ وقد ربطت جثته إلى

---

١ — كما ورد فى كتاب الثورات فى مصر بقلم باتون ج ١ ص ٧٩ .

أقدام إتانه وتهامس الناس بأن الباشا قد ضاق ذرعا بانتقادات الجبرتي اللاذعة (١) كما قيل أن الذى كان يعهد اليه بنقل خطاب سرى كان يجازى بإلقائه فى نهر النيل كضمان على عدم إفشاء السر إذا كان قد عرفه (٢).

ولقد ظل الباشا إلى أواخر أيامه والنزعة الأوتوقراطية متمكنة من نفسه ولم يكن لأعيان الاسكندرية ميل لإرسال أولادهم إلى باريس للتعليم فاستعاضوا عن الأولاد الذين طلبهم محمد على منهم بأبناء البوابين وما شاكلهم من أبناء الطبقات الدنيا. ولما سمع الباشا بما فعله الأعيان قال فى شيء من الغضب الممزوج بالاستغراب « إذا كان هؤلاء الأشخاص يجهلون مزايا التعليم والتجارة فليسوا أهلا إلا لحمل الأثقال على ظهورهم كالشيالين والحمير » ومن ثم أصدر أمرا عاليا بأن يعمل كل إنسان بنفسه كائنا من كانت طبقته فى إزالة تلال الأوساخ والقمامة المحيطة بالمدينة ومن ثم كنت ترى أصحاب الحوانيت والتجار والكتبة العموميون ورجال الدين يحملون على ظهورهم فى أيام معينة سلالا مملوءة طينا وهم غارقون فى لجنة لم يألفوها من العرق (٣).

ولم يكن الباشا الحاكم الشرقى الأوتوقراطى بحكم الميراث فقط بل كان كذلك بحكم البيئة ايضا. فاذا استثنينا العنصر الأوربى الضئيل العديم الحيثية، ويدخل فيه القناصل العموميون وبعض التجار الانجليز والفرنسيون وشرذمة الموظفين الفرنسيين الذين كانوا يعملون فى الادارة المصرية - نقول إذا إذا استثنينا هؤلاء لألفينا الباشا إنما يعيش فى وسط شعب لم يكن يتوقع ولا يرغب فى شيء عدا الادارة الأوتوقراطية. وأنت تعلم أن الحاكم الأوتوقراطى هو دائما بمعزل عن شعبه.

---

(١) الجبرتى ج ١ ص ٩

(٢) الحادثات فى مصر بقلم سينور ج ٢ ص ١١٦

(٣) كما جاء في رسالة لبرى في ٨ يوليه ١٨٤٧ ـ وزارة الخارجية ٧٠٨ ـ ٧٨

على أن محمد على لم يكن تفصله عن شعبه سلطته الغير محدودة فحسب بل كانت تضاف اليها سياسته ونواياه. ولهذا قال مرة للدكتور بورنج الذى هبط مصر لوضع تقرير عن سير الحركة التجارية فى سوريا ومصر مامعناه ، أرجو ألا تحكموا على أعمالى بمقاييس المعارف عندكم بل ينبغى أن بينى وبين ما يخيم حولى من الجهل المطبق . . . . فبينما توجد لديكم طائفة من الأذكياء النابهى الذكر لا أكاد أجد حولى من يفهمنى ويعمل على تنفيذ أوامرى . وكثيرا ما يخدعنى الناس وأنا أعلم أنهم يخدعوننى . ولست أعدو الحقيقة إذا صرحت اننى كنت وحيدا طيلة حياتى أو على الأقل الشطر الأكبر منها (١) ، وكان ما يظهر فى خلال حكم محمد على من أعمال صالحة من صنع الباشا نفسه دائما وبالعكس كانت الأعمال السيئة فى الأغلب من عمل أشخاص اضطر إلى استخدامهم لعدم وجود من يفوقونهم علما وذكاء وقد كانوا من الموظفين الذين لا يتعففون عن ارتكاب الموبقات لاشباع شهواتهم فى الحصول على المال (٢) وإلى هذه الحقيقة أشار الباشا مرة فى حديث له إذ قال ، عند ما هبطت أرض مصر كانت البلاد بربرية وهمجية لأقصى حد وهى لا تزال كذلك ليومنا هذا على اننى برغم ذلك ما زلت أرجو أن تكون أعمالى قد حولتها إلى أحسن مما كانت عليه فلا ينبغى أن تجزع إذا لم تجد فى هذه الاقطار شيئا من المدنية المعروفة فى الأقطار الأوربية (٣)

وليس من ريب فى أن ثلاثين سنة من حكمه قد أحدثت فى البلاد انقلابا سياسيا معدوم النظير ولكن لا يفوتنا ان جيلا واحداً ليس يكفى لترك آثار

---

(١) تقرير بورنج الاوراق البرلمانية ١٨٤٠ الجزء ٢١ ص ١٤٦

(٢) كامبل الى بموبل فى ١ ديسمبر ١٨٣٧ — وزارة الخارجية ٣٢٢ — ٧٨

(٣) هودجز فى ١٨ يونية ١٨٤٠ — وزارة الخارجية ٤٠٥ — ٧٨

دائمة و نتائج ثابتة . فان مجرد عدم توفيق الباشا إلى العثور على العدد الكافى من الأشخاص الذين يعتنقون آراءه ومراميه بالحماسة المنبعثة عن الاخلاص يضاف إلى ذلك شعوره بالهوة السحيقة التى تفصل بين سياسته وسياسة غيره من الرجال ان هذا كله قد ادعى بطبيعة الحال إلى ايجاد عناصر الضعف وعدم الثبات فى أعماله . وقد أدرك بحق أن كل تحسين يتوقف تنفيذه على سعيه وحده وان مالا يتمه هو شخصيا من الأعمال قد يظل كذلك دون أن يفكر أحد فى اتمامه . ومن ثم كان هناك فى بداية الأمر بعض نقص فى التقدير لأعماله ممزوج بجزء غير قليل من الاستعجال الرؤية نتيجة هذه الأعمال فى الحال . وبينما كنت تراه منهمكا فى وضع الاسس الراسخة اذا به يتحول منها إلى التعجيل باقامة أسوار قصر أحلام وهو يقول « أنا أعلم أننى رجل طاعن فى السن فاذا كان هناك ما أرغب انجازه فلا بد من انجازه فوراً » .

ولقد تضافرت مؤثرات على تقويض اصلاحاته وتجريدها من القوة الدافعة الدائمة أو لتوجيه نشاطه فى غير وجهته المرغوبة وبالرغم من هذا كله يتعذر على انسان ما أن يجد حاكما شرقيا نجح نجاح محمد على فى عمل هذه الاصلاحات العظيمة مع أنه لم يكن مسوقا اليها بضغط أجنبى بل عمل ما عمله مدفوعا بحب النظام والعدالة والخير وعلى الرغم من عناد كل من التفوا حوله ان لم نقل مقاومتهم السلبية .

ولم يحدث الباشا تغييراً يذكر فى شكل الحكومة التى ظلت تسير طبقا للقواعد التى أظهر الزمن صلاحيتها وملاءمتها لحاجيات البلاد والتى لم نجرؤ نحن على البدء فى تغييرها فى المهد إلا من الجيل الماضى فان وحدة النظام الادارى كانت القرية وكبيرها شيخ البلد الذى يمثل حاكم البلاد فى كل صفة ومن القرى تركبت الاخطاط ولكل منها حاكم الخط ومن هذه الاخطاط يتركب المركز تحت حكم المأمور وقد جعل عدد المراكز ٦١ مركزا . ومن هذه المراكز

تركبت المديريات السبع ويشرف على كل منها مدير أو حاكم وتشمل دائرة اختصاص المديرين الأربع والعشرين مديرية التى كانت مصر تتركب منها فى عهد المماليك . ولم يكن ثم مندوحة عن وجود هيئة متشعبة الاطراف فى المدن الكبرى . وقد كان هناك القضاة ورجال الشرطة المخصوصون للمحافظة على السكينة العامة والحيلولة دون وقوع الجرائم ومعاقبة فاعليها . وقسم الأهالى أيضا حسب مهنهم أو حرفهم إلى طوائف ونقابات ويشرف على كل منها رئيس النقابة . فى القاهرة مثلا كان هناك مالا يقل عن ٦٤ نقابة من هذا القبيل وكان كل رئيس مسئولا عن سلوك أعضاء نقابته (١) وكانت هذه هى القاعدة التقليدية المألوفة فى الشرق بأسره فى تنظيم أرباب الحرف والصناعات

واضمان سير هذه النقابات سيرا يتمشى مع الأمانة والعدالة لم يكن ندحة عن ابقائها تحت الرقابة الدائمة اليقظة وبخاصة وان اعتقاد الجمهور فى عدم أمانة الهيئات الرسمية كان متأصلا فى نفوسهم وكانت الغاية المقصودة من هذ النظام الاحتفاظ برئيس مستعد للحيلولة دون ظهور مستبدين عديدين . ولم يترك مشايخ القرى الفرصة السانحة لإرهاق اخوانهم الفلاحين (٢) وحذا المديرون ومأمورو المراكز حذو مشايخ القرى فى ارهاق كل من وقعت أيديهم عليه . وليت عدم الامانة كان النقص الوحيد فى أخلاقهم كلا بل كان عدم الامانة مقرونا بالجهل المطبق وقد يحدث أن يكون المتعلم فيها واسع الاطلاع فى كتب الفلسفة الاسلامية ملما بدواوين شعراء العرب والفرس ولكن المدارس وقتئذ كانت تخرج علماء لارجال أعمال . وكان المدير لا يسترشد فى أعماله الا بما تواضعت عليه التجربة وهذه التجربة لم يكشف

---

(١) كما جاء فى تقرير بورنج « الاوراق البرلمانية سنة ١٨٤٠ » جزء ٢١ ص ١١٧

(٢) كما جاء فى كتاب بلاد العرب بقلم « بون كنهاردت » جزء أول ص ١٤٥

فى أغلب الاحايين إلا عن خير الوسائل للسرقة مع استعمال اللباقة والحذر (١) ثم أن الحاجة التى تقضى الاتفاقات القائمة على عدم الامانة بين الموظفين بعضهم وبعض كثيرا ما نجم عنها تغيير هؤلاء الموظفين بغيرهم ومن ثم كنت تجد المصالح يشغلها رؤساء لا يعرفون من أعمالها وشؤونها لا كثيرا ولا قليلا.
وبهذه المناسبة كتب المستر بورنج فى تقريره يقول « لم يكن هناك اهتمام ما بكفاءة الفرد واستعداده للقيام بمهام العمل الذى عهد اليه بانجازه » (٢) ولم تكن لسوء الحظ ندحة من ذلك وقد شهد بهذه المسألة كامبل وهو كما تعلم لم يكن شاهداً متعنتا إذ قال « أن ما يصادفه تجارنا من المسائل المثيرة للغضب مرجعه عدم وجود نظام معين يضاف اليه جهل صغار الموظفين المحليين لسير الأمور اكثر مما يرجع إلى خطأ من جانب محمد على أو ابراهيم باشا وعلة هذا كله عدم وجود أشخاص بالكلية قادرين على السير بمختلف الشؤون فى كافة المصالح المختلفة وبخاصة فى الاماكن والفروع التى تمتد فيها التجارة الاوربية ـ يضاف الى كل هذا ان هناك نقصا طبيعيا ينطوى على الرشوة فى كل شىء تركى بحيث لا بد ان يترك للزمن وحده أن يقضى على المساوىء الموجودة فى الوقت الحاضر التى لا مفر من وجودها والتى نعتقد أنها آخذة فى التناقص يوما فيوما (٣) وفى الواقع لم يكن يمكن ادخال أى اصلاح ثابت ما لم ينشأ جيل جديد اكثر تعليما وأدعى إلى الثقة من أبناء الجيل الحاضر »
وسداً لما أوجده المران والتعليم والأخلاق من النقص لجأ الباشا الى وسائل الضغط والعقاب والتفتيش وأنك إذ تقرأ كتبه الدورية وقد كانت تتضمن وسائل الضغط المذكورة تجد أنها كتب ممتعة لذيذة ومفيدة وإن كانت تثير

---

١ جاء فى كتاب بوكلار مكاد السالف الذكر جزء أول ص ٢٤
٢ تقرير بورنج الاوراق البرلمانية ١٨٤٠ جزء ٢١ ص ١١٧
٣ كامبل ٢٢ ديسمبر ١٨٣٨ وزارة الخارجية ٣٤٣ — ٧٨

الضحك تارة والأسى تارة أخرى لأنها قد تتضمن احيانا وعيدا مخيفا . فمثلا هناك كتاب صادر فى سنة ١٨٢٦ يتضمن شكاية الباشا من أن الموظفين لايعنون العناية الكافية بتحسين الزراعة وقد جاء فى هـذا الكتاب أن الباشا يوشك أن يقوم بنفسه بزيارة الأقاليم وتفتيش أراضيها الزراعيـة وقد أنذر كل موظف يرى أثراً للاهمال فى منطقته بدفنه حياً فى حفرة خاصة (١) . ولكن أمثال هـــذا الوعيد لم يكن يمكن أن ينظر اليه الانسان نظرة جدية ذلك لأنه هدد بعد عام من ذلك التاريخ بمعاقبة المهملين فى الشؤون الزراعية بالعصا أو بالسيف (٢) وفى بعض الكتب الأخرى التى دفع الحقد باركر القنصل العام الى رئيسه بالمرستون بقصد تسليتـه ترى الباشا وقد صب جام غضبه على الموظفين . وإنك لترى أثراً لذلك لمناسبة الاهمال فى دفع الضرائب إذ يقول للموظف المختص « من ذلك يتبين لى أنك غبى مهمل وانه لدليل جديد على انك كالحمار فى غباوته ، فان لم تدفع الأموال فورا ، فكن على يقين بأننى سأقطعك إرباً إرباً » (٣) وكتب مرة إلى أحد الموظفين بمناسبة التباطؤ فى تقديم العدد اللازم من الأنفار للقرعة العسكرية « وأنت أيها الحمار ماذا عساك صانع ... اننى لم أضعك فى هذا المركز إلا لعدم وجود من هو أقدر منك على أن يشغله وقد جعلتك مديرا فهل يكون ذلك أن تهمل فى أداء واجبك هـذا الاهمال وكل هذا الوقت . . فبمجرد استلامك لأمرى هـذا ضع عقلك فى رأسك وارسل بقية الأنفار .. وإن تباطأت فى تنفيذه جعلتك مثلا بين بقيـة مديرى الأقاليم (٤) . وأما حاكم السودان فقد كتب اليه بلهجـة مخففة عند ما أرسل اليه غرارة مملوءة بآذان العصاة كدليل على نشاطه فى كبحهم قال الباشا

---

(١) كتاب دورى فى ١٣ جمادى الثانية ١٢٤١ (محفوظات عابدين)

(٢) « « فى شهر جماد الاول ١٢٤٣ (محفوظات عابدين)

(٣) من رسالة لباركر ١٩ فبراير ١٨٣٣ (وزارة الخارجية ٢٣٢ — ٧٨)

(٤) من رسالة أخرى لباركر فى ٢٣ يناير ١٨٣٣ (وزارة الخارجية ٢٣١ — ٧٨)

« على من يعتلون كراسى الحكم وأصحاب السلطة أن يدركوا أن فتح البلاد لا يكون إلا باقتناع الأهالى بالوسائل السلمية و بتوخى العدل فى تسيير الأمور بقصد اكتساب ثقة الأهالى ، وعلى الحاكم أن يقتدى بالقدوة الصالحة التى ضربها الفرنسيون فى مصر وأن يقلد المسلك الذى سلكه الانجليز بعدهم »(١)

ولكن القارىء يجد فى الكتاب الدورى الصادر فى سنة ١٨٤٣ أقرب مثال للأوامر الادارية . قال الباشا الهرم – وقد أصبح كذلك بعد أن أثقلت عاتقه السنون – يناشد موظفيه بتقديم المساعدة له لأن متاعبه أصبحت فادحة بحيث ينوء بها عاتق شخص واحد . وقد ذكرهم بمركز مصر وخصبة تربتها فقال « ان من حسن الطالع أن ننعم بأرض كأرضنا لا مثيل لها بين أراضى العالم وعندى ان التقاعد عن بذل كل ما يمكن بذله من الجهود فى سبيل مضاعفة يسرها ورخائها لدليل العقوق الذى لا يمكن أن يرضاه قلبى ويستحيل أن أقره فلا محيص لى من أن أناشدكم فى كل حين بأن تسهروا على أداء واجباتكم لكى تصل الى الغاية التى جعلناها نصب أعيننا وحذار من التكاسل والاهمال . . . ان الرجل العاقل لا يباهى بأخلاقه الحميدة بل بما أصابه من النجاح فى ادارة ما عهد إليه من الأمور . فلا يفوتنكم إننى سأواصل السهر على سعادة هذه البلاد ورخائها ولو ضحيت فى هذا السبيل بحياتى وحياة أقاربى . إن كل من حولى يعرفون جيد المعرفة اننى لا يطيب لى ايذاء شخص ما وقد سلخت أربعين ربيعا لم تمتد فيها يدى بمعاقبة أحد عقاباً شديدا . فاذا ما أرغمت يوما على الخروج عن هذه القاعدة فلن يكون الذنب ذنبى بل ذنب غيرى . . . ولم يكن يدور بخلدى فيما مضى أن نصل إلى الحالة التى وصلناها الآن . والآن وقد سمت مطامعى واتجهت الى اتجاها أرقى من اتجاهها الماضى فلأقدمن التضحية مهما جلت وعظمت فى سبيل رخاء بلادى وهى أقصى أمانى حتى ولو جلس على عرشها أحد أقاربى

---

(١) الى قومندان السودان فى ٩ ربيع الاول ١٢٣٦ (محفوظات عابدين)

وأصبح ملكا لسكانها البالغ عددهم ثلاثة ملايين ، (١) .

ولم تنقض ثلاثة شهور على ذلك الكتاب حتى عمل كبار موظفيه على أن يقسموا أمامه على أن يخدموه بأمانة وأن يرفعوا اليد عن كل ما يقع تحت أنظارهم من الحيف او اساءة استعمال السلطة فليس من شك فى ان هذا الكتاب الدورى يشف تماما عن مكنونات قلب الباشا الحقيقية فلقد وجهه إلى الموظفين خاصة ولم يذع محتوياته بين القناصل العموميين ولم يرم به إلى التأثير فى الرأى العام الأوربى وإلى جانب هذا كله كان متلائما تماما مع اللهجة التى كان يستعملها محمد على فى محادثاته الخصوصية مع أصدقائه الأوربيين. ولكنه يعلم جيد العلم أن الاكراه كالعقوبة لامناص منهما . نعم لم يكن بطبيعته ميالا إلى إيصال الأذى أو الشر إلى أحد . وفى الحق أنه امتنع على العموم عن أعمال التأديب . ولكن هذا كان بمثابة ميل عام لم تكن له حيلة فى الانحراف عنه بين آن وآخر. مثال ذلك أن محصل الضرائب فى مديرية الجيزة ذكر كذبا فى سنة ١٨٢٢ أنه لم يستطيع لا تحصيل العوايد العشورية ولا ضريبة المنازل . وقد كان الباشا على حق أن يعتبر هذه المسألة فى منتهى الخطورة وقد ترجح عنده (ويستحيل البت هنا هل كان الترجيح عادلا أم غير عادل) أن المحصل كان كاذبا فى دعواه وأنه مسوق إلى ذلك بطمعه فى الحصول على رشوة . فأصدر أمره الى ابراهيم باشا وكان وقتئذ مدير الجيزة بأن يتفاهم مع الرجل وأن يقنعه ـ إذا استطاع ـ بخطأه فان وفق إلى اقناعه فيها ونعمت والا أطاح رأسه حتى لا تتعرض مصالح الدولة للضياع بسبب مسلكه السيء . ويظهر أن ابراهيم باشا نفذ الحكم بيده . وقد جاء بعد ذلك فى كتاب إلى ابراهيم باشا أن الرجل قد لقى حتفه بسبب عناده لا بفعل الباشا وابنه وأن مركزه لا بد أن يشغله رجل فرنسى أو شقيق

---

(١) كتاب دورى فى ٢ جمادى الثانية ١٢٥٩ (محفوظات عابدين)

القتيل (١) وكلما مرت الأيام وتحسنت الأخلاق العامة قلت عقوبة الاعدام تدريجيا حتى أن المخالفات الكبيرة كان يعاقب فاعلها بالاشغال فى الأعمال العمومية التى تمت فى عهد الباشا . وقد صدر فى سنة ١٨٣٠ أمر بحبس ٢٥ موظفا من موظفى مصر الوسطى مع الأشغال الشاقة لمدة ستة أشهر (٢) وفى سنة ١٨٣٣ انذر الباشا مأمورى المراكز بالعقاب إذا أرغموا موظفى الحكومة بحرث الأرض الواقعة فى دوائر اختصاصاتهم (٣) وفى العام التالى نظرا لان ارهاق الدماء كان عملا مذموما فى نفسه حظر على المديرين ومأمورى المراكز اصدار حكم بالاعدام الا بعد الحصول على اذن خاص من الباشا (٤)

وقد صدر الأمر فى سنة ١٨٣٦ باعدام أحد شيوخ القرى إذ قامت البينة على أنه ضرب بلا مسوغ شخصا ضربا مبرحا أفضى إلى موته (٥)

ولكن الضمان على عدم خروج الموظفين عن حدود وظائفهم لم يكن الا باسداء النصح ولا بانزال العقاب الصارم بل زيارة الاقاليم بين آن وآخر وتقصى أحوالها بدقة وعناية . ولذا لم يقصر الباشا فى زيارتها زيارة منتظمة وكثيراً ما كان يزورها ويتجول فى انحائها باحثا منقبا . وبخاصة عن حالة الحسابات ومسير الادارة بوجه عام بل كان كثيراً ما يتجول بمفرده بدون حراس حتى يتمكن أحقر الناس من الدنو منه ورفع شكواه اليه رأساً ، وقد كان من نتائج زيارة قام بها الى السودان سنة ١٨٣٩ ان أصدر أمره بعزل

---

(١) خطاب الى ابراهيم باشا فى ٥ شعبان و ١٥ منه ١٢٣٧ (محفوظات عابدين)

(٢) كتاب الباشا الى كتخدا بك فى ٥ صفر ١٢٤٦ (محفوظات عابدين)

(٣) كتاب الباشا الى المديرين فى ٩ محرم ١٢٤٩ (محفوظات عابدين)

(٤) كتاب الباشا الى المدير فى ٢٠ ربيع الثانى ١٢٥٠ (محفوظات عابدين)

(٥) كتاب الباشا لمدير طنطا فى ٦ جمادى الثانى ١٢٥٢ « محفوظات عابدين »

طائفة من الموظفين الجهلاء الخربى الذمة (١)

أما الموظفون الأجانب فى الادارة العامة فيلوح أن عددهم كان ضئيلا جداً فمع أنه كان يوجد فى انحاء البلاد عدد من خوارج الفرنسيين والانجليز وغيرهم فانهم كانوا فى الترسانات والجيش (٢) . بينما العدد القليل جدا عمل فى الادارة العامة ولم أعثر على أثر لاستخدام فى الادارة المدنية الا فى الخطاب الذى أشرت اليه سالفاً والذى أرسله الباشا إلى ابراهيم باشا بتعيين محصل فرنسى فى مديرية الجيزة بدلا من المحصل القبطى الذى أعدم

كما أن المناصب الكبيرة لم يكن يشغلها أحد من أهالى البلاد لأن الادارة العليا كانت فى أيدى الأتراك لا فى أيدى المصريين وبهذه المناسبة كتب بورنج يقول « ان أحقر شخص له قليل من الدراية باللغة التركية يعد نفسه فعلا من طبقة أرقى من طبقة الوطنيين أبناء البلاد » (٣) بل أن أحد الخدم المصريين لم يكن يمكن تكليفه بحمل رسالة إلى موظف ذى منصب كبير .

وفى الحق كان الرجل التركى فى مصر فى عهد محمد على يتمتع بشىء من المنزلة السامية التى كان يتمتع بها موظف شركة الهند الشرقية فى الهند . وقد لاحظ الأجانب بشىء من الاستغراب ما كان سائداً بين طبقات الأهالى من الشعور بالاصغار والاذلال فلقد كنت تسمعهم يقولون « لسنا إلا مجرد فلاحين . . » ولم يدر بخلدهم مرة واحدة أن يتشككوا فى حق الأجنبى فى بسط حكمه عليهم . وكانوا عزلا من السلاح كلية وكان خضوعهم واستسلامهم تاما لا يطلبون أكثر من أن يسمح لهم بصب مياه النيل بسلام فوق أراضيهم الخصبة (٤) .

---

(١) كتابه إلى عباس باشا فى ١١ محرم ١٢٥٥ (محفوظات عابدين)

(٢) كامبل فى ١٢ يونيه سنة ١٨٣٧ (وزارة الخارجية ٣١٩-٧٨)

(٣) تقرير بورنج (الاوراق البرلمانية سنة ١٨٤٠) جزء ٢١ ص ٧

(٤) تقرير بورنج (الاوراق البرلمانية سنة ١٨٤٠) جزء ٢١ ص ٧

ولكن الباشا لم تسول له نفسه أن تظل هذه الحال أمداً طويلا لأن ثقته بالأتراك كانت إلى حد ما وقد كان يحس أنهم يعطفون على الاستانة وأن نفوسهم تتوق إلى وسائل الحكم القديمة القائمة على الفساد والرشوة وهى الوسائل التى كان الباشا قد عقد نيته على استئصال شأفتها .

لذلك عمل كلما مكنته الفرصة على أن يستبدل أولئك الموظفين الأتراك بغيرهم من المصريين وكان دورفيني القنصل الفرنسى أول من اقترح عليه هذه الفكرة التى تعتبر وقتئذ جريئة .

وكان الباشا قد أرسل الى المدارس الفرنسية فى سنة ١٨٢٦ ما لا يقل عن ٤٥ شابا من أبناء مشايخ القرى وغيرهم للتعلم على نفقة الحكومة المصرية على أمل أن يصبحوا صالحين فيما بعد للوظائف العمومية (١) .

وتصادف أن الباشا فى أثناء زيارته لأقاليم الدلتا فى سنة ١٨٣٣ أن عرج وبصحبته « الفلقة » على صغار الموظفين الأتراك الذين يعملون فى تحصيل الضرائب فراعه عدم حدبهم على الأهالى الفلاحين وتشددهم معهم فى أخذ الأموال لشؤونهم الخاصة . وهنا أعلن الباشا أن مشايخ القرى الفلاحين ينبغى من الآن فصاعداً أن يرفعوا شكاياتهم إليه رأسا (٢) وكانت إحدى نتائج هذا القرار اجتماع رهط من المشايخ فى الاسكندرية بعد ذلك ببضعة أشهر . ويؤخذ من بيانات سكرتير الباشا للقناصل العموميين أن الباشا أراد انتهاز هذه الفرصة ليلفت أنظار المشايخ إلى ضرورة القيام بواجباتهم على الوجه الأكمل .

وقد ذكر كامبل فى تقرير له نص محادثة ودية دارت مع المشايخ المذكورين وقد أقسموا ليبذلن كل جهد فى سبيل تنفيذ أوامر الباشا حرفيا (٣) على أن ما نشر من البيانات لا يدل على شىء .

---

(١) صولت فى ٤ ابريل سنة ١٨٢٦ — وزارة الخارجية ١٤٧ — ٧٨

(٢) كامبل فى ١٣ يونيه ١٨٣٣ — وزارة الخارجية ٢٢٧ — ٧٨

(٣) تقرير كامبل فى ٢٦ اكتوبر ١٨٣٤ — وزارة الخارجية ٢٢٨ — ٧٨

ويظهر أن محمد على قد أدرك أنه لا يستطيع الاسترسال طويلا فى سياسة استبدال الموظفين الأتراك بالموظفين المصريين . ذلك لأن الموظفين الأتراك كما لاحظ أحد الأجانب متمرنون أكثر من الموظفين المصريين على السرقة بلباقة . يضاف الى ذلك أن الدساسين ومحبى الصيد فى الماء العكر ، وهم الذين يكثر عددهم عادة فى ظل الحكم الفردى ، مهما كان ذلك الحكم نافعا وصالحا كانوا يعملون على استغلال ميول الباشا الصالحة فى قضاء لباناتهم فان مشايخ القرى - كما علم الباشا بعد ذلك - كانوا يحرضون إخوانهم على التلكؤ فى تحصيل الضرائب أملا فى أن يقع اللوم على عاتق الموظفين الأتراك فيطردهم محمد على ويعين مكانهم المشايخ . فصمم الباشا على وضع حد لهذه الحالة فورا وكان من رأيه عدم إضاعة الوقت فى القيام بتحقيقات مملة وغير منتجة لن تؤدى إلا إلى جملة أكاذيب ولذا قرر معاقبة كل شيخ متهم بمثل ذلك المسلك الخطير بدون إضاعة الوقت سدى (١) ويستبعد على ما يظهر أن تكون هذه المسألة قد تنوسيت فى أثناء اجتماع المشايخ فى الاسكندرية وهو الاجتماع الذى أسلفت الاشارة اليه ، ولو أن البيان الذى أعطاه سكرتير الباشا الى الكولونيل كامبل لم يذكر شيئا من هذا فلم يكن ثمت مفر من أن تنتظر سياسة التوسع فى توظيف المصريين لتطورات مشروعات الباشا التعليمية .

أما الأعمال فى مركز الحكومة فى حاضرة القطر فكانت موزعة بين سبع مصالح : الحربية والأسطول والزراعة والمالية والتجارة و(العلاقات الخارجية) والتعليم والبوليس . ومع أن الوزراء الذين كانوا يشغلون هذه المناصب كانوا يعتبرون من طبقة أرفع من طبقة مديرى الأقاليم لم تكن لهم أية سلطة على هؤلاء المديرين لأن الباشا كان يحرص على أن تكون بيده كافة أعنة الحكم كما أنه لم يسمح لهذه المصالح المركزية أن تجرى فى مجراها الطبيعى وتتسع

---

(١) كما جاء فى خطابه الى عباس باشا فى ٢٨ جمادى الاولى سنة ١٢٤٩ (محفوظات عابدين) .

دائرة أعمالها حتى تصبح وزارات كبيرة تـكون أول ما تضعه نصب عينيها أن تبرر وجودها بتعقيد الاجراءات العامة . وقد ألغى ٢٠٠ وظيفة من وظائف الخزانة العامة وكأنه لم يكتف بها بل راح يذكر المراقب بأنه فى وسع كبار التجار الاسكندريين بأربعة من الكتبة فقط أن يراقبوا حركتهم التجارية التى لا يقل إيرادها عن ثلث ايراد الخزانة . وهل تنابى جنون الباشصراف فى ملء الوظائف العمومية بالأقباط . . فان لم يستطع المراقب ادارة شؤون الخزانة بطريقة أحسن من ذلك فلسوف تسند مهمة مراقبة الخزانة لشخص آخر .

ولعل أهم ناحية فى حكم محمد على هى بلا جدال حرصه على تنمية وتوسيع دائرة بحث المسائل العامة فى عمل ما . فلقد أنشأ فى سنة ١٨١٩ مجلسا أو ديوانا قوامه سبعة أشخاص لإدارة وبحث ما يعقد من الصفقات بين الخزينة وبين التجار الأوروبيين (١) وطبق نظام التمحيص الرسمى هـذا على كافة المصالح التابعة للحكومة المركزية وأصبح من المحتم أن تقتل كل مسألة بحثا قبل عرضها على الباشا ثم حدث التوسع فى تطبيق هذا المبدأ فى سـنة ١٨٢٩ فلقد اختير ابراهيم باشا رئيسا لاجتماع خاص مركب من ٤٠٠ شخص منهم كبار الموظفين المدنيين والضباط العسكريين والمديرون وبعض مشايخ البـلاد وتناول بحثهم خير الوسائل لاصلاح الفساد ولتحسين حالة الفلاحين . واستمر هذا المجلس يعقد جلساته فى كل مساء وأقسم أعضاؤه أن يـكتموا كل ما يدور فيـه من المباحثات وفى سنة ١٨٣٢ جرب الباشا مشروعا من هذا القبيل فى سوريا . فقد أنشىء مجلس من الأعيان (٢) وعدهم ٢٢ للنظر فى شؤون الرعية (٣) وفى سنة ١٨٣٤ طالب الى فضيلة شيخ الجامع الأزهر ورئيس نقابة التجار بترشيح عدد لائق من العلماء والتجار للاشتراك فى أعمال المجلس الأعلى وكلف

---

(١) كتاب الى كتخدا بك فى ١٢ شعبان ١٢٣٥ (محفوظات عابدين)

(٢) كتاب باركر الى غوردون فى ٢٢ سبتمبر ١٨٢٩ (وزارة الخارجية ١٨٤–٧٨)

(٣) كما جاء فى منشور ابراهيم باشا فى ١٥ صفر ١٢٤٨ (محفوظات عابدين)

المديرون فى الوقت نفسه بأن يشكلوا فى كل مديرية جمعية من الزراع ومشايخ البلاد وغيرهم لانتخاب شيخين من مشايخ القرى لتمثيل مزارعى المديرية المذكورة فى المجلس الأعلى . أما السائحون وكانت معلوماتهم عنوان الرأى العام الاوربى - فقد أساءوا فهم هذه الأمور وأساءوا تصويرها لمواطنيهم فقد كان هناك من ناحية الشاب دزرائيلى الذى صور الباشا للناس كأنه يقول أنه يود أن تكون له برلمانات عديدة كما كان للغليوم الرابع مع حرصه على أن ينتخب هذه البرلمانات بنفسه وكان يوجد من الناحية الأخرى بعض فلاسفة الراديكاليين ومن إليهم من أنصار سانت سيمونز وكانوا يمثلون الباشا كأنه شخص اعتنق المبادىء الديمقراطية الغربية . فكان الفريق الأول لا يرى فيما يقوم به الباشا من التجارب الا انها مجرد حيل يراد بها التغرير بالرأى العام الاوربى وأما الفريق الثانى فكان يرى أن المقصود بها انشاء حكومة نيابية (١) وليس من شك فى أن أعمال محمد على لم تكن هذا ولا ذاك فان الأعمال العامة البادية الغادية فى الشرق يبت فيها رهط من الموظفين يقال لهم الديوان أو الدربار وعلى رأسهم الباشا نفسه أو من عداه من كبار الموظفين وأمام هذا الرهط المجتمع بصفة علنية يجتمع أرباب الشكاوى والمتفرجون . وقد ذكر بارتل فرير بهذه المناسبة أن معرفة ميول الرأى العام فى أى قطر من الأقطار الغربية مهما كان لها من الأهمية فان أهميتها تزداد كثيرا فى الأقطار الشرقية وذلك لان الحكم الشرقى يحرص كل الحرص على معرفة ما يردده الناس فى الاسواق وفى مناخ القوافل نعم أنه يستطيع الاعتماد على تقارير جواسيسه - والجاسوسية فى الحكومات الاسيوية من أثبت العوامل والأدوات الحكومية - ولكن

---

(١) كما جاء فى كتاب حياة دزرائيلى بقلم مونى بنى دبوكل جزء أول ص ١٧٦-١٧٧ وكتاب مصر ومحمد على بقلم سان جون جزء ثان ص ٤٧٢ وكما ورد فى مذكرة بلقام (الموجودة فى المتحف البريطانى تحت رقم ٢٥٦٦٣ مخطوطات)

إلى جانب الجاسوسية كان يمكن الوقوف على جانب آخر من آراء الناس بالاجتماعات التى كان يعقدها محمد على من آن الى آخر ولقد كان الباشا أحصف من أن يفكر فى نقل التقاليد الغربية بلا تمحيص أو يقلدها تقليداً أعمى. ولكنه كان فى الوقت نفسه من الحصافة بحيث يرى الاضرر من نقل الصالح من التقاليد المذكورة وتحريرها حتى تتلاءم مع العادات المرعية فى البلاد بحيث تعود بالخير والفلاح على حكومته . ولعله كان مدفوعا بعامل آخر . فان رجلا له من القوة وتقدير أهمية التعليم كما كان لمحمد على لا يمكن أن يقال أنه كان يجهل ان الجمعيات التمرينية التى كان يعقدها لم تكن مجرد وسيلة من وسائل الحكم فقط بل كان كذلك احدى وسائل التعليم السياسى . ولو كانت مصر ورثت من ورث مواهب محمد على العظيمة كما ورث ممتلكاته لقدمت أمم الغرب من ضروب الاصلاح السياسى ما يقل فى أهميته عما قدمته اليابان . ولكن عمر فرد واحد وانقضى معظمه فى تأسيس ملك سياسى لا يمكن بمفرده أن يفعل أكثر من وضع الحجر الاساسى العام لمعاهد الاصلاح والترقى تاركا لمن يخلفه تكملة البناء .

وقد كان النجاح المضطرد حليف ادارته المالية ومن ثم خيب ظنون الذين كانوا يرقبون أعماله ويتوقعون خرابه المالى قائلين أن حروبه المتعددة يضاف اليها مشروعاته الداخلية سوف تؤدى الى افلاسه وافلاس خزينة البلاد العامة. ففى سنة ١٨٢٧ مثلا بينما كان عاتقه مثقلا بنفقات الحرب فى المورة وكانت موارده المالية متعبة بسبب هبوط منسوب فيضان النيل عامين متتالين وكان محمد على برغم ذلك منهمكا فى تأسيس المصانع وانشاء رصيف للبحر وترسانة فى الاسكندرية (١) ولم يمض على ذلك سوى سنوات أربع فقط حتى كان يضع أساس مشروعات تزيد فى نفقاتها وضخامتها نحو عشرة اضعاف عن

(١) كما جاء فى كتاب باركر سوريا ومصر جزء ثان ص ٦٠ـ٦١

نفقات المشروعات السابقة (١) وقد نجح فى الابتعاد عن اشراك الدائنين الأوربيين (٢) وقد خيل لبعض الناس فى سنة ١٨٣٧ أن هبوط أسعار القطن ـ وكان محمد على يحتكره ـ سوف يؤثر أشد تأثير فى ميزانيته ومع ذلك فقد تمكن الباشا من دفع ما لجنوده من المرتبات المتأخرة (٣) وفى الواقع كانت إدارته المالية مقرونة بالنجاح حتى أن باركر نفسه كان يعتقد أن الباشا قد عثر على مصباح علاء الدين المذكور فى الأقاصيص.

ولم يكن هناك أثر للسحر فيما كان يعمله محمد على الذى جعل رائده الحكمة واليقظة. ولقد كانت الحسابات العمومية عند ما تسلم محمد على أعنة الحكم بأيدى الكتبة الأقباط الذين جعلوا منها أنموذجا للتعقيد وكانت غايتهم من ذلك التعقيد مزدوجة ذلك بأن يجعلوا خدماتهم ما لا يمكن الاستغناء عنها وثانياً لأن التعقيد يستر أغلاطهم بحيث يتعذر العثور عليها. ولم تكن الحسابات العمومية مركزة فى مصلحة معينة بل كانت الضرائب المختلفة توزع بين المصالح المتشعبة طبقا للطريقة التركية المتبعة (٤) فلم تكن ثمت ميزانية ولا أمل فى وضع ميزانية. ولقد أظهر الباشا والحق يقال ميلا لأن يدرس وينقل عن الغربيين فى هذه المسألة كغيرها من المسائل فكلف باغوص بك الأرمنى وأشد الموظفين اخلاصا بأن يحصل على مشروع لضبط الحسابات كالمعمول بها فى المصالح العمومية فى أوربا (٥).

وأسندت إلى المسيو جرمار الفرنسى مهمة وضع نظام جديد. ولكن ذلك لم يبطل العادة السيئة التى كانت متبعة وهى تخصيص إيراد مناطق معينة

---

(١) كتاب باركر سوريا ومصر جزء ثان ص ٦٠ ــ ٦١

(٢) كما قال كامبل فى تقريره فى ١٢ اكتوبر ١٨٣٣ (وزارة الخارجية ٢٢٨-٧٨)

(٣) من رسالة لكامبل فى ٢٥ مايو و١٣ يوليو ١٨٣٧ (وزارة الخارجية ٣٢٠-٧٨)

(٤) مثال ذلك تخصيص الايراد الميرى المتحصل من دمشق لشؤون الحج

(٥) كتاب الباشا الى بوغوص بك فى ٢٢ ربيع أول ١٢٤٩ (محفوظات عابدين)

لوزراء معينين لسد نفقاتهم بدلا من إرسال الايراد جميعه إلى خزانة مشتركة ولا ريب فى أن سير الأمور فى الأحوال الحاضرة يؤدى الى الفساد وسوء استعمال السلطة لأن لكل وزير خزانته الخاصة أى أن هناك سبعة أبواب مفتوحة (وهى أبواب الوزارات السبع) للغش والتدليس مع أن فتح باب واحد للفساد فى بلاد كهذه هو أكثر من اللازم (١).

وعند ما زار بورنج القطر المصرى فى سنة ١٨٣٨ استطلع الباشا رأيه فى مسألة الحسابات ، وجىء اليه بمختلف الحسابات العامة لالقاء نظرة عليها فأشار بعدة توصيات لاصلاح الحسابات . وكان فى طليعة هذه التوصيات وضع ميزانية فى ابتداء كل سنة لبيان الايرادات والمصروفات ثم ارسال كافة الايرادات الى الخزانة الرئيسية ثم الفصل بين السلطة التى تستلم الايرادات عن السلطة التى تتصرف فى الأموال العامة وتخويل وزير المالية السلطة الكافية لإقرار ما يقترح عليه من المصروفات أو رفضها وأخيرا وضع قاعدة لدفع الحسابات العامة فوراً وموازنتها وفحصها (٢).

وليس فيما بين أيدينا من الأدلة المقتضبة ما يكفى لاعطائنا صورة صحيحة أو صورة كاملة عن تاريخ الباشا من الناحية المالية . ولكن يلوح أنه استطاع فى كل حين أن يخفض مصروفاته عن إيراداته . خذ مثلا على ذلك سنة ١٨٢٠ المتداخلة فى سنة ١٨٢١ (والمعلوم أن السنة القبطية المستعملة فى الحسابات المصرية تنتهى عادة فى ٢٨ سبتمبر) (٣) فقد بلغت الايرادات فى تلك السنة ٢٤٠ الف كيس وبلغت المصروفات ١٩٠ الف كيس وفى سنة ١٨٣٢ المتداخلة فى سنة ١٨٣٣ زادت الايرادات قليلا عن ٥٠٠ الف كيس على حين أن المصروفات لم تبلغ ٤١٥ الف كيس . أما فى سنة ١٨٤٦/١٨٤٧ فقد كانت

---

(١) تقرير كامبل فى ٢٦ فبراير سنة ١٨٣٨ (وزارة الخارجية ٣٤٢ - ٧٨)

(٢) تقرير بورنج « الاوراق البرلمانية سنة ١٨٤٠ ج ٢١ ص ٦٢

(٣) كما ذكر ذلك سورى فى ١٧ مارس ١٨٣٨ (وزارة الخارجية ٧٥٧ - ٧٨)

الايرادات أكثر من ٦٠٠ الف كيس والمصروفات أقل من ٤٦٠ الف كيس وليس من شك فى أن الباشا كانت تصادفه سنون تكثر فيها المصروفات وإذ ذاك يلجأ الى الرصيد المتراكم فيغترف منه ولكن كانت الوفورات أكثر غالبا من العجز .

وقد كانت إيرادات الأطيان أو الميرى كما يسمونها ـ أهم باب من أبواب الإيراد ولكنها قلما وصلت الى ٥٠ ٪ من مجموع الإيرادات بينما كانت نفقات الجيش والأسطول هى أكبر باب من أبواب المصروفات فلقد كانت تبلغ نحو ٥٠ ٪ من مجموع الإيرادات .

وكانت ملكية الأطيان فى مصر فى بداية القرن التاسع عشر هى نفس الحالة المضطربة التى كانت سائدة فى الهند عند مابدأت شركة الهند الشرقية فى إدارة أراضيها فى الهند . فلقد كانت مصر فى نظر المذاهب الاسلامية الأربعة بمثابة بلاد فتحت بحد السيف وخاضعة لسلطة الخليفة وتوكيداً لهذا كان كل إمام مسجد فى أية ناحية من نواحى القطر المصرى يرتقى المنبر فى يوم الجمعة حاملا سيفا خشبيا أو سيفا حقيقيا وهو بذلك يمثل خليفة المسلمين .

ولكن الحاكم كان يتخلى عن أراضى الحكومة (الجفالك) كما كان يحدث فى كافة أنحاء العالم وقتئذ بما يتنازل عنه من الهبات التى يمكن استردادها عند الطلب أو يقال أحيانا أنها غير قابلة للاسترداد على أن الخلاف لم يكن كثيرا على الشكل ولكن رجال القانون الاسلامى تمسكوا بهذا المبدأ البسيط وهو أن الهبة مهما كانت ملزمة يمكن استردادها متى اقتضت ذلك مصلحة الدولة وهى مسألة لا يمكن لأحد غير الحاكم أن يبت فيها .

ولقد كان من جراء مانشأ من ذلك الفوضى فى خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر أن وجدت طائفة من الملاك وفى طليعتهم زعماء المماليك والمزارعين الذين يؤدون الضرائب وكانوا وقتئذ يسمونهم الملتزمين وبديهى أن الحكومة لم تحصل على ايرادات مطلقا عما كان بأيدى الفريق الأول من الأراضى فى

حين أن ما كان بأيدى الفريق الثانى اشتمل على مناطق أخذت تزداد اتساعا مع مضى الزمن دون أن تدفع عنها ضرائب ، وكانت تسمى أراضى الوسية . وكان من باكورة أعمال الباشا — كما سلفت الاشارة الى ذلك — أن استولى على أملاك أعيان المماليك وقام بالتحرى عن الشروط التى تمت بها ملكية الأراضى الأخرى . وقد تمكن محمد على فيما بين سنتى ١٨٠٤ - ١٨١٤ من الاستيلاء على كافة الاراضى وكافأ الملتزمين بمعاشات عوضاً عما كان لديهم من الأراضى (١) ولا يلوح أن الباشا تجاوز فى هـــذه الاجراءات الحدود الاسمية لحقوقه القانونية ولو أنه لاينبغى أن يبرح الأذهان «الحقوق القانونية» هنا كانت تعنى شيئا آخر عدا ماتعنيه فى أوربا . وليس من شك فى أن تصرف محمد على ذلك كان ينطوى على شىء من الشطط الذى ربما كان فى وسعه أن يبرره نظرا لحاجته القصوى وقتئذ الى المال . إذ لاريب أنه لم يسعه أن يؤسس حكومة ويقيمها على دعائم وطيـــدة إلا إذا استعاد تلك الأراضى التى تبلغ مساحتها ثلاثة أرباع أراضى القطر ولم يستول عليها الافراد إلا بسبب خرق أسلافه وإهمالهم . وبديهى أن الحاجه يمكن أن يلجأ اليها الانسان لتسويغ كل شىء . على أن تصرفات محمد على الآنفة الذكر لم تؤثر مطلقا فى الفلاحين ولا أحس بضيرها إلا عدد قليل من الملكيين وقد كان خليقا بمن وجهوا إلى الباشا عبارات النقد من الانجليز أن يعودوا إلى أنفسهم فيذكروا أن اللورد كوبونواليس لم يكتف بنزع أراضى عدد قليـل من الأعيان بل جاوزهم إلى الكثيرين من فلاحى اقليم البنغال نعم ليس يمكن الدفاع عن الظلم ولكنه جريمة ظلم الأقليـة هى أخف بكثير من ظلم الأكثرية . ذلك الظلم فى الحالة الأولى لا يؤدى الا إلى نوع مخفف من الشقاء يسهل تفاديه . وليس يخامرنا

---

(١) كما جاء فى كتاب أرتين بك المسمى «الاملاك العقارية فى مصر» ص ٨٤-٨٦ وكتاب سان جون الجزء الثانى ص ٤٥٦ وكتاب المسيو جوماد المسمى «لامحات» ص ١١ ورسالة مبسيت فى ٢٢ مارس ١٨١٤ (وزارة الخارجية ٥ — ٢٤)

شك فى أن لورد كورونواليس والباشا كانا يعتقدان أن سياستهما هى لصالح البلاد عامة .

وتلا استعادة الأراضى مسحها مسحا دقيقا أولاه الباشا عنايته وتشتمل سجلات المديريات توقيعاته كدليل على اهتمامه بتلك العملية (١) ولكن عمله هنا لم يأت كاملا لسوء الحظ بسبب رداءة موظفية فان الذين تولوا مسح الأرض كانت تنقصهم الخبرة والدربة بينما كان رؤساؤهم تعوزهم الأمانة (٢) وفى الواقع لم يكن لمحمد على محيص من مواجهته كما قام أمام شركة الهند الشرقية من المصاعب فى سبيل القيام بمساحة الأراضى التى تأتى بالايراد فى الأقاليم البنغالية . ولم يكن لها فى الأقاليم الهندية الأخرى من نتيجة سوى إحداث سيل جارف من الأغلاط الأولية .

ولنتقدم لك بمثال مما قام فى وجه محمد على من المصاعب فقد اكتشف أن كبار الأعيان وأصحاب الأملاك الواسعة يرشون موظفى المساحة ليشهدوا على أن أراضيهم قاحلة جرداء تعوزها مياه الرى هذا بينما أولئك المساحين يسدون العجز الناشىء عن هذا التخفيض بفرض ضرائب فادحة على الأراضى التى يقوم بحرثها صغار الفلاحين (٣) على أن عملية المساحة هذه مهما كانت مختلة فى الأمور التفصيلية وبرغم أنها كانت فى حاجة إلى مراجعة من آن لآخر كلما ظهر النقص باديا للعيان . نقول برغم هذا كله فانها قد كشفت عن مساحات زراعية كبرى كانت الآن غير معروفة للحكومة نتيجة لأعمال الغش والتدليس المتعمد .

ومسألة أخرى كان لها أكبر نصيب من اهتمام الباشا ألا وهى مسألة الرى فلقد أدخل مالا يقل عن ٣٨ ألف ساقية أو ما يزيد عن نصف ما كان يستعمل

---

(١) كتاب ارتين بك السالف الذكر ص ٨٨

(٢) كما جاء فى رسالة كامبل فى ٢٦ فبراير سنة ١٨٣٨ (وزارة الخارجية ٢ : ٣٤ - ٨٧)

(٣) كما ورد فى كتاب الى مدير الجيزة فى ٨ صفر سنة ٢٥٠ (محفوظات عابدين)

من السواقى فى سنة ١٨٤٤ (١) وقد اهتم الباشا بتطهير ترع الرى القديمة وأمر بحفر ترع جديدة بجانبها ثم أنه حرص على إدخال مساحات كبيرة من الأراضى فى الصعيد ضمن الاراضى القابلة للزراعة . ولم يفت كامبل بهذه المناسبة أن يشير إلى حفر ترع جديدة أريد بها أن تروى مالا يقل عن المليون من الأفدنة (٢) وقد شهد بورنج من ناحيته بأن ١٠٠ ألف من الأفدنة البور قد أصبحت فعلا داخل منطقة الأراضى القابلة للزراعة (٣) وكان ساعد الباشا الأيمن فى هذه المهمة المهندس الفرنسى المسيو لينانت الذى وضع المشروع الخالد لتوسيع دائرة أعمال الرى فى الدلتا وضبطها والمشروع المشار اليه طبعا مشروع قناطر الدلتا المشهورة التى اتفق الرأى على انشائها عند تفرع رياحى النيل فيما بعد القاهرة .

وقد كان المأمول عند وضع تصميم هذا المشروع أن يكفل رى أراضى الدلتا جميعا حتى فى اسوأ أوقات الفيضان وأن يساعد على رى مالا يقل عن ٢٠٠ الف فدان إلى ٣٠٠ الف فدان من الأراضى الواقعة وراء القناطر المذكورة (٤) على أن وجه الصعوبة فى إنشاء القناطر الخيرية كان يرجع إلى المسألة الفنية فان لينانت لم تكن له خبرة سابقة بمثل هذا المشروع ولذا ظل البحث حول مشروع بناء القناطر وتقرر فى النهاية تحضير تصميم لعرضه على لجنة المهندسين فى فرنسا (٥) وأظهر كثيرون من الناس ارتياحهم وقتذاك فى امكان تنفيذ المشروع الهائل الذى هو من هذا القبيل يستغرق اتمامه نحو خمسة

---

(١) كما جاء فى تقرير بورنج « الاوراق البرلمانية سنة ١٨٤٠ » جزء ٢١ ص ١٢ وكما جاء فى رسالة من بارنت فى ١٢ ديسمبر سنة ١٨٤٤ (وزارة الخارجية ٥٨ — ٧٨)

(٢) كامبل فى أول يناير سنة ١٨٣٤ (وزارة الخارجية ٤١١ — ٧٨)

(٣) تقرير بورنج السالف الذكر .

(٤) كامبل فى أول نوفمبر ١٨٣٤ (وزارة الخارجية ٢٤٧ — ٧٨)

(٥) رسالة بارنت فى ٢٠ اكتوبر ١٨٤٢ (وزارة الخارجية ٥٠٢ — ٧٨)

أعوام ويتطلب من النفقات مالا يقل عن مليون ونصف جنيه انجليزى . على أن الحجر الأساسى للقناطر لم يوضع إلا فى سنة ١٢٤٧ ثم تبين بعد اتمام هذا العمل الكبير أنه لم يحقق ما كان معقودا عليه من الآمال ذلك لأن عدم أحكام الأساس ساعد على تسرب مياه النيل وهنا رفع المتشائمون عقائرهم وقاموا يدللون على صواب رأيهم ولكن المهندسين العصريين يوزعون المسئولية بين عدم تأنى محمد على وعدم خبرة لينانت وعلى كل فان هذه المسألة توضح أحسن توضيح قوة عزيمة محمد على وضعفها فى وقت واحد فانها تكشف من جهة بعد نظره وفرط حبه للاصلاح والتحسين كما تكشف من الناحية الأخرى عن تعجله ونقص ما كان لديه من الوسائل .

وبالرغم من عدم تحقيق مشروع القناطر للامال التى كانت معقودة عليها فان الأراضى الزراعية التى كانت تحت حكم الباشا قد زادت مساحتها زيادة عظيمة وشرع الباشا فى توزيع الأراضى على الاهالى كهبة لتشجيعهم على الاكثار من الزراعة ولقد كانت الاراضى تعطى للافراد من سنة ١٨٢٩ فصاعدا على شريطة زرعها وأسفرت هذه المنح فى بداية الامر عن امكان استغلال ربع الاراضى فقط بواسطة الزراع وورثتهم إلى أن حل عام ١٨٤٢ فتحولت الهبة من الانتفاع بغلة الاراضى إلى امتلاك كما نهائيا وحوالى ذلك الوقت أخذ الباشا فى توزيع الاراضى التى أصبحت بفضل مشروعات الرى الجديدة الكبرى صالحة للزراعة بشكل «جفالك» بشرط توسيع دائرة الاعمال الزراعية فيها . وهذه الجفالك قد وزعها الباشا على أفراد أسرته (١) وهكذا عاد حق الملكية الفردية مرة أخرى وأخذ هـــذا الحق ينتشر فى طول البلاد وعرضها وبذا أصبح الافراد المسجلة أسماؤهم فى سجلات

---

(١) كما جاء فى كتاب ارتين بك السالف الذكر ص ٩٥ وكما جاء فى الكتاب المرسل الى رئيس الروزنامجية فى ٢٤ ذى الحجة ١٢٥٦ (محفوظات قصر عابدين) وكما جاء فى رسالة من بارنت فى ١٥ يناير و ١٢ ديسمبر سنة ١٨٤٤ (وزارة الخارجية ٥٨٣ـ ٥٨٢ ـ ٧٨)

الرى ملاكا فى الواقع وأصبح للأراضى فى مصر كما فى الهند سعر تباع به . وهاهو بورنج نفسه يشهد بأنه لم يسمع بأحد نزعت منه أراضيه فى العهد الحديث إلا عقاباً له على عدم أداء الضرائب (١) وها هو ما كان ينتظر أن يحدث فى الهند مثله فى ظروف تشبه الظروف المشار اليها هنا .

وكانت ضرائب الأراضى تدفع عيناً أو نقداً . فالجهات التى كانت صالحة لزراعة بعض محاصيل معينة كالقطن أو النيلة وهى الجهات التى احتكر الباشا حاصلاتها ، نقول كان الباشا يفرض على تلك الجهات أن تقدم مقادير معينة من الحاصلات التى كانت تزرع فيها . وفيما عداها كان لصاحب الأرض أن يزرعها مايشاء فى مقابل ضريبة معينة تقدر بالنسبة لجودة الأرض وقيمة المحصول الذى يصلح زراعته فيها . وقد جرت العادة لغاية سنة ١٨٣٤ أن تفرض الضرائب بنسبة المساحة بقطع النظر عما اذا كانت الارض صالحة أو غير صالحة للزراعة متى كانت هناك مياه تكفى لرى تلك الارض ولو جزئيا . ولكن الباشا رأى فى تلك الساعة أن يسلك الطريقة العادلة بألا يفرض الضرائب إلا على الاراضى التى يمكن ريها جميعا (٢) .

وأدخل الباشا حوالى ذلك الوقت اصلاحا آخر له قيمته العظمى وذلك بالغاء العادة التى كانت متبعة فى مختلف العصور وهى الاستعاضة عن النقص فى الايرادات الناشئة عن الضرائب على أطيان شخص معين بزيادتها على أطيان الاشخاص الآخرين . ويظهر أن هذه العادة كانت متبعة فى كافة أنحاء الشرق وكانت معروفة فى الهند بقدر ما كانت معروفة فى مصر وكان محبذو هذه العادة يدافعون عنها بقولهم انها تحول دون تمكين مشايخ البلاد وغيرهم من أرباب النفوذ الواسع من فرض نسبة غير عادلة من الضرائب على صغار الملاك (٣) .

---

(١) تقرير بورنج — الاوراق البرلمانية سنة ١٨٤٠ مجلد ٢١ ص ١٢٣

(٢) كاميل فى ٢٧ ابريل ١٨٣٤ (وزارة الخارجية ٢٤٥ - ٧٨)

(٣) تقرير بورنج - الاوراق البرلمانية سنة ١٨٤٠ المجلد ٢١ ص ١٥

ويخيل الينا أن مقدار الضرائب قد زاد زيادة كبيرة لا بل لقد ولدت الألسن أن الضريبة المالية قد زادت الى نحو الضعفين (١) ولكن هذه المسألة بمفردها تعتبر مبهمة أو مضللة على التحقيق لأنها تتجاهل كثيرا من الضرائب الاضافية وبعضها معترف به والآخر غير معلوم مما كان يحصله الموظفون وهو ما لم يكتف الباشا بمنعه بل حظره حظرا تاما . وكذلك لا ينبغي هنا أن يأخذ الانسان جدياً ملاحظة من نفور الفلاحين الشديد من دفع ما استحق عليهم من الضرائب . فلقد علمتهم التجارب القاسية فى خلال قرون عديدة كما علمت الفلاحين الهنود من قبل أن المبادرة بدفع الضرائب أمر غير محمود العاقبة إذ كثيرا ما كانت تلك المبادرة تؤول الى اعتقاد بوجود المال بكثرة ومن ثم أدت الى المطالبة بالمزيد . وليس من شك فى أن عهد الحكم الضعيف الذى سبق عهد محمد على قد ساعد على رسوخ هذه العقيدة فى النفوس كما حدث فى عهد حكومة شركة الهند الشرقية سواء بسواء . وهاهم الكتاب الفرنسيون الذين كانوا يراقبون حالة مصر فى عهد نابليون يشهدون بما كان يتكبده المماليك من الصعوبات الشديدة فى سبيل جمع الضرائب فالفلاحون كما قال هؤلاء الكتاب « لايدفعون ماعليهم من المال إلا فى آخر لحظة وحتى بعد ذلك فانهم يدفعون بالتى واللتيا ومليا مليا . بينما تراهم يخبئون أموالهم ويخفون أمتعتهم ومنقولاتهم . . فإذا ما أحسوا باقتراب الجنود منهم أطلقوا سيقانهم للريح تصحبهم نساؤهم وأولادهم ومواشيهم تاركين وراءهم عششهم خاوية على عروشها وأما إذا أنسوا من أنفسهم قدرة على المقاومة فانهم لايحجمون عن القتال بعد أن يستفزوا لمساعدتهم القرى المجاورة بل ورجال البدو أنفسهم » ولهذا كنت ترى المماليك ملزمين باستبقاء الجنود فى كل مديرية من المديريات المصرية ولا عمل لهؤلاء الجنود إلا محاولة إرغام القرى على دفع المال وهى مهمة كثيرا

---

(١) كما ورد فى كتاب سان جون السالف الذكر ص ٤٥٠ جزء ثان

ما كان الحظ يخونهم فى أدائها . تلك كانت الحالة فى عهد المماليك ولكن محمد على كان أعز سلطانا وأقوى نفوذا من هذا . ويلوح أن المقاومة العلنية لأداء المال كانت معدومة بتاتا ولكن المقاومة السلبيـة كانت ما تزال متواصلة فان الفلاح كان على مايظهر يحسب أن الشرف منتهى الشرف ألا يؤدى حصته من المال إلا بعد أن تنهال السياط على جوانبه . بل ان البطولة التى كانت تستحق التمجيد والاحترام فى نظرهم هى التى كانت تدفع أحدهم إلى الاستماتة الى النهاية فى مقاومة دفع المال .

ولم تكن هذه الحالة الوحيدة التى يمكن المقارنة فيها بين الفلاح المصرى والفلاح الهندى فان الحكومات التى أرادت العناية الإلهية أن تقوم للاشراف عليهما كانت بمقتضى العادات القديمة تعتبر أن الفلاحين لم يخلقوا إلا للقيـام بمهمة واحدة فى حيـاتهم ألا وهى حرث الأرض فقط فواجب الزراع هى الزراعة فاذا ماقصر فى أداء ذلك الواجب فعلى الحاكم أن يعاقبه عقابا ضارما . وقد ذكر أحد الكتاب أخيرا مشيرا الى النظام الزراعى فى الهنـد الاسلامية والهندوسية فقال « انه نظام عبارة عن مجموعة واجبـات لا حقوق »(١) .

ويلوح أن محمد على وشركة الهند ورثا هذه العقيدة الأخيرة بدون أية محاولة لتغييرها . وكان الباشا بطبيعة الحال أشد من موظفى شركة الهنـد تشبثاً بهذه العقيدة . ومن ثم كنت تراه لايميل بحال ما الى رؤية الأراضى مهملة بلا حرث وكان إذا علم مثلا أن الأراضى الممنوحة الى مشايخ القرى فى مقـابل خدماتهم للدولة ظلت بلا رى تعلوها الأعشاب الضارة أمر بأن يضرب هؤلاء المشايخ بالسياط فى جانب حقولهم ليكونوا عظة لغيرهم (٢) وكان من رأيه أن الفلاح لابد ان يبقى تحت المراقبة فذلك أكفل لمصلحته .

وكان الباشا معروفا بحرصه على التدقيق فى أسباب الشكاوى وسعيه لإزالتها

(١) كتاب مورلاند « النظام الزراعى فى الهند الاسلامية » ص ١١

(٢) كما جاء فى كتاب للمديرين فى ٢ ربيع الاول ١٢٥٢ (محفوظات عابدين)

وهـذا ما دفع القنصل صولت لأن يقول « ان الفلاحين كانوا على الجملة فى عهده يعاملون معاملة أحسن وهم أسعد حالا مما كانوا منذ سنين طويلة .. » (١) وليس يخفى أن شهادة صولت لها قيمتها الخاصة لأن سياحاته العديدة وكثرة تجوله فى مختلف أنحاء القطر باحثا عن العادات جعلته يحتك مباشرة بمختلف طبقات الفلاحين فى مصر .

وكان كثيرون ممن شهدوا حالة مصر على رأى الباشا فى وجوب المراقبة وإليك ماقرره بيربرن فى هذا الصدد إذ قال « بناء على تجربتى للأخلاق العربية كما نشاهدها اليوم لايسعنى إلا أن أسلم بأن هناك شيئا من الحقيقة فى الفكرة القائلة بأن الفلاح المصرى لو ترك لنفسه ليفعـــل ما يشاء لقصر نفسه على الحاجيات المؤقتـة التى يشتهيها ولظل أمداً طويلا لا يلتفت إلا الى زراعة المحاصيل التى لاتقتضى زراعتها الـكثير من الجهود والمال (٢) .

وعلى كل حال فان أحوال الفلاحين تدهورت كثيرا بعد ذلك بزمن غير بعيد ولعل ذلك لايرجع سببه الى فداحة الضرائب التى كانت تنوء بها الاراضى بقدر ما كان يرجع الى نظام القرعة العسكرية الذى سأتناوله بالبحث فيما بعد ذلك النظام الذى أثر أيما تأثير فى قوة إنتاج القرى فى حين أن المطالبة بمال الحـكومة بقيت على نسبتها الاولى دون مراعاة الأحوال الجديدة .

ونسمع ابتداء من سنة ١٨٢٩ بسلسلة شكاوى من الفلاحين الذين هجروا قراهم وعن صدور الأوامر الضارة لا ضد هؤلاء الفلاحين الذين يغادرون قراهم فحسب بل وكذلك ضد كل من يوجد فى كنفه من أبناء القرى الأخرى (٣)

---

(١) صولت فى ٢٨ ابريل ١٨١٧ « وزارة الخارجية ٧٨ — ٧٩ »

(٢) أقوال بيربرن كما جاء بها تقرير بورنج « الاوراق البرلمانيـة سنة ١٨٤٠ المجلد الحادى والعشرين ص ٦٤ »

(٣) كما جاء فى خطاب الى زكى افندى فى ١٤ شوال ١٢٤٤ وفى النشرتين الدوريتين فى ١٣ محرم ١٢٥٩ و١٧ محرم ١٢٦٠ « محفوظات عابدين »

وقد عزا محمد على ترك الفلاحين لقراهم الى سببين رئيسيين الأول سوء معاملة الموظفين المحليين للفلاحين والثانى الجهل . وبهذه المناسبة قال محمد على « ليس هناك إلا سيدان ألا وهما السلطان محمود والفلاح ... إذن فلا ينبغي أن ينظر للفلاح بالعين السيئة » (١) وقال فى مناسبة أخرى « لا ينبغى حبس الفلاحين لاهمالهم الزراعة لأن أول واجب على الحكومة هو أن تتكفل برخاء الشعب ورفاهيته » (٢) ولقد خول للفلاحين أن يرفعوا شكاياتهم الى المديرين إن أساء إليهم صغار الموظفين المحليين لا بل وأن يرفعوا تلك الشكاوى الى الباشا رأساً إن لم ينصفهم المديرون (٣) .

وكان يصحب هذا القلق المتزايد بين كافة طبقات الشعب تكدس الايرادات المتأخرة وقد أصدر الباشا الى المديرين فى سنة ١٨٣٣ إنذاراً حذرهم فيه بأنهم يكونوا مسؤلين أمامه شخصيا إن لم يعملوا على أن يسدد الأهالى مال الحكومة (٤) .

وفى سنة ١٨٣٥ قام الباشا بزيارة الأقاليم بنفسه لبحث هذه المسألة بدقته المعروفة (٥) وهناك رأى أن الحالة تحتم عليه أن يجرى تخفيضا كبيرا فى هذه الأموال (٦) .

وأخيراً التجأ الباشا إلى الطريقة المريبة وهى حمل كبار ضباطه على أن

---

(١) كما جاء فى خطاب الباشا الى مراقب عام المصالح فى جمادى الثانية سنة ١٢٥٢ (محفوظات عابدين)

(٢) الخطاب الدورى فى أول رجب ١٢٥٢ (محفوظات عابدين)

(٣) كما جاء فى كتاب الباشا الى ديوان الشورى فى ١٧ ربيع الاول سنة ١٢٦٠ (محفوظات عابدين)

(٤) كتاب دورى الى المديرين فى ١٠ صفر ١٢٤٩ (محفوظات عابدين)

(٥) كتاب دورى الى المديرين فى ١٧ ذى القعدة ١٢٥٠ (محفوظات عابدين)

(٦) كامبل فى ١٥ سبتمبر ١٨٣٥ (وزارة الخارجية ٢٥٨/٧٨ — ٧٥)

يأخذوا لحسابهم القرى الغارقة فى الدين فى مقابل دفع الأموال المتأخرة بالتقسيط مع دفع الضرائب الحاضرة فى مواعيدها فى الوقت نفسه . ولما أظهر الضباط تذمرهم من هذا التصرف لم يسع الباشا إلا أن يصارحهم بأنهم أثروا فى مدة حكمه فلن يمكنهم الآن من التخلى عنه (١) .

وعلى العموم كانت إدارة الايرادات غرضة لما أصاب شركة الهند الشرقية فى أوائل عهدها فى الهند من ضروب النقص والخلل . فلقد كانت تفرض ضرائب فادحة لا يسع الزراع أن يؤدوها فى عام واحد من الأعوام العادية يضاف الى هذا أن المرؤوسين المكلفين بجمع الضرائب كانوا على جانب عظيم من الاهمال وحب الرشوة هذا فضلا عن أن الضرائب المذكورة لم تكن متساوية فى كافة القرى مما كانت نتيجته أن بعضها كان يقدر على الدفع فى حين أن بعض القرى الأخرى ناء كاهلها بها .

ومع أن نظام ايرادات الأراضى كانت له أهميته الاولى بالنسبة للبلاد عامة فان أحداً من الدول الاجنبية لم يكترث له بتاتا .

وبالعكس كان لسياسة محمد على التجارية مساس بشؤون البلاد فى الداخل والخارج وهذا ساعد على اهتمام الدول بأمرها أكبر اهتمام .

ولم يكن يخطر لأحد أن تكون للامتيازات التركية حرمة فى مصر فى عهد المماليك لأن الحياة كانت رخيصة ومعرضة للخطر والتجارة غير منظمة ومضطربة وبيكوات المماليك فى حياة تمرد وعصيان والتجارة الأوربية فى مصر تافهة بحيث لم تر انجلترا وفرنسا سببا كافيا يدفعهما إلى محاولة التمسك بحقوقهما النظرية .

وقد ظلت هذه الحالة سائدة أمداً طويلا حتى بعد أن استلم الباشا أعنة

(١) خطاب موليه الى ديلسبس فى ٣ مارس ١٨٣٧ (وزارة الخارجية ٣١٩ - ٢٨)

الحكم فى مصر ولم يفكر أحد سنوات عديدة فى أن يرفع عقيرته بالشكوى الرسمية من القواعد الموضوعة لتنظيم الشؤون التجارية مهما بلغت الشكوى فى الخفاء .

مع أن المتاعب الجديدة لم تبدأ إلا فى خلال العقد الثالث من القرن الغابر وقد وجه وقتذاك كامبل حملة من اللوم والنقد ضد من سبقه من القناصل لما أظهروه من عدم الاكتراث وروح الاهمال . فان « الكثيرين منهم كان لهم ضلع فى الاعمال التجارية أو مدينين لمحمد على شخصيا وهذا ماجعلهم يخشونه فى التمسك بما لمواطنيهم من حقوق عادلة » أما القنصل موليه فقد كتب الى ديلسبس بعد ذلك بعامين خطابا يأسف فيه على ما أظهره الممثلون السابقون من شدة التسامح مما أدى الى تقييد الأمور وجعل الشكوى متعذرة (١) .

ولقد كانت سياسة الباشا التجارية مدفوعة فى منشأها وفى مراحلها الأولى بحاجته الى العثور على المال وبما فى الاحتكار من مزايا ظاهرة كثيرا ماخلبت أنظار الحكام الشرقيين بعد ماخلبت أنظار التجار فى الغرب . وكثيرا مارفع صولت عقيرته بالشكوى فى سنة ١٨٢٠ ثم فى سنة ١٨٢٧ من المساوىء التجارية الناشئة عن مركز محمد على بصفته التاجر الرئيسى فى البلاد التى يحكمها (٢) فانه لم يكتف بارغام الفلاح على الزراعة بل كثيرا ماحدد نوع المحاصيل التى ينبغى زراعتها فى بعض الجهات وأمر بتسليم المحاصيل الى شون الحكومة فى مقابل سعر معين . وبديهى أن مساوىء ذلك النظام أظهر من أن يحتاج الى بيان . ولكن كان للمسألة وجه آخر ذلك أن موارد البلاد كان يجرى استغلالها

---

(١) كما ورد فى خطاب موليه الى ديلسبس بتاريخ ٣ مارس سنة ١٨٣٧ (وزارة الخارجية ٣١٩ — ٧٨)

(٢) كما ذكر صولت بتاريخ ٣٠ يونيه سنة ١٨٢٠ وبتاريخ ٤ ابريل سنة ١٨٢٦ (وزارة الخارجية ٩٦ - ٧٨ و ١٤٧ — ٧٨)

بشكل لاعهد لها به من قبل . وبهذه المناسبة كتب صولت يقول « ولا ينبغى أن يفوتنا أن الباشا الى حد معين قد أنشأ كافة مواد الانتاج الطيبة التى أصبحت الآن أهم مواد التصدير كالقطن والنيلة والسكر وباستعمال الحكمة فى تخصيص مبالغ كثيرة لاصلاح كثير من نواحى الصناعة وهى تلك النواحى التى كان الفلاحون لايجدوا الوسائل الكافية ولا الرغبة اللازمة لاصلاحها »(١).

وأدخلت كذلك زراعة الخشخاش فيما بعد فى كثير من نواحى الصعيد كما غرست أشجار التوت وأنشئت المصانع لتكرير السكر وتقطير الروم .

وأنشئت فى رشيد مدبغة لسد حاجة الجيش من الأحزمة والأحذية والسروج (٢) وقد أسست المصانع لحياكة الأقمشة القطنية . ولقد كان الباشا بأعماله هذه على كل حال يحقق المثل الاشتراكى الأعلى فى ناحية من النواحى .

ولقد قامت معظم مظاهر النشاط هذه على أساس فكرة سقيمة مختلة . ولذلك سرعان مادب دبيب الفشل فى المصانع الدقيقة فأهملت آلاتها وتركت أجزاؤها المتحركة فى حاجة الى الزيت هذا بينما كانت الادارة جاهلة مهملة وكانت النيران هى مصدر القوة المحركة مع أنه كان من الطبيعى تسخير مجرى ومساقطه لهذه الغاية وأظهر الفلاحون كراهيتهم لما لم يألفوه من نظام ساعات العمل . ومن ثم لم يكن مندحة عن جمعهم بالقوة كما كان يجمع أنفار القرعة العسكرية . وقد لاحظ بورنج « ان الباشا كان يسحب من الحقول الأيدى العاملة حيث كانت تعمل لاخراج الثروة لاستخدامها فى المصانع . . . حيث تبدو تلك الثروة بلا حساب (٣) .

---

(١) صولت فى ٢٠ مايو ١٨٢٥ (وزارة الخارجية ١٣٥ - ٧٨)

(١) كما جاء فى كتاب باركر سوريا ومصر جزء ثان ص ١٠٧ - ١٠٨

(٢) من بورنج إلى كامبل فى ٧ ديسمبر ١٨٣٧ (وزارة الخارجية ٤٢٣ - ٧٨)

ويقال أن الباشا أنفق ما لا يقل عن اثنى عشر مليونا من الجنيهات على هذه المصانع وعلى الآلات التي جهزت بها . وقد ذهبت كل هذه الأموال سدى . ومع أن هذه الجهود قد بذلت في غير طائل فانها تستحق الذكر المقرون بالإحترام لانها دليل على تحول في فهم الباشا لواجباته. فلقد بدأ حكمه بالسعي لايجاد المال ولم يلبث أن اختتمه بالسعي - مهما كان خاطئا - بتحسين البلاد وتمدينها .

ولعله كان مسوقا فى هذا العمل بمغالاته فى تقليد الغرب ولكنه ما لبث أن أصبح أنبل وأشرف خلقا من هذا المخاطر الشره الذي لا غاية له إلا تعزيز مركزه وجمع المال والثروة . بل ان ما فرضه محمد علي على نفسه من ضروب الاحتكار لم يخل من جانبه الطيب فاذا قيل أنه ضايق الفلاحين فلا جدال في أن مضايقته لهم كانت أهون بكثير مما كانت مضايقة التجار الأجانب التي تكون لهم فيما لو ترك لهم محمد علي الحبل على الغارب ولكان عبء القروض التجارية أفدح بكثير من المبالغ المتأخرة في جدول ايرادات الباشا وهذه حقيقة كان محمد على يؤمن بها (١) .

وبديهي أن اتباع تلك السياسة كان يثير غضب الحكومة البريطانية ويستفزها لأن مصر بصفتها جزءا من الامبراطورية العثمانية كان يتعين أن تكون خاضعة لنظام الامتيازات التركية وهى - كما يفهمها التجار الانجليز - تتضمن الحق فى اطلاق حرية التجارة .

فلقد نصت المادة الثالثة والخمسون على أن للتجار مطلق الحرية فى أن يبيعوا أو يبتاعوا أو يصدروا مختلف السلع التجارية دون أن يكون لأحد ما الحق فى منعهم أو التعدى عليهم . ولكن يوجد أولا ما يقيد هذا الحق الظاهر فى اطلاق حرية التجارة فان هناك عبارة غامضة غموضا يبعث على الريب وهى

(١) كابيل في ٢٤ مارس ١٨٣٩ (وزارة الخارجية ٣٧ - ٧٨)

تقضى باستثناء « السلع الممنوعة » من الأحكام السابقة . وقد لاحظ صولت بحق أن هـــذه العبارة تترك تقريبا كل شيء خاضعا لثروات حكام الأقاليم ومديرى البوليس فقد يستغلون تلك العبارة فيضيفون إلى قائمة السلع الممنوعة أى سلعة أخرى يختارونها . وهو رأى وضعه ستراتفورد كاننج فى تزييل لاحق بأنه رأى حكيم وقائم على أساس ثابت (١) .

ومن هنا بدأت المفاوضات التى قام بها بالمرستون بواسطة بونسيبى لمراجعة قواعد التجارة الانجليزية فى داخل بلاد الامبراطورية العثمانية وهى المفاوضات التى أدت الى الاتفاقية التجارية التى أمضيت فى سنة ١٨٣٨ وقد نصت هذه الاتفاقية بصراحة على إلغاء نظام الاحتكار وهو ماأصر بالمرستون على تطبيقه فى مصر مدافعا عن رأيه بقوله « ولعله يتبين لكل انسان له إلمام بالمبادىء التى تقوم عليها أسس رخاء الأمم ويسرها . . . أن النظام الذى يتبعه الباشا خاصا بالاحتكار ... سوف يؤدى حتما الى جعل مصر وسوريا فى حالة فقر مدقع » (٢)

وما كاد يتم توقيع الاتفاقية حتى طلب بونسيبى الى القناصل فى سوريا أن يوافوه بقائمة ما احتكرته حكومة الباشا من الامتيازات فأبلغه قنصلا حلب ودمشق بأنه لاتوجد لتلك الامتيازات قائمة . أما قنصل بيروت فقد بعث بقائمة طويلة دلت عند الفحص على أن الرجل يخلط بين الامتيازات وبين إيراد الضرائب (٣) .

أما فى مصر فقد كانت الحالة أوضح مما كانت فى سوريا . نعم كان الباشا محتكر لبعض الامتيازات ولكن الأمر لم ينظر فيه جديا إلا بعد تسوية أزمة سنة ١٩٤٠ وذلك للسبب الرئيسى الخاص بتأخير ابلاغ الفرمانات اللازمة

---

(١) صولت فى ٢٠ مايو ١٨٢٥ (وزارة الخارجية ١٣٠ — ٧٨)

(٢) مذكرة بالمرستون فى ١٣ سبتمبر ١٨٣٨ (وزارة الخارجية ١٩-٩٦)

(٣) كامبل فى ٢٠ مايو ١٨٣٥ (وزارة الخارجية ١٣٥ — ٧٨)

الواردة من الاستانة . وقد ظهر وقتئذ مبلغ الصعوبة فى مصر مدى هذه الامتيازات لأن المقادير الهائلة من محصول القطن أو السكر أو غير ذلك من النتاج الذى كان تحت إشراف الباشا كانت هذه المقادير تسلم إليه إما لأنه صاحب جفلك أو كأنها جزء من ايراد أطيان الدولة .

وقد ظل بالمرستون يبعث برسائل (١) غاضبة تنطوى على التهديد والوعيد ولكن آراء رجال التجارة فى كل من الاسكندرية والقاهرة كانت قلقة ومتذمرة من جراء سياسته السالفة التى ربما لم تكن تعلم تماما ما هى « المبادىء التى تنظم ثروة الأمم » ولذا فان التجار المذكورين لا يسعهم مساعدة القنصل برفع الشكاوى إليه (٢) .

وكان يوجد الى جانب ذلك سبب آخر جعلهم ينظرون الى الاتفاق التجارى بعين السخط ويتقززون من تطبيقه على مصر — لأن الاتفاق من حيث علاقته بمصر قد أعد لا لتفع التجارة الانجليزية بل لنقص إيرادات الباشا بتجريده من امتيازاته العديدة . ومهما كان الاتفاق مفيد ونافعا فى الاستانة أو فى أزمير أو فى ماعدا ذلك من الموانى الخاضعة لحكم السلطان فانه كان على العكس من ذلك فى مصر لأن المصدّر الانجليزى كان مطالبا بمقتضى الاتفاق المذكور بأن يدفع ١٢ ٪ بدلا من ٣ ٪ كما أن المحاصيل فى سوريا إذا صدرها التجار الانجليز جميعا فانها تأتى بثمرة قدرها ٢ ٪ بدلا من ١٢ ٪ أما التجار الأجانب فانهم طبعا يظلون يدفعون على حساب الأسعار القديمة ولهذا كان يوجد مبرر قوى لسخط التجار على سياسة بالمرستون (٣) .

---

(١) كرسالة لبارنت فى ٢٦ اغسطس ١٨٤١ (وزارة الخارجية ٤٥١ — ٧٨)

(٢) من بارنت الى ستراتفورد كاننج فى اول ديسمبر ١٨٤١ (وزارة الخارجية ٤٥١ — ٧٨)

(٣) كامبل فى ٣ سبتمبر ١٨٣٩ (وزارة الخارجية ٣٧٦ — ٧٨)

وليت البلوى وقفت عند هذا الحد . فان الاتفاق عين الأسعار وحددها ولم يتركها تتراوح على حسب تقلبات السوق ولهذا تبين عندمابدأ العمل بهذه الأسعار فى سنة ١٨٤١ أنها ٢٢ ٪ على حسب قيمة القطن وبين ٢٠ - ٢٥ ٪ على حسب سعر الصوف وأكثر بكثير من ٢ ٪ على حسب سعر الحبوب. أما الضريبة على الواردات التى أريد بها ألا تزيد عن ٥ فى المائة فقد بلغت فعلا ٩ فى المائة وكانت نتيجة ذلك كله أن الباشا وافق فى النهاية أن يفرض ضريبة قدرها ١٢ فى المائة على حسب سعر الصادرات و ٥ فى المائة على حسب سعر الواردات تدفع بالعملة المصرية (١) أما فيما يختص بما احتكره من الامتيازات فقد وجد الباشا بأن يبيع حاصلاته فى المستقبل بالمزاد العام (٢) .

ويتعذر على المرء ألا يعرض لهذه الأخطاء وما صحبها من المفاوضات الدالة على الغباء دون أن يحس بحرج للعزة القومية .

ولقد كان فى طليعة الأمور التى دعمت مركز الباشا أن تتجمع كافة القوى القادرة على مناهضة قوات مولاه السلطان ومقاومتها . فسعيه إذن لإنشاء جيش كبير كما تسمح بذلك موارده كان أمراً طبيعيا ومعقولا : أما كونه يسعى لإنشاء أسطول فدليل على نشاط عقله وعلى الهدف الذى يرمى إلى تحقيقه . فلقد كان إنشاء ذلك الأسطول عاملا رئيسيا فى مشاريع محمد على فيما لو اتجهت آماله يوما ما الى السيطرة على شؤون الامبراطورية العثمانية . ولكن كان لابد لإنشاء ذلك الأسطول من الابتداء بأول حجر فى الأساس وذلك فى بلاد بلا تقاليد بحرية بتاتا وتحت إشراف حاكم لا يدرى شيئا من المسائل الفنية الخاصة بالأساطيل . على أن الباشا قد بدأ إنشاء الأسطول بالتوصية فى الخارج على بناء السفن كما فعل فى بمباى وليجهورن ومرسيليا ثم ما لبث أن طلب الى

(١) بارنت فى ٢٠ مايو ١٨٤٢ (وزارة الخارجية ٢ ٥٠ - ٧٨)
(٢) « « ١٥ « ١٨٤٢ « « ٥٠٢ - ٧٨)

الحكومتين الانجليزية والفرنسية فى سنة ١٨٢١ أن تبنيا له عددا من الفرقاطات ثم لم يمض على ذلك زمن طويل حتى أنشأ حوضاً كبيرا فى الاسكندرية ومن ثم بدأ يبنى السفن لحسابه مستعينا بخدمات بنائى السفن الفرنسيين للاشراف على سير العمل وفى سنة ١٨٢٨ بدأ الباشا بانشاء ترسانة بحرية لتزويد القوات البحرية بما تحتاجه من المهمات والعتاد. ولم يلبث أن شرع فى إنشاء أسطول يحل محل الأسطول الذى دمر فى موقعة نافارين. وكان على يقين بأن سفنه سوف تكون أحدث عهداً وأحكم رعاية مما عسى أن ينشئه السلطان من السفن وبدلا من أن يكتفى بالفرقاطات وجه عنايته إلى إنشاء بوارج كبيرة تحمل كل منها مائة مدفع أو أكثر (١).

وفى سنة ١٨٢٩ جاء الباشا بالقومندان البحرى (سيريسى) من الأحواض الملكية فى طولون وعهد اليه الاشراف على أحواض الاسكندرية.

وفى سنة ١٨٣١ أنزلت أول بارجة الى البحر تحمل مائة مدفع وقد سميت باسمه (٢). وفى سنة ١٨٣٣ كان لدى الباشا ست بوارج يتراوح ما تحمله من المدافع بين ٨٤ و١١٠ مدفع هذا الى جانب سبع فرقاطات.

ولم يحل عام ١٨٣٧ حتى بلغ مالديه من النوع الأول ثمانية يضاف اليها بارجة تاسعة كان العمل ما يزال جاريا فيها (٣) أما الترسانة فقد بلغ عدد العمال فيها ٣٠٠٠ تحت اشراف ٦٠ موظفا أجنبياً. ولحق بهذه الترسانة المدرسة البحرية الكائنة برأس التين. وقد بلغ مجموع تلاميذها ١٢٠٠ طالب.

---

(١) كما بعث بدلو وباركر الى غوردون فى ٢٦ مايو ١٨٢٩ (وزارة الخارجية ١٨٤ — ٧٨)

(٢) كما كتب بذلك باركر الى السير مالكولم فى ١٥ يناير ١٨٣١ (وزارة الخارجية ٢٠٢ — ٧٨)

(٣) كامبل فى ٢٤ ابريل سنة ١٨٣٤ و١٤ يوليه سنة ١٨٣٧ (وزارة الخارجية ٢٢٧ و ٣٢٦ — ٧٨)

وواصل الباشا هذه التحسينات تحت اشرافه الشخصى يدفعه الحماس الشديد الذى حمله أن يسوق رعاياه الى معاونته فى العمل بالرغم منهم. وكان يلذ له أحيانا أن يتجول على ظهر إحدى سفنه فى المياه المحيطة بالاسكندرية.

وقد مر بك ماقلناه عن محاولته مطاردة الأسطول اليونانى باحدى البوارج المصرية - وقد وضع الباشا قانونا للأسطول مستمدا من القواعد المعمول بها فى الأسطولين البريطانى والفرنسى وراعى فى هذا القانون التمشى مع القانون التركى (١) ولكن الباشا بينما كان فى وسعه بمحض همته ونشاطه أن يجد حاجته من السفن الجيدة الصنع فانه لم يستطع الحصول على الملاحين فى بلاد لم يكن لها أسطول تجارى من قبل. وبهذه المناسبة كتب قنصلنا الجنرال فى سنة ١٨٣٢ فقال « ان هناك حركة متسعة النطاق ليس للحصول على رجال تعودوا عبور البحار - بل للحصول على الأفراد بدون تمييز أو تثبت من صلاحيتهم للعمل الذى يناط بهم. وقد جمعت الحكومة فى الاسكندرية فى خلال ثمان وأربعين ساعة ما لا يقل ١٠٠٠٠ شخص لتكملة العدد المطلوب (٢) وقد كان فى الامكان عمل شىء نافع حتى لطائفة من الملاحين من هـذا القبيل لو أضيف اليه عدد معين من الملاحين الحقيقيين تحت إرشاد ضباط بحريين ماهرين ومدربين. ولكن هؤلاء الملاحين الخام الذين جمعهم الباشا كما لاحظ قنصلنا الجنرال العام السالف الذكر « لم يكن يوجد بينهم لا ضباط مدربون وطنيون ولا حتى البحارة العاديون » (٣).

وقد علل الباشا نفسه فى سنة ١٨٣١ بأن يسد هذا النقص باستخدام الضباط

---

(١) كما كتب بذلك باركر الى السير مالكولم

(٢) من باركر الى سترانفورد كانتج فى ٢٠ فبراير ١٨٣٩ (وزارة الخارجية ٢٠٣ — ٧٨)

(٣) من باركر الى منداڤيل فى ٢٠ يناير ١٨٣٣ (وزارة الخارجية ٢٠٣ — ٧٨)

والملاحين الانجليز وعهد الى الكولونيل لايث ابن حاكم بنبانج على ما أظن أن يختارهم له . وكان محمد على فى حاجة الى اثنين من درجة قنطان واثنين من درجة كوموندور وإلى عدد من الضباط ونحو ٤٠ أو ٥٠ صف ضابط عدا من يلحق بهم من الملاحين القادرين (١) ولكن المسألة ظلت معلقة ردحا من الزمن لأن الحكومة البريطانية لم توافق إلا فى سنة ١٨٣٤ فقط على السماح للضباط البحريين المتقاعدين فى الاستيداع بالخدمة فى أسطول مصر (٢) . وكان الباشا وقتذاك قد تمكن من استخدام بعض الضباط الفرنسيين وكان الفيس أميرال هوبيسون بك يعاونه بوظيفة رير أميرال حسن بك وهو ضابط تركى تلقى علومه فى جامعات أوربا .

ولكيما يظهر الباشا مبلغ اهتمامه بالأسطول الذى وضعه تحت رعايته الشخصية قرر أن ينشأ أحد أنجاله وهو سعيد بك نشأة بحرية وتنفيذا لهذا القرار التحق الأمير الشاب وهو فى سن الثالثة عشرة باحدى السفن بدرجة صف ضابط اسميا فقط ووقع الاختيار على ضابط فرنسى خبير لتدريبه على الشؤون الفنية . وبعد مرور خمس سنوات تولى الأمير قيادة إحدى الحراقات ولكن الأمير كان مصدر متاعب لأبيه نظرا لما بدا عليه من علامات الكسل والافراط فى السمن قبل الأوان وكان الأمير يوزن من حين الى آخر وكلما بدا عليه ميل الى زيادة السمن أرسل إليه والده خطابا يشدد عليه فيه بالتميز بين (الغث والسمين) وبتنمية صفات الرجولة وبتخليص جسمه من آثار الترهل البغيض فى عيون الناس جميعا (٣) .

---

(١) من باركر الى بندافيل فى ١١ أغسطس ١٨٣١ (وزارة الخارجية ٢٠٢ — ٧٨)
(٢) كامبل فى ٢٥ اكتوبر (وزارة الخارجية ٢٤٧ — ٧٨)
(٣) كامبل فى ١٩ اغسطس ١٨٣٤ و ١٧ اكتوبر ١٨٣٦ و ١٤ مايو ١٨٣٩ (وزارة الخارجية ٢٨٤ و ٢٤٦ — ٧٨) وأيضا كتاب محمد على الى سعيد بك فى ٩ رمضان سنة ١٢٥٣ (محفوظات عابدين)

أما أسطول الباشا فكان شأنه كشأن مصانعه سواء بسواء أى أنه كان ينقصه الأساس المتين بمعنى أنه لم يكن فى الاستطاعة الاحتفاظ به فى حالة الاستعداد إلا إذا سهر منشئه على مراقبته ورعايته بنفسه لأن الأسطول لم يرق فى أعين طبقة من طبقات الشعب ولم يكن له ماض طبيعى أو تقاليد مرعية قديمة بل كان أبغض الى الشعب من الجيش وقد وقف هذا الأسطول مكتوف اليدين فى مياه الاسكندرية طيلة فترة الحرب السورية القصيرة الأجل . وقد حرمه القبطان باشا من فرصة أداء المهمة التى لم ينشأ الأسطول إلا لأدائها .

وما كاد الباشا ينتقل الى عالم الخلود حتى بيعت السفن الصالحة الباقية إلى الباب العالى وكان ذلك دليلا على فشل التجربة التى حاولها الباشا فى إنشاء الأسطول .

أما نشاط الباشا وما بذله من الجهود فى إنشاء الجيش وتوسيع نطاق أعماله فقد كان أدنى إلى التوفيق من جهوده البحرية ولقد سبق لى أن بينت أن محمد على بعد أن كان جيشه فى بداية الأمر عبارة عن خليط من فرق أجنبية من الجنود المأجورين قد تحول تدريجيا إلى جيش عظيم يتبع الجيوش الأوربية من حيث النظام والاستعداد وقد تم انشاؤه على النمط الأوربى كما أنه تكون بادخال نظام القرعة العسكرية فى البلاد .

فلم يحل عام ١٨٣٢ حتى كان الباشا قد تمكن من جمع قوة نظامية كبيرة وكان جيشه وقتذاك مركبا من ٢٠ أورطة من المشاة و ١٠ أورط من السوارى هذا عدا شرذمة صغيرة من الجنود الأتراك الغير نظاميين تصحبها قوة أكبر من البدو الغير نظاميين أيضا وقد بلغ مجموع هذه القوة ٣٨ الف جندى .

وبعد مرور ثلاثة أعوام ازداد عدد هؤلاء الجنود فبلغ فى سوريا وحدها ٥٩ الف أى أن معدل الزيادة بلغ ٥٠ ٪ (١) ويغلب على الظن أن مجموع

---

(١) كامبل فى ١٢ ديسمبر ١٨٣٥ (وزارة الخارجية ٢٥٨ ـ ٧٨)

ما كان لدى الباشا تحت السلاح بلغ ١٠٠ الف جندى وكانت هذه الجنود مجهزة فى بداية الأمر ببنادق استوردها الباشا من فرنسا وانجلترا ولكن لما كانت البنادق المذكورة من نوع ردىء فقد أنشأ مصنعاً خاصا لصنع البنادق فى مصر وقد حصل الباشا من لندن على ٢٠٠٠ عينة من أمتن وأحدث البنادق وجرى تدريب الجنود وتمرينهم أولا تحت اشراف ومراقبة ضباط فرنسيين وغيرهم من ضباط القارة الأوربية مثل الكولونيل سيف. أما الضباط الذين فتحت لهم مدارس خاصة فى الجيزة وغيرها من الجهات فكانوا من أسر تركية أو أسر أجنبية (١). وكان أكثرهم من موالى الباشا وقد وقع عليهم اختياره نظرا لما لاحظه فيهم من حسن الاستعداد للخدمة العسكرية. أما الجنود (الأنفار) فكانوا جميعاً من الأسر المصرية وبينهم بعض السوريين طالما كانت سوريا تحت حكم محمد على.

ويقول البعض ان ما التجأ اليه الباشا من الوسائل لجمع الأنفار للخدمة العسكرية يعتبر من أسوأ ما ارتكبته ادارته من الأغلاط. فلقد أراد الباشا احصاء عدد السكان ولكنه اضطر إلى العدول عن ذلك الرأى بسبب المعارضة العامة التى اشترك فيها بعض الموظفين التابعين للباشا (٢) فلم يكن له ندحة من الالتجاء الى مديرى الأقاليم ليقوم كل بتوريد عدد معين من الأنفار. وقد قسم هذا العدد طبعا بين القرى والدساكر المختلفة.

ومن ثم راح مشايخ القرى يضعون أيديهم على أكثر عدد من الرجال تاركين أولئك الذين يقدمون لهم أكبر رشوة لاطلاق سراحهم واعفائهم أما من قعد عن دفع الأتاوة فقد أرسلهم المشايخ كل اثنين مصفدين فى الاغلال كأنهم مجرمون (٣) ولما كان الباشا فى أوج عزه كان عدد من يطلبهم للخدمة

(١) يظهر أن باركر كان مخطئا عند ماقرر أن هذه المدارس كانت لأسر مصرية.

(٢) كما ذكره كامبل فى تقريره ٤٠٨ - ٧٨

(٣) رسالة من كامبل الى مالكولم فى ٨ يوليه ١٨٢٩.

العسكرية واحد من كل ستة أشخاص أى بمعدل ١٧ ٪ تقريبا .

ولم يكن بين مصالح الحكومة ما يخشاه الأهالى ويكرهونه كالخدمة العسكرية . وقد يدخل فى باب المبالغات ما كان يرويه معشر السياح عن وجود كثيرين من الأهالى كانوا يفرون من الخدمة العسكرية بقطع سبابة اليد اليمنى (١) وقد ذكر كامبل أن السائحين ربما يكونون قد علموا خطأ بأن بعض الأهالى كان يتعمد للفرار من العسكرية قطع أحد الأصابع وخلع الأسنان وعمى العينين (٢) .

نعم قد يكون هذا من قبيل المبالغات ولكن هذه الروايات قد قامت الأدلة على صحتها ولم يعد ثمت مجال للشك فيها كما تشهد مكاتبات الباشا نفسه بذلك فقد كتب يقول « ليس من يضعون سم الفار فى أعينهم سوى حيوانات فى صورة آدميين وينبغى الحكم عليهم بالأشغال الشاقة المؤبدة (٣) وإذا ظهرت إدانة قرينة الحلاق التى ساعدتهم على وضع ذلك السم فى أعينهم فلابد من إعدامها وترك جثتها فى العراء مدة ثلاثة أيام (٤) واتهمت امرأة بتهمة من هذا القبيل فألقيت فى النيل حية (٥) .

وقد أصدر الباشا تحذيرا للائقين للاقتراع العسكرى بأن من يتعمد تشويه عضو من أعضائه فلن يكون جزاءه السجن والأشغال الشاقة المؤبدة فقط بل لابد أن يؤخذ مكانه عضو آخر من أعضاء أسرته (٦) .

---

(١) كامبل فى ٢٦ فبراير سنة ١٨٣٨ (وزارة الخارجية ٣٤٢ — ٧٨)

(٢) كامبل فى ٢٦ فبراير ١٨٣٨ (وزارة الخارجية ٣٤٢ — ٧٨)

(٣) كتاب الباشا الى كتخدا فى ١٧ شعبان سنة ١٢٤٥ (مخطوطات عابدين)

(٤) « « الى مأمور الفيوم فى أول رمضان ١٢٤٥ « «

(٥) « « الى مأمور طنطا فى ١٣ ذى القعدة ١٢٤٥ « «

(٦) « « الدورى فى ٢١ شوال ١٢٤٨ « «

وقد حذر الباشا الموظفين بأن استمرار هـذا التشويه دليل على تراخيهم فى مراقبة الأنفار وأنه إذا استمر هذا العمل فلسوف يجازون بنفس العقوبة التى يعاقب بها الأنفار سواء بسواء (١) ولما تبين أن الأشغال الشاقة لم تكن رادعة لجأ الباشا الى عقوبة الاعدام (٢).

فهذه الأعمال كانت كلها ملموسة بحيث أنها تبرر امتعاض بالمرستون من حكم الباشا وتقوى الضرورات السياسية بالاعتبارات الانسانية.

كما أنه لا يمكن عدلا أن يلقى اللوم كله على عاتق السلطان بسبب عناده وعدائه للباشا فان الاقتراع للعسكرية كان يمكن أن يراعى فيه جانب العدل فيما لو خفف الموظفون من وطأة جشعهم وميلهم إلى الاضطهاد والظلم. ولا ندحة عن القول هنا بأن الباشا فيما يتعلق بهذه المسألة قد ورطته أحلامه السياسية إلى اتباع سياسة تذكر الانسان بأنه حاكم تركى أولا ثم هو بعد ذلك مستبد عادل ولكننا اذا تركنا جانبا قوة ما لجأ اليه من الوسائل فلا يمكن القول بأن المقصود والغاية من تجييش الجيوش كانت كلها سيئة إذ لم يكن من سبيل آخر لانهاض عزيمة رجال ظلوا يرسفون فى قيود العبودية قبل انشاء الهرم الأول. ولم يخطر لأحد منذ الفتح العربى أن يستخدمهم فى أعمال القتال. بل لقد ظلوا قانعين طيلة تلك القرون بحرث الاراضى والحقول وحمل الأثقال وتحمل الضرب وإطاعة الأمر والتناسل تاركين لأعقابهم هـذا الميراث المؤلم. وكذا بلغ هلعهم من أن يخطفهم مشايخ القرى ويسحبوهم للانخراط فى سلك جيوش الباشا الى حد أنهم كانوا يستهينون بقطع أحد الأصابع وخلع الأسنان ورمد الأعين. ولكن امتناعهم عن التشبه بالرجال لا يمكن أن يحمل الانسان على توجيه اللوم للباشا لانه أكرههم على ذلك التشبه.

---

(١) كتاب دورى للمديرين فى ١٤ ذى الحجة ١٢٤٨ (محفوظات عابدين)

(٢) كتاب الى وزير البحرية فى ٣ ربيع الاول ١٢٥١ (محفوظات عابدين)

ولم يقف الاصلاح عند هذا الحد . فلقد أجمعت كلمة من شهدوا الحالة فى مصر على أن النظام الجديد كان أقل عنتا للاهالى عن نظام الجنود الأجانب المأجورين بمعنى أنهم لم يتركوا وراءهم أى أثر من آثار التخريب ولم يكن زحفهم بالبلاد مصحوباً بآثار التدمير لأنهم لم يجتازوا الأقاليم المصرية كما لو كانوا يخترقون بلاد العدو على نحو ما كان يفعله الجنود الأجانب المأجورين .

وبالجملة لم يكن ما أوجده الباشا من التأسيسات العسكرية مجرد مظهر من مظاهر السلطة مضى فى تنفيذها بلا مبالاة لرغبات رعاياه . كلا بل كانت والحق يقال وسيلة من وسائل التعليم وضربا من ضروب الاصلاح الادارى .

ومع أن القضاء كان فى حاجة ماسة الى الاصلاح إلا أنه كثيرا ما عرض الى مسائل لم يكن من المستطاع مداراتها بالعنت العاجل .

بل كان أشد ما يكون ارتباطا بالشريعة الغراء بحيث لم يستطع الباشا مساسه أو التعرض له إلا بمنتهى الحذر .

ولقد كان المفتى هو المرجع الأعلى فى كل ما يتعلق بقانون الأحوال الشخصية كالزواج والطلاق وبالأخص مسألة الميراث .

وكان تعيين هذا المفتى سنويا بواسطة الباب العالى أحد بقايا مظاهر السيادة العثمانية على مصر . ولما كان هذا الموظف الكبير يبتاع منصبه هذا من الباب العالى نفسه فلم يكن ينتظر من المفتى أن يكون نزيها فى تطبيق العدالة ولا حريصا فى اختيار من يشغلون مناصب القضاء تحت اشرافه . ولذا كان محمد على شديد الارتياب فى ذمة هؤلاء القضاة ونزاهتهم . وقد نصح إحدى الأسر بعد أن دب دبيب الخلاف بين أعضائها بأن يعقدوا الصلح فيما بينهم وألا يلتجئوا الى القاضى خيفة أن يقعوا فى براثنه فلن يقتصر الضرر على أحدهم فقط بل سيلحقهم جميعا وتدور عليهم الدائرة ويخرجون من التحكيم بصفة المغبون بينما يفوز القاضى بنصيب الأسد .

على أن الباشا وإن لم يسعه التدخل مباشرة فى دائرة أولئك القضاة إلا أنه بذل ما فى وسعه لتحديد نتائج أعمالهم . فلقد أنشأ فى كل من الاسكندرية والقاهرة محكمة جديدة لاتتقيد بقيود الشريعة الاسلامية وقد جعل أعضاء هاتين المحكمتين من رجال التجارة بدلا من رجال الدين وعهد إليهما بفض المشاكل التجارية وبخاصة ما يجد منها بين المسلمين والمسيحيين على أن هذا الأمر الذى استلفت الأنظار فى تكوين هاتين المحكمتين أن الأعضاء المسلمين فيهما لم تكن لهم الأغلبية فمثلا كانت محكمة الاسكندرية مركبة من تسعة أعضاء بينهم أربعة مسلمين والخامس فرنسى والسادس يهودى والسابع والثامن من المسيحيين السوريين والتاسع من الرعايا اليونانيين (١) .

أما فيما يتعلق بأحكام الجنايات فكانت من اختصاص الهيئة التنفيذية عادة ولم يدخر الباشا وسعا منذ جلوسه على الأريكة المصرية لوقف أو تقليل كافة الجنايات المنطوية على استعمال العنف . وقد علق ميسيت فى سنة ١٨١٣ على هذه الحقيقة الباهرة بأن سكان القاهرة صاروا لأول مرة منذ أجيال عديدة يتمتعون بنعم الطمأنينة على النفس والمال (٢) . ان هذا الشعور بالطمأنينة لم يتوطد إلا بعد استعمال مختلف ضروب الشدة واعدام كثير من الأشرار . وكثيرا ما كانت بوابة زويلة مثلا - وهى التى كانت ينفذ فى ساحتها الشنق العانى تعلق على جدرانها جثث المشاغبين وكانت أحكام الباشا عرفية لا نقض لها فكانت الاحكام مما لا يمكن التوفيق بينه وبين مايجرى فى القارة الأوربية . مثال ذلك أنه لو اتهم شخص بالسرقة من مصنع البنادق فانه يحكم عليه إذا كان شابا بالأشغال الشاقة المؤبدة وهو مصفد بالأغلال أما إذا كان شيخا فيصدر الحكم باعدامه ليكون عبرة لغيره (٣) .

---

(١) تقرير كامبل من سوريا فى ٢٣ اغسطس ١٨٣٦ (وزارة الخارجية ٢٨٣-٧٨)
(٢) ميسيت فى ٩ نوفمبر ١٨١٣ (وزارة الخارجية ٤ - ٢٤)
(٣) كتاب الباشا لحبيب افندى فى ٢٦ ذى الحجة ١٢٥٣ (محفوظات عابدين)

ولكن ليس ثمت مايدل على أن تطبيق الباشا لقانون الجنايات كان أشد صرامة مما كان متبعا فى انجلترا لغاية ظهور الاصلاحات التى وضعها « بيل » وهى التى خفت وطأتها على كل حال بمرور الزمن .

وكثيرا ما كانت عقوبة الاعدام تستبدل بالشغل فى الجبال وهذا ما حمل « عشماوى » الحكومة المصريه فى القاهرة يصرح لبورنج أن عمله غدا محدوداً أو ضئيلا (١) .

أما الرق والنخاسة فقد كانا من الأنظمة المتأصلة بحيث لم يكن فى وسع محمد على إلغائهما مهما كانت رغبته فى ذلك شديدة .

وكان عهد محمد على بهما يرجع إلى زمن الصبا بل زمن الطفولة فقد كانا القاعدة المعمول بها فى الشرق من عهد بعيد ولم يكن فيها مايتقزز منه العواطف الأدبية فى العقلية الشرقية . لا بل أن ضمير الغرب وهو أكثر تأنفا من ضمير الشرق لم يضق ذرعا من مسألة الرقيق ويطلب وقفها إلا منذ عهد قريب فقط وقبل ذلك لم يعمل شيء بل ولم يكن فى الاستطاعة عمل شيء لتقييد سوق النخاسة فى القاهرة أو التأثير فى السلطة التى منحتها الشريعة الاسلامية للسيد على مولاه وقد لفت المسيو دى هامل قنصل روسيا الجنرال نظر الباشا فى سنة ١٨٢٦ الى الموضوع وسأله اذا كان فى استطاعته أن يشل قدرة السادة على إنزال عقوبة الموت بمواليهم أو إلحاق الأذى بهم ومعاملتهم أسوأ معاملة . فأنعم محمد على النظر مليا وخيل اليه أنه قد يستطيع أن يصنع شيئا فى صدد الذكور من الرقيق ولكنه لم يعلل القنصل بشيء من الأمل فيما يتعلق بالنساء الرقيق بل قال أنه لا يمكنه التدخل فى شؤونهن لأن الحريم مكان مقدس ولا يسمح لقريب ـ كائنا من كان بالدخول فيه (٢) . ثم وقفت المسالة عند هذا الحد .

---

(١) كما جاء فى تقرير بورنج « الاوراق البرلمانية سنة ١٨٤٠ » جزء ١ ص ١٢٣

(١) كامبل فى ٢٤ ديسمبر ١٨٣٦ (وزارة الخارجية ٢٨٣ ـ ٧٨)

ولابد أن ما قام بينه وبين الدول الأوربية من النزاع حول الشؤون الخارجية قد حول نظره عن الدخول فى مسألة شائكة كمسألة الرقيق لم تكن له شخصيا أية رغبة فى اجراء الاصلاح فيها أو تحسين شأنها .

وكانت النخاسة من أهم أركان التجارة فى كافة البلاد والتى كانت تهم الباشا وقد كانت الغارات تشن من آن لآخر على الرقيق فى السودان وفى المناطق الأخرى الواقعة جنوبى السودان . ومن هناك كان الأسرى يرسلون الى القاهرة فى شكل قوافل كبيرة . وبالطبع كان من أصعب الأمور أن يحصل الانسان على معلومات صحيحة فى هذا الصدد ولكن أحد الفرنسيين فى عهد الاحتلال الفرنسى سأل قبطيا ظل مدة ثلاثين عاما يحصى عدد العبيد الذين يرسلون إلى القاهرة فعلم أن عددهم لم يكن يتجاوز الأربعة آلاف سنويا (١) ومن المحتمل أن يكون هذا العدد قد ازداد وتضاعف لأمر ما بعد أن توطد حكم محمد على فى السودان . فان القارىء يذكر أن الباشا علل نفسه بانشاء جيش كبير من هؤلاء السودانيين وقد كان أعوان الحكومة يقومون فى فصل الخريف من كل سنة للحصول على العبيد وهكذا ظلت للنخاسة فى السودان امتيازا قاصرا على الحكومة وحدها (٢).

ولم تكن فتوحات محمد على فى جنوب السودان هى وحدها التى كانت السبب فى انتشار تجارة النخاسة . بل لقد ساعد احتلال روسيا لبلاد الكرج والجركش على تقليل عدد الرقيق الأبيض الذى كان يرسل منهما الى الاستانة وازداد الاقبال على الرقيق الاسود الموجود فى سوق القاهرة . ومن هنا انكشف سر المسألة فان ما أوجدته الحكومة الجديدة من حسن النظام قد ساعد فريق الأجانب على التجول فى أنحاء السودان بمأمن من الخطر .

---

(١) كتاب المسيو فرانك « تجارة النخاسة فى القاهرة » ص ١٩

(٢) كما جاء فى كتاب الباشا إلى الصارى عسكر فى كردفان فى ١٥ ربيع الاول سنه ١٢٣٧ (محفوظات عابدين)

ولقد تمكن أحدهم وهو الدكتور هولرويد من الحصول على تفاصيل ضافية للأماكن التى يقطنها الرقيق وللغارات التى كانت تشن عليهم وما كان ينتظر الأسرى من المعاملة ولئن لم تكن هذه التفاصيل قد بلغت وصف فظائع هذه التجارة إلا أن بالمرستون قد استغلها لاستثارة الرأى العام فى انجلترا ضد حكومة محمد على (١) على أن الباشا بعد زيارته الطويلة لربوع السودان فى سنة ١٨٣٨ قد اتخذ الاجراءات الفعالة لتضييق دائرة النخاسة . فبعد أن كانت الضرائب تدفع بتقديم عدد معين من الرقيق قرر الباشا أن تدفع فى المستقبل بتقديم مقادير معينة من الحبوب وما اليها من المحاصيل ، ومع أن قراره هذا كانت له نتائجه الفعالة طبعا ، فان هذه العادة الوحشية المتأصلة فى البلاد عادة شن الغارة على الرقيق قد قدر لها أن تظل وقتا طويلا دون أن تستأصل شأفتها بتاتاً .

وكان على النقيض من تراخى الباشا حيال النخاسة والرق موقفه فيما له مساس بالشؤون الصحية أو شؤون التعليم ففى مسألة الرقيق لم يكن الباشا كثير الايمان بنظريات رجال الغرب فى صدد اطلاق الحرية للجميع . أما فى المسائل الأخرى فقد كان على يقين بأن أطباء الغرب أعلى كعبا من «الحكماء» المصريين وان شعبه يفيد أكبر فائدة من التعاليم الغربية وقد وضع محمد على ثقته التامة فى كل مايتعلق بالشؤون الصحية أو التنظيم الطبى فى شخص كلوت بك وهو أحد أطباء الفرنسيين وقد بنيت تحت اشرافه مدرسة للطب فى جهة أبى زعبل على أن هذه المحاولة مالبثت أن أعقبها الفشل وتبين أنها محاولة جاءت قبل أوانها وذلك بسبب ضعف مستوى التعليم العام .

وقد كان كبار المعلمين فرنسيين ممن لايعرفون التكلم بالعربية بينما كان الطلبة

---

(١) تقرير بورنج « الاوراق البرلمانية سنة ١٨٤٠ المجلد الحادى والعشرين ص ٨٣ » وكما ذكره كامبل فى رسالته الى بدويل فى ١ ديسمبر ١٨٣٩ (وزارة الخارجية ٣٢٢-٧٨)

مصريين ممن لا يفقهون الفرنسية . فلم يكن يمكن فى هــــذه الحالة أن تسفر النتيجة الختامية إلا عن اخراج بعض « جراحين » لادراية لهم بالطب الغربى وليس من شك فى أنه كان يكون أصوب لو أن الباشا بدأ تنفيذ فكرته بارسال عدد محدود من رجاله الى الخارج للحصول على ما هم فى حاجة اليه من أنواع الخبرة والدراية . ولكنه كان راغبا فى أن تكون الوحدات المختلفة التابعة لجيشه مزودة بالجراحين ومساعديهم وهذا ماجعله يصر على الحصول عليهم فورا على أنه كان ميالا لتشجيع الماهرين بين الزوار الذين يهبطون القطر المصرى فمن ذلك أن الدكتور شارل تيلور حكيم العيون زار الاسكندرية فى سنة ١٨٣٦ وقد أجرى عدة عمليات كان النجاح حليفه فيها كلها مما دفع الناس من كافة الطبقات أن يقصدوه أفواجا وقد كان يذهل لمحاصرة داره يوميا نحو ٧٠ الى ٨٠ شخصا على أمل استلفات نظره والاستفادة مما خيل اليهم أنها مهارة فوق مهارة البشر . وقد طمع الباشا فى أن يستبقيه فى مصر لينتفع الناس بعلمه فعرض عليه مرتبا قدره ١٢٠٠ جنيه فى العام (١)

وكان مستشفى البيمارستان من أفظع المناظر التى تصطدم بها أعين السائحين فقد كانت داراً من دور الاحسان والبر ملحقة بأحد المساجد وكان الانسان إذا زارها وجد جيشا من المرضى تنبعث منهم روائح كريهة ويرى القمل فى أجسادهم أو أن يجد بعض مسلوبى العقل وهم عرايا الأجسام مصفدين فى الأغلال تنظرهم من خلال نوافذ ذات قضبان حديدية تحول دون فرارهم . وكان هؤلاء المساكين الذين هم أشد الآدميين بؤسا فى حراسة أحد المصريين المسنين فكان يستعرضهم أمام السائحين على أمل أن يتحفوه بالهدايا وينفحوه بالبقشيش . وسرعان ماوافق الباشا على مشورة كلوت بك بالغاء هذا الأثر المتخلف عن العصور المظلمة وأمر أن يقام بدلا عنها مستشفى فى ميـــدان

---

(١) كامبل فى ٥ اكتوبر ١٨٣٦ (وزارة الخارجية ٢٨٤ - ٧٨)

الأزبكية الشاسع (١) .

ومثل آخر يدلك على مبلغ حرص محمد على واستعداده للأخذ بأهداب التحسين والاصلاح وهذا المثل يتجلى فى مبادرته الى انشاء ادارة الشؤون الصحية . فلقد أصيبت مصر فى سنة ١٨٣٠ بوباء الكوليرا وكان شديد الوطأة وقد نقل الحجاج جراثيم هذا الوباء عند عودتهم من الحجاز الى السويس وسرعان ماسقط ضحية له نحو ١٥٠ شخصا فى خلال يومين .

وفى خلال الاسبوعين التاليين إذا بالوباء يظهر فجأة فى القاهرة وطمعا فى منع الوباء من الوصول الى الاسكندرية استعان محمد على بالقناصل العموميين واضعا تحت تصرفهم كل من كان من جنوده على مقربة من الثغر وأطلق الحرية الكاملة فى صدد النفقات .

وقد لبى القناصل نداء الباشا وإن كان يلوح أنهم قد داخلهم اليأس عن وقف انتشار الوباء أو كبح وطأته فأنشأ القناصل كردونين من الجنود فى القاهرة والاسكندرية .

ولكن حدث ما كان ينتظر وهو أن أعراض الوباء ظهرت بين الجنود وما هو إلا أقل من أسبوع حتى كان ٨٠٠ منهم فى المستشفى . أما الأطباء والصيادلة فالبعض منهم قد فر من البلاد والبعض الآخر لحق بربه .

وهكذا دب الخلل فى كافة المصالح العمومية وأغفلت جميع وسائل الوقاية وقبل أن يتم التغلب على هذا الوباء الفتاك كان قد ذهب ضحية له ٩٠٠٠ شخص فى القاهرة وما يزيد عن ١٥٠٠ شخص فى الاسكندرية . وكان تعداد المدينتين وقتئذ يقدر على التوالى بنحو ٣٠٠ ألف و ٩٠ ألف (٢) .

---

(١) كتاب سان جون السالف الذكر ص ٣٠٩ جزء ثان وتقرير بورنج « الاوراق البرلمانية سنة ١٨٤٠ الجزء ٢١ ص ١٤٢ »

(٢) رسالة باركر الى غوردون فى ٢٩ سبتمبر ١٨٣١ (وزارة الخارجية ٢٠٢-٧٨)

ولم تنتشر الكوليرا هذا الانتشار إلا فى النادر القليل ولم تصبح وباء مرة أخرى إلا فى سنة ١٨٤٩ . ولكن التهاب الأبط وتورمها أصبح وباء يثير الذعر فى قلوب الأهالى . ولعل من قرأ قصة « أبوتن » يذكر كيف كان من عادة الفرنسيس عند سماعهم بانتشار الأوبئة فى الخارج يحبسون أنفسهم فى أمكنة منعزلة عزلا تاما عن باقى الناس هذا بينما كان المسلمون يحاولون بشىء من الغموض أن يتجاهلوا الخطر المحدق بهم . على أن الذين كانوا يخترقون الشوارع مستهترين بالخطر فى مثل هذه الأوقات لم يكونوا المسلمون على اختلاف طبقاتهم . كلا فان قليلا منهم ماعدا طبقة الفقراء الذين كانوا يؤمنون بأن قضاء الله لا مرد له . ولما كانت طبقة الفقراء فى فقر مدقع فان ذلك جعلها أقل حرصا على حياة البؤس واستمرارها .

أما من ساعدهم الرخاء والثروة على تذوق النعيم فقد كانوا أشبه فى حرصهم على الحياة بالفرنسيين الغير مؤمنين . ولم يكن يسمح لأحد حتى القناصل العموميين بزيارة الباشا أو الدخول الى مخبأه وأغلقت أبواب المصانع العامة ووقف دولاب العمل وقفا تاما(١) .

ولعل أسوأ وباء وأشده فتكا بالأرواح هو الذى أصاب الوجه البحرى سنة ١٨٣٥ فلقد كان فى رأى البعض أسوأ بكثير من الطاعون الذى أصيبت به مصر قبل ذلك التاريخ بأربعين عاما . وقد بلغت ضحايا وباء سنة ١٨٣٥ فى القاهرة وحدها ٣١ الف وذلك فى خلال ٣ أشهر فقط ولكن كامبل كان يعتقد أن العدد الحقيقى أكثر من ذلك وفى رأيه أن أكثر الضحايا كان من المسلمين .

وحدث أن الوباء اختطف أرواح ١٣٥ فرداً من أعضاء إحدى الأسر

---

(١) كما ذكره صولت فى ١٥ يونيه ١٨١٦ « وزارة الخارجية ٦ـ٢٤ » وكما ذكره كامبل فى ٢٩ مارس و١٥ ابريل سنة ١٨٣٥ (وزارة الخارجية ٢٥٧ - ٧٨)

الكبيرة فأقفلت أبواب دورها كما أقفلت أبواب ٢٠٠ داراً من دور المسلمين لا لسبب إلا لأن السكان قد حصدهم الطاعون على بكرة أبيهم فلم يبق منهم أحد وقد هلك من الأقباط نحو ربع عددهم وهكذا زاد عدد الضحايا بنحو ٢٠ ألف (١).

ولما كانت القورنتينة هى الوقاية الوحيدة التى كانت معروفة وقتئذ ضد الطاعون فان الباشا قد لجأ الى القناصل مرة أخرى ينشد معونتهم إذ لولاها ولولا موافقتهم لتعذر إن لم نقل يستحيل تنفيذ لوائح القورنتينات وتطبيقها على عدد كبير من السفن والملاحين الأوربيين. ومن ثم اجتمع القناصل وشكلوا منهم لجنة كانت تعرف فى أوقات مختلفة باسم مصلحة الصحة أو اللجنة الصحية. وأنشىء محجر صحى بالقرب من الموضع الذى كانت تقوم فيه وقتئذ سكة كليرباترة على شاطىء البحر عند الميناء الجديد أو الميناء الشرقية بالاسكندرية وعند هذا المحجر كانت السفن الداخلة فى القورنتينة تلقى مراسيها (٢).

وقد نبه على حكمدار بوليس الاسكندرية بأن يسهر على تنفيذ كل ما عسى أن يشير به القناصل من الاجراءات الصحية ولم يكن هذا لعمرك بالأمر الهين. ذلك لأن الأهالى لم يكونوا مبالين إلى إطاعة الأوامر فى هذا الصدد لأنهم لم يفهموا الغاية المقصودة بها من جهة ولأن معظمهم كان يعتقد أنها مما لا يتلاءم مع أصول دينهم وقد أعلن الباشا فى طول البلاد وعرضها أن اجتناب العدوى لا يتنافى مع الشريعة ووعد باستصدار فتوى من العلماء لتدعيم دعواه وقد ختم الباشا رسالته الى رئيس الديوان بقوله « ان الأهالى هم أشبه شىء بالعجماوات لا يميزون الطيب من الخبيث (٣).

(١) كامبل فى ٢٥ يونيه ١٨٣٥ (وزارة الخارجية ٢٥٧ - ٧٨)

(٢) كامبل فى ٢٦ اكتوبر ١٨٣٥ (وزارة الخارجية ٢٦٠ - ٧٨)

(٣) كما جاء فى رسالة / ١٥٠ (محفوظات عابدين)

ثم تشكلت بعد ذلك بقليل لجنة أخرى برئاسة الكولونيل كامبل نفسه للسهر على تحسين الحالة الصحية العامة فى منطقة الاسكندرية وكانت باكورة أعمال هذه اللجنة إزالة عدد من العشش القذرة التابعة لصغار المصريين هذا الى سد الخندق القديم الذى كان مملوءاً بالماء الآسن الذى يحمل جراثيم مختلف الأمراض . ثم تقرر نقل مدبغة الجلود الأميرية من وسط المدينة الى طرفها وأنشئت طريق واسعة لتفصل ما بين الحى الأوربى والجمرك (١) .

وقد تمكن كامبل فى سنة ١٨٢٧ وبالرغم من مجىء الحجاج بلا انقطاع من الجهات المصابة بالوباء أن يعلن أن الوباء قد انقطع وعزا نجاحه فى وقف الوباء إلى نظام القورنتينة الذى طبق تطبقا تاما على الجميع . وقد كتب كامبل بهذه المناسبة فقال « ان الباشا قد ترك مسألة القورنتينة كلية الى عناية لجنة القناصل الصحية . ثم انه لا يكتفى بتنفيذ كل ماتصدره اللجنة من الأوامر ولكنه فضلا عن ذلك يقدم بلا صعوبة كل ماتشير به من النفقات للعناية بشؤون المحجر الصحى الذى أصبحت نفقاته باهظة بسبب توظيف عدد كبير من الموظفين الأوربيين فيه » (٢) .

وقد تفرقت هذه اللجنة وانهد كيانها بعد استدعاء كامبل ووقوع حوادث سنتى ١٨٣٩ و ١٨٤٠ وكان أكبر ماشغل اهتمام هودجز خليفة الكولونيل الحصول على كافة المعلومات النافعة عن حصون الاسكندرية ولعل اهتمامه بذلك كان أشد من اهتمامه بمساعدة الادارة المصرية فى مختلف الشؤون الصحية.

فتشكلت لجنة صحية جديدة رشح محمد على ثلاثة من القناصل العموميين للاشتراك فى أعمالها ولكن لم يكن له حق الاشراف عليها باعتبار وظيفتهم . ثم نشأ الخلاف حول تشكيل اللجنة تشكيلا صحيحاً وكذلك بدأ الأطباء أنفسهم

---

(١) كامبل فى ١٦ اكتوبر ١٨٣٥ (وزارة الخارجية ٢٦٠ — ٧٨)
(٢) كامبل فى ٧ نوفمبر ١٨٢٧ (وزارة الخارجية ٣٢١ — ٧٨)

يتشككون فى كفاية القورنتينة كوسيلة لمنع العدوى ويرجحون أن الطاعون قد يمكن انتقاله بوسائل أخرى عدا الاحتكاك الشخصى . ولهذا رؤى تخفيف وطأة النظام الصارم القديم تدريجيا إلى أن عدل عنه نهائيا ولكن هذا يعتبر بمثابة دليل لاسبيل إلى إنكاره على رغبة الباشا لاقتباس الأساليب الاوربية واتباع الارشادات الاجنبية متى اقتنع أنها نافعة حقا .

على أن فيما اتخذه من الوسائل لتشجيع التعليم وتعميمه المثل الباهر والبرهان القاطع على سياسته الاصلاحية . فلقد كانت القاهرة تعتبر أحد المراكز الكبرى للثقافة الاسلامية وكان يهرع الطلبة من كافة العالم الاسلامى إلى الاغتراف من علوم جامعتها القديمة العظمى الممثلة فى الجامع الازهر . ولكن هذه الجامعة كانت متأخرة لا فى نظامها فقط بل وفى علومها أيضا . فلقد كان كل همها إخراج علماء دينيين ومحامين شرعيين أى لم تعن بتخريج رجال الاعمال أو الادارة .

وبينما ظل الباشا يولى الجامعة الازهرية القديمة عطفه ويرعاها بعنايته إذا به قد أنشأ بجانبها سلسلة من المعاهد وقد رمى من ورائها الى تغيير طريقة تفكير الجماهير وجعلها تتمشى مع مقتضيات الحضارة العصرية وقد لخص أحد المعاصرين الانجليز نيات محمد على وخططه فقال أنه بينما تمهل السلطان محمود بما أدخله فجأة من الاصلاحات العنيفة قد أضعف ولاء الاتراك له فان محمد على قد ظل على العكس من مولاه محتفظا بالخلق السامى بين مختلف الامم الاسلامية باتباعه الطريق الرشيدة الوحيدة التى لم يكن محيص عن اتباعها مع شعب كالشعب المصرى لم يغترف من أصول المدنية إلا القليل .

فان الباشا بما سنه من ضروب الاصلاحات التدريجية التى لا تمس الاحساسات الدينية ولا تصدم بها وقد وضع أساس الاصلاح الدائم لمعاهد الامة متيقنا بأن التعليم سيزداد انتشارا بواسطة ما أنشأه من المدارس العمومية فى مختلف

أنحاء مملكته لتحقيق مايرمى اليه من ضروب الاصلاح (١).

ويلوح أن تاريخ هذه السياسة يرجع الى سنة ١٨٢٠ وكانت فى منشأها تعتبر بمثابة نتيجة طبيعية لما أدخله الباشا من ضروب الاصلاح فى الجيش. لأن التجاه الى اقتباس الأساليب الأوربية الخاصة بطرق التنظيم والتدريب اقتضى طبعا الحصول على ضباط قادرين على دراسة العلوم الأوربية العسكرية والهندسية والحسابية. وكان أول دليل على أن الباشا مسلم بصحة هذا الرأى أنه استخدم فى القلعة فى القاهرة معلماً إيطاليا يدعى كوشى وعهد اليه بتعليم الرسم والرياضيات ثم صدرت الأوامر بعد ذلك بتعليم اللغة الايطالية ولغات البلاد الواقعة شرقى حوض البحر المتوسط. ثم طلب الباشا بعد ذلك معلمين لتعليم اللغة الفرنسية واللغة التركية هذا عدا استخدام أحد مهرة المهندسين (٢).

فمن هذه البداية البسيطة نشأت المدارس لتدريب الضباط وإعدادهم للفروع الخمسة فى خدمة الباشا. وهى الطوبجية والهندسة والسوارى والمشاة والبحرية تحت اشراف المعلمين الأوربيين.

ولتوسيع أساس التعليم أرسل الباشا طائفة كبيرة من الشبان المصريين الى فرنسا ولفيفا منهم الى انجلترا لاتمام دروسهم على حساب الباشا. وقد أينعت ثمار هذه السياسة الرشيدة فى سنة ١٨٣٢ عند ما أنشأ الباشا مدرسة الفنون والصنايع لتكون بمثابة مدرسة لتدريب كليات الضباط. وكان بين أساتذة هذه المدرسة معلمان أوربيان فقط أحدهما لتدريس الكيميا والآخر لتدريس الرياضيات وإلى جانب هذين المعلمين كان هناك أربعة من المعلمين الأرمن قضى أحدهما عشر سنوات فى مدينة ستونى هيرت بانجلترا. هذا عدا ستة معلمين مسلمين تلقى ثلاثة منهم علومهم فى جامعة باريس والثلاثة الباقون فى

---

(١) مذكرة تيربرن فى ١٤ اكتوبر ١٨٣٦ (وزارة الخارجية ٢٩٥ — ٧٨)
(٢) كامبل فى ١٤ نوفمبر ١٨٣٣ (وزارة الخارجية ٢٢٨ — ٧٨)

جامعات انجلترا (١) وتلا هذا التوسع انشاء عدد من المدارس الابتدائيـة فى كل مديرية وأنشأ مدرستين ، تحضيريتين ، كبيرتين إحداهما فى القاهرة والأخرى فى الاسكندرية لتغـذية مدرسـة الفنون والصنـائع . وكان دخول الطالب فى هذه المدارس بمثابة قبوله فى خدمة الباشا . وكنت ترى الطلبة وقتئذ يتناولون مجانا الطعام والملبس والمسكن هذا عدا مرتبات شهرية قليـلة تزداد تدريجيا كلما انتقل الطالب من أحد الفصول الى الفصل الذى يليه .

أما مستقبل أولئك الطلبة ونوع الخدمة التى يعلمون لها وما يتلقاه كل منهم من التعليم الفنى فهذه كلها مسائل لا رأى للطلبة فيها بل الأمر متروك فيها للباشا ولموظفيه . ولقد كانت مصر أول دولة شرقية أدخل فيها التعليم الغربى على مايشبه القواعد المنظمة .

ولم يعد بورنج جانب الحقيقة عند ما وجه انتقاده الى المشروع قائلا : ان التعليم الابتدائى فيه قد وضع على أساس ضيق وانه رمى الى تعليم الأقلية تعليما عاليا بدلا من إيجاد نظام عام للأكثرية .

على أن الباشا ما كان يمكن عدلا أن يلام لأنه لم يتبع النظام الذى لم تكن قد اتبعته بعد أمم أوربية أعلى كعبا من مصر فى المدنية الحديثة .

ولقد كان إنشاء هذه الكليات والمدارس مصحوبا بانشاء مطبعة وجريدة وغازيتة . ولم ينته عام ١٨٣٧ حتى كانت مطبعة بولاق . وكانت وقتئذ من ضواحى القاهرة وممتدة الى داخل نهر النيل . وقد أنجز طبع ما لا يقل عن ٧٣ من أمهات الكتب العربية . وكان بين هذه عدد من تراجم الكتب الفنية لاستعمالها فى المدارس الجديدة (٢) ووضع الباشا مشروع جريدة تنشر باللغتين العربية

---

(١) تقرير بورنج « الاوراق البرلمانية سنة ١٩٤٠ المجلد ٢١ ص ١٢٥ » .

(٢) كما ذكره ميديم الى نسلروود فى ١٢ و ٢٤ يناير ١٨٣٨

والفرنسية (١) وكانت هناك صحف أوربية فى الاسكندرية فى سنة ١٨٢٤ وفى هـــذه السنة نفسها نشر صولت القنصل البريطانى العام قصيدة وصفية من الشعر (٢) وفى ذلك الوقت تحسن أيضا مركز الأوربيين والمسيحيين عامة فان الأقباط كانوا قبل ارتقاء محمد على الأريكة المصرية عرضة لكثير من المتاعب والقيود . مثال ذلك أنهم كانوا ملزمين بتمييز أنفسهم عن بقية السكان المسلمين بلون ثيابهم وكان محظورا عليهم ركوب الخيل وكانوا ممنوعين بتاتا فى أثنـاء شهر رمضان ان يأكلوا او يشربوا او يدخنوا فى النهار علنا فى الطرق العامة وذلك لكيلا يذكروا المؤمنين بهذا الصوم الاجبارى .

وكان الأجانب من سكان الاسكندرية والقاهرة يقطنون فى أحياء متفرقة ويحمى الحراس مداخلها وكانوا كلما أرادوا السفر الى الخارج لبسوا الزى التركى ليتفادوا الاهانات . وقد وردت هذه العبارات فى منشور اعلان تركيا الحرب على روسيا فى سنة ١٨٢٧ وهو « ان كل عاقل يعلم حق العلم أن كل مسلم هو بطبيعته العدو الألد للكفار وأن كل كافر عدو لدود للمسلمين » ولكن روح الحكومة فى عهد الباشا تغيرت تغيراً محسوساً كما تغير لذلك إحساس الأهالي حيال المسيحيين وقد أسر الروس فى الحرب التركية اثنين من أقارب محمد على فى سنة ١٨٢٧ فلما عادا من الأسر فى سنة ١٨٢٩ إذا بهما يلهجـان بالثناء على مالقياه وغيرهما من الأسرى من حسن المعاملة فى السجون الروسية

وعند ماخيف فى احدى السنوات أن لايبلغ فيضان النيل المنسوب المقرر إذ بالدعوات الحارة والصلاة لله لايقوم بها مشايخ المذاهب الاسلامية وحدهم على ضفتى النيل بل شاركهم فيها حاخام اليهود والقسس المسيحية (٣) . بل أنه سمح للودلف المبشر المسلوب العقل بأن يخطب فى الشوارع بلغة غريبة لم

---

(١) كما جاء فى كتاب سان جون السالف الذكر جزء أول ص ٥٤

(٢) وقد سما مصر فى القصيدة « وصفية »

(٣) كما ذكره كلوت بك فى كتابه ص ١٤٢

يستطع أحد فهمها ولكنه لما ملأ جدران القاهرة فيما بعد باعلاناته وملاحظاته بلغة يفهمها الجميع لم يسع الباشا إلا أن يسأله مغادرة القطر خيفة أن يعتدى عليه أحد الناس صدفة فلا يجد من يقيه شر العدوان (١).

وقد ظل كثيرين من رعايا الانجليز يقطنون القاهرة والاسكندرية دون أن يصيبهم مكروه فى أثناء الحوادث المشهورة التى وقعت فى سنتى ١٨٣٩ و ١٨٤٠

وبديهى أن لا تصادف سياسة الباشا هذه قبولا لدى مشايخ الأزهر وكان أحد خطبائهم وكان اسمه الشيخ ابراهيم أشدهم وطأة فى نقد هذه السياسة وكان مما انتقد عليه هذا الشيخ أن الباشا أعطى لليهود امتياز صناعة القصابين فى الاسكندرية وهكذا عرض للخطر إيمان المؤمنين ذلك لأن اليهود لم يراعوا تلاوة الصيغة المقدسة الاسلامية المألوفة عند القيام بعملية الذبح كما أنهم لم يحرصوا على توجيه رأس الحيوان المذبوح فى اتجاه مكة ثم أنهم بدلا من أن يقبضوا على المدية بالأصابع الخمسة كانوا يقبضون عليها بثلاثة أصابع (٢) على أن الباشا لم يصبر على لغو هذا الشيخ بل أبعده الى تونس.

وهكذا كان الباشا فى كافة هذه المسائل وأضرابها مثل ارغام رعاياه على التسامح الدينى والسهر على ترقية الوسائل الصحية ونشر التعليم والثقافة وإقامة العدل بين الناس وتنظيم جيشه وإنشاء أسطول قوى وتحديد الضرائب وتشجيع زراعة الحاصلات الجديدة ومراقبة سلوك موظفيه عن كثب.

نقول ان الباشا كان يعمل فى هذه المسائل كلها ضد إرادة رعاياه كلهم تقريبا. ولهذا رأينا المشروعات التى كانت نفسه تطمح إلى تحقيقها يهملها أو يعدل عنها بتاتاً . ومن بين هذه المشروعات مشروعات ـ كانشاء الأسطول

---

(١) كما ذكره باركر فى كتابه « سوريا ومصر » الجزء الثانى ص ١٤٢

(٢) كما جاء فى كتاب سان جون السالف الذكر ج ١ ص ٤٣

مثلا ـ كانت محاطة بمصاعب لا يسهل تذليلها وقد أصيبت معظم مشروعاته بالضعف وتولاها الفشل لا لشيء إلا لعدم ثقته بالمستقبل وشعوره بأن مايعمل ينبغي أن يعمله شخصيا أو ينجز في حالة حياته المحدودة الأجل ولهذا يمكن الحكم على أعماله بأنها كانت أعمال قائمة على العجلة ولم تنضج تماما وإما أنها جاءت غير كاملة ولكن بالرغم من ذلك كله وبالرغم مما حدث من رد الفعل بعد اختفائه من على مسرح سياسة مصر فان ما يتنافى مع العدالة وواجب الانصاف أن يقال أن أعمال محمد علي ذهبت أو أنها بمثابة نفخة في رماد . فان ما أوجده من الاندفاع الى الأمام يضاف إليه ما أحكم من الصلات مع الغرب كل هذا قد استمر بعد انتقاله الى الدار الآخرى حتى أن مصر عند ما بدأت فيما بعد أن تنفض عنها غبار الكسل وأن تسير مرة أخرى إلى الأمام وجدت أنها تبدأ من نقطة تتقدم كثيرا عن النقطة التي بدأ بها الباشا العظيم . ويرجع الفضل في ذلك كله وقبل كل شيء إلى آثار الثقافة التي تفتحت في عهده البلاد لها من أقصاها إلى أقصاها .

الفصل الثامن

آثار حكم محمد علي فى جزيرة كريت وسوريا

فى أثناء الحرب اليونانية وضع جلالة السلطان جزيرتى قبرص وكريت تحت رعاية محمد على ظناً من جلالته بأن الباشا هو الشخص الوحيد الذى يستطيع أن يصد عنهما حملات اليونانيين وفى سنة ١٨٣٠ عهد السلطان الى الباشا بصفة رسمية بأن يباشر الحكم فى جزيرة كريت . على أن محمدعلى اشترط لقبول هذا العبء أن يسمح له بابعاد الجنود العثمانيين المقيمين فى الجزيرة وأن يحل محلهم بعض الأورط المصرية (١) وقد بدأ محمدعلى بتنفيذ خطته فولى على الجزيرة قومندانا اسمه عثمان بك كان قد أرسله من قبل لتلقى العلوم فى فرنسا وايطاليا (٢) . أما أهالى الجزيرة فكانوا خليطا ويغلب فيهم العنصر اليونانى الذى كان عدده نصف السكان . وقد قدر سافارى عدد سكان الجزيرة قبل ذلك بخمسين سنة بنحو ٣٨٠ الف ولكن هذا العدد قد نقص بسبب الحروب والطاعون والبؤس المخيم على الجزيرة الى نحو ١٠٠ ألف نسمة وهو عدد السكان عند ما عهد الى والى مصر بالاشراف على شئون الجزيرة وكان بديهيا أن ينذر اختلاط الأجناس فى الجزيرة يبذر بذور الشرور والمتاعب واستفحال الخلاف . كما أنه لم يكن ينتظر عاقل أن تصير مهمة الحكم سهلة مريحة . وحسبك أن مجموع الايراد لم يتجاوز الأربعة ملايين قرش صاغ بينما كانت النفقات تتجاوز إحدى عشر مليونا من القروش وأغلب الظن أن الباشا لم يقبل الاضطلاع بشؤون الجزيرة إلا لأنها تكون له بمثابة محطة بحرية تقع على

---

(١) باركر الى السير مالكولم فى ٣١ اغسطس ١٨٣٠ (وزارة الخارجية ١٩٢-٧٨)
(٢) » » » » فى ١٧ سبتمبر ١٨٣٠ » » ١٩٢-٧٨)

مسافة بعيدة فى شمال الاسكندرية . وقد حذرته الحكومة البريطانية دفعتين بأن أية محاولة لارهاق السكان المسيحيين واضطهادهم أو استعمال العنف معهم قد يؤدى الى تدخل الدول العظمى (١) .

ونحسب أن مثل هذا التحذير لم يكن هناك مايقتضى صدوره لأنه إذا كان الوالى المصرى قد عهد فيه عن الأقلية المسيحية فى مصر فمن باب أولى أنه لن يفكر فى اضطهاد الأغلبية المسيحية فى جزيرة كريت . وكانت باكورة أعماله بعد صدور الفرمان الشاهانى بتوليته حاكما على الجزيرة أنه أذاع منشورا موجها إلى الشعب الكريدى فقد طمأنهم فيه على أنفسهم وبين لهم أنه ليس ثمت ما يخشونه وأنه لن يتوانى فى القصاص ممن يحاول ارهاقهم وأنه سينشىء مجلسين إحدهما فى « خانية » والأخرى فى « كنديا » وأن الأعضاء المسلمين والمسيحيين سيشتركون فى أعمال هذين المجلسين اللذين يخول لهما البت فى كل الأمور ما عدا ما كان له مساس بالشؤون القانونية البحتة كمسألة المواريث وكان فى نيته إدخال عدة اصلاحات إلى الجزيرة كانشاء رصيف لميناء خانية وتغطية التلال بالغابات ونشر الزراعة وتعميمها (٢) وثمت مشروع آخر صحت عزيمته على تنفيذه وهو تحسين ميناء « سودا » لتكون صالحة من ناحية لتخزين التجارة الواردة من سوريا ولتكون قاعدة للاسطول المصرى (٣) .

وفى سنة ١٨٣٣ شخص الباشا بنفسه لزيارة كريت . وقد ذهب فى صحبته الكولونيل كامبل إجابة لدعوة الباشا . ومن هناك أرسل الكولونيل إلى انجلترا عدة ملاحظات مهمة عن شؤون الجزيرة وطريقة إدارتها فقد بين أن الجزيرة

---

(١) تعليمات الى باركر فى ١٥ اكتوبر و ٣١ ديسمبر ١٨٢٨ (وزارة الخارجية ١٧٠ — ٧٨)

(٢) كما ذكره باركر فى رسالته إلى غوردون فى ٨ سبتمبر سنة ١٨٣٠ ومعه مرفقات (وزارة الخارجية ١٩٢ — ٧٨) .

(٣) كما ذكره كامبل فى ٢٦ مايو سنة ١٨٣٣ (وزارة الخارجية ٢٢٧ — ٧٨)

فى إبان الفترة التى كانت خاضعة فيها لحكم السلطان تولى أمرها من قبله ثلاثة باشوات أساءوا الحكم فيها واستبدلوا جميعا على عجل وكانوا جميعا سواء فى ظلم الرعية واضطهادها وليس من شك فى أن الحامية التركية المعسكرة فى الجزيرة كادت تطرد إبان الحرب اليونانية لولا مساعدة الجيوش المصرية لها . فلما انتقل أمر الجزيرة إلى الباشا ولى عليها مصطفى باشا وهو رجل كان يخشى الترك بأسه بقدر ما كان السكان الأروام يعظمونه ويجلونه .

وقام الباشا المذكور بانشاء المجلسين المختلطين الموعودين كما أنشأ محكمتين ابتدائيتين إحداهما فى « صفكيا » وكان أعضاؤها جميعا يونانيين إذ لم يكن هناك أثر للجنس التركى فى تلك الجهة . وقدمت الحكومة إلى الفلاحين البؤساء ما أرادوه من القروض والمواشى ليستعينوا به على زراعة أراضيهم من جديد وصدر منشور للأروام الذين نزحوا عن ديارهم بدعوتهم إلى العودة إلى بلادهم واستعادة أراضيهم بشرط أن يدفعوا لأصحابها الحاليين نفس الثمن الذى ابتاع به هؤلاء الأراضى المذكورة . وقد لبى الكثيرون نداء الباشا وعادوا إلى ديارهم واستوطنوا فيها باعتبارهم كتابيين يعيشون فى ظل الباشا وحكومته (١) ، ويدفعون الجزية لها .

على أنه برغم هذه الإدارة المعتدلة قد نشأت المتاعب ووجد مجال للتذمر فمن ذلك أن كثيرا من اللاجئين اليونانيين أبوا العودة إلى الجزيرة إلا بجوازات يونانية باعتبارهم رعايا يونانيين كما أن بعضهم دخل الجزيرة بطريقة سرية مجهولة بقصد اثارة القلاقل من جديد . ثم أن اللاجئين من سكان كنديا شرعوا ينشرون صحيفة اسمها « مينرفا » تنطق بلسانهم . وقد وقفوها على اثارة السخط واشعال نار الاحقاد والفتن فى الجزيرة (٢) وقد أصر الباشا على ألا يسمح للاجئين بالعودة إلى الجزيرة الا باعتبارهم كتابيين يدفعون الجزية قائلا أنه لو

---

(١) كما ذكره كامبل فى ٢٩ اغسطس سنة ١٨٣٣ (وزارة الخارجية ٢٢٨—٧٨)
(٢) « « « « ٢٠ اغسطس سنة ١٨٣٣ (وزارة الخارجية ٢٢٨-٧٨)

سلك غير ذلك المسلك لأثار سخط المسيحيين الباقين فى الجزيرة وعددهم ٦٠ ألفا والذين لم يخطر لهم على بال أن يطالبوا بتغيير مركزهم أو أن يعاملوا إلا باعتبارهم رعايا عثمانيين (١)

على أنه إذا كانت أعمال ابتزاز الأموال بالطرق الغير نظامية قد أوقف فان الضرائب المنتظمة قد أخذت تزداد ويشتد عبؤها على الأهلين فان «الخراج» أو الجزية المفروضة على كافة الرعايا المسيحيين التابعين للباب العالى كانت تحصل بمنتهى الشدة والقسوة(٢) ولم يفلت من شرورها إلا القليل النادر وقد فرضت ضريبة على النبيذ بقطع النظر إذا كان مصنوعا بقصد البيع أو لشؤون الصناعات المنزلية . ثم أن امتياز بيع التبغ والخمرة والجلود فى المدن كان من الأمور التى احتكرتها الادارة المحلية فأدى هذا كله إلى زيادة الصخب وجاءت الأنباء تترى من كل صوب وحدب بحصول بعض المعجزات فى مختلف الأديرة فشرع الناس يتجمهرون فى أنحاء متفرقة . وليس من شك فى أن هذه المتاعب كانت كلها نتيجة ما كان ينشره اللاجئون من الدعاية السيئة . ولما ظن أن الساعة الملائمة لاحداث الانفجار قد حانت هجم أحد الأشرار على أحد السائحين الاتراك وأوسعه ضربا إلى أن فاضت روحه . - وقد قبض على الفاعل - وهو من اللاجئين العائدين وأعدم فعلا . ولكن حكم الاعدام هذا كان أول وآخر حكم . ومن ثم شرعت الادارة فى ابعاد اللاجئين العائدين أو السماح لهم بالبقاء باعتبارهم كتابيين يدفعون الجزية بشرط أن تدفع القرى التى ينتسبون اليها كفالة عن حسن سلوكهم(٣) ثم عاد الباشا الى الاسكندرية بعد أن أصدر الأوامر التى من شأنها زيادة الاراضى المنزرعة .

---

(١) كما ذكره كامبل فى ٢٨ اغسطس سنة ١٨٣٣ (وزارة الخارجية ٢٢٨-٧٨)

(٢) المعنى الحقيقى لكلمة «خراج» هو الايراد المتحصل من ضرائب الاراضى ولكن يلوح أن الاتراك عدلوا عن هذا المعنى وطبقوه على ما كان يسمى بالجزية فى البلاد الاخرى .

(٣) كما ذكره كامبل فى ٢٩ اغسطس سنة ١٨٣٣ (وزارة الخارجية ٢٢٨-٧٨)

ولكن هذه الأوامر هيأت لسوء الحظ الفرصة لحدوث القلاقل من جديد فلقد كان من بين أوامره المذكورة أمر يقضى بأن يعين فى كل منطقة شخصان لهما دراية بقوانين مصر وأن يقوما بزيارة كل قرية واستشارة أغنيائها عن خير الوسائل للبر بالفقراء ومساعدتهم وتوحيد الاجراءات لنقل الأيدى العاملة من القرى الغاصة بالسكان إلى الجهات غير المزروعة التى يقل فيها العمال. ومع أن هذا الأمر كان مقرونا بأوامر أخرى لا سبيل إلى إنكار فوائدها لأنها كانت ترمى إلى خير الشعب عامة كانشاء المدارس ودفع مرتبات طفيفة للطلبة نقول برغم هذا كله فان أهالى كنديا قد دخل فى روعهم أن الباشا كان يرمى إلى فرض نظام مراقبة الأراضى كالذى كان متبعا فى مصر. ولهذا هاج هائجهم ورفع علم الثورة على الرغم من أن النظام الذى أدخله محمد على فى كنديا مهما افترضنا نقصه فى بعض نواحيه فانه كان بلا جدال يشتم منه روح الخير وعدم التنطع فى الدين وحب العدالة ورغبة ظاهرة محسوسة فى سعادة الشعب ورخائه مما يشهد له أطيب شهادة (١).

وتهيج الباشا واشتد غضبه لكفران الأهالى بما ينتظر أن تدره عليهم وعلى جزيرتهم هذه المشروعات من الخير وعقد نيته على التمثيل بالمسئولين عن إثارة المشاغب فاصدر أمره باعدام عدد معين من الأفراد إذ ضبطوا بجريمة الحض على الثورة. ولم يكتم الباشا رأيه عن كامبل بانه يتوقع أن يضبط بعض الأتراك متلبسين بالجريمة المذكورة كبعض الأروام وان ضبطوا فلا مفر من إعدامهم أيضا أسوة بالآخرين (٢).

وأخيرا ضبط ولاة الأمور ٣١ شخصا بينهم خمسة من الأتراك وقد اعدموا جميعا. ولقد زعم القنصل الفرنسى (وكان مشهورا بعطفه على اليونانيين

---

(١) كما شهد كامبل بذلك فى ١٠ اكتوبر سنة ١٨٣٣ (وزارة الخارجية ٢٢٨-٧٨)

(٢) كما أورده كامبل فى ١٠ اكتوبر ١٨٣٣ (وزارة الخارجية ٢٢٨-٧٨)

وتعز به لهم) أن المتهمين قد اعدموا بدون محاكمة (١) واغلب الظن أن الباشا كان مقتنعاً بان هـذه المتاعب كانت جميعا من عمل عصبة من المهيجين ولذا استقرت نيتـه على أن ينزل بهم عقابا لا تستطيع احتجاجات الدول العظمى الحيلولة دون تنفيذه ، وهو عقاب ان كان محدودا بحيث لايسوغ تدخل أية دولة من الدول الأوروبيـة الا أنه كان من الفداحة والشدة بحيث يلقى على سكان كنديا درسا قاسيا فان كان هذا ما حسبه الباشا فان التوفيق لم يخنه لأنه لم يعد يسمع بعد ذلك بحدوث أية مشاغب أو قلاقل فى جزيرة كريت .

وعهد إدارة شئون الجزيرة إلى مصطفى باشا الذى ظـل يشرف عليها طيلة سيطرة محمد على على الجزيرة . وقد اجمعت كلمة قناصل انجلترا وفرنسا وروسيا على أن إدارة محمد على الجزيرة كانت ادارة سداها الاعتدال والعدل ولحمتها الانصاف وأنها كانت محبوبة من الشعب كما كان النجاح حليفها إلى أبعد مدى . نعم أن الباشا لم يتمكن من القضاء على التذمر السياسى قضاء مبرما لأن جزيرة كريت كانت ما تزال تعتبر فى نظر المهاجرين من الأروام جزءاً من اليونان ولذا كانت هناك جمعيات عديدة فى الامارة اليونانية تتعطش دائما إلى ضم الجزيرة إلى أرض الوطن القومى كما كان يوجد فى نفس الجزيرة عدد كبير من الأشخاص يحلمون باقتراب اليوم الذى تنضم فيه الجزيرة الى بلاد اليونان أو على الأقل أن تتمكن الجزيرة من الحصول على نوع من الاستقلال .

كل هـذا كان مسلما به ولـكن الجزيرة ظلت هادئة وراضية من وجود مصطفى باشا فى منصة الحكم . ولقد كتب القنصل الروسى يقول « ان الضرائب كانت تدفع بدون إبداء أية مقاومة أو معارضة . وأن الهدوء العام كان مخيما على الجزيرة وأن المجالس البلدية كانت على استعداد فى كل وقت أن تعمل طبقا لرغبات الحاكم مصطفى باشا » (٢) . ولقـد نقل الحاكم فى سنة ١٨٣٨ إلى

(١) كما ذكره كامبل فى ٣١ ديسمبر ١٨٣٣ (وزارة الخارجية ٢٢٨-٧٨) .

(٢) كما أورده شورتوف فى ٣١ ديسمبر ١٨٣٣ (وزارة الخارجية ٢٢٨ - ٧٨) .

بعض أنحاء سوريا لتولى قيادة الجيش الذى أرسل لقمع الفتنة التى نشبت فى تلك الجهات . وقد شهد القنصل الانجليزى بأن « سفر مصطفى باشا كان أشبه بيوم حداد عام لسكان الجزيرة فلقد أظهر سوادهم من تلقاء أنفسهم علامات الود الخالص المنزه عن الغاية والهوى » ولما غادر (خانيا) هرع الى وداعه السكان جميعا شيوخهم وشبابهم والعبرات تخنقهم وكلهم أسفاً على فراقه ويتوسلون إليه أن يعود إليهم بعد إتمام مهمته فى سوريا (١) إلا أنه لا جدال فى أن مصطفى باشا قد تمكن مدة حكمه فى الجزيرة من حماية الأروام وتهدئة عواطف المسلمين وإرضائهم .

ولما كان بالمرستون قد اعتاد ألا ينظر إلى حكم محمد على فى الجزيرة أو الى مشروعاته فيها إلا بعين الارتياب والشك فانه لم يشأ أن يتركها وشأنها . فلقد انتقد حكم الاعدام الصادر على ٢٦ من الأروام وخمسة من الأتراك قائلا : « إذا صحت الأنباء فانه حكم يدل على القسوة والرغبة فى إزهاق أرواح العباد » ثم اقترح اللورد أن يتنازل الباشا عن الجزيرة لحكم السلطان الصالح وقال أنه يمكن حمل جلالته على أن يسن لها دستورا كالذى تتمتع به جزيرة ساموس (٢)

ثم دارت محادثات عديدة بين كامبل من ناحية وكبير وزراء الباشا باغوص بك من ناحية أخرى ولكن محمد على رفض بتاتا الاقتراحات المعروضة عليه وأعلن الباشا ـ بحق ـ أن كريت يختلف شأنها عن شأن جزيرة ساموس فبينما أن سكان الجزيرة الثانية كلها أروام فان جزيرة كريت يسكنها شعب من مختلف الأجناس . ثم أن فيها عدداً كبيرا من الرعايا المسلمين الذين لا يمكن وضعهم عقلا تحت الادارة اليونانية . يضاف الى هذا كله أن حالة الأروام فى الجزيرة تشهد بالبرهان القاطع أن حكم الباشا ليس قاسيا ولا يتنافى مع

---

(١) كما ذكره كامبل فى ٢٤ ابريل ١٨٣٧ (وزارة الخارجية ٢ ٣٤٢ ـ ٧٨)

(٢) كتاب بالمرستون إلى كامبل فى ٣ مارس ١٨٣٤ (وزارة الخارجية ٢٤٤ ـ ٧٨) بان سكان جزيرة ساموس كلهم أروام ويشرف على شؤونها حاكم رومى يوليه السلطان

قواعد التسامح الديني أو العدالة . وعلى ذلك ظلت الأمور تجرى بمجراها الطبيعي لغاية سنة ١٨٤٠ عند ما أضاع الباشا جزيرة كريت كما أضاع سوريا . ولم يتوان بالمرستون لحظة فى العودة الى مشروعه السابق بسن دستور لجزيرة كريت شبيه بالدستور المعمول به فى جزيرة ساموس وهو المشروع الذى يلوح أن اللورد كان متعلقا به كل التعليق . ولعل الخطر فى هذا أن كامبل لما بسط المشروع للباشا لم يبسطه له على وجه الصحيح . ومهما سلمنا بأن كامبل لما عرض المشروع لم يستعمل اللباقة الكافية بل وكان يعوزه الاقناع فلا جدال فى أن الباشا لم يكن ميالا الى إدخال الاصلاحات الحقيقية على أن بونسيني لم يستطع أن يصنع مع الباب العالى أكثر مما صنعه كامبل مع محمد على فان دوائر الاستانة كانت تعتقد كما اعتقدت دوائر القاهرة بأن دستور ساموس غير صالح بالمرة لجزيرة كريت وقد أقر بونسيني هذا الرأى وأيده . ومن ثم بعث الى رئيسه يقول « ان السكان الأتراك فى الجزيرة لا يمكن وضعهم تحت الادارة اليونانية كما لا يمكن التفكير فى وضع حاميات يونانية فى القلاع وإلا كان معنى ذلك استمرار الفتن وتكون النتيجة أن تصبح الجزيرة تحت حكم اليونان أو فرنسا أو روسيا » . ومن ثم تقرر ارجاع الجزيرة الى السلطان دون منحها ذلك الدستور الذى ظن أنه لا غنى عنه لخير الجزيرة ويسرها .

وكان التسامح الديني معمولا به فى سوريا كما كان فى مصر بطريقة لم تكن معروفة حتى المعرفة الى ذلك الحين . ولقد ذهب وفد من العلماء ورجال الدين فى دمشق لمقابلة ابراهيم باشا لبث شكواهم من أن المسيحيين صار يسمح لهم بامتطاء الجياد وأن الفوارق والمميزات بين الكفار وبين المسلمين قد زالت . فأعرب لهم مع شىء من التهكم عن موافقته على وجوب الاحتفاظ ببعض المميزات ، واقترح أن يركب المسلمون فى المستقبل الهجين أو الابل وهكذا يحلون مكانا أرفع من مكان المسيحيين (١) . ولقد سجل روبرت كيرزون

---

(١) كامبل فى ١٧ مارس ١٨٣٤ (وزارة الخارجية ٢٤٥ - ٧٨)

مناسبة محزنة حضر فيها ابراهيم باشا بنفسه الاحتفال بمعجزة النار المقدسة في القدس (١) ولقد كان من جراء هاتين المسألتين : الخدمة العسكرية والتسامح الديني أن ثارت ثائرة الأهالي المسلمين كافة وازداد حنقهم على الحكومة الجديدة ـ وقد أشرنا الى ذلك فيما مر من فصول هذا الكتاب ـ وقد أشار الى هذه الحقيقة (مارمونت) عند زيارته لسوريا فى سنة ١٨٣٤ إذ ألفى كافة الأتراك فيها ساخطين على ابراهيم باشا أشد سخط وأن سخط الأتراك على السلطان فى الولايات العثمانية التى مر بها كان لا يقل عن سخط مواطنيهم الآخرين على ابراهيم . ولقد وصف القنصل الانجليزى فى حلب شعور أهل سوريا بأنه شعور سخط وتذمر لا بل شعور كراهية أيضا (٢) .

وليس من شك فى أن هذا الشعور قد استفحل أمره من جراء تجديد آخر كان يدعو الى القلق ألا وهو السعى لقطع دابر الرشوة فى الأعمال الخاصة بتسيير العدالة وهذه المسألة قد أجمع عليها كافة القناصل الانجليز فى سنة ١٨٣٦ وهم الذين لا يمكن بحال ما أن يستشهد بهم الانسان لتحبيذ ادارة ابراهيم باشا فى سوريا والاشادة بها . ولعل أكبر خصوم ابراهيم بين أولئك القناصل يسلم على الاقل بأن دائرة الرشوة قد ضيقت كثيرا بينما يسلم غيره بأنها ماتزال موجودة وان كان هذا داخل حدود ضيقة جدا فضلا عن أنها لا تزاول إلا خفية عن علم ولاة الأمور . ويقرر قنصل ثالث بأن الرشوة قد زال استعمالها زوالا تاما (٣) فأنت ترى أن كل القناصل قد أجمعوا ـ وإن كان إجماعهم ذلك لم يأت من تلقاء نفسه ـ بأن العدل لم يعد المثل الأعلى الذى لا يطبق على

---

(١) كما ذكره كيرزون فى كتابه (الاديرة والصوامع فى شرق البحر المتوسط) الفصل ١٦

(٢) كما ذكره القنصل بيشيوتو فى رسالته الى كامبل فى ٣ مارس ١٨٣٥ (وزارة الخارجية ٢٥٧ ـ ٧٨)

(٣) كما جاء فى الجواب عن سؤال رقم ٦٠ كما أورده كامبل فى ٣١ يوليه ١٨٣٦ (وزارة الخارجية ٢٨٣ ـ ٧٨)

المسلمين وحدهم . ولقد أسف أحد أولئك القناصل لعدم وجود قانون مكتوب ولكن هو نفسه يسلم بأنه كانت توجد فى المدن الكبرى محاكم كالتى أنشئت حديثا فى مصر يجلس فيها اليهود والمسيحيون القضاة للفصل فى شؤون العباد .

وليس من شك فى أن المرونة كانت إحدى مزايا النظام الجديد وقد كان من حق صاحب الشكوى أن يتقدم بشكواه على حد سواء إما إلى المفتى أو إلى الموظف الإدارى الرئيسى فان اختار الطريق الأول فان الحكم لا ينفذ الا بعد عرضه على الهيئة التنفيذية ولها أن تقره أو ترفضه . واما إن اختار الطريق الثانى فمن حق الموظف الإدارى - ان كانت القضية من القضايا البسيطة العادية - أن ينظرها ويصدر حكمه فيها . اما إذا كانت القضية من قضايا الحسابات المعقدة أو خاصة بالشؤون التجارية احالتها إلى المحاكم الجديدة . فأنت ترى أن نظام العدالة كان يتضمن عنصرا جديدا له أهميته الكبرى هذا العنصر هو أن الخصم الغير مسلم اتسع أمامه باب الرجاء عن ذى قبل فى أن تسمع شكايته بنزاهة ويفصل فيها بما يطابق العدالة . ولعله مما يستحق الذكر هنا أن شهادة الغير مسلم كانت بمقتضى النظام القديم الذى حل محله النظام الجديد لا تسمع ولا تقبلها المحكمة ضد شهادة أحد من المؤمنين الصادقين (١) .

ولقد اجمل أحد القناصل نتائج حكم محمد على فى تلك البلاد فقال انها تضمنت بين ماتضمنته تأمين الناس من الأعمال العرفية ويستثنى من هذا القرعة العسكرية وحماية أملاكهم ووجود نوع جديد من الحرية الدينية وحرية الحياة والمسليات والملاهى وتوزيع الضرائب توزيعا عادلا ، وبالجملة كانت الحالة فى سوريا أقرب إلى الحرية بقدر ما كان يمكن التمتع به فى مثل أية حكومة حرة . وفى رأى القنصل المشار اليه أن الإدارة قد تحسنت من عدة وجوه إلى أبعد من

(١) كما ورد فى الاجابة عن السؤال العاشر وقد ذكره كامبل فى ٣٠ يولية ١٨٣٦ (وزارة الخارجية ٢٧٣-٧٨)

المدى الذى كان ينتظره الانسان على أن القنصل اضاف إلى ملاحظته السابقة قوله « أن الناس لا يقدرون انتظام الإدارة وتحسنها بل تراهم بسبب شعورهم وعواطفهم السابقة أوعاداتهم أوأفكارهم القديمة على استعداد دائما لأن يحولوا تلك الإدارة وتسخيرها فى خدمة مصالحهم الخاصة (١) » ولاحظ قنصل آخر « أن الرأسماليين الوطنيين لا يحجمون الآن عن توظيف أموالهم فى المغامرات التجارية مع أنهم فى الماضى ما كانوا يجرؤون على الدخول فى مضمارها .

ولقد نشطت حركة التجارة وانتشرت التجارة انتشارا هائلا . نعم أن ضريبة الأراضى قد بلغت الثلاثة أضعاف فى بعض الجهات ولكن هذا التغيير كان منشأه زيادة المنافسة على ما قبل . ففى الجهات القريبة من حلب ارتفعت الضريبة لأن الأراضى لم تعد تزرع على أساس المحسوبية وقوة النفوذ كما كانت الحال من قبل وهذا على الرغم من أن الأراضى التى هجرها أصحابها بسبب غارات البدو قد تقرر زرعها من جديد (٢) . وبذلت المساعى لحمل البدو الرحل على إنشاء صلات تجارة ثابتة مع بقية السكان المستوطنين وزحزحة خط الحدود الذى يفصل الصحراء ومنطقة العمران شرقا واقناع البدو أنفسهم من الاهتمام بالزراعة وقد كتب (وبرى) بهذه المناسبة فقال « إذا استمر العمل بهذا النظام فانه كفيل بأن يؤدى إلى أجزل الفوائد وبذا يتم ربط الشعبين السورى والعربى فى غاية سلمية واحدة » .

ولقد أمكن حمل رعاة البدو أن يقضوا جانبا من العام فى الزراعة فى سهل أطنة الغنى المترامى الأطراف وهو السهل الذى يقطنه مثلا خليط من الأناضوليين والتركمان والأكراد والذى كانت الفوضى منتشرة فى انحائه

---

(١) كما ذكره (وبرى) فى الاجابة عن السؤال السابع والعشرين وكما اثبته كامبل فى ٣١ يوليه سنة ١٨٣٦ (وزارة الخارجية ٢٨٣-٧٨)

(٢) كما ورد فى جواب (وبرى) عن السؤال رقم ٩ واثبته كامبل فى ٣١ يوليه سنة ١٨٣٦ (وزارة الخارجية ٢٨٣-٧٨)

من قبل (١) . ويستحيل على المرء أن يذكر بالضبط الى أى مدى تمكن المقارنة بين ما جمع فى عهد ابراهيم من الضرائب وبين ما جمع منها فى العصور التى سبقته .

وليس من شك فى أن الخزانة العمومية قد تضخمت وأصبحت عامرة بما دخلها من صنوف الإيراد وكان جمع الضرائب بانتظام وتحت المراقبة الدقيقة . وقد فرضت على الأقل ضريبة واحدة جديدة هى ضريبة الفردة . وكانت عبارة عن ضريبة شخصية (وتشبه ضريبة الايراد فى انجلترا) وقد أريد بها بادىء ذى بدء تحصيل إيراد وافر فى خلال الحرب .

ولكن محمد على جعلها بمثابة مورد دائم . وكانت فى بدء الأمر بنسبة ٥٠ قرشا عن كل شخص ولكن ما لبث أن خفضت هذه النسبة وجعلت تتراوح بين ٣٠ و ٥٠ بحسب ثروة الفرد المعين . وعلى هذا الأساس كان يفرض مبلغ معين على كل أسرة مع ترك الحرية لأعضائها لتوزيع المبلغ المطلوب بين أفرادها كل على حسب مقدرته . ويقال أنه كان من شأن هذا الترتيب أن الفقراء كانوا يعافون من الدفع فى حين أن الأغنياء كانوا يؤدون ما يزيد عن الغاية القصوى لقيمة الضريبة (٢) .

أما الضريبة المفروضة على الكتابيين وكانت تسمى الخراج خطأ فى سوريا وكريت فقد كان تحصيلها يجرى بمقتضى فرمانات خاصة يصدرها الباب العالى وترسل بعد جمعها الى الاستانة يستعملها الخليفة فى شؤونه الخاصة . وكان معدل الضريبة المذكورة ١٥ — ٣٠ قرشا حسب ثروة الشخص المفروض عليه الضريبة . بيد أن الموظفين المكلفين بجمع هذه الضريبة كانوا يتخذونها دائما

---

(١) كما ورد فى جواب (وبرى) عن السؤال رقم ٢١ وانبته كامبل فى ٣١ يولية سنة ١٨٣٦ (وزارة الخارجية ٢٨٣-٧٨)

(٢) كما ورد فى كتاب وبرى عن السؤال رقم ٨ وانبته كامبل فى ٣١ يوليه سنة ١٨٣٦ (وزاة الخارجية ١٨٣-٧٨)

لحمل هؤلاء الكتابيين على دفع حصة اضافية لهم لاستعمالها فى شؤونهم العائلية ولكن وضعت اجراءات خاصة فى سنة ١٨٣٥ لوقف هذه الاعانات الشاذة المخالفة للقانون (١).

وكانت الأموال الأميرية او ضريبة الاراضى هى المورد المالى الاساسى فى سوريا كما فى البلاد الاخرى. ولكنها لم يراعى فى تطبيقها قاعدة معينة كما أن تحديدها لم يكن بناء على مساحة الاراضى مساحة حقيقية بل كانت الوحدة الاسمية المستخدمة فى مسح الاراضى هى أقصى ما يستطيع (ثوران) حرثه من الاراضى فى خلال يوم واحد وهو نظام كان كفيلا بأن يفتح الباب على مصراعيه أمام التهرب والتحايل. ولم تبذل أية محاولة لوضع ضريبة على العقارات العينية ولكن كان يطلب الى مدير الاقليم أن يجد أموالا قيمتها المبلغ المطلوب فيختصر الطريق بأن يفرض المبلغ المذكور على القرى الواقعة فى مديريته فيعمل الاشخاص على تقاسم المبلغ فيما بينهم

وبالجملة فان أساس الادارة الصحيحة - وهو مسح الاراضى بطريقة منظمة - كان معدوما بالمرة. على أنه كان ينتظر أن حكم محمد على لو استمر لكان الامل عظيما فى أن ينتقل الاصلاح من مصر الى سوريا (٢).

ولا يلوح أنه كان فى ادارة إيرادات الاطيان ما يثير الشكوى ويدعو الى التذمر أو إيجاد الضغائن والأحقاد. ولكن المقتضيات العسكرية التى كثيراً ما أشار إليها القناصل فى تقاريرهم كانت بطبيعة الحال موضع استياء الأهلين فقد كانت السلطات العسكرية تستولى على الحبوب والأرزاق بأثمان هى دون أثمان السوق لتزويد الكتائب الزاحفة. هذا بينما الأشجار الباسقة كانت تقتلع لاستعمالها فى الوقود وتؤخذ الدواب من أصحابها لاستخدامها فى

---

(١) كما ورد فى كتاب ورى عن السؤال رقم ٨ واثبته كامبل فى ٣١ يوليه سنة ١٨٣٦ (وزارة الخارجية ٢٨٣-٧٨)

(٢) كما شهد بذلك كامبل فى تقريره عن سوريا (وزارة الخارجية ٢٨٣-٧٨)

النقل الى مسافات بعيدة . نعم كانت السلطات العسكرية تدفع الى أصحابها أجورا ولكن هذه الأجور قلما كانت كافية للقيام بأود الفلاح لتعويضه عما تجشم من المتاعب فى سبيل تتبع ماشيته والعودة بها الى داره بعد أن تفرغ حاجة السلطة العسكرية ويضاف الى ماسبق تسخير العمال فى بناء القلاع التى كان ينشئها ابراهيم باشا . فقد كانت أجور العمال دون نصف ما كان يحصل عليه فى الأعمال العادية . هذا عدا أن السلطات كان فى وسعها احتجازه للعمل الى أجل غير مسمى (١) .

وقد سارت ادارة ابراهيم فى سوريا من وجوه عديدة ولأسباب كثيرة سيرا هو أبعد من الهدوء والنجاح من ادارة أبيه فى مصر . فليس من ريب فى أن انهماكه فى حركة التجنيد قد نفر منه الطبقات الاسلامية لأن المجندين لم يؤخذوا إلا منها وحدها بينما أدى ما أظهره من التسامح الدينى الى قلق كل متعصب فى أنحاء البلاد وشغل باله . أما الفلاحين والعمال فقد ضايقهم محاولات ابراهيم للاستيلاء على الأقوات والمحاصيل هذا فى حين أن صرامته وشدته قد أدخلتا الرهبة على قلوب الموظفين ورجال الافتاء والقضاء وجعلهم يفرقون رعبا حرصا على مرتباتهم الفادحة التى كانوا يتناولونها منذ زمن بعيد . وفوق هذه الاعتبارات جميعها كان يوجد اعتبار آخر ألا وهو أن الأهلين يعتبرونه حاكما غريبا هبط الى ديارهم بأصيل فى الحكم ومبادىء فى الادارة اقتبسها من مصر . ولقد كان مسلمو سوريا منذ زمن طويل يعتبرون مسلمى مصر دونهم فى الثقافة بكثير فجاء فتح ابراهيم للبلاد السورية بمثابة فرصة أتاحت للمصريين أن يرفعوا عنهم ذلك الازدراء والاحتقار الذى كان ينظر السوريون به إليهم ثم تبين أن الجندى الفلاح لم يكن يبدى من سعة الصدر نحو السوريين مثل ما كان يبديه نحو مواطنيه (٢) نعم لقد ارتأى ابراهيم بأن ينشىء سلسلة مخافر

---

(١) كما جاء فى تقرير كامبل عن سوريا (وزارة الخارجية ٢٨٣ — ٧٨)

(٢) كما جاء فى كتاب دوران السالف الذكر ص ٢٤٠

بين المدن الرئيسية بعضها وبعض لكن لم يكن للناس ثقة بهذه الخافر واستمروا يرسلون بريدهم بواسطة سعاة يستأجرونهم لهذه الغاية (١) .

وثمة مسألة أخرى كانت مثارا للخلاف ومنشأ للصعوبات وهى خاصة بآراء ابراهيم السياسية فانه كان أشد من أبيه تعلقا بفكرة إحياء الخلافة العربية . ولم يكن محمد على ممن يفكرون جديا فى هذه المسألة وان كان قد عرف عنه أنه كان يداعب هذه الفكرة من آن لآخر وقد كانت ميول محمد على روح الاستقلال السياسى وبين اصلاح الامبراطورية العثمانية وهذه الغاية الأخيرة كانت أهم ما تطمح اليه نفسه وكان يلوح له أن العرب عنصر أحط من العنصر التركى وأنه فى حاجة إلى تعليم طويل وشاق . ولذا لم يكن يسمح فى عهده بأن يشغل أحد من العنصر العربى مركزا خطيرا لافى الإدارة ولافى الجيش . أما ابنه ابراهيم فكان على النقيض من ذلك ولذا رأيناه يسرف فى تشجيع العنصر العربى وقد ذكر كاتب فرنسى هو (بوالى كومب) أن خطة ابراهيم هذه قدأدت به إلى متاعب فى الادارة العسكرية وأنه كان يطبعه شغوفا بالمعيشة فى وسط جنوده مع رفع الكلفة بينهم وبينه بل أنه كثيرا ما كان يقوم بالألعاب الرياضية معهم ويتغنى بالعنصر الذى نشأوا من سلالته ويقارنه بالعنصر التركى البليد الساقط . ولقد سأله أحد الجنود العرب يوما كيف يتفوه بامثال هذه العبارات مع أنه تركى صميم فاجابه ابراهيم من فوره بحرارة (كلا لست تركيا . فلقد هبطت أرض مصر وأنا طفل رضيع ومنذ ذلك الحين قد غيرت شمس مصر الدم الذى يجرى فى عروق وصيرتنى عربيا صميما) وكانت حاشيته تردد هذه الآراء . مثال ذلك أن مختار بك كان يجاهر بأنه هو وأمثاله جىء بهم إلى مصر وهم فى المهد وعليه فلا تربطهم بالعنصر التركى أية رابطة وهم

---

(١) كما ورد فى اجابة ويرى على السؤال رقم ١٢ واثبته كامبل فى ٣١ يوليه سنة ١٩٣٦ (وزارة الخارجية ٣٨٤–٧٨)

تابعـون لا للجنس الذى لا يترك الا الخراب وراءه اينما حـل بل لذلك الجنس النبيل الذى أضاء طريق العـالم فى العلوم والاختراعات وغطى أنحاء المسكونة بالمدن الناضرة والتماثيل البديعة التى أقامها على طول المسافة بين بلاد العجم إلى بلاد أسبانيا (١) على أن التغنى بتلك السلالة الوهمية لم يكن من شأنه اقناع الجنود من الجنس العربى الذين كانوا يحرمون من الترقيات لينعم بها رجال يزعمون أنهم (من الناحية الروحية فقط) من سـلالة الجنس الذى انحدروا منهم أنفسهم ومما ضاعف شعور السخط هذا وزاد انتشاره التشريع الذى اقتبسه ابراهيم من القانون الفرنسى بمنع العقوبات العرفية فان أقل توبيخ كان يؤدى فى الحال إلى المطالبة بعقد الديوان (أى اجراء التحقيق بواسطة المحكمة) وكثيرا ما كان الجنود يتوعدون ضباطهم برفع شكايتهم إلى ابراهيم نفسه (٢) .

ولم يك تدهور النظام العسكرى وتضعضعه بالبـلاد الوحيد الذى ترتب على تحمس ابراهيم للجامعة العربية وأخذه بمناصرتها . فانه لم يكن يقتصر نحو ابداء ميوله نحو تلك الجامعة سرا كلا بل كان يتـكلم علنا عن انعاش القومية العربيـة والسعى إلى نظم كل من يتكلمون بلغة الضاد تحت حكم واحد وفتح أبواب وظائف الدولة على مصاريعها أمام أبناء العرب وكذلك تقليدهم اسمى المناصب فى الجيش واشتراكهم معه فى التمتع بنعيم الايرادات العـامة وابهة الحكم وعظمته على أن هذه الآراء والنوايا مهما كانت محبوبة فى مصر كانت تقابل فى سوريا مقابلة أخرى لأن التميز لم يكن بين الأهالى باعتبارهم أتراكا أو عربا كلا بل كانوا يميزون بعقيدتهم الدينية فقط أى أن أهالى سوريا كانوا منقسمين إلى مسلمين ومسيحيين فحسب وعليه فان نظريات ابراهيم لم يـكن

(١) كما ذكر دوران فى كتابه المسمى (مهمة بوالى كومب) ص ٢٤٩ـ٢٥٠

(٢) » » » » » » (» » ») » » — »

من شأنها أن تطمع السوريين فى شىء كانوا محرومين منه فى حين انهم كانوا يكادون يوضعون فى مستوى المسلمين الذين كانوا موضع ازدراء السوريين واحتقارهم أو بعبارة أخرى أن هذه الآراء بدلا من أن تغرس حب ابراهيم فى قلوب الأهالى قد جعلته هو وسياسته موضع ارتياب الشعب السورى .

وفى الحق لم يرزق ابراهيم ما كان لأبيه من هيبة حكم الناس واسلاس قيادهم فان الباشا الكبير كان يعرف بالضبط مواضع الندى ومواضع السيف ومتى يترفق فى القول ومتى يتوعد ومتى يضرب ضربته الحاسمة . فكانت ملاطفته أشبه شىء بالقطيفة الخفيفة التى تكسو براثن النمر . ولم يكن تعوزه الحيلة أو يخونه ذكاؤه لابتكار مختلف المعاذير والتعلات المتعددة لتنفيذ إرادته .

أما ابراهيم فكانت له موهبة واحدة فقد كان جنديا باسلا موفقا وكان مبدأه أن القوة وحدها هى الكفيلة بتذليل المصاعب ولو كان ابراهيم ترك وشأنه لما تردد فى تحدى كلمة أوربا المتحدة ولهدم فى ساعة واحدة ما تجشم أبوه نحوا من ثلاثين عاما فى انشائه وبنائه وإذا كان ابراهيم قد فشل فى اكتساب السوريين إلى جانبه فانه قد نجح فى نشر لواء الأمن والسلام والتسامح الدينى كما أنه وفق فى تقليم أظافر المغيرين وتنشيط الزراعة وتطهير العدالة مما كان عالقا بها من الشوائب والادران كما ساعد على توسيع دائرة التجارة . ولكن مسلمى سوريا لم يذعنوا لابراهيم الا رهبة من جبروته وخشية من سطوته ولذا كانوا يتربصون به الفرص الملائمة لخلع يده والتخلص من حكمه والعودة من جديد الى ولائهم السابق واستعادة ما كان لهم من السيطرة التقليدية على المسيحى المكروه وغسل عار ذكرى غلبة المصريين وفتحهم لسوريا .

الخـــاتمة

كانت أزمة سنتى ١٨٣٩-١٨٤٠ خاتمة النشاط فى حياة الباشا الكبير وإن كان قد سلخ بعد ذلك حقبة زمنية بأكملها وهو يحكم مصر فان العبء كان ثقيلا وخيبة الأمل من الفداحة بحيث لم يستطع أن يضمن ذلك الشيخ الهرم الذى جاوز السبعين فعلى عاتقه وحده كان عبء المسؤلية وبذل الجهود واتخاذ القرارات الحاسمة وتدبير الرأى ولم يكن يعرف طعم الكرى . كما أن أعصابه قدأصبحت متعبة إلى حدأنه كان كثيرا ما كانت تنتابه سورةُ الغضبالشديد على أنه حتى بعد أن مرت الأزمة وضعفت مرارة خيبة الأمل فان اعصابه قد ظلت متعبة برغم ما كان يبدوعليه من علامات الصحة الجسمانية (١) وفى منتصف عام ١٨٤٤ ثقل عبء السنين على عاتقه بكل مزعج وكان من نتيجته هذا الحادث المرعب .

ففى احدى الليالى وهو فى الاسكندرية بعد أن فرغ محمد على من المجلس الذى دارت فيه مناقشات حادة بينه وبين كبار رجال دولته آوى إلى مخدعه ولكن الأرق قد تملكه ولم تذق عينيه النوم مطلقا .

وفى الصباح الباكر غادر فراشه وولى وجهه شطر قاعة الاستقبال وكانت خالية طبعا لأن أحدا من الوزراء لم يكن موجودا فى مثل تلك الساعة المبكرة وإذ ذاك استلقى محمد على على « الكنبة » وأجهش فى البكاء والعويل بحالة عصبية مسموعة .

وبعد برهة قصيرة أرسل فى احضار طعام الافطار ولكنه لم يتناول منه شيئا عندما أحضر اليه .

(١) كما ذكره (بارنت) فى ١٨ اكتوبر سنة ١٨٤١ (وزارة الخارجية ٨٧-٤٠١)

وقد رفض تناول قدح القهوة كما رفض تدخين « الشبك » وبعدما يقرب من الساعة طلب الباشا المركبة وبدأ ينزل درج السلم وكان الوزراء قدحضروا جميعا على عجل وقد ظلوا واقفين أمام مولاهم دون أن يجرأ أحد على الدنو منه .

فما كاد بصره يقع عليهم حتى صاح فيهم بانهم قدخانوه جميعا وأنه قد عقد النية على أن يغسل يديه من كل شيء وأن يغادر الديار لحج بيت الله الحرام .

ثم تولى عنهم قاصدا البيت الخلوى بقرب الترعة المحمودية الذى كان يقصده كلما أراد أن يستقل الباخرة ذاهبا إلى القاهرة . ولما لم تكن الباخرة قد اعدت له أغلق الدار وبقى فيها بنفسه . وكان كل جوابه على القنصل الفرنسى عندما حضر مستفسرا عن الخبر الذى يمكن أن يبعث به الى حكومته هو « ما فات فات والمقدر لا بد من نفاذه » وفى اليوم التالى استقل الباخرة وعند وصوله القاهرة حبس نفسه فى قصره بشبرا بقرب النيل وهرع اليه كلوت بك ليسهر على راحته ولكن الباشا كان ما يزال فى حالة هيجان عصبى حتى أنه ما كان يستطيع أن يدنى قدح القهوة من فمه كما كان لم يكن يسعه التنقل من حجرة إلى أخرى بدون أن يتكىء على ذراع أحد من رجال الحاشية (١) .

ومع ذلك ففى الوقت الذى توقع فيه الناس أن تنشب المنية أظفارها فى الباشا أو يصبح على الأقل عاجزا عن إدارة دفة الأمور فان ما ناله من الراحة وعناية كلوت بك وموالاته السهر على راحة مولاه وفوق ذلك كله قوة بنية الباشا الخارقة للعادة كل ذلك قد مكنه من استعادة صحته وقد فارقه الهم والوسواس وعاد ذهنه إلى سابق صفائه . ومن ثم عدل عن مشروع الحج إلى بيت الله الحرام وقضى بالغرامة على كل وزير يثير حفيظته وغضبه (٢) .

---

(١) ستودا فى ٦ اغسطس سنة ١٨٤٤ (وزارة الخارجية ٥٧٢ ـ ٧٨)

(٢) ستودا فى ٧ اغسطس ١٨٤٤ (وزارة الخارجية ٥٨٢ ـ ٧٨)

وفى الوقت نفسه أخذت صلات الباشا ببريطانيا العظمى فى التحسن تحسنا محسوسا ويرجع سر ذلك إلى سقوط وزارة الأحرار فى سنة ١٨٤١ وقد أبدى كل من (بيل) و (ابردين) رغبتهما فى تسوية العلاقات وتحسين الصلات ولم يحجما عن الاعراب عن استهجانهما لسياسة الوزارة السابقة . وفى سنة ١٨٤٣ عقدت الحكومة الانجليزية العزم على أن تهدى محمد على بسفينة بخارية كدليل على شكر الشعب الانجليزى وتقديره له (١) واهدته شركة الهند الشرقية بنافورة من الفضة الخالصة (٢) وبعثت له جلالة الملكة بصورتها فى اطار رصع بالأحجار الكريمة (٣) وأنعم عليه حوالى الوقت نفسه ملك فرنسا بنشان جوقة الشرف (اللاجيون دونير) (٤) وذهب ابراهيم باشا فى زيارة فرنسا وانجلترا حيث استقبل فيهما استقبالا حافلا وقد أظهر أنه لايتأخر عن نخب أى انسان وقد صرح محمد على أنه سيحتذى حذو ولده ابراهيم . وقد أكد له عدوه الالد القديم لورد بالمرستون الذى عاد إلى منصب وزارة الخارجية بأنه إذا حضر لانجلترا فلسوف تقابله جلالة الملكة المقابلة الحافلة التى يستحقها وأنه يمكنه أن يعتمد على حسن الاستقبال من حكومة جلالة الملكة له (٥) .

وشاءت المقادير الا تقع هذه الزيارة ولكن الباشا شد رحال السفر فعلا الى الاستانة سنة ١٨٤٦ حيث قوبل مقابلة حارة ثم (بعد زيارة قصيرة إلى مسقط رأسه فى مدينة قوله) وهو يتمتع بصحة جيدة ومنشرح الصدر انشراحا

---

(١) بورنج الى بوغوص بك فى ١٥ يونية سنة ١٨٤٣ (محفوظات عابدين)
(٢) بارنت فى ١٧ اغسطس ١٨٤٥ (وزارة الخارجية ٦٢٣-٧٨)
(٣) » » ٢٣ سبتمبر » » » »
(٤) » » ٤ نوفمبر » » » »
(٥) كذا جاء فى كتاب الى مرى فى ١٧ نوفمبر ١٨٤٧ (وزارة الخارجية ٧٠٦-٧٨)

لم يتمتع به منذ سنة ١٨٤٠ وقد تواترت الاشاعات بأنه وزع على كبار الناس فى الاستانة ما يقرب من ربع مليون جنيه (١) على أن هذا كان خاتمة أعماله لأن إدارة البلاد ابتداء من سنة ١٨٤٧ فصاعدا أصبحت فعلا فى يدى ولده ابراهيم لأن الباشا نفسه كان قدتغلبت عليه الشيخوخة الحقيقية . ولقد انتقل ابراهيم باشا الى العالم الآخر فى نهاية سنة ١٨٤٨ أى بعد أسابيع قليلة من تلاوته (الخط الشريف) بتعيينه واليا على مصر بعدأن أقعدالمرض والشيخوخة والده عن ادارة البلاد (٢) ثم خلف ابراهيم عباس الأول . وهنا لا بد أن نقول أن ابراهيم احتفظ بجميع تقاليد أبيه ولكن سرعان ما تغيرت الأمور بجلوس عباس على الأريكة وتحولت الدنيا الى دنيا جديدة تختلف كل الاختلاف عما كانت عليه فى عهد سلفه الكبير فان محمد على كان حريصا كل الحرص على الاعتدال فى نفقاته الخصوصية ولكن عباس كان لا يرى أن هناك ما يستحق الانفاق أو اضاعة الأموال عليه ، وقد كتب القنصل البريطانى العام وقتئذ بمناسبة ذلك فقال « ان عباس أصبح يشيح بوجهه عن المشروعات التى بدأها الباشا الكبير واحدا تلو الأخرى فقد أغلق المدارس واستغنى عن المصانع وأنى اتوقع الآن أن أسمع أنه سيعدل قريبا عن مشروع القناطر الخيرية الذى أثار لغطا كبيرا فى أوربا فلقد كلف المشروع الخزانة إلى الآن ما يقرب من المليونى جنيه ولا يحتاج الى اتمامه أكثر من نصف مليون وبينما يضن عباس بالأموال على أمثال هذه المشروعات الحيوية نراه يبدرها يمينا وشمالا فى تأثيث القصور وتقديم الهدايا الثمينة الى أقارب السلطان فى الاستانة هذا الى انه شرع يتكلم عن ابتياع عدد من البواخر كانت فى زعمه

---

(١) ستودارت تحت رقمى ٧ و ٨ فى ٢٩ اغسطس سنة ١٨٤٦ (وزارة الخارجية ب ٦٦١-٧٨)

(٢) أنبته مرى فى ٤ اكتوبر والمرفقات فى ١٥ نوفمبر ١٨٤٨ (وزارة الخارجية ٧٥٧ - ٧٨)

عديدة وزهيدة الثمن كثمر التين (١).

ولحسن الحظ لم يكن محمد على يعرف ماهو جار خلف الستار ولا يدرى أن عباس الأول قد أطرح كل مشروعاته النفيسة لترقية البلاد ظهريا الواحد تلو الآخر. وأحسب أنه لو كان علم بذلك لصدم صدمة دونها صدمة الشيخوخة وما ينتابه من الألم الجثمانى. وأخيراً بعد حياة حافلة لحق بربه وهو فى سن الثمانين. وكانت وفاته فى اليوم الثانى من شهر اغسطس سنة ١٨٤٩ ثم نقلت جثته من القصر الى الطريق الذى سلكه من قبل فى سنة ١٨٤٤ وهو مشوش الفكر ثم بترعة المحمودية فنهر النيل الى بولاق بالقاهرة وكان فى استقبال الجثة كافة أفراد الأسرة الباقين على قيد الحياة ولم يتخلف سوى عباس.

وسار موكب الجنازة البسيط ميمما شطر المكان الذى اختاره محمد على منذ سنوات ليكون مثواه الأخير فى المسجد الجديد الذى بناه بالقلعة حيث يطل الانسان على العاصمة الكبيرة ومجرى النيل ومن خلفها الاهرامات. وبهذه المناسبة كتب القنصل الانجليزى العام بعبارة بليغة وبتأثر غير مألوف فقال «إن ماتظهره كافة طبقات السكان فى مصر من الحب والتمجيد لاسم محمد على يسمو فى روعته عن أى موكب جنازة اجتمع لخلفه فلا يزال الشيوخ من السكان يذكرون فضل محمد على فى تخليص البلاد بما كان فيها من الفوضى والاضطرابات. أما الشبان منهم فانهم مافتئوا يقارنون بين عهده النشيط وعهد خلفه القائم على التردد والتذبذب وأخيرا فان سائر الطبقات بما فيها الأتراك والعرب لا يحسون فقط بل يخشون التصريح علانية بأن يسر مصر ورخاؤها قد انقضى بوفاة محمد على .. وفى الحقيقة ليس من سبيل إلى إنكار أن محمد على كان برغم غلطاته رجلا عظيما».

فلقد استطاع دون أن تكون له مزية رفعة الحسب أو الثروة المدخرة

---

(١) كما ذكره مرى فى كتاب خاص الى بالمرستون فى ١٦ ابريل سنة ١٨٤٦ وزارة الخارجية ٧٨ — ٨٠٤)

أن يشق طريقه إلى السلطان والشهرة العالمية لا معتمداً إلا على عزيمته التى لا تفل وقوة مثابرته وفرط ذكائه . ومع أن محمد على كان يخفى أعمال القسوة بين آن وآخر فانه لم يكن قاسيا بطبعه وكان يحب الشهرة والسلطان حباً عظيما وفيما عدا ذلك لم يحفل بالمال إلا باعتباره وسيلة لتحقيق الأمانى العظيمة » . وكثيرا ما سمع القنصل العام أكثر من واحد يتمنى فى خلال مرض محمد على الأخير « ان لو اقتطع الله جل وعلا عشر سنوات من عمره عن طيب خاطر إلى عمر الباشا الكبير » ولما هبط إلى حلب أو دمشق أو أى من المدن التى كانت تحت نير السلطان مباشرة حيث لم يكن الفرد المسيحى مطمئنا على نفسه من الأذى أو الاهانة أصدر محمد على أمره بأن يسمح لأى مسيحى أو أوربى بأن يسير فى شوارع القاهره بلا سلاح وبدون أن يتعرض لأى خطر كما كان يفعل لو كان فى لندن وقد ختم القنصل العام رسالته باعتذار لا لزوم له عن تحمسه لمحمد على فقال « وأغلب الظن أننى لم أستطع أن أقاوم كلية ما كان للباشا من التأثير فى نفوس الذين كانوا على اتصال به بفضل تربيته السامية وأخلاقه الجذابة » .

ثم ماذا يكون حقه فى ذكرنا إياه .. لقد كتبت على الصفحة الأولى من هذا الكتاب كلمة من كلمات محمد على قارن فيها بين ماعمله فى مصر وبين ماعمله مواطنو الهند .. وعندى أن وجه المقارنة غير تام ولكن هذه الكلمة تنطوى برغم ذلك على جزء من الحقيقة أكبر بكثير من ما يود الانسان التسليم به بادىء ذى بدء ولكن ثمة وجوه كثيرة للشبه بينه وبين رجال الادارة الانجليز الذين أسسوا تلك الشركة فى الهند . وقد رأى نفسه مثلا كما رأى أنفسهم يحكم ولايات تابعة لامبراطورية بائدة تعيش فى ظلال مجد قد انقضى العهد الذى يبرر وجوده اللهم ماعدا ذكريات العظمة البالية ثم أنه كمثلهم كان يضيق ذرعا بخرق الرأى المبنى على الرشوة السائدة فى البلاط الامبراطورى الذى يصر على ألا يرى إلى أبعد من الظروف الحالية المحيطة به وقد سعى كما سعوا فى نيل

الاستقلال إرضاء لمطامع شخصية بلا جدال ورغبة منه فى أن يبقى اسمه تردده الأجيال المقبلة جيلا بعد جيل ولكن أهم باعث على السعى لنيل هذا الاستقلال هو كرهه للفوضى والرشوة وفساد الحكم.

وقد طمح الباشا كما طمح رجال الادارة فى الهند إلى أن يتمتع بالحرية ليتسنى له إيجاد نظام جديد للادارة خير من النظام السابق ولكن ما كان عليه وهو يسعى لتحقيق هذا أن يواجه كثيراً من المصاعب التى تعترض طريقه وهى مصاعب تختلف كل الاختلاف عما كان يواجه حكام الأقاليم فى الهند لأن ما كان على الآخرين أن يواجهوه لم تزد عن المعارضة التى كانت تأتى من ناحية هيئات ضعيفة فى داخل حدود الهند نفسها أو من ناحية منافسين أوربيين لم يكن فى استطاعتهم اختراق نطاق المراقبة البحرية القوية المبثوثة فى المياه الشرقية.

ولكن سياسة محمد على كانت تسير فى اتجاه مضاد لرغبات الدول العظمى التى كانت نار الحسد مشتعلة بين بعضها وبعض بحيث لا يمكنها الاتفاق أو جمع كلمتها على هدم الامبراطورية العثمانيه لا على أيدى إحدى هاته الدول ولا على يدى دولة أخرى عداها. ثم أن الفرصة الوحيدة التى كان يمكن حقا أن تحقق للباشا الحصول على حريته وهى فرصة وجود حرب أوربية عامة لم تسنح مطلقا. فاذا كان محمد على قد أخفق فى إنشاء امبراطورية عظيمة كما فعلت شركة الهند الشرقية فليس ذلك مرجعه عدم مهارة الباشا ولا عدم مثابرته. كلا لأن الحظ والقوة اللذين كانا من نصيب الشركة قد أخطآه. فلم يكن له سبيل إلى الفرار من الضغط الهائل الذى وضعته الدول الأوربية العظمى.

على أن وجه المقارنة فى هذه المسألة — أى مسألة السياسة الخارجية — ليس مما يلفت النظر كما هو الحال فى شئون الادارة الداخلية والخارجية فان المهمة التى اضطلع بها الباشا كانت تشبه من وجوه متعددة المهمة التى اضطلعت بها الشركة فان حكومة مصر كحكومة البنغال أو حكومة الكارناتك لم يعد فى

استطاعتها أن تزعم أنها تعمل للصالح العام ذلك لأن الحكام والأعوان لم تعد لهم مهمة إلا اقتناص المصالح الشخصية . ونظراً لأن الرعية لم تكن منتظمة التنظيم الكافى فانها كانت تقاوم مطالب الحكام مقاومة صامتة منفرقة وعلى غير طائل وقد أصبحت العدالة مجرد صدفة من الصدف السعيدة . وتلاشت الحماية ولم يك ثمت ما يراقب حركة الشاهدين . وبديهى أن إنشاء إدارة على أساس عفن ومتداع كهذا الأساس كان من أشد المهام السياسية . على أن هذا الانشاء لم يتم إلا بعد ارتكاب عدة غلطات .

يضاف إلى كل هذا أن أنواع ما قام من النظام الادارى فى مصر أو فى الهند كانت متشابهة وقريبة بعضها من بعض . فلقد كان النظام فى كلا البلدين نظاما أوتوقراطيا مستندا الى الحكم الفردى المطلق المحدود فقط بما يتحلى به الحاكم المفرد من المبادىء الأدبية بمعنى أنه كان كما يشاء السيد المطاع والمالك لزمام كافة الأراضى والتاجر الأكبر . وعليه كانت المسائل الأساسية التى واجهت محمد على وموظفى الشركة الاولين وهى إلى أى حد يتفق مع العدل وخير البلاد يمكن تحديد هذه السلطة الواسعة وإلى أى مدى يمكن تطبيق دروس التجارب الغربية على الأحوال السائدة فى الشرق .والتى تختلف كل الاختلاف عن أحوال الغرب . ولعمرى لقد كان البت فى بعض هذه المسائل لا فيها كلها أسهل على الباشا منه على الشركة الهندية هذا بينما كان يعتبر سكانها من جنس واحد تقريبا إذا قيسوا بالأجناس المختلفة فى الهند ثم أن نظامها الاجتماعى كان بعيداً عن التعقيدات الناشئة عن الأنظمة الطائفية الهندية . وفوق هذا كله لم يكن سكان مصر منقسمين إلى مذهبين دينيين متنافسين كما هى الحال فى الهند ولكن يذكر فى مقابل هذه المزايا الكبيرة التى تتمتع بها مصر نقص كبير وهو عدم وجود معين لاينضب من الرجال يعتمد عليهم فى تنفيذ مايصدر إليهم من الأوامر . وفى الواقع أن نظام الادارة فى عهد الباشا كان يختلف عن نظام الشركة فى الهند بعدم وجود هيئة الخدمة المدنية كما هي

الحال فى الهند وأحسب أنه لا يمكن عدلا تشبيه مصر فى عهده بالهند فى عهد بتنك . ولكن قد يمكن المقارنة بينهما فى أوائل عهد الشركة بحكم الهند أى الوقت الذى لم يكن تطورت فيه مزايا موظفى الشركة فى البنغال مثلا أثناء حكم « كليف » أو « هاستنجز » .

هذه الحقيقة وحدها كانت كافية فى إيجاد الفوارق بين نظام ادارة ايراد الأراضى لدى حكومة الباشا ولدى الشركة الهندية فان محمد على لم يخطر له طبعا أن يعمل على وضع تسوية دائمة للموضوع ولكن سياسة كورنواليس الخاصة بالإيرادات لم تكن أكثر من مجرد سياسة محلية مشوشة لم يلبث أن طرحت ظهريا فى جميع الجهات ماعدا الجهة التى نشأت فيها تلك السياسة وإذا مااستثنينا تعيينه المحاصيل التى ينبغى زرعها فى بعض الجهات فان أساليبه كانت كثيرة الشبه بما كان متبعا فى مقاطعة مدراس مثلا . فتحديد ضرائب فادحة موضوعة على نسبة ما يمكن دفعه فى السنوات التى تكثر فيها غلة الأراضى لا فى السنوات العادية وعجز المزارعين عن دفع الضرائب المختلفة عليهم واستعمال الكرباج لحمل المزارعين على الدفع ، كل هذه الأساليب كانت مستعملة فى بعض المقاطعات الهندية لا قبل بداية الحكم البريطانى فقط بل وفى أوائله أيضا لا بل أن المبدأ القائل بملكية الأراضى للدولة نادت به الشركة وطبقته منذ زمن بعيد قبل ظهور الحكم البريطانى .

نعم لم يكن فى وسع الهند البريطانية أن تقدم ما يشبه نظام التجنيد الذى سنه محمد على فى مصر ولكن هذا التجنيد لم يكن مايقتضيه فى الهند وهذا فضلا عن أن أحداً لم يسعه أن يتصوره أو يدركه . أولا أنه لم يكن ضروريا لأن عدداً كبيراً لهذا كان يحمل السلاح مكرها ، وثانيا كان غير مفهوم لأن العادة والنظام الاجتماعى كانا يحتمان ألا يحمل السلاح إلا طبقات معينة فقط من الأهالى . ولعل الفائدة لم تكن كلها الى جانب الهند فى مسألة كهذه .

ومسألة أخرى هى أن موقف الباشا كان أشد أوتوقراطيا فى الظاهر من

الحكام الذين كانوا يعملون باسم الشركة الهندية بمعنى أنه لم يكن يتردد فى تنفيذ إرادته ولو بأقسى الوسائل إذا اقتضى الأمر ذلك ومن جهة أخرى لم تكن تفرق بينه وبين شعبه تلك الفوارق الدينية أو الثقافية التى كانت تفرق حكام الشركة عن أمراء الهند ولم يكن يقتصر على إرغام رجاله على الانخراط فى سلك جيشه فحسب بل كان يحملهم أيضا على زراعة القطن وقصب السكر وشجر التوت وأن يبعثوا بأولادهم الى المدارس وأن يقوموا بكل ما يظنه صالحا لخير الدولة وليس يسع أحد أن يوجه إليه شيئا من اللوم فى ذلك إذ لم يكن ثمت سبيل للقيام بالاصلاحات التى كان ينشدها .

ثم انه كثير الحذر والتأنى . ولعل ذلك كان من أهم مزاياه فى طبع النظام الإدارى بالطابع الغربى لأن المزايا المادية متى أدركت مرة فليس يسع الانسان إلا التسليم بها .

أما المزايا الأدبية فقد كان يعرف أنها مما لايدركه الانسان إلا تدريجيا لذلك لم يكن الباشا مستعجلا لحكم البلاد بالأساليب الغربية فلم يحاول ، كما فعل كورونواليس فى الهند ، أن يعطل بين الهيئة القضائية والهيئة التنفيذية أو أن يسن قانونا جديدا قد لا يستطيع الشعب تفهمه . كما أنه لم يحاول البتة أن يغير أساس الادارة من تنفيذى إلى قضائى ولكنه لم يسكت عن عمل كل ما أمكن عمله لتطهير العدالة مما كان عالقا بها من الأدران والاشراف على المحاكم القديمة وإدخال محاكم جديدة أكثر انطباقا على روح العصر . ثم أنه لم يحاول شيئا فى سبيل انشاء معاهد تشريعية ولكنه لم يتوان عن بذل كل ما فى سعته لتحسين تصريف الأعمال العامة عن طريق النقاش وأن يجمع فى صعيد واحد ممثلى الطبقات المختلفة الذين يساعد تبادلهم الرأى على تسهيل الأعمال العامة وأخيرا عنى بانشاء المدارس وإرسال البعثات المختلفة إلى أوربا على أن يجعل شعبه على اتصال بالآراء والثقافة الغربية وأن ينشىء جيلا جديدا قد أشربت نفسه حب الآراء الصحيحة والمدارك السامية من الواجبات السياسية

أكثر من الجيل الذى كان يعمل معه .

ولعل الباشا فى ذلك كله كان ملهماً تمام الالهام أكثر بكثير من الانجليز الذين كانوا يعملون على تلقين الهنود عامة الآراء الانجليزية والثقافة الغربية ولعل سوء حظه الحقيقى انحصر فى انه كان فردا بعينه لا نظاما معينا . وإذا كان الجيل بعينه أن يضع الأسس فلا غنى عن أجيال أخرى لرفع واجهة البناء ورفعها عاليا ولقد أمعن خلفاؤه الأولون فى النكث بعهده وتجاهل أعماله وإطراحها ظهريا لا بل لقد كانوا فى كثير من الأحوال يعملون على فشل الغاية من هذه الأعمال وإذا كان الخلاف بين عهد « بنتنك » وعهد خلفائه فى الهند كان تافها فانه على العكس من ذلك بين محمد على وعباس الأول مثلا فقد كان الخلاف لا يتناول فى الحالة الثانية الغاية وحدها بل والخطة أيضا وفى الحق أن اعمال محمد على قد تعرضت لهزة عنيفة كما لم تتعرض لها أعمال أحد الحكام العموميين فى الهند لذلك لم يكن عجيبا أن نرى الكثير منها قد اندثر وراح هباء . وبالرغم من ذلك كله فان من الواضح أنه هو الذى أنشأ مصر الحديثة وجعلها على اتصال جديد نافع بالغرب ، وليس من ريب فى أن هذه الناحية من عمله لا يمكن لأحد أن يغيرها ، وإذا كان قد كتب له النجاح والتوفيق ، ذلك لأنه طبع الشعب الذى يحكمه بطابع الغاية النبيلة التى ينشدها ويعمل على تحقيقها ولا تزال تقاليده حية إلى الآن برغم مرور نحو قرن كامل !!

فهرس

صفحة

المركز القومى للترجمة

المشروع القومى للترجمة



الإشراف اللغوى : عبد الرحمن حجازى

الإشراف الفنى : حسن كامل

تصميم الغلاف : عمرو الكفراوى

تم طبع هذا الكتاب من نسخة قديمة مطبوعة